



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور الجلفة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل: DOC 1721SHS17028

الحياة الثقافية في الجزائر من خلال الكتابات الأجنبية -دراسة مقارنة-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في التاريخ الحديث

إشراف الأستاذ الدكتور:

أ.د. بوابح محمد الشيخ

إعداد الطالبة:

لبصير سلاف

أعضاء لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة	الصفة	المؤسسة الأصلية
أ.د. هزرشي بن جلول	أستاذ التعليم العالي	رئيساً	جامعة زيان عاشور الجلفة
أ.د. بوابح محمد الشيخ	أستاذ التعليم العالي	مشرفاً ومقرراً	جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة
أ.د. الهادي عامر	أستاذ التعليم العالي	ممتحنا	جامعة زيان عاشور الجلفة
أ.د. لباز الطيب	أستاذ التعليم العالي	ممتحنا	جامعة زيان عاشور الجلفة
أ.د. بوعزة بوضرساية	أستاذ التعليم العالي	ممتحنا	جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريبيج
د. حمداني محمد علي الأمين	أستاذ محاضر أ	ممتحنا	جامعة باتنة 1

السنة الجامعية: 2023-2024م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كلمة شكر

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ سورة إبراهيم، الآية 9.

نحمد الله الذي بفضله تتم الصالحات والحمد لله أولا وآخرا الذي
منحني القوة والجهد، لإنجاز هذا العمل المتواضع.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأستاذ المشرف، كما أشكر
أساتذتي كل من الدكتور بلقاسم قداش من جامعة أم البواقي، كان
لهما الفضل الكبير، حيث لم يخلوا عليّ بالنصائح القيمة
والتشجيعات المحفزة، فجزاهم الله عنا خير الجزاء
والشكر موصول أيضا إلى كل أساتذتي الأفاضل الذين قدموا لي العلم
طيلة مشواري الدراسي

أيضا كل عمال المكتبات والأرشيف على المساعدة وسعة الصدر
والصبر معنا.

فشكرا لهم جميعا



الإهداء

أهدي ثمرة جهدي هذه إلى الوالدين الكريمن أطال الله في
عمرهما وأمدهما بالصحة والعافية

إلى أبنائي الأعزاء

إلى إخوتي الأعزاء وأخواتي العزيزات وكل أفراد عائلتي
وكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل المتواضع من قريب أو
من بعيد وكل المهتمين بالبحث التاريخي.

لبصير سلاف

قائمة المختصرات:

أ- بالعربية:

ج	ش.و.ن.ت	جزء
ص	صفحة	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
ص ص	صفحات متتالية	صفحة
ط	طبعة	طبعة
ط.خ	طبعة خاصة	طبعة خاصة
ع	عدد	عدد
م	ميلادي	ميلادي
مج	مجلد	مجلد
هـ	هجري	هجري

ب- بالفرنسية:

N	Numéro
P	Page
pp	Page successives
R.A	Revue Africaine
T	Tom
Op.cit.	opus citatum (une source déjà citée)
Ibid.	Ibīdem (document a été référencé immédiatement)
Vol	Volume

مقدمة

سمحت الظروف السياسية، العسكرية والاقتصادية لإيالة الجزائر في الفترة العثمانية، بانفتاح مدينة الجزائر عاصمة الإيالة على الفضاء الدولي المتوسطي والعالمي، كما أن الدور الذي كان يقوم به الأسطول الجزائري في حوض البحر الأبيض المتوسط من خلال ما عرف بالقرصنة بـ"الجهاد"، أو النشاط البحري، قد سمح لفئة من الأوروبيين بالاستقرار في المدينة عندما أصبحت السفن التي ترسو بميناء الجزائر الملاي بالبضائع المتنوعة من كامل أرجاء أوروبا والعالم، تحمل على سطحها أيضا عدد لا يحصى من الأجانب الأوروبيين خاصة، بمختلف مشاربهم، انتماءاتهم مكانتهم الاجتماعية، والذين قضى البعض منهم في مدينة الجزائر وبعض مدن الإيالة فترات متفاوتة استمرت لدى البعض لسنوات طويلة استطاعوا من خلالها الاحتكاك والتفاعل مع هذا المجتمع العربي المسلم الذي يعتبر جدير بالتعرف والاكتشاف فحرص الكثير منهم على تسجيل كل ما شاهدوه وسمعوه ولاحظوه، أثناء فترة زيارتهم الاختبارية أو الإيجابية للجزائر، أثناء فترة زيارتهم الاختبارية أو الإيجابية للجزائر مما شكل بالنسبة لهم أرضية خصبة لتدوين ظروف معيشتهم في المدينة، وكل ما أحاط بها من ظروف سياسية، اقتصادية وثقافية، وبهذا الشكل قدمت هذه الكتابات مادة تاريخية غزيرة ومتنوعة لدراسة مرحلة هامة من تاريخ الجزائر وهي "الفترة العثمانية" استمرت على امتداد ثلاثة قرون (1518-1830).

وقد تضمنت هذه المصادر معلومات وملاحظات ثرية عن عمق المجتمع الجزائري بمختلف فئاته، وهو ما أهلمت جانب كبير منه أغلب المصادر المحلية المعاصرة لتلك الفترة، وهو ما يجعلنا نقول إن الاختلاف الثقافي والانتماء الديني والسياسي قد دفع هؤلاء الأجانب إلى تدوين كل ما هو مثير وغريب بالنسبة لهم من عادات، طقوس وشعائر ومختلف أساليب الحياة العامة.

وباعتبار أن جوهر هذه الدراسة يقوم على الجانب الثقافي الذي اختلف عديد علماء التاريخ والأنثروبولوجيا في ضبط تعريف دقيق ومتناسق، وبعيدا عن التعريفات التي جاءت بها المدرسة الفرنسية في القرن 18م، اعتمدنا على ما أورده المفكر الجزائري مالك بن نبي في هذا الشأن الذي ذكر أن تفسير وتعريف الثقافة في كل مجتمع يقوم على قواعد ومقومات خاصة فلا مجال من المغامرة لاقتباس حل أجنبي، ذلك لأن كل مجتمع يعكس تعريف لثقافته¹، ونستنتج في الأخير أن الثقافة هي أسلوب حياة،

¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 37.

طريقة تفكير، نمط وسلوك، يعيشها أي مجتمع بمظاهر متنوعة تشمل عادات، أعراف، ومواقف، مؤسسات.

وعلى ضوء ذلك حاولنا من خلال هذه المصادر اكتشاف كل ما له علاقة بالمجتمع الجزائري خلال هذه الفترة، فقد اهتم الأجانب عادة الذين زاروا الجزائر بتقديم جوانب من الحياة الثقافية للمجتمع الجزائري، لا سيما مجتمع مدينة الجزائر بحكم استقرار أغلبهم فيها.

وفي هذا الإطار يندرج موضوع دراستنا الموسوم بـ"الحياة الثقافية في الجزائر من خلال الكتابات الأجنبية"، خلال الفترة العثمانية ولعل قلة الدراسات المتخصصة لتقصي التاريخ الثقافي للجزائر خلال هذه الفترة جعله من المواضيع المهمة والجديرة بالبحث والدراسة، لما يحتويه من تساؤلات إشكالية عديدة بل وتضارب في الروايات أحيانا، لذلك الجدير بالباحث محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات في حدود المقاربة التاريخية التي تتحرى البحث والدقة في مختلف المصادر ومقارنة هذه المعلومات مع ما جاءت به بعض المصادر المحلية، والتي على قلتها أحيانا وانحصارها أحيانا أخرى، مما يصعب المهمة ويجعل الباحث عاجز في مثل هذه المواضيع عن إعطاء صورة شاملة وواضحة عن جوانب من ثقافة المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة، بالنظر إلى مختلف المؤثرات الداخلية والخارجية التي عملت على تحريك هذا المجتمع في مختلف مراحل فترة الوجود العثماني في الجزائر.

وعليه لاحظنا منذ البداية أن التطرق لمثل هذا الموضوع هو من المسائل الصعبة والشائكة بالنظر إلى كثرة هذه الكتابات واختلاف انتماءات أصحابها، ومشاربهم، وظروف معيشتهم في المدينة، كما أن تشعب الجوانب الثقافية، وتداخلها وارتباطها بجوانب أخرى يزيد في تعقيد مهمة الباحث للخوض في تفاصيل هذا الموضوع ودراسة المجتمع الجزائري على ضوء هذه المصادر بمختلف فئاته في المدن والأرياف وعلاقة الجوانب الأخرى وتأثيرها على الحالة الثقافية للبلاد عامة.

وما زاد الموضوع صعوبة أيضا أن أغلب هذه الكتابات (المصادر) لا سيما الأوروبية كانت مبنية على نظرة عدائية متعصبة للإسلام والمسلمين، والجزائر بصفة خاصة، لما كانت تمثله بالنسبة لأوروبا، حيث نعتتها أغلبها ببلاد البرابرة، ووكر القراصنة واللصوص...، وإذا كان هناك من هذه المصادر من يبينها بوضوح مستخدما ألفاظا وعبارات تحمل الكثير من البغض والتحامل وروح الانتقام يجعلها البعض الآخر مخفية ومبطنة مستخدما أسلوبا سلسل ومثير، وهو ما فرض علينا في كلتا الحالتين التزام الكثير

من الحذر أثناء تعاملنا معها، ومحاولة التحلي بالموضوعية في التعرض وطرح بعض القضايا التي ورد ذكرها في هذه المصادر، إلا أنه وفي المجمل فقد أضفت هذه التناقضات الكثير من الأهمية والإثارة، وهو ما دفعني للخوض في غمار هذا الموضوع.

تناولت الدراسة فترة تاريخية طويلة من الوجود العثماني، عرفت تطورات وأحداث هامة على الصعيد الداخلي والخارجي، فقد شهدت ميلاد الدولة الجزائرية بمفهومها الحديث والتي كأي دولة عرفت فترات للقوة والضعف، واعتداءات وتهديدات خارجية متكررة لا سيما من الإسبان والفرنسيين والإنجليز، وقد شكلت هذه الأخيرة إضافة إلى الفساد السياسي في نظام الحكم، وقيام ثورات مناهضة للحكم العثماني قد أثر بشكل مباشر على المجتمع الجزائري، وأحدث تغييرات بارزة في ممارساته الثقافية، وقد تمخض عن كل هذه الأحداث ظهور العديد من الكتابات الأجنبية الأوروبية ثم الأمريكية فيما بعد، تطرقت في معظمها إلى هذه الأحداث بكل تفاصيلها، ونسجت الحكايات والقصص عما يحدث في بلاد البرابرة (La Barbarie).

من بين أسباب اختيارنا لهذا الموضوع الكم الهائل الذي احتوته هذه المصادر الأجنبية لا سيما الغربية عن الجزائر في الفترة العثمانية، هي بالنسبة لنا كباحثين بمثابة شهادات وحقائق لا بد من الوقوف عندها بكثير من التمعن، التحليل والتمحيص، لاستخلاص الكثير من الحقائق التاريخية عن هوية الجزائر الثقافية، والحضارية، التي تمتد عبر العصور القديمة، وهي في ذات الوقت بمثابة رسالة ثقافية حضارية تفند وتفيد كل ما يروج له الغرب لا سيما فرنسا، التي أرادت ولحد الفترة الراهنة إثبات مهمتها الحضارية أثناء غزوها، العسكري للجزائر سنة 1830م، مدعية أنها وجدته فضاء جغرافيا مجهول الهوية.

والجدير بالذكر أن جل الدراسات الثقافية التي تناولت الجزائر خلال هذه الفترة وعلى رأسها الجهود التي قدمها الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله، تعد بمثابة أرضية خصبة ومجال شاسع لبذل المزيد من الجهود للخوض في هذا الموضوع، وهو ما دعى إليه الأساتذة الأفاضل أمثال مولاي بلحميسي في كتابه الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، أمحمد عميراي في كتابه الجزائر في أدبيات الرحلة، الأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدينا أنموذجا، حيث أشاروا جميعا إلى أن ما خصص للجزائر في رحلات الأجانب، جدير بأن يجمع ويدرس ويحلل ويقارن بهدف الوصول إلى مقاربات تاريخية في غاية الأهمية حول فترة طويلة وهامة من تاريخ الجزائر.

وهو ما دفعنا إلى طرح الإشكالية التالية وهي: كيف صورت لنا المصادر الأجنبية الحياة الثقافية في الجزائر خلال فترة الوجود العثماني؟ وإلى أي مدى كانت هذه الكتابات موضوعية في معالجتها لهذا الموضوع؟

وتنبثق عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية يمكن حصرها فيما يلي:

- كيف كانت الأوضاع العامة في الجزائر عند مجيء العثمانيين سنة 1518؟
- ما هي أبرز المصادر الأجنبية التي اهتمت بتاريخ الجزائر في العهد العثماني؟ وما هي معايير تصنيفها؟ وما هي دوافعها وأهدافها؟
- كيف كانت حالة التعليم في الجزائر خلال هذه الفترة باعتباره مقياس تقاس به درجة كل حركة ثقافية تحدث داخل المجتمع؟
- كيف صور لنا الأجانب عامة وحتى المغاربة الذين زاروا الجزائر عادات وتقاليد المجتمع الجزائري؟
- كيف كان المستوى العام لبعض المظاهر الثقافية في الجزائر من خلال ما كتبه هؤلاء؟ وهل ساهم ذلك في بزوغ حواضر ثقافية جديدة في الجزائر؟

وفق ما أشار إليه الأجانب الذين زاروا الإيالة خلال هذه الفترة وللإجابة على الإشكالية والتساؤلات المطروحة، اعتمدنا خطة عمل ضمت مقدمة تاريخية وخمسة فصول تضم مجموعة من العناصر:

الفصل التمهيدي: عنوانه: نظرة عامة حول التاريخ الثقافي للجزائر ومظاهر التفاعل والمثاقفة خلال العهد العثماني، تعرضنا فيه إلى أهمية دراسة التاريخ الثقافي عامة على ضوء ما جاء به رواد نظرية التاريخ الجديد، ثم عند الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي يعتبر ودون أدنى شك الأب الروحي لدراسة التاريخ الثقافي للجزائر، وصاحب أكبر موسوعة ثقافية في هذا الشأن.

ثم تطرقنا إلى مظاهر التفاعل والمثاقفة بين الثقافة الأصلية المحلية للمجتمع الجزائري ومختلف الروافد الثقافية التي عرفها المغرب الأوسط منذ القرن 15م، والتي انصهرت كلها في بوتقة واحدة أدت في النهاية

إلى ظهور ملامح ثقافية جديدة غنية ومتنوعة، والتي حركت في كثير من مظاهرها أقلام الأجنبي الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة.

تعرضنا أيضا إلى الصبغة العامة التي طبعت الحياة الثقافية في الجزائر خلال هذه الفترة، والتي طغى عليها الحضور والذهنية الدينية الراسخة التي هيمنت على مختلف جوانب الحياة العامة للمجتمع الجزائري، وهو ما لمسناه في قراءة عابرة لبعض المصادر المحلية التي تعود إلى هذه الفترة والتي لم تخرج في مجملها عن ذات السياق ولم تقدم إلى النزر اليسير عن الحياة الثقافية، وهو ما يزيد من أهمية وقيمة المصادر الأجنبية في التعرف عن ثقافة المجتمع الجزائري خلال الفترة المدروسة.

الفصل الأول: عنوانه لمحة عامة عن المصادر الأجنبية لتاريخ الجزائر العثمانية من القرن (10هـ-

16م) إلى القرن (13هـ-19م)، وقد قدمنا في هذا الفصل عدة عناصر وفق ما تقتضيه الدراسة، إذ اعتمدنا على التسلسل المنطقي التاريخي للأحداث والتطورات التي عرفتها هذه المصادر بداية من القرن 16م، الذي يمثل ذروة الكشوفات والاكتشافات الأوروبية في إطار الانفتاح الأوروبي على حوض البحر المتوسط وإفريقيا عامة، حيث توافد على المنطقة بعض المستكشفين ودونوا ملاحظات هامة عن المنطقة (جغرافيتها، تاريخها، سكانها...)، كما ميز القرن 16م جملة من الأحداث أبرزها النشاط البحري الكبير الذي كان يقوم به الأسطول البحري الجزائري في حوض البحر الأبيض المتوسط، وما نتج عنه من ظهور ظاهرة لأسر، حيث شكلت كتابات الأسرى الذين عاشوا سنوات طويلة في الجزائر مادة خيرية غزيرة ومتنوعة في وصف مختلف الجوانب العامة للجزائر، وقد ميز النصف الثاني من القرن 17م بداية النشاط الدبلوماسي للأوروبيين لا سيما فرنسا وبريطانيا اللذان تسابقا لإرسال ممثلين وقناصل لهم لدى دايات الجزائر، وهو ما ساهم في ظهور تقارير، رسائل، ومذكرات تصف وبأسلوب أقل حدة من السابق وأكثر إتقان ودقة الكثير من التفاصيل حول الجزائر في شتى المجالات، وقد تزامن ذلك مع النهضة العلمية التي عرفتها أوروبا بداية من القرن 18م والتي أدت إلى ظهور مدرسة علماء الطبيعة (Les naturaliste) فدفعت هذه المدرسة وبتمويل حكومي بالكثير من الأطباء والعلماء المستكشفين إلى الانتقال إلى الجزائر وتدوين رسائل علمية قيمة.

كما أشرنا في هذا الفصل إلى ظهور مدارس جديدة متأثرة تارة بالكتابات السابقة وتحمل ميزات جديدة وخاصة تارة أخرى، وهو ما جسدهته المدرسة الأمريكية ومدرسة الترجمة، الألمانية اللذان قدما تفاصيل دقيقة غزيرة ومتنوعة عن جوانب كثيرة عن الحياة العامة في الجزائر.

ثم تطرقنا إلى استنتاج مختلف الدوافع والأهداف التي دفعت هؤلاء للكتابة بهذا الكم عن الجزائر وقد تنوعت بين دوافع شخصية وعامة، وبين أغراض وأهداف كثيرة استكشافية، سياسية، علمية...

ونظرا لما تقتضيه الدراسة من دقة ومقارنة للمعلومات وجدنا من الضروري توظيف بعض مصادر المغاربة الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة، وذلك لأهميتها وقيمتها ودورها في إثراء الدراسة.

الفصل الثاني: تطرقنا فيه إلى أوضاع الجزائر خلال الفترة العثمانية على ضوء ما دونته مختلف المصادر الأجنبية، حيث تعرضنا إلى ظروف مجيء العثمانيين إلى المغرب الأوسط، وتأسيس إيالة الجزائر العثمانية، والسياسة التي طبقها العثمانيون في الإيالة الجديدة، حيث سلطنا الضوء على سياسة التهميش السياسي وإبعاد الجزائريين عن المشاركة في مختلف دواليب الإدارة والحكم، واهتمام هؤلاء وتركيزهم على الجانب العسكري، وما انعكس عن ذلك من آثار سياسية واجتماعية وخيمة.

ثم تعرضنا بالشرح والوصف للأوضاع الاجتماعية انطلاقا من استعراضنا لتركيبية المجتمع الجزائري، ومختلف فئاته ومشاكله (ثورات، أمراض، أوبئة، مجاعات...).

الفصل الثالث: عنوانه واقع التعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر الأجنبية، والذي تطرقنا فيه وبكثير من التدقيق والتفصيل إلى واقع التعليم ومؤسساته من مساجد، مدارس وزوايا في المدن (الحواضر) والأرياف، ثم تعرضنا إلى طرقه ومناهجه في مختلف أطوار المراحل التعليمية (الطور الابتدائي والطور الثانوي والعالي)، وأشرنا إلى دور مؤسسة الأوقاف في تمويله في ظل الغياب شبه الكلي للسلطة العثمانية في ذلك، ثم تطرقنا إلى أشهر المعلمين (العلماء) الذين أشرفوا بجهودهم الخاصة على نشره والإشراف والسهر على ديمومة واستمرار الحركة التعليمية في المدن وكذلك في الأرياف البعيدة والنائية.

حيث استعرضنا أيضا أهم العلوم المدرسة والتي لم تخرج في عمومها عن العلوم الدينية السائدة في تلك الفترة ليس في الجزائر فحسب وإنما في أغلب بلدان العالم الإسلامي.

وقد أشرنا في هذا الفصل إلى الجهود التي بذلها بعض العثمانيين في إنعاش حركة التعليم من خلال ما قدمه الباي مُجد الكبير ببايلك الغرب وصالح باي بقسنطينة.

الفصل الرابع: عنوانه عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، يمثل هذا الفصل أساس هذه الدراسة، وذلك للكم الهائل الذي قدمته المصادر الأجنبية حول هذا الجانب، إضافة إلى أنها تعتبر العصب الرئيسي لثقافة أي مجتمع، حيث قدمت هذه المصادر بالوصف والتفصيل والإسهاب معلومات غزيرة وقيمة عن طرق وأساليب حياة المجتمع الجزائري، فقدمت وصف للأكل والشرب، اللباس، طقوس الاحتفالات الخاصة والعامة، طقوس العبادة في الصوم والصلاة... استقبال الضيوف، تهيئة المنازل... كما خصص البعض صفحات مطولة في وصف بعض مظاهر الانحراف وممارسة بعض الطقوس الدخيلة عن الإسلام، فتحدثوا عن انتشار ظاهرة السحر والشعوذة والاعتقاد بالغيبيات والخوارق، وانتشار ظاهرة البغاء...

الفصل الخامس: عنوانه: بعض المظاهر الفنية والعمرانية في إيالة الجزائر العثمانية، وتطرقنا فيه إلى ما قدمته المصادر الأجنبية في وصف مختلف المظاهر الفنية والعمرانية، في وصف الفنون السائدة كالشعر، الموسيقى، كذلك تقديم تفاصيل دقيقة عن شكل الشوارع وطرق بناء القصور والمنازل، الحدائق، والساحات العامة، حيث تضمنت أغلب هذه المصادر وصف مطول لمدينة الجزائر عاصمة الإيالة ولأسباب أغلبها لها علاقة بالجانب الأمني والتجسس فأصبحت المدينة خلال هذه الفترة عاصمة عالمية معروفة بكل تفاصيلها ومعالمها العمرانية وفنونها الثقافية في كتب ومصادر الأجانب بصورة عامة.

هذا وقد أشرنا في هذا الفصل إلى الأدوار الثقافية التي قامت بها بعض الحواضر الجزائرية خلال هذه الفترة والتي ورد ذكرها في هذه المصادر لا سيما بعض الحواضر الصحراوية التي قدمت بالوصف في الرحلات المغربية.

وختمنا الدراسة بجملة من النتائج المتوصل إليها كما ذيلنا العمل بجملة من الملاحق التوضيحية.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي القائم، على الوصف التحليل والمقارنة والنقد، وقد اقتضى تقديم هذه المعلومات ببعض الحذر لذلك كان من الضروري القيام من حين لآخر بنقد وتحليل ومناقشة ما جاء في هذه الكتابات من أحكام وأوصاف ثم مقارنتها أحيانا أخرى ببعضها البعض

أو بمصادر محلية ومغربية أو الرجوع إلى بعض الدراسات التاريخية ذات الصلة بالموضوع، وذلك لدحض بعض الآراء والمغالطات التاريخية الصادرة عن هؤلاء الأجانب وكأي بحث أكاديمي في هذا المستوى، والذي يحتاج في العادة إلى البحث والتدقيق والتمحيص على ضوء كم هائل من المادة الخيرية واجهتنا بعض الصعوبات والمشاق أثناء إنجاز الدراسة أهمها صعوبة الحوض في الدراسات الثقافية عامة لتشعب مواضيعها واتساع مجالاتها، إضافة إلى شح المادة التاريخية المتعلقة بهذا الجوانب مقارنة بالجوانب السياسية.

هذا بالإضافة إلى صعوبة الوصول إلى جميع المصادر الخاصة بمثل هذه الدراسات فعلى الرغم من كثرتها إلا أنها غير متوفرة إذا لم نستطع الوصول إلى التقارير أو الوثائق الأرشيفية المحفوظة في دور الأرشيف الفرنسية عامة، فإكتفينا مرغمين بما جاء في المصادر المتوفرة في المواقع والمكتبات المحلية، كما أن أغلب هذه المصادر ركزت الحديث عن مدينة الجزائر دون باقي مناطق الإيالة، إذ ما كتب عنها يبقى مجرد شذرات قليلة مما صعب علينا مهمة البحث والوصول إلى صورة كاملة عن حقيقة الحياة الثقافية خلال هذه الفترة.

وقد تناولت دراسات سابقة هذا الموضوع من بعض جوانبه لعل أهمها:

1- أطروحة الماجستير الموسومة "الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني 1830/1519م دراسة تاريخية أنثروبولوجية"، لمحفوظ رموم، نوقشت بجامعة قسنطينة، وقد استعان صاحبها بما جاء في بعض الكتابات الأجنبية التي تطرقت للمظاهر الثقافية في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، وقد مكنتنا من تكوين فكرة عامة حول موضوع الثقافة والمثاقفة الحضارية التي عرفت الجزائر خلال هذه الفترة.

2- أطروحة الدكتوراه الموسومة بالحياة الحضارية في مدينة الجزائر من خلال مصادر الرحلة لفتاح معمري، نوقشت بجامعة قسنطينة، حيث قدم صاحبها نماذج عديدة ومتنوعة من الرحلات الأوروبية، مما سهل علينا التعرف على الكثير من الرحالة والبحث لفهم والاطلاع عما كتبه عن الجزائر لا سيما في جانبه الثقافي، كما مكنتنا من تكوين فكرة عن آراء هؤلاء حول المظاهر الثقافية في الجزائر، وسهل علينا منهجية نقد والتعامل مع بعض الحقائق الواردة في هذه المصادر.

3- كتاب "صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين"، لصاحبه الدكتور حفناوي بعلي"، اعتمدنا عليه بالدرجة الأولى في تكوين فكرة الأنا والآخر، والظروف المحيطة بهذه الكتابات في مختلف الفترات لا سيما الفترة العثمانية وهو ما سهل علينا التدقيق في هذه الكتابات وغرلة المعلومات الواردة فيها وسهولة توظيفها في مختلف جوانب الدراسة.

4- أطروحة الدكتوراه الموسومة "الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830) بلقاسم قرباش نوقشت بجامعة معسكر تعتبر من الدراسات القيمة لاعتماد صاحبها على المصادر الإنجليزية والأمريكية، إذ بفضل هذه الأطروحة تعرفنا على بعضها، واستفدنا من تقديمه لها وسهولة الرجوع إليها في موضوع الدراسة، للمقارنة مع باقي المصادر الأخرى لا سيما الفرنسية منها.

5- Denise Brahimi, Opinion et regard des européens sur le Maghreb au 17-ème et 8-ème siècle. رسالة دكتوراه في الأدب المقارن نوقشت في جامعة Paris III سنة 1976، تناولت نماذج من الرحالة الفرنسيين إلى شمال إفريقيا (رجال الدين، مفتدوا الأسرى، ديبلوماسيين، رحالة علميين...) وقدمت نظراتهم وانطباعاتهم عن المنطقة، فوفرت لموضوع الدراسة معلومات وأفكار قيمة عن الكتابات الأجنبية لا سيما منها الفرنسية.

إضافة إلى عدد لا بأس به من المقالات العلمية التي تعرضت إلى هذا الموضوع، وقدمت أغلبها تعريف لهذه الكتابات عبر الفترات المختلفة للوجود العثماني بالجزائر وأشارت إلى جزئيات هامة حول الحياة الثقافية في الجزائر، كما صورها وكتب عنها الرحالة الأجانب نذكر منها:

1- منصور درقاوي، الموروث الثقافي اللامادي بالجزائر على ضوء المصادر الأوروبية (العادات والتقاليد نموذجاً).

2- توتة إسماعيل، الممارسة الدينية في الجزائر العثمانية من خلال الكتابات الأجنبية.

3- بلقاسم قرباش، تاريخ الجزائر العثمانية في الكتابات الأجنبية.

4- آيت حبوش حميد، أهمية المصادر الأوروبية في كتابة تاريخ الجزائر -العهد العثماني نموذجاً-.

5- محمود حمودي، صورة لمدينة الجزائرية إبان العهد العثماني في رحلة العياشي المغربي.

كما نجد بعض المقالات باللغة الأجنبية:

- 1- Marcel Emerit, L'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830.
- 2- Zakia Zahra, Alger vue par la fille d'un consul Anglais au début du XIX siècle Elisabeth Broughton.
- 3- Aicha Ghetta, Le regard d'un captif Anglais sur Alger durant la première moitié du XVII siècle.
- 4- Vanezia Parlea, Images de soi et de l'autre en article à la croisée des regards dans les mémoires du Chevalier d'Arvieux.

ولإنجاز هذه الدراسة اعتمدنا على مادة بيبليوغرافية متنوعة اشتملت على مجموعة من المصادر باللغة العربية والأجنبية وعدة دراسات أكاديمية، إضافة إلى عدد من المقالات العلمية أهمها:

1- المصادر المطبوعة وهي كثيرة ومتنوعة بين رحلات التقارير ومذكرات أهمها:

أ- المصادر المحلية:

رحلة الورثلاي: للحسن بن مُحَمَّد بن سعيد الموسومة "نزهة الأنظار في فضل لم التاريخ والأخبار" الذي يعد من المصادر الهامة للفترة الأخيرة من الوجود العثماني، انتقد في مقدمة رحلته عدم اهتمام أهل البلاد بالتاريخ، كما تحدث عن حالة الجزائر في ظل الحكم العثماني متطرقاً إلى ظاهرة الكرامات والتبرك بالأولياء، زار العديد من مدن الجزائر كما زار بلاد المشرق وبلاد المغرب، فقد زودنا هذا المصدر بمعرفة الأوضاع العامة للجزائر خاصة في بعض المناطق التي زارها، كما أفادنا بذكر العلماء الذين التقى بهم وحالة التعليم والمؤسسات العلمية خلال هذه الفترة.

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لأبي عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف التلمساني، إن القارئ لهذا المصدر يستخرج فوائد عديدة تاريخية وعمرانية، علمية، ثقافية، اقتصادية، واجتماعية بمنطقة تلمسان وبايلك الغرب عامة خلال هذه الفترة.

منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية لعبد الكريم الفكون (ت سنة 1663م) تضمن الكتاب معلومات هامة حول الحياة الاجتماعية والثقافية لعاصمة إقليم بايلك الشرق، كما أشار إلى حالة التعليم والوظائف المفتوحة أمام العلماء وعلاقة السلطة المركزية العثمانية بالمجتمع القسنطيني.

المرآة لحمدان بن عثمان خوجة يعد من أهم مصادر القرن 19م، ظهر هذا الكتاب لأول مرة مترجما من العربية إلى الفرنسية "Aperçu historique sur la régence d'Alger"، وقد تضمن الكتاب موضوعات عديدة ومتنوعة، جغرافية، اجتماعية، تاريخية، سياسية...، صاغها على النمط الغربي من حيث المنهجية، ولوفرة المعلومات الواردة في هذا الكتاب عد بالنسبة للدراسة أحد المصادر الأولية المحلية التي نعود إليها لإزالة الغموض أو تزييف الحقائق الواردة في المصادر الأجنبية.

المصادر المعربة:

مذكرات تيدينا (Thédnat) وهو أسير فرنسي عاش في بلاط الباي مُجد الكبير في النصف الثاني من القرن 18م، احتوت هذه المذكرات معلومات تاريخية متنوعة منها الجانب الاجتماعي والثقافي في حديثه عن بعض العادات والتقاليد السائدة، ونظرا للوظيفة التي شغلها لدى الباي كخزندار، ومرافقته للباي في رحلاته، مكنه ذلك من تقديم صورة واضحة حول بايلك الغرب في فترة من أزهى فترات، إلا أنه ورغم علاقته الوثيقة بالباي مُجد الكبير وإعجابه به إلا أنه أهمل بقصد أو دون قصد إنجازاته ومشاريعه الثقافية والعلمية.

مذكرات سيمون بفايفر Simon peffeifer وهو أسير طبيب ألماني عاش في الجزائر في الفترة الممتدة ما بين (1825-1830) نظرا لمكانته العلمية رقي ليصبح أحد الموظفين البارزين في قصر الداى، احتوت مذكراته على معلومات غزيرة ومتنوعة، شملت حالة المجتمع وتركيبته وعاداته، وقد خص الحديث عن أوضاع المرأة، وقدم وصفا مفصلا عن الحملة الفرنسية على الجزائر، مشيرا إلى الحالة البائسة التي آلت إليها مدينة الجزائر جراء ذلك.

مذكرات وليام شالر (William Chaler) فنصل أمريكا بالجزائر في الفترة الممتدة ما بين (1816-1824)، تضمنت الكثير من التفاصيل عن الأوضاع العامة بالجزائر أواخر الفترة العثمانية في حديثه عن سكان البلاد تركيبتهم العادات والتقاليد، حالة التعليم، وصف العمران، وما نلمسه في

مقدمة

مذكراته اتسامها بالموضوعية مقارنة بسابقتها باعتبارها تقارير صادرة عن قنصل معدة لتقديم صورة حقيقية عن الجزائر لدى حكومة بلده.

ب- المصادر الأجنبية:

Pierre Joseph Dumant, Histoire de l'esclavage en Afrique, pendant trente-quatre ans de Joseph Dumant.

وهو كتاب لأسير فرنسي مكث فترة طويلة في الجزائر، وقد انفرد بالحديث عن الحياة الريفية التي عايشها، وقدم لنا معلومات قيمة عن التجمعات القبلية ونمط العيش فيها.

Diego de Haydo, Topographie et histoire générale d'Alger.

هو كتاب لأسير إسباني تختلف الروايات حوله، إلا أنه قدم معلومات غزيرة عن موضوعنا، استفدنا منه كثيرا خاصة في جزئي الكتاب العاشر والحادي عشر، أين تحدث عن الحياة اليومية وأنماط عيش السكان في مدينة الجزائر، مشيرا إلى الحياة السياسية، الثقافية، الاقتصادية والاجتماعية للمدينة وكغيره اعتمد دوهايديو De Haydo على كتابات سابقة لرحلات ومذكرات الأسرى وكتب التاريخ والجغرافيا أثناء تطرقه للتاريخ القديم للمنطقة وجغرافيتها.

Laugier De Tassy, Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement ses forces de terre et de mer, des revenus police, justice, politique et commerce.

وهو كتاب لديلوماسي فرنسي عاش في مدينة الجزائر سنة 1724 يعتبر هذا الكتاب دراسة شاملة عن الجزائر أوائل القرن 18م، لما توفر من معلومات غزيرة ومفصلة شملت تفاصيل عميقة عن المجتمع الجزائري وتركيبته، عاداته وتقاليده، وهو ما جعله من المصادر الأساسية التي ساعدتنا في إنجاز هذا العمل.

Venture De Paradis, Tunis et Alger au 18-ème siècle.

وهو كتاب لمستشرق فرنسي حاز مكانة هامة في مجال الدراسات التاريخية الخاصة بالعهد العثماني، فقد تضمن كتابه معلومات هامة حول جوانب متنوعة للجزائر، فقدم وصفا للحكومة والديوان، المجتمع وتركيبته وعاداته، وإجماع الباحثين يعد دوبارادي من كتاب المدرسة الفرنسية الحديثة

التي تفتحت إلى الكتابة الموضوعية في تقديم الحقائق التاريخية، وهو ما دفعنا للرجوع إليه في الكثير من عناصر بحثنا.

المراجع:

استعنا أيضا بدراسات تاريخية تتصل بمختلف جوانب الموضوع في بنائه النظري وسياقه المفاهيمي والتاريخي لعل أهمها موسوعة أبو القاسم سعد الله لتاريخ الجزائر الثقافي التي تعتبر أساس كل الدراسات التاريخية الثقافية الأكاديمية، إضافة إلى كتابات نصر الدين سعيدوني، وقرات جزائرية، الجزائر في التاريخ العهد العثماني دراسات أندلسية، وتعد من الدراسات الهامة التي قدمت معلومات قيمة أخضعها صاحبها للتحليل والتدقيق معتمدا على وثائق أرشيفية.

إضافة إلى كتاب مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، وأبو العيد دودو الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855).

كما اعتمدنا على مراجع أجنبية أهمها:

Devoux, Les édifices religieux de l'ancien Alger.

قدم صاحب الكتاب معلومات تخص الجانب الديني والعمراني والثقافي في وصفه بمختلف المؤسسات الدينية في الجزائر متحدثا عن وظائفها وأدوارها داخل المجتمع الجزائري.

المقالات:

المجلة الإفريقية **Revue Africaine**: صدرت في الجزائر منذ سنة 1854، وهي مجلة لا تقل أهمية عن المصادر السابقة لما تحتويه من مادة علمية ثرية، أحاطت بكل جوانب البحث من مواضيع متنوعة اقتصادية، اجتماعية، دينية، إثنية، ثقافية، سياسية، وحتى فكرية اعتمدت على وثائق تاريخية قيمة عثر عليها أصحابها في بعض الخزانات والمكتبات العامة والخاصة من أبرز مقالاتها المعتمدة:

- Charles Feraud, les anciens établissements religieux musulmans de Constantine.

- Berbrugger, La régence d'Alger sous le consulat et l'empire.
- Vaysettes, Histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadje d'Ahmed.

وفي الأخير أقر واعترف أن هذا العمل لا يمكن اعتباره إلا خطوة أولية في مسار البحث التاريخي الأكاديمي في هذا النوع من المواضيع والتي تحتاج إلى بذل المزيد من الجهود في العمل والبحث عن مادة علمية تاريخية أكثر ثراء وقيمة.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر والامتنان إلى كل ما ساعدني في إنجاز هذا العمل سواء من قريب أو من بعيد، وما توفيقنا إلا بالله هو خير المولى وخير النصير.

الفصل التمهيدي: نظرة عامة حول التاريخ الثقافي للجزائر العثمانية

1- أهمية التاريخ الثقافي:

أ- على ضوء نظرية التاريخ الجديد

ب- عند الدكتور أبو القاسم سعد الله

2- مظاهر التفاعل الثقافي (المثاقفة)

أ- التفاعل الثقافي الأندلسي

ب- التفاعل الثقافي العثماني

ج- التفاعل الثقافي الأوروبي

3- الذهنيات والحضور الديني في الجزائر العثمانية

4- قراءة في بعض المصادر المحلية (نماذج من كتب التراجم والرحلات).

1- أهمية التاريخ الثقافي على ضوء نظرية التاريخ الجديد:

أ- على ضوء نظرية التاريخ الجديد:

إن الدارس للتاريخ الثقافي لمجتمع ما يجد نفسه قد دخل إلى حقل من حقول البحث التاريخي التي لطالما، عدت من الهامشيات التي أبعدت في الكتابات التاريخية الكلاسيكية القديمة، باعتبار أن هذا الحقل ارتبط ارتباطا يكاد كون كليا بالحدث السياسي والاجتماعي كمحرك أساسي للفعل التاريخي.

إلا أن ظهور مدرسة التاريخ الجديد، في النصف الثاني من القرن 18م، أحدث نوع من الانقلاب في الكتابة التاريخية عندما أصبح المؤرخ يقوم ببناء الحادثة التاريخية على مصادر جديدة ويغوص في حقول معرفية متنوعة.¹

وعلى ضوء ذلك عرف جاك لوغوف في كتابه صناعة التاريخ، التاريخ الجديد بأنه حقل يقوم على مجموعة من الإشكاليات والمناهج الجديدة التي ساهمت في تجديد مجالات تقليدية كان التاريخ يعتني بها (التاريخ السياسي، التاريخ الديني...).

فالتاريخ الجديد هو إبراز مواضيع جديدة كانت من اهتمامات عالم الأنثروبولوجيا (مثل الأسطورة، التغذية، الجسد، المآثر، الصورة، الجنس...)².

لأن التاريخ السياسي الذي يبنى على تعاقب السلالات الحاكمة والحكومات لا يستطيع إدراك الحياة في عمقها، والجدير إذن دراسة ما يتغير ببطء أو ما يطلق عليه "البنى" القائمة على نظرية الأمد الطويل والتراكمي، لجوانب خاصة بالإنسان والمجتمعات عامة، مثل دراسة بعض الطبائع وشعبها مثل

¹ فرانسوا دوس، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة مُجد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 49-50.

ظهر هذا النوع من الدراسة من قبل العالم السويسري ياكوبي وتم بعده العالم جاكوب بوكهارت (1818-1897م) الذي ساعد في تأسيس التاريخ الثقافي كحقل جديد من حقول الكتابة التاريخية التي تقوم على تفسير طرق العيش لجماعة بشرية داخل مجتمع ما من خلال نشاطاتهم المختلفة وطرق تفاعلهم. (للمزيد أنظر: أليسون، م مور، تاريخ النظرية التاريخية لتأريخ التاريخ الثقافي، مجلة الفلسفة والطبيعة، العدد 12، فيفري 2016، ص ص 257-291.

² جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم مُجد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2007، ص 112.

كيفية الأكل، اللباس، السكن¹... وهو ما استدعى تطوير منهجية خاصة بالكتابة التاريخية تعتمد نصوص الأدب علم الآثار، الواقع اليومي البسيط...

فالتاريخ الثقافي إذن عند مدرسة التاريخ الجديد هو غطاء من التاريخ البطيء الذي يتحرك في شبه جمود، لأنه يصمم على أن يكون تاريخ جماديات.

بدأت فيه الوثيقة المكتوبة تفقد امتيازاتها المطلقة كمصدر وحيد للمعرفة وحلت حقول معرفية أخرى مثلت أساس الحقيقة التاريخية مستوحاة من الحضارة المادية لمجتمع ما إلى مختلف ميادين الثقافة وأصبح المؤرخ قادر على تجاوز صمت الوثائق وعنادها في ظل هذا الحقل الجديد من الدراسة التاريخية الثقافية.²

فالحضارة المادية التي تعنى بالدراسة تقوم على أن الانسان قد سعى إلى إعمار مكان ما، وتطوير نفسه وقدراته من خلال استغلال الإمكانيات المتوفرة لديه، وبمجرد أن تلتقي جماعة من الناس وتعيش مع بعضها البعض في مكان واحد، فهم يبدؤون بتنظيم حياتهم، وإذا توفر عندهم حالة من الاستقرار والتفاهم والأمان فهم يبدؤون بتطوير ذواتهم وصقل شخصيتهم للوصول إلى الإبداع.³

وهذا المجتمع في ممارساته لشؤون حياته اليومية وما يتطلبه ذلك من ألوان النشاط، نجد هذه الأخيرة تتكسر بنفس الصورة، وتصبح هذه الممارسات نمط حياة جماعي يميز مواقفهم وسلوكاتهم المختلفة.⁴

فالدارس هنا لهذا المجتمع يعتمد على طريقة الإسقاط التي تقوم على ثنائية الثقافة والمجتمع التي لا ينفصل بعضها عن الآخر، لأن الأسلوب الذي يسير عليه أفراد هذا المجتمع في حياتهم إنما يعتمد على طبيعة الثقافة السائدة.⁵

¹ جاك لوغوف، المرجع السابق، ص 113.

² عبد الله العروي، مفهوم التاريخ (الألفاظ والمذاهب)، الجزء الأول، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص 180.

³ Braudel Fernand, La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Armand Coulin, Paris, 1949, p 16-17.

⁴ مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة سيد الصاوي، عالم المعرفة، الكويت، يناير 1978، ص 07.

⁵ نفسه، ص 09.

وعلى ضوء ما قدمه أصحاب نظرية التاريخ الجديد يمكن ضبط تعريف للتاريخ الثقافي* بأنه مجموعة من العادات والتقاليد والأعراف التي تميز مجموعة من الأفراد وتجعلهم يعيشون تحت سلطتها وهو في حركية بطيئة ومستمرة.

يوجه هذا النوع لدراسة ومعرفة تفاصيل وأصل فترة عينة بأكملها، فالدراسة لا تتعلق فقط بالرسم، النحت، العمارة، الموسيقى... بل بأمشاط الحياة المختلفة الاقتصادية، الاجتماعية، الفنية التي يمارسها مجتمع ما في حياته اليومية وهي ظواهر تشاركها الجماعات الحيوية وغير الحيوية، مثلما يظهر من خلال العادات والتقاليد والطقوس الشعبية، يشمل بذلك الأفكار العلوم، الفنون، العلاقات الإنسانية، وكل ما يتعلق بالإنسان.¹

وعلى ضوء كل الجهود التي بذلت في هذا المجال أجمع التاريخ الثقافي تخصص يجمع بين الاقتصاد السياسي، الجغرافيا، علم الاجتماع، النظرية الاجتماعية، الأدب، الأنثروبولوجية، الفلسفة، الفن ومختلف الظواهر الاجتماعية التي يعمل الباحث فيها على كيفية ارتباط ظاهرة معينة بشاكل سياسية، عقائدية، عرقية، اجتماعية واقتصادية.²

ب- التاريخ الثقافي عند أبو القاسم سعد الله:

يقول أبو القاسم سعد الله: "أما التاريخ عندي فهو مجلى نظري ومحط رحالي بعد أن جلت في الأدب والشعر واللغة وعلم النفس وغيرها من الفنون والعلوم..."³.

* تم صياغة مصطلح "التاريخ الثقافي" كمصطلح جديد على يد ريتشارد هدغارت سنة 1964 عندما أسس مركز برمنغهام للدراسات التاريخية المعاصرة، والاصل في ذلك يعود مدرسة الحوليات Ecole des anneles منذ سنة 1970، التي من أبرز روادها المؤرخ فرنان برودويل الذي ساهم في وضع حدود معرفية جديدة لدراسة التاريخ من خلال دراسة المجموعات الاجتماعية الكبرى بكل ما شمل نظمها الاقتصادية، الاجتماعية السيكولوجية من خلال تقريب التاريخ من العلوم الإنسانية الأخرى والجوانب الفكرية من حياة المجتمعات، ثم قامت على استثمار مختلف جوانب المعرفة من علوم - معارف مناهج بحث للوصول إلى الحقيقة التاريخية. (للمزيد أنظر: Bourge Goy et Martin Herve, Les écoles historique, euil, Paris, 1988, p 172.

¹ أليسون أم مور، تأريخ لنظرية التاريخية لتاريخ الثقافي، مجلة الفلسفة الطبيعية والاجتماعية، العدد 12، ج1، فبراير 2016، ص 257-291.

² فرانسوا دوس، المرجع السابق، ص 52.

³ أبو القاسم سعد الله، حوارات، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 154.

"فدارس التاريخ يدرك الكثير من تجارب الآخرين كما يتعرف إلى الكثير من الحقائق فتتوسع مداركه ويكتسب ثقة في أحكامه ومواقفه، كما يكسب بها مسطرة يقيس بها الأشياء وميزانا يزن به الأمور، فهو المرجع في الحكم على الناس وتصرفاتهم".

ويرى أن الباحث في التاريخ يجب أن يكون على دراية بما يجري في جميع العلوم وألا يحصر نفسه في مجال معين من البحث، فالإنسان القديم على حد تعبيره لم يكن متخصصا بالمفهوم الذي نتعلمه الآن... ويضيف أن تراجم العلماء العرب منذ القدم تزدهم بالنماذج التي بدأ أصحابها حياتها الثقافية بالشعر ثم تحولوا إلى التخصصات التي عرفوا بها... أي أن التاريخ هو قيمة وباكورة المعارف المختلفة التي إدراكها وفهمها إنما يزيد من قيمة المؤرخ، ويضفي أهمية أكبر لأعماله¹.

فالعلامة ابن خلدون المؤرخ وعالم الاجتماع، والفيلسوف قل من يعرف أن له أيضا ديوان شعر ظل يزوره حتى وهو يضع منهجية في علم العمران البشري².

وقد أولى سعد الله التاريخ الثقافي للجزائر اهتماما بالغا وهذا يظهر من خلال موسوعاته الثقافية التي تعتبر مرجعا يكاد يكون شاملا لتاريخ الجزائر الثقافي في الفترة الحديثة والمعاصرة³.

ولعل من أبرز العوامل التي دفعت الدكتور أبو القاسم سعد الله للاهتمام بالتاريخ الثقافي، الإهمال الذي طال بهذا الجانب مقارنة بالجوانب السياسية والعسكرية التي تناولت الفترة العثمانية، فيقول في ذلك "فنحن إلى الآن لا نملك تاريخا لثقافتنا، تحدد معالمها وتكشف عن قيمها وتضبط علاقتنا بها..."⁴.

كما أن دراساته المكثفة لمختلف الحقول المعرفية والمدارس الغربية خاصة جعلته يضيف التاريخ الثقافي على أنه الركيزة الأساسية أمام الجوانب الأخرى السياسية والعسكرية، واعتبره ضرورة لا بد منها لضمان تكريس القومية الثقافية التي تخلق بالضرورة الهوية والكينونة السياسية⁵.

¹ مراد وزناجي، مفهوم التاريخ عند سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2015، ص 29.

² أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 247.

³ ناصر الدين سعيدوني، أبو القاسم سعد الله، كلمة وفاء، البصائر الجديدة، الجزائر، ص 66.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص 25.

⁵ محمد بلغيث، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، البصائر الجديدة، الجزائر، 2016، ص ص 144-146.

ويذكر في هذا الشأن أنه عندما توجه إلى الدراسات التاريخية كان اهتمامه بتاريخ القوميات وتاريخ الشعوب، وجد أن الحركات القومية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، بالخصوص في أوروبا الشرقية كانت تستند إلى قاعدة ثقافية لتعزيز هويتها، إذ اهتمت هذه الشعوب ببناء هويتها من خلال الاهتمام بتاريخها الثقافي أي إرث الماضي بكل ما يحمله من أقوال وأفعال، وهو ما يمثل لبنة صلبة يبنى عليها حاضر الأمة، وهو ما سعى إلى إبرازه رواد هذه الحركات، فالقومية عند أبو القاسم سعد الله مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثقافة بل هما وجهان لعملة واحدة.¹

حيث أدرك بشكل لا يدعو للشك أن الأقلام الكولونيالية الفرنسية وفي إطار مشروع منظم بعناية فائقة قد عملت على طمس التاريخ الثقافي للجزائر بما فيه الفترة العثمانية التي لا الزمان ولا الحيز الجغرافي يمكن تجاوزها وإلغاؤها.²

ومن هذا المنطلق وجه الدكتور أبو القاسم سعد الله جهود هائلة لإعادة بعث هذه المرحلة بكل ما تحمله من عيوب ومحاسن من خلال نفض الغبار عن الكثير من مصادرها التاريخية، وبعث الروح من جديد في الكثير من المكونات الثقافية التي تخص هذه المرحلة.³

وفي دراسته لهذه الفترة لاحظ سعد الله أن الوضع العام للجزائر كانت له آثار مباشرة ووخيمة على حركية المجتمع الجزائري، ويعزى ذلك في قوله: "...إلى أن الوجد في الجزائر لم يحاول أبداً أن يعيش في العصر الحديث التي كانت بحياة أوروبا بل العكس لقد أغلق جميع النوافذ وقبع في حدوده القديمة...مما جعل البلاد تعاني من حكم الإخضاع وظلم الحكام والجهل والتخلف العلمي...وإذا تجاوزنا في الحكم نقول بأن ما وقع سنة 1830 في الجزائر ليس احتلال فرنسا للجزائر هكذا، بل هو احتلال العصر الحديث للعصر الوسيط أو احتلال التقدم للتخلف".⁴

وهنا يتساءل أبو القاسم سعد الله إن كان بالإمكان وصف هذا لعهد بعهد الانحطاط الثقافي، غير أن الواقع أن عهود الانحطاط السياسي والثقافي قد بدأت قبل القرن العاشر الهجري بفترة طويلة،

¹ أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المرجع السابق، ص 246.

² فاتح رجب قداره، رؤية المؤرخ أبو القاسم سعد الله، للحقبة العثمانية في الجزائر (1516-1830)، مجلة الجامعة، ع 18، أي 2016.

³ مريم خالدي، أبو القاسم سعد الله حياته وأعماله (1930-2013)، رسالة دكتوراه في تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، إشراف إبراهيم لونيبي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجيلالي اليابس، 2017-2018، ص 197.

⁴ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 06.

وهي حالة كانت تمر بها كل المجتمعات الإسلامية ووصفتها الدراسات الحديثة بالتخلف المزمّن الذي بلغ النخاع ومس العقل والقلب.¹

إلا أنّها في منظور سعد الله "ثقافة عربية إسلامية اشترك فيها الجزائريون من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها وهي ثقافة مهما قيل إنّها متقدمة أو منحطة هي نحن في ماضيها والتي نستمد منها اليوم ذاتنا وحقيقتنا"².

وبفضل المجلدات التي خصصها لتاريخ الجزائر الثقافي الذي يعد بحق صورة واضحة وشاملة للحياة الثقافية للجزائر خلال هاته الفترة لاسيما في منظورها الذي يعنى بالجانب الأدبي والفكري، التعليمي.

إلا أنّ سعد الله اعتبر عمله هذا ما هو إلا لبنة أولى ومنطلق لأبحاث تاريخية مقبلة، فعملية الكتابة التاريخية -حسبه- عملية حية ومتجددة لأن كل جيل له تفسيره للفعل التاريخي اعتمادا على الوسائل والمعارف المعاصرة التي توصل إليها، والتجديد هنا لا يعنى قلب الحقائق، ولكنها تعنى تصحيح ما غاب غطاؤه عن الأجيال السابقة أو ما طاله التزييف.³

وفي تقييمه للحالة الثقافية لهذه الفترة في الجزائر يرى سعد الله أنه مادام علاقة الجزائريين بالعثمانيين بنيت على أساس التحالف الاستراتيجي، العسكري والاقتصادي فالعمل الثقافي إذن لم يكن له أهمية في الموضوع، فالثقافة م تكن مزدهرة شأنها شأن الثقافة في البلاد الإسلامية الأخرى غير أنّ هناك اختلافا واضحا هو أنّ السلطة في هذه البلدان قد تدخلت في الجو الثقافي، أما في الجزائر فكانت غائبة تماما، ويؤكد سعد الله هنا عن الدور الذي لعبته الرعية في هذا الأمر، فإذا كانت لم تقم بواجبها فلماذا يلام الحكام وحدهم.⁴

وفي هذا أشار أنه ليس من الضروري تبرئتهم من أخطائهم والانسحاق وراء المدرسة الفرنسية، فنقد السليبيات يعتبر أمر طبيعي لا يخلو منه نظام حكام لكن من الخطأ تحويل ذلك النقد إلى حكم عام.⁵

¹ مريم خالدي، المرجع السابق، ص 197.

² أبو القاسم سعد الله، محاضرات، ص 62.

³ أبو القاسم سعد الله، حوارات، ص 179.

⁴ المرجع نفسه، ص 55.

⁵ مريم خالدي، المرجع السابق، ص 202.

وهنا يلعب السياق التاريخي والظرف الحضاري وما تجود به المصادر التاريخية المتعددة والمتجددة دورا محوريا في بناء الحقيقة التاريخية لهذه المرحلة دون تطرف.¹

2- مظاهر التفاعل الثقافي (المثاقفة) (Interculturalism) أو (Acculturation):

التفاعل الثقافي أو ما يعرف مجازا بالمثاقفة* تعني أن يستقي شعب ما جانب من ثقافة شعب آخر عن إرادته مسبقه منه أو بصورة تلقائية طوعية ليضاف إلى ثقافته الأصلية.²

وقد قدم باستيد* (Bastide) تعريفا لحالات متنوعة للمثاقفة، حيث اقترح مصطلح التبادل الثقافي، المثاقفة المتبادلة أو تقاطع الثقافات بدلا من مصطلح المثاقفة الذي يخضع إلى معايير أساسية الأولى هي غياب السيطرة على الواقع الثقافي والاجتماعي، وهو ما يتم بشكل عفوي طبيعي وحر عن طريق الاحتكاك المباشر.

أما المعيار الثاني فهو ذو طابع ثقافي محض يعتمد على نسبة الانفتاح والانغلاق لدى هذا المجتمع³، ولعل العامل الجغرافي والتاريخي يلعبان دورا أساسيا في حدوث ذلك إذ يخلقان معا مجتمعا هلاميا قابل للتفاعل مع المتغيرات الجديدة ولكي يتم التبادل الثقافي، يجب ألا تفهم الثقافة على أنها أشياء مجردة، بل إنها عناصر تجسدها وتحملها مجموعات بشرية عدة، تتمثل في جميع مظاهر التعبير

¹ مريم خالدي، المرجع السابق، ص 204.

* جاء مصطلح المثاقفة على وزن مفاعلة، وهو من فعل ثاقف أو ثاقفه مثاقفة وثقافا فثقفه كَنَصَرَه، غَلَبَهُ فغلبه في الحدق، والفتانة، وإدراك الشيء، وفعله. أنظر السيد مُجَد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مصطفى الحجازي، باب الفاء، فصل التاء والفاء، مطبعة حكومة كوبي، 1996، ص 63.

² إحسان هندي، المثاقفة وحوار الثقافات، مؤسسة الصحافة والطباعة والنشر، دمشق، 2009، ص 23.

* روجي باستيد Roger Bastide عالم اجتماع وأنتروبولوجيا فرنسي ولد سنة 1898 وتوفي 1974، شغل منصب أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة السوربون، كما أشرف على معهد علم الاجتماع ودراسة النفسيات (Psychoanalyse) قدم على إصدارات منها "النفسية الاجتماعية"، "تداخل الحضارات"، حيث أورد فيها العديد من المصطلحات الجديدة منها تقديم تعريف دقيقة للتبادل الحضاري بين المجتمعات. (للمزيد أنظر: Claude Rovelet, Roger Bostide, Dictionnaire biographique des protestants Français de 1787 a nos jour, Tome 1, Edition Max Chaleil, Paris, 2015, (p 194-195).

³ دوني كوتش، فهو الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص 74.

الإنساني سواء تعلق الأمر بالأدب، الفنون، المعتقدات، الأخلاق، وكل ما تعلق أيضا باللباس، السكن والأكل.¹

وانطلاقا من هذا السياق يجب أن نقف على أنواع التبادل الثقافي وأنماطه فأساس النوع الأول، يطلق عليه المثاقفة التلقائية التي تقوم أساسا بشكل بسيط ومحدود من خلال التلاقي الناتج عن الاتصال الحربي أو السلم، وهذا النوع لا يحمل أبعاد بنيوية ويكون عادة بشكل مباشر.²

أما النوع الثاني فيمثل في التبادل الثقافي الطوعي وهذا النوع يتم على مستويات أولها التمثل وتعني تلقي المنتج الثقافي الأجنبي وإدخاله ضمن النسيج الثقافي المحلي، حيث يتم جمع الروابط المتكاملة لتظهر بصورة كاملة، يصبح لا يمكن فيها تمييزه على أنه عنصر واحد، مثال: التفاعل الأندلسي والعثماني في الجزائر، أما المستوى الثاني فيطلق عليه التعايش والتجاور في إطار عدم الرفض الذي لا يعني بالضرورة قبولا تاما، وقد يظهر ذلك في بعض (الحالات) العادات الدخيلة الوافدة على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني والتي أصبحت تكون مشهدة من مشاهد الحياة الثقافية العامة لهذا المجتمع (التواجد الأوروبي).³

ومن هنا يمكن القول أن نمط الدمج أي اقتباس الثقافة المحلية لعناصر من الثقافات الأجنبية لا يؤدي إلى تغيير كبير في قيم ومبادئ الثقافة المحلية، كما لا يؤدي إلى انهيارها أو نزع كينونتها الأساسية بحيث تستطيع أن تعود إلى أنماطها الأصلية كلما اقتدت الضرورة ومعطيات الواقع.

(ففاعل المثاقفة) أي التفاعل الثقافي يتم تدريجيا عندما تقوم الثقافة المحلية بتشرب عناصر الثقافة الأجنبية، فتخلق في النهاية مفاعيل مقتبسة لقيم ومعارف وسلوكات جديدة.⁴

وهو ما كانت آثاره على المجتمع الجزائري في أشكالها المادية والمعنوية في شكل تماثلات شملت العمران، اللباس، الأكل، الاحتفالات، والطقوس... الخ

¹ سارة بوزرور، الترجمة والمثاقفة، مجلة البدر، المجلد 09، العدد 07، منشورات جامعة بشار، الجزائر، 2007، ص 210.

² جان فرانسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2، 2011، ص 119.

³ صلاح السردى، المثاقفة وسؤال الهوية، مساهمة في نظريات الأدب المقارن، دار الكتي للنشر والتوزيع، 2013، ص ص 76-77.

⁴ <http://www.diwana.larab.com> article de 1955.spip-pit

⁴ إدغار موران، النهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي الثقافة والتراث، ط1، أبو ظبي، 2009، ص 71.

فحدث التغيير الثقافي في الظواهر التي نشأت عندما تدخلت جماعات من الأفراد ذات انتماءات قافية مختلفة في اتصال مباشر مع مجموعة بشرية أخرى¹، ترتب عنه تغيير في الأنماط الثقافية الأصلية للجزائر العثمانية كنتيجة لاحتكاك مستمر ومباشر هذا الاحتكاك الذي يحمل اتجاهها وسطيا بين الانفتاح المطلق الذي يؤول إلى الانصهار في ثقافة الآخر وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول أحيانا إلى الانعزال، فهو بالأحرى رافدا لكل أمة من أجل معرفة الآخر واستثمار ما لديه من معطيات إنسانية وحضارية وهو ما ينتج عنه تسمية كيانها الثقافي بشكل لا يضر بمقوماتها وثوابتها². خاصة عندما يكون هذا الآخر هو الدولة العثمانية بكل الزخم الحضاري الثقافي والذي عرفته منذ القرن الخامس عشر ميلادي.

أ- التفاعل الثقافي الأندلسي:

بعد أن أفل نجم الأندلس بسقوط جل حواضره، لم يبق لسكانه خيارا إلا شد الرحال والهجرة إلى البلدان الإسلامية المجاورة لعلهم يجدون الأمن والأمان، فاندفعت الوفود نحو بلاد المغرب الأوسط، وخاصة بعد إصدار فتاوي يحرم العيش في بلاد الكفر، فتعددت أشكال الهجرة وشملت جميع شرائح المجتمع الأندلسي³، لا سيما أهل العلم والأدب والسياسة الذين أطلق عليهم بالجماعة الأندلسية، وقد وصفت الجالية الأندلسية الوافدة منذ القرن السادس عشر ميلادي بالطبقة الغنية التي حلت بمجتمع إيالة الجزائر العثمانية⁴، استقروا بالمدن مشكلين طبقة جديدة داخل هذا المجتمع تميزت بالنفوذ والثروة والمكانة الراقية وإلى جانب هؤلاء توافدت فئات أخرى من الفقراء، التجار وحتى المغامرين⁵.

والملاحظ أن هؤلاء وجدوا في الجزائر أرض تشبه أرضهم وأهل استقبلوهم بحفاوة وترحاب، فاستوطنوا وعمروا المدن، القلاع والحصون وشيدوا مدن جديدة ساحلية وقريبة من السواحل مثل القليعة،

¹ إبراهيم عرقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط2، ص 32.

² إدغار موران، المرجع السابق، ص 71.

³ وصف العلامة ابن خلدون (132-808هـ/1332-1406م) أهل الأندلس بذكائهم واعتنائهم بالشعر الذي بلغ التتميق فيه الغاية ما أثر في أهل تلمسان. (للمزيد أنظر عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، ص 54).

⁴ نصر الدين سعيدوني، صورة من الهجرة الأندلسية على الجزائر، المجلة العربية، العدد 27، المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سبتمبر 1994، ص 238.

⁵ نصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 35.

البليدة، شرشال وأثروا بمهاراتهم الراقية في مختلف جوانب الحياة العامة، بل ونشروا بعمق أنماط الحضارة الأندلسية.¹

وبذلك وفد على إيالة الجزائر نمط ثقافي جديدة عرف بالطراز الأندلسي الذي ساهم بدوره في تثبيت الحكم العثماني، وذلك من خلال النشاط الاقتصادي، التجاري والحرفي الذي تم احتكاره من طرف الأندلسيين، وثق أيضا الصلة والعلاقات بين مختلف فئات المجتمع الجزائري من خلال الاحتكاك المباشر بين الطرفين.

إضافة إلى نشاطهم الواسع في المجال الثقافي والعلمي الذي كان له الأثر البالغ على الحياة الثقافية طوال الوجود العثماني في الجزائر، حيث استحوذوا على جميع فروع المعرفة، بل وأحدثوا ثورات في المعارف الأدبية، الفنية، الفقهية، المعمارية...²

فتمتع أهل الأندلس بمكانة خاصة في المجتمع الجزائري لاسيما لدى العثمانيين الذين لكفاءاتهم ومهارتهم المختلفة ثم تعيينهم في الإدارة وتسيير الأوقاف العثمانية³، وعلى غرار العثمانيين اعتبرت الكثير من العائلات الأندلسية نفسها في أرقى درجات التحضر، اللطف والأخلاق مقارنة مع سكان البلاد، فبالرغم من التقارب الديني واللغوي مع الجزائريين إلا أنهم لم يكن لديهم ميل كبير للاختلاط بهم، مما أدى إلى قلة حالات المصاهرة مقارنة بعلاقات الارتباط والمصاهرة مع العثمانيين من الحكام وكبار المسؤولين في الدولة من خلال زواج العديد من الباشوات والرياس من نساء أندلسيات.⁴

¹ حنيفي هلايلي، القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرامانات العثمانية (1492-1614) السجل العلمي لأعمال الملتقى الدولي الثاني حول العلاقات الجزائرية التركية، إشراف الدكتور ميسوم بلقاسم، قسم العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، 18-19 فيفري 2019، ص 334.

² نصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، المرجع السابق، ص 27.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج2، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 2009، ص 238.

⁴ عبد الحميد قدور، هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط مذكرة ماجستير تخصص التاريخ الإسلامي، معهد الحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1991، ص 219.

إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث تفاعل ونسج علاقات جيدة مع السكان، حيث تميزوا بلهجتهم العربية التي تأثر بها الجزائريين لرقّة مخارج حروفها وسهولة نطقها وهو ما ساهم بدوره في انتشار استعمال اللغة العربية في المدن التي استوطنها الأندلسيون، كما شاع استعمال المفردات الإسبانية¹ ولغة الفرانكا*.

كما استفاد الجزائريون من الخبرة العمرانية الأندلسية ولاحظ سعيدوني أن الجزائر لم تشهد نهضة عمرانية كالتي عرفتها بدءاً من مطلع القرن الخامس عشر ميلادي²، فأصبح في الحواضر الجزائرية عدد كبير من المنازل التي تعود للأندلسيين قدرت بحوالي إثني عشرة ألف منزل، كما عملوا على تنظيم العيون³، والسواقي ونظموا الري في كل من الجزائر، تنس، دلس، جيجل، عنابة، تلمسان، وغيرها...⁴

وقد ساعد امتزاج الفن الجزائري بالأندلسي على تشييد مدن شبيهة بالمدن الأندلسية، حيث برع أندلسيو الجزائر في النقش والزخارف الهندسية ذات أسلوب مغربي أندلسي مبهج⁵، فأصبحت تلمسان مثلاً بينائها وحدائقها أشبه بأشهر مدن الأندلس على غرار إشبيلية وغرناطة⁶، ونتيجة لهذا التفاعل الثقافي ظهرت الحواضر الجزائرية الكبرى بطابع عمراي خاص، في هندسة البناء والمواد المستخدمة، كما تغير المنظر الخارجي، حيث ظهرت الحدائق والمساحات الخضراء في كل مكان.⁷

¹ حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي المورسكي، دار الهدى، الجزائر، 2018، ص 133.

* الفرانكا أو Fraqué وهي خليط من كلمات متعددة إسبانية وإيطالية وبعض المفردات البرتغالية شكلت وسيلة للتواصل بين الأسرى المسيحيين وباقي سكان المدينة. للمزيد أنظر: Thomas Hees, Journal d'un voyage à Alger, Trad par G.H. Basquet, in RA, Alger, 1957, p 92.

² ناصر الدين سعيدوني، صورة من الهجرة الأندلسية، المرجع السابق، ص 235.

³ كان حظ الجزائر من هذه الأعمال الكبيرة اكتشاف العيون الغزيرة بضواحي الجزائر وجلب مياهها مثل عين الحمامة التي أنشأت من طرف المهندس الأندلسي "أسطى موسى" الذي تمكن من إيصال مياهها إلى المدينة على مسافة 48 كلم ما بين (1610-1616). (أنظر ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص 138).

⁴ بن عزوز نبيلة، أندلسيو الجزائر آثارهم وتاريخهم (حاضرة تلمسان أمودجا)، رسالة دكتوراه، قسم اللغة والأدب العربي والحضارة الإسلامية، جامعة تلمسان، 2017-2018، ص 119.

⁵ ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط2، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 35.

⁶ محمد الطمار، الروابط الثقافية، بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 239.

⁷ فريدة شقرون، قراءة تقييمية للأثر الفن الأندلسي والمدحي على الفن المعماري للمغرب الأوسط، مجلة الإمارات للبحوث الأندلسية، عدد 23، الجزائر، 2018، ص 38.

ولعل من أبرز مجالات التفاعل الثقافي الأندلسي أيضا مجال الموسيقى (والفنون عامة) التي طبعت النمط الفني الجزائري بأسلوب جديد.¹

إضافة إلى مجال التعليم الذي احترفوا مهنته لاسيما في الحواضر الكبرى ما جعلهم يساهمون في ازدهار الحركة الفكرية والعلمية بالجزائر.²

وهو ما سيأتي التفصيل فيه لاحقا.

وعموما فقد حاول ناصر الدين سعيدوني في نفس اتجاه ما أورده لنا المصادر تعداد النماذج النخبوية من الجالية الأندلسية التي أشرفت على بعض الممتلكات بالإيالة، وقد كان منهم وكلاء نظار ورجال علم مخلص إلى أنه رغم أنها لا تنتمي إلى العنصر المحلي لكنها بذلت جهودا على مستويات عديدة في إنشاء جمعيات ضمت ثلة من النخب الأندلسية وصارت من خلالها تساهم في بناء الزوايا والمساجد، المدارس القرآنية مما زاد من تعاضم دورها في المجتمع ولدى السلطة الحاكمة³، وهو ما أدى إلى ولادة بنية تقليدية نخبوية نافذة في الإيالة خلقت حركية مميزة نظرا لتعدد نشاطاتها الاجتماعية والثقافية وخاصة الاقتصادية، فانسجمت مع باقي الطبقات الاجتماعية بفعل عامل التأثير والتأثر أو التفاعل والتمازج الثقافي بين الطرفين.⁴

ب- التفاعل الثقافي العثماني:

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله أن إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية شكل رصيذا ثقافيا لهذه الأمة، أو الجسر الذي ربط قيم الماضي بمعطيات الحاضر، فكان بمثابة السياج الذي أكسبها المناعة ومكنها من التطور، وحفزها على الإسهام الحضاري الذي جمع بين عمق الأصالة وجديد الحداثة... فمنذ القرن السادس عشر الميلادي أصبح بعض الكتاب يتحدثون عن الجزائر باعتبارها إسطنبول الصغرى لما

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، المرجع السابق، ص 63

² مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج4، ط2، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 56.

³ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 40.

⁴ حنيفي هديلي، المورسكيون الأندلسيون في الجزائر خلال القرنين 16 و17م، منشورات مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014، ص 164-184.

توفر فيها من البضائع، الحرف، المؤسسات الدينية والعلمية، وكذلك المكانة المرموقة التي أصبحت عليها في حوض البحر الأبيض المتوسط.¹

لعل التركيبة السكانية العثمانية في كونها خليط من الأجناس السواد الأعظم منهم لم يكونوا أتراكا، بل هم من الوافدين من ألبانيا، البوسنة والهرسك، كريت، قبرص وغيرها، أدى إلى التنوع الثقافي في كون هذا الخليط قد انصهر في بوتقة واحدة هي الحضارة العثمانية.²

كما ساهم اللسان اللغوي العثماني في إثراء هذا التفاعل فقد أحصى الشيخ محمد بن أبي شنب في دراسته حول الكلمات التركية والفارسية في العامية الجزائرية عدد ما يقارب (634) ستمائة وأربعة وثلاثون مفردة في مختلف التخصصات، إضافة إلى بعض الأمثال التي شاع استعمالها في إيالة الجزائر.³

وقد تجسد التفاعل الثقافي العثماني من خلال إيفاد جماعات من الأتراك من ثقافات وانتماءات مختلفة إلى الجزائر، فإلى جانب فرق الإنكشارية وفد فنانون، حرفيين، تجار وغيرهم، انجذبوا بالزخم العسكري والاقتصادي الذي حققه العثمانيون في حوض البحر الأبيض المتوسط، فأخذوا يتوافدون أفرادا وجماعات، وكان الكثير منهم يستقر ويمارس نشاطه الحرفي والتجاري في الجزائر.⁴

ذكر هايدو (Haydo) "من... بين الحرفيين الأهالي كانت هناك مجموعة من الأتراك الإنكشاريين يلحقون بالحرب أو القرصنة دوريا، هؤلاء الرجال تارة جندا وتارة أخرى عمالا صناعا..."⁵.

وتشير الإحصائيات عن عددهم في الفترة ما بين 1699-1702 أنه من بين واحد وسبعون حرفيا جزائريا ورد ذكرهم في دفاتر المخلفات ستة (06) منهم كانوا أتراكا في مختلف الأعمال الفنية

¹ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، دار الرائد، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 195.

² عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830، مقارنة اجتماعية، اقتصادية، منشورات (ANEP)، الجزائر، 2007، ص 37.

³ عبد الرزاق عبيد، الألفاظ التركية والفارسية الباقية في عامية الجزائر (محمد بن أبي شنب (ترجمة)، مجلة اللغة والأدب، الجزء 12، العدد 01، جامعة الجزائر، ص ص 16-17.

⁴ Lemnour Merouche, Recherche sur L'Algérie à l'époque ottman, Monnais prix et revenues 1520-1830, EDIF, Alger, 2000, p 251.

⁵ Diego Haedo de, Topographie et histoire générale d'Alger, Trad par Monnereau et A. Berbrugger, Revue A, 1871, p 496.

والحرفية ساهموا في عملية تكيف واندماج الإرث المحلي والتيار الوافد وهو ما شكل وجه من أوجه التفاعل الثقافي.¹

وبحكم التبعية إلى الدولة العثمانية أيضا كانت المؤثرات الثقافية العثمانية تصل إلى الجزائر بشكل غير مباشر من المشرق خاصة مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية من روافد مختلفة أهمها قوافل الحج التي كانت تتم إما برا أو بحرا مروراً بالإسكندرية أو القاهرة²، فتمكن الجزائريون من خلال المعاينة المادية المباشرة من الآخر بالمظاهر المعمارية والفنية والثقافية عامة وهذه العمائر المستحدثة في بلاد المشرق كانت بدورها متأثرة بالتأثير الثقافي العثماني.³

انتقل هذا التأثير إلى الجزائر في فترات متقطعة ومنه أصبحت المظاهر الثقافية العثمانية تبدو واضحة في الجزائر.⁴

وما يلاحظ أن هذا التأثير الثقافي العثماني والموروث المحلي قد تعايشا معا وامتزجا في كثير من الأحيان، ويظهر ذلك جليا من خلال التراث المادي وخاصة العناصر المعمارية وفن الزخرفة المستوحى من الحضارة الإسلامية وهو نفسه الذي تردد صداه في جميع أقاليم الدولة العثمانية.⁵

ومن أبرز مظاهر التأثير في الجانب المعماري يظهر جليا في المساجد التي عني العثمانيون ببناء الكثير منها في بعض الحواضر الجزائرية الكبرى والتي استوحيت هندستها من الطراز العثماني في ظهور القبة المركزية والزخرفة الداخلية.⁶

وقد بدى واضحا في أبرز مساجد الجزائر مثل جامع علي بن بشين (1032هـ-1622م) والجامع الجديد (1070-1660م) وغيرها...¹

¹ عائشة غطاس، المرجع السابق، ص ص 264-291.

² درقاوي منصور، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (10-13هـ/16-19م) بين التأثير والتأثر رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد بن بلة، قسم التاريخ والآثار، 2015، ص 45.

³ الحاج صادق، دور ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي بين الجزائر وبلاد المشرق خلال العهد العثماني، مجلة المفكر، الجزء الخامس، العدد الأول، الجزائر، 2021، ص 74.

⁴ R. Bourouiba, L'Art musulman en Algérie, SNED, Alger, 1972, p 13.

⁵ R. Bourouiba, Apports de l'Algérie a l'architecture religieuse Arabo islamique, O.P.U, Alger, 1986, p p 235-319.

⁶ R. Dokali, Les mosquées de la période turque a Alger, SNED, 1974, pp 37-40.

كما استخدم الزليج بشكل واسع في المنشآت الدينية والمدنية والمرافق العامة والبلاط الخزفي متعدد الأشكال الذي تم جلبه من مدن الإمبراطورية أو من بعض دول أوروبا مثل إيطاليا، إسبانيا وهولندا، والتي استخدمت في البداية في تشييد تصور العثمانيين مثل قصر مصطفى باشا، حسن باشا، دار خداج، دار الحمراء وغيرها...، ثم عرفت في بيوت الجزائر خاصة في الحواضر الكبرى.²

ومن التأثيرات العثمانية أيضا استخدام رمز الهلال الذي يعتبر الشعار الرسمي للإمبراطورية منذ عهد السلطان سليمان القانوني، حيث استخدم بشكل واسع في إطارات الأبواب (الرخامية) الداخلية والخارجية، في أعلى المآذن، مفاتيح العقود، سياجات النوافذ وفي بعض الملابس.³

هذا إضافة إلى التأثير العثماني الكبير في مجال العادات والتقاليد، وهو موضوع عميق وشاسع سيأتي التفصيل فيه لاحقا.

ويبقى ما ذكرناه في مجال التفاعل الثقافي الجزائري العثماني، على سبيل المثال لا الحصر، فالموضوع في حاجة إلى دراسات مستفيضة وعميقة، نظرا لطول فترة الوجود العثماني، وطبيعة الروابط الدينية والعقائدية التي جمعت الطرفين.

ج- التفاعل الثقافي الأوروبي:

عرفت مدينة الجزائر في بداية القرن السادس عشر ميلادي بأنها مدينة متوسطة منفتحة أمام المؤثرات الخارجية فسكانها خليط من الأجناس، مستقرين بشكل دائم أو مؤقت أدى إلى تعدد الثقافات وتنوعها وتفاعل بعضها وامتزاجه أحيانا كثيرة مما خلق فسيفساء انعكست آثارها الواضحة على الحياة الثقافية في الجزائر.⁴

¹ R. Dokali, Op-cit, p 40.

² محمد الطيب عقاب، القصور بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، مدخل إلى العمارة الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص ص 45-79.

³ علي خلاصي، قصبة الجزائر (القلعة، وقصر الداوي)، ج2، دار الحضارة، ط1، الجزائر، 2007، ص 141.

⁴ Corine Chevallier, Les trente premières années de l'état d'Alger 1510-1541, Office des publications universitaire, Alger, 2002, p 18.

إن وجود هذه المجموعات البشرية المتجاورة في بقعة جغرافية واحدة تختلف في انتمائها الديني القومي والمذهبي بعد نموذجاً للتعايش رغم وجود الاختلاف والصراع¹، والواقع كان مختلفاً مع الأوروبيين الذين كان غالباً ما يطلق عليهم فئة الدخلاء، وهي تلك الجماعات الأجنبية الأوروبية التي استقر بعضها بالمدن الجزائرية بصفة تجاراً أو دبلوماسيين أو رجال دين ونادراً ما نجد معظمهم استقر بصفة دائمة، تميز هؤلاء بالتعدد والتنوع في عناصره وأفراده، كما ارتبط نشاطها الذي مارسته بالإيالة.²

يقول أبو القاسم سعد الله أن المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني مجتمعاً مغلقاً على نفسه أمام الأفكار الأوروبية التي قلما تسربت إليه وإن حدث ذلك فإنه سرعان ما يعرف على أنه إنتاج الكفار، كما حدث عندما سمع بعض الجزائريين بأخبار الثورة الفرنسية، فقد عرفها "أحمد بن سحنون" مثلاً على أنها قضية هم الفرنسيين (الكفار) وحدهم ودعا عليهم بأن يجعل الله كيدهم في نحهم وكان الحاجز الذي بين إيالة الجزائر وأوروبا أقوى من الحاجز التجاري والسياسي.³

فسكان الجزائر لم يكونوا مبالين بما كان يحدث في أوروبا أو يرد إليهم منها من مؤثرات (مادية أو معنوية) ثقافية، أو حضارية ومن تقدم علمي وصناعي، وبالرغم من وجود بعض علماء الجزائر على رأسهم ابن العنابي⁴، وابن حمادوش الذين تأثروا بالعلوم العقلية للأوروبيين ودعوا في كتاباتهم إلى تقليدهم ومجاورتهم فيما ابتدعوه من الصنائع والعلوم مجازين ذلك بما ورد في الكتاب والسنة من أحاديث صحيحة ما دام لا يتعارض مع أمور الدين.⁵

¹ محمد الطمار، المرجع السابق، ص 10.

² خديجة خالة، الجاليات الأوروبية في العهد العثماني (1700-1830)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2012-2013، ص 06.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، مرجع سابق، ص 159.

⁴ اسمه الكامل محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري شهرته ابن العنابي (1189-1245هـ/1775-1851م) ينحدر من عائلة اشتهرت بالعلم فجدده الأكبر شغل مفتي الأحناف (شيخ الإسلام)، تقلد ابن العنابي عدة وظائف رسمية أهمها: وظيفة نقيب أشرف مكة والمدنية، ثم قام بدور دبلوماسي عندما ترأس وفداً للباب العالي إلى المغرب الأقصى، عاش في أوج الفترات التاريخية التي ميزت القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلاديين، في الجزائر والخارج، حيث عاصر حروباً داخلية كثورة الطريقة الرقادية وخارجية ضد الإنجليز، الفرنسيين وغيرهم. (للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، التجديد الإسلامي محمد بن العنابي المتوفى 1850م صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، ط2، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1990، ص ص 19-35.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 159.

إلا أن حالة الانغلاق أمام المؤثرات الأوروبية السائدة في المجتمع الجزائري أدت إلى رفض كل ما يأتي من الضفة الشمالية للبحر المتوسط بجميع مظاهرها، لذلك في وقت قطعت فيه أوروبا خطوات هائلة في التقدم في جميع المجالات كانت المدن الجزائرية ما تزال خلال هذه الفترة من أواخر العهد العثماني تعيش بأسلوب العصور الوسطى في أوروبا وكل جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية كانت على النمط التقليدي¹، فلا وجود للمطبعة ولا للصحف نظرا لمعارضة العثمانيين بحجة عدم فقدان الناسخين لحرفتهم وخبرتهم.²

فلا غرابة إذن أن يكتب الكثير من الأجانب خلال القرن الثامن عشر ميلادي واصفين الحالة العامة بالجزائر بالجمود والركود وانعدام التجديد وأي نشاط عقلي، فكتب الشاعر الإيطالي بانتي قائلا: "بأنه كثير ما يخرج إلى شوارع مدينة الجزائر فلا يجد شيئا يستدعي اهتمامه فلا مكتبة ولا مقهى فيه جريدة..."³.

وهنا يعيب الكثير من الباحثين عن سياسة العثمانيين الذين لم يشجعوا على الاختلاط بين الأوروبيين والسكان الحضري في المدن والحواسر الكبرى، بل عملوا على خلق نوع من القطيعة والعداوة بين الطرفين لدوافع دينية أخلاقية واجتماعية، أبرزها ظاهر القرصنة والأسر.⁴

في وقت كان فيه حدوث الاحتكاك والتمازج سيعطي هذا العهد بعدا تفضيلا وحضاريا مثلما كان الشأن في الجانب العسكري الذي أكسب الجزائر مكانة وهيبة عالمية، فالجزائر لم تكن بعيدة عن المؤثرات الأوروبية، كما أنه على الصعيد الداخلي تواجدت طاقات مختلفة من المجتمع الأوروبي التي

¹ ابن حموش مصطفى، المدين والسلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دار البشائر للطباعة والنشر، ط 1، دمشق، 1991، ص 249.

² وهناك عوامل أخرى رفض استعمال العثمانيين لفن الطباعة تمثلت في الخوف من قيام الأوروبيين من تحريف الكتب الدينية وتشويهها وتوجيهها لمآربهم الخاصة، وقرب الفكر والثقافة الأوروبية إلى المجتمعات الإسلامية، والخوف أيضا من ارتفاع نسبة العلم والمعرفة وشيوعها بين العامة وخروجها عن سيطرة العثمانيين لذلك وصل الأمر بسلاطين العثمانيين إلى تجريمها لكونها قادمة من "بلاد الكفرة" وبقي الأمر ذلك إلى غاية إصدار فرمان سنة 1716 بالترخيص بإنشاء مطبعة في عاصمة الإمبراطورية دون غيرها. (للمزيد أنظر ميشال مراد، الرفض العثماني الطويل لفن الطباعة، أسبابه ونتائجه، ثقافات، مقالة إلكترونية 16/claudeabouchakra نوفمبر 2017).

³ أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 160. أنظر أيضا وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر، 1816-1834، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل الغربي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982، ص 37.

⁴ قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة مصطفى أسطمبولي، معسكر، 2015-2016، ص 134.

انطلقت منها النهضة فألفت أدبيات عديدة عن الجزائر، إلا أن هاته الفئات لم يسمح لها إلا بدور هامشي في الحياة العامة.¹

ولعل المجال الوحيد الذي نجد فيه نوعا من التفاعل الثقافي، والاحتكاك الجزائري الأوروبي كان في اللغة كوسيلة للتواصل لأهميتها الاقتصادية في المبادلات المعاملات، حيث ظهرت لغة الفرانكا خليط من المفردات الاسبانية الإيطالية والفرنسية، كانت شائعة الاستعمال في مدينة الجزائر.²

وما وجد بعدها من هذا النوع من التفاعل والاحتكاك يعتبر حالات قليلة جدا ومعزولة عن روايات وردت في بعض الكتابات الأجنبية عن علاقة بعض الأسرى الأوروبيين وتأثيرهم على أسيادهم.

3- الذهنيات والحضور الديني في الجزائر العثمانية:

يرى جاك لوغوف في تاريخ الذهنيات أن على المؤرخ أن يبحث عن مفاتيح الاستراتيجيات الجماعية، عن نظام القيم والتنظيمات الجماعية، أي يبحث عن مختلف القنوات التي تكون ثقافة ريفية وحضرية، شعبية أو نخبوية من أعياد ماثورات شعبية، ونذكر هنا مثلا ذهنية الدين الشعبي الذي احتل مكانة أساسية في الكتابة التاريخية لمجتمع ما.³

ويرى أيضا وجود تفاهم بين أناس من ثقافات مختلفة لا يكون الا من خلال وجود ببساطة ذهنية الآخر وحالات الاستمرار (الديمومة والواصل الزمني) الذي يولد تفاهم ليصبح الاختلاف شرطا للتمييز وهو ما يفصل ثقافة الآخر عن الثقافة المحلية ويعطيها ميزتها⁴

وعلى ضوء ذلك تظهر الجزائر العثمانية في نظر ويليام سبنسر بأنها تملك تركيبة اجتماعية تقوم على التنوع العرقي، من حيث الأصول والخلفيات لمجموع السكان بها، فقد أدى حضور الأتراك إلى تزويدها بلحمة هامة من الامتزاج الثقافي والانسجام الاجتماعي فبلغت البلاد درجة عالية من الترابط الاجتماعي.⁵

¹ خديجة خالة، المرجع السابق، ص 12.

² وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص 102.

³ جاك لوغوف، المرجع السابق، ص 302

⁴ نفسه ص 305

⁵ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 97.

ويشير أيضا أن الممارسات الاجتماعية للدين كانت عميقة في إيالة الجزائر وتكاد تسيطر على الذهنية الجماعية للمجتمع الجزائري، إذ تظهر المظاهر الإسلامية في كل جوانب الحياة العامة للمجتمع الجزائري من الولادة حتى الوفاة.¹

وفي ذات السياق يقول شلوصر أن الدين هو القوة الروحية الوحيدة التي تتمثل في المرابط، والتي تتجسد بالتالي في حب المسلم للسيطرة فيخضع للإرادة الكاملة لهذه القوة الروحية التي تسيّر مختلف جوانب حياته الخاصة والعامة وتؤثر بالتالي في مجمل تصرفاته.²

كما أن التعلق الشديد للأتراك بالدين أدى إلى تعاضم مثل تلك العادات الدينية، التي ترسخت في الذهنية الجماعية للمجتمع الجزائري وتشير الكثير من المصادر الأجنبية إلى دور المرأة في الحضور الديني في مجتمع إيالة الجزائر من خلال ممارستها لمختلف الطقوس -التي سيرد ذكرها بالتفصيل لاحقا- مثل زيارة الأضرحة، القباب بانتظام لتفتحن المطلقة أن كرامات الولي (المرابط) هي الحل لكل مشاكلهن اليومية.³

وبالعودة إلى أصل هذه الظاهرة من الحضور الديني القوي نجد أن نفوذ وسلطة الظواهر قبل الوجود العثماني يعود نتيجة للفراغ السياسي وحجم الأخطار الداخلية والخارجية التي هددت المنطقة، حيث تمكنت السلطة الروحية (المتتمثلة في المرابط) من جمع العديد من القبائل حولها وإشعار العامة بالمصير المشترك، فأعتمد أصحاب الطرق الصوفية التي أخذت في الظهور والانتشار على الدعاية ونشر الفكر الديني بين أوساط السكان بداية من الأرياف وصولا إلى المدن والحواضر.⁴

فالأولياء كانوا يمثلون وعي الجماعات بذاتها ويرمزون لوحدها وتماسكها، فكان من الطبيعي جدا أن يصبح هؤلاء بمثابة الملجأ والملاذ والقادة الروحيين الذين حظوا بين أوساط العامة بتبجيل وقداسة أثناء حياتهم وحتى بعد مماتهم⁵، خاصة بعد تجند هؤلاء لرفع راية الجهاد للدفاع عن الثغور الإسلامية والوقوف

¹ المصدر نفسه، ص 97.

² فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، تر وتقديم أبو العيد دودو، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 125.

³ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 125-126.

⁴ محمد الأمين بلغيث، النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ محمد بن عمر العدواني، المجلة التاريخية المغربية، العهد الحديث والمعاصر، العدد 117، 2004، ص 40.

⁵ كمال بن صحراوي، الحياة الريفية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الأيام، الأردن، 2019، ص 98.

في وجه الهجمات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط فكانت لهم اليد العليا في الدفاع عن بجاية وفتح وهران، وذلك كان للدور الجهادي للأولياء الذي ساهم في بروزهم على الساحة واكتسابهم مكانة مرموقة داخل المجتمع واحترام من طرف السلطة العثمانية.¹

فالعثمانيون ومنذ وصولهم إلى المنطقة أدركوا عمق المكانة التي كان يحتلها هؤلاء داخل مجتمع الإيالة وأن نجاحهم في حكم البلاد يتوقف على مدى نجاحهم في كسب علاقة ودية مع هؤلاء القوى الروحية، فطبوعوا نظام حكمهم لإيالة الجزائر بطابع ديني صوفي امتزج أحيانا بالدروشة، وبذلك ساهم العثمانيون من خلال هذا النظام في تعميق الذهنية الدينية الصوفية²، في مكانة المرابطين والأولياء لدى السلطة السياسية، فذكر الزباني أن الباي أثناء تحرير وهران قد استشار الولي الصالح محمد بن عودة* بتوقيت وموعد الحملة.³

وفي ذات السياق يذكر الدكتور كمال فيلاي أن المجتمع كان غارقا في قداسة هؤلاء، كما أن السلطة لم تستطع تجاوز السلطة المرابطية التي قامت بدور الوسيط بحكم ما علق عنها في المخيال الشعبي من فوارق وكرامات وظاهرة فرضتها الظروف نتيجة تغيرات تاريخية هامة.⁴

يضيف أن الباشوات وفي مناسبات كبيرة كانوا يستعينون بوساطة المرابطين، نظرا لمكانتهم لدى عامة الناس، بل وقد وصل هؤلاء أن لعبوا دور سفراء مثل الدور الذي قام به الشيخ الخروبي (ت سنة

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص 469.

² حمدان خوجة، المرأة محبة تاريخية وإحصائية حول إيالة الجزائر، نقد وتعريف محمد العربي الزبيري، ط.خ، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2005، ص 111.

* هو الشيخ سيدي أحمد بن عودة يقال أن نسبه ينتهي عند بيت آل رسول الله ﷺ، اجتهد في طلب العلم متنقلا بين الزوايا على يد أكبر شيوخ المنطقة أمثال محمد بن علي المجاجي، ثم رجع إلى منطقتة وأسس زاوية (منطقة فليته)، وقف مرابطا ومدافعا في سبيل الله عن الثغور ضد الاحتلال الإسباني، ولزهدده يقال أنه لم يتزوج وظل مرابطا في هذه الزوايا، ولمكانته وقداسته في منطقة الغرب الجزائري خصصت له وعدة سنوية تقام في ضريحه. للمزيد أنظر محمد مفلح، أعلام منطقة غليزان، مطبعة دار هومة، ط1، الجزائر، 2006، ص 38.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 98.

⁴ Kamel Filali, Sainteté maraboutique et mysticisme, contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination Ottoman, insanityat, N° 03, 1997, p 124.

(1569) في تمثيله لحكومة الأتراك لدى الأشراف السعديين بالمغرب الأقصى حيث أرسل من طرف حسن باشا ابن خير الدين للتفاوض معهم.¹

كما حصلوا على امتيازات هائلة، بما أحاطت بهم هالة من القداسة فصارت أضرحتهم آمنة لكل من لجأ إليها مهما كانت الجريمة التي ارتكبتها²، لأنهم أحياء أو أموات فهم عند العامة حماة البلاد والديار من الخطر الخارجي والكوارث، وحتى في زمن حدوث الأوبئة مثل الطاعون -الذي اعتبروه بدعوى من المرابطين- أن تسليط الأوبئة ما هو إلا تعبير عن غضب الله على عباده لارتكابهم المعاصي، كما فسروها بوجود قوى غيبية وأرواح شريرة وفي ظل عدم وجود مؤسسات صحية، ساهم المرابطين في تقديم طرق للعلاج منها تميز أغلبها بالشعوذة والدروشة مما ساهم في تفاقم الوضع الصحي في إيالة الجزائر خلال تلك الفترات.³

ونتيجة لذلك ساهمت هذه الظاهرة في إعادة بناء مجتمع يرجع ولاؤه الديني القبلي إلى الشيخ أو المرابط، فانسجم الاثنان وتكيفتا للدخول في مسرح الأحداث التاريخية لهذه الفترة، وأصبح الدين المحرك الرئيسي، بل ومصدر كل حدث يحرك مجتمع الإيالة الذي بني خلال هاته الفترة على ازدواجية الانتماء للقبيلة والولاء للطريقة، وهو ما كان له بالغ الأثر على الحياة العلمية والثقافية للجزائريين.⁴

4- قراءة في بعض المصادر المحلية عن تاريخ الفترة العثمانية:

يكاد يجمع جمهور المؤرخين الذين كتبوا عن الفترة العثمانية أن التاريخ كعلم لم يحظ بمكانة ذات أهمية في الجزائر العثمانية بالرغم من أن العلامة ابن خلدون الذي لم يكن بعيد العهد بالفترة، قد عرفه في القرن (14م) بأنه "فن غزير المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية إن هو يوقفنا على أحوال الماضين

¹ Ibid, p 126.

² سبنسر برمنغهام، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة وتعليق عبد القادر الجراوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1997، ص 396.

³ J. Foucqueron, Essai topographique et médicale sur la régence d'Alger, Paris, 1833, p 102.

⁴ بن معمر بوخضرة، الولي في المخيال الشعبي، الطريقة القادرية في الغرب الجزائري أمودجا، أطروحة دكتوراه في الأنثروبولوجية، جامعة تلمسان، 2011-2012، ص 126.

من الأمم في أخلاقهم والأغنياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا".¹

وبالرغم من ذلك لم يكن هذا الفن يحظى بالمكانة والأهمية التي أشار إليها العلامة ابن خلدون في مقدمته، فنجد الورثاني يذكر أن الجزائريين كانوا يحسبون التاريخ أمرا مضحكا لا يدرسه أهل الجد والدين، بل هو عند البعض ضد الدين والأخلاق²، وإن كان ذلك مبالغ فيه فالأكيد أن المؤرخين في هذه الفترة لم يحظوا بذلك الاحترام والتقدير الذي كان يحظى به رجال الدين، والتصوف وحتى الدراويش من حظوة مادية ومعنوية في نفوس الجزائريين وصلت كما أشرنا سابقا درجة التقديس في حياتهم وحتى بعد مماتهم³.

كما أن السلطة العثمانية لم تشجع -إلا في حالات نادرة- على الكتابة التاريخية ولم يكن للمؤرخين تأثير كبير في الحياة الثقافية والعسكرية، كما أن البلاط العثماني لم يجد فائدة تذكر في مثل هذا العلم مقارنة باهتمامها بالجوانب العسكرية والاقتصادية للبلاد (الدفاع عن الإيالة، جمع الضرائب، النشاط البحري، وإقرار الأمن الداخلي).، فالسلطة العثمانية من جهة أخرى كانت تضرب بيد من حديد لكل من يجرأ على التطاول على سياستها في الجزائر وهو ما أدى إلى عزوف كبير عن الخوض في هذا المجال عقيم الفائدة وفي نظرهم محفوف بالمخاطر⁴، وسياسة العزلة التي فرضت على المجتمع الجزائري أدخلت البلاد في حالة من الركود الثقافي والحضاري، مقارنة بما كان يحدث في أوروبا خلال هاته الفترة، لكن يمكن القول أن ما ميز القرنين (10هـ-16م) اقتصر التدوين التاريخي في كتابة بعض التواريخ المحلية والتراجم والرحلات، وظلت هاته الأحداث حبيسة منطقة جغرافية محددة، ثم اختلط التاريخ بالأدب وأجمع معظم الذين يتناولون بعض القضايا التاريخية على اعتمادهم على شروح، قصائد وأراجيز،

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار يعرب، دمشق، 2004، ص 92.

² عبد القادر صحراوي، الورثاني في مقدمة عن رحلته وملاحظات عن فضل علم التاريخ والأخبار، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 9 و10، د.ت، سيدي بلعباس، الجزائر، ص 110.

³ نبيلة شلابي، الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني، دراسة مقارنة أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة باتنة، 2021/2020، ص 489.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 10.

واعتمدوا أسلوب النقل والحشو من المؤلفات السابقة¹، لعصرهم بدون تمحيص أو نقد، كما انحصرت كتابة التراجم على بعض رجال الدولة، والصلحاء والأعيان، أما وصف الحياة العامة المتعلقة بالجانب الاجتماعي والثقافي فلا نكاد نجد منها إلا النزر القليل، وفي ذلك يقول أبو القاسم سعد الله "لم يكونوا واعيين أنهم يكتبون تاريخاً، حيث الذين ترجموا لعدد من الرجال كانوا في الغالب يقصدون وجه الأدب مثل ما فعل ابن عمار في (لواء النصر) أو يتركون بالترجمين مثلما فعل ابن مريم أو يجمعون بين التمجيد ومحاربة الفساد الديني مثلما ما قام به الفكون في (منشور الهداية)..."².

وفي ذلك علق شو: "إن كل معارف هاته الشعوب تنحصر في القليل من الجغرافيا وبعض الأطروحات غير المتناسكة ودونما ذوق في التاريخ الحديث لأن كل ما يقوله مؤلفوها عن الأوقات التي سبقت مجيء محمد هو مجرد نسيج من الحكايات الرومانسية"³.

فافتقدت الفترة إذن إلى تاريخ عام يغطي كل الجوانب الخاصة بالمجتمع الجزائري وهو ما فتح المجال أمام الكتابات الأجنبية بما فيها من غث وسمين ليملاً هذا الفراغ المعرفي والفكري الخاص بهذه الفترة الطويلة من الوجود العثماني في الجزائر.⁴

وبقي الحال على ما هو عليه إلى غاية النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي، حيث ظهرت الحاجة لدى السلطة العثمانية الاستعانة بالعلماء لتجديد شرعية وجودهم في الجزائر، هاته الشرعية التي تجاوزتها الظروف الداخلية والخارجية للبلاد، فظهر عدد من المؤرخين الذين جانبوا الموضوعية، وحملوا على عاتقهم الدفاع عن الحكم العثماني، لكنها تبقى محاولات محدودة كما ونوعاً وتمثل في مبادرات فردية تخلو في أغلبها من قواعد الكتابة التاريخية الصحيحة، فلا نكاد نجد لها تصنيف محدد لما اختلط محتواها في مجمله بالأدب والتراجم، لذلك كان من الضروري الإشارة وتقديم نبذة بسيطة لقراءات في بعض المصادر المحلية التي تعود لهاته الفترة، لعنا نجد فيها بعض المعلومات والتفاصيل التي

¹ عبوا إبراهيم، العلوم النقلية في الجزائر خلال العهد العثماني (10-13م/16-19م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2017/2018، ص 202.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 326.

³ Thomas Show, L'Algérie un siècle avant l'occupation Française, Trad par J. Mac Carthy, 2ed, imprimerie de Carthage, Paris, p 79.

⁴ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 326.

تمكننا من إجراء مقارنات مع ما ورد في المصادر الأجنبية، وذلك من أجل مقارنة تاريخية موضوعية ودقيقة لجانب الحياة الثقافية في الجزائر العثمانية.

أبرزها ما كتبه المصادر المحلية، يمكن تصنيفه حسب منهجية كتابته، وانتقاء النماذج التي تم الاعتماد عليها خلال هذه الدراسة:

أ- من كتب التراجم:

1- "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" لصاحبه عبد الكريم الفكون مؤلف تعرض فيه ترجمة لأكثر من سبعين شخصية في شكل مذكرات انتهى منها سنة (1035هـ/1635م)¹ قدم فيه صورة عن طبيعة البيئة في بايلك الشرق عامة قسنطينة بصفة خاصة، حيث أرخ لبعض الأحداث التي عرفتها المدينة وما جاورها، وميزة هذا المؤلف أن قدم لنا صورة عن حالة الركود الثقافي والفكري الذي كانت تشوبها الكثير من الخرافة والبدع، فيمن ادعى العلم والفنون، وكان نقدا مبينا على أحكام شرعية مستمدة من الكتاب والسنة، كما تكمن أهميته في تقديم لجانب من الحياة الاجتماعية في قسنطينة خلال هذه الفترة.²

وذكر في هذا السياق في مقدمة مؤلفه "أما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر وسحائب الجهل قد أظلت وأسواق العلم قد كدت... وربما صارت الطائفة البدعية مقطعا للحقوق وقسما يقسم بهم في البر والعقوق والطائفة الأخرى سطرت أناملهم في قراطيس السجلات ما يوهم من لم يرههم ممن يأتي في غابر الزمان أنهم من حزب العلماء ومن مشايخهم الأعلين..."³.

ومهما يكن من أمر فإن كتاب منشور الهداية بالرغم من قيمته المعرفية الهائلة إلا أنه يعد أقرب إلى المؤلفات الأدبية الإصلاحية منها إلى مصنفات التراجم على الرغم من تقديمه لعدد كبير من الأولياء والمتصوفة ممن صنّفهم من أهل البركة، الصلاح، الولاية، فيذكر فيه عجائب الكرامات والمقاومات

¹ Ernest Mercier, Constantine au XVI siecle, Elévation de la famille El Feggoun, R.A M.S.A, Arnolet, Constantine, 1879, pp 15-16.

² عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، نقد وتح وتعليق أبو القاسم سعد الله، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص ص 32-33.

³ نفسه، ص 37.

والمنامات ونفحات لبعض الشيوخ وهو بذلك في التقدير من المصادر الصوفية اعتقادا وانقيادا سائرا على خطى سلفه وأهل زمانه من شيوخه.¹

ب- أدب الرحلة:

لقد أضاف الجزائريون إلى أدب الرحلة عدة مؤلفات وكان لهم حضور فيها خلال العهد العثماني، إلا أنها قليلة، إذا ما قورنت بالرحلات الأوروبية أو رحلات أهل المغرب الأقصى على سبيل المثال: ذاتية تعددت أغراضها وأهدافها (أغراض سياسية، علمية...)،² ولعل من أبرز الرحلات الجزائرية خلال هذه الفترة الرحلة الحجازية التي ظهرت كفن من فنون الكتابة التاريخية، ذات القيمة العالية لما قدمته من إنتاج معرفي غزير في شتى المجالات والحقول.³

ونظرا لما تقتضيه ضرورة البحث اقتصرنا الحديث، على من وصفه أبو القاسم الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف "العلامة المحقق الحافظ والبحر الجامع المدقق اللافظ من هو ليث الدين أوثق أساس وأوضح نبراس الإمام القدوة المتقن سيدي محمد أبو راس بن أحمد ابن ناصر الراشدي الناصري..."⁴، كتب وأجاد عدة كتب في التاريخ تعد مصادر هامة ومادة غزيرة الأخبار لتلك الفترة، أبرزها "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" لما احتواه من أخبار عامة عن مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، حيث قدم فيه صورة عن جانب من تاريخ المدينة، الحملات الأوروبية التي تعرضت لها، ووصف لمساجدها وأولياؤها الصالحين...⁵، وقد ساعدته علاقته الجيدة بالباي مصطفى بوكابوس (1807-1812)، الذي بنى له مكتبة كبيرة عرفت "بمكتبة المذاهب الأربعة".⁶

¹ نفسه، ص 37.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص 377.

³ عدت فن من الفنون الإبداعية التي عكست في الغالب مستوى مؤلفها في الأدب، البلاغة، وفصاحة اللسان، دون أن تخلو من السياقات التاريخية بوصف المشاهدات وتحديد تواريخ الأحداث التي يعيشها ووصفا للأحوال العامة لمتجمع ما وملكان ما، فتعددت بذلك سياقاتها المعرفية، ثقافية، اجتماعية، دينية، وإبراز من جوانب التجربة الإنسانية. (للمزيد أنظر: نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص 311).

⁴ أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مكتبة بيبير فوتانا، الجزائر، 1906، ص 5.

⁵ أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث انفصل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 23.

⁶ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 337.

وكغيره من علماء عصره وصف حالة الضعف والتدهور العلمي والثقافي التي آلت إليها البلاد في عصره بقوله: "وأني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده وخلت دياره وعفت أطلاله ومعامله لا سيما من التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب... وأشرفت شمسها على الأفول واستوطن فحولها زوايا الخمول..."¹.

وعن أسلوبه في الكتابة التاريخية، يقول أبو القاسم سعد الله أنه غلب على تأليفه جميعا طابع العصر (أواخر العهد العثماني) فشرح المتون وحشى الشروح، بل جعل للمتن الواحدة عدة شروح، واعتمد على حفظه فأكثر من تأليفه من التكرار والاستطراد، وذكر الغرائب والعجائب واللطائف تمشياً مع بضاعة العصر من جهة وترويحاً على النفس من جهة أخرى، تناول كل التخصصات تقريباً فلا غرابة أن يكون مؤلفاً موسوعياً².

نال كتابه الأسفار ولطائف الأخبار اهتمام الفرنسيين، حيث ترجم إلى الفرنسية من طرف أرنو تحت عنوان Voyages extraordinaire et nouvelles agréable d'Alger³ طبع سنة 1885 ونشرته أيضا المجلة الإفريقية في عدة فصول.

وعلى ضوء ما سبق يمكن القول إن هذا المؤلف اعتبر من أبرز المصادر التاريخية التي يمكن الرجوع إليها لمعرفة بعض جوانب الحياة العامة لمدينة الجزائر أواخر العهد العثماني من وجهة نظر محلية.

– رحلة الورثلاني (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار):

يعتبر هذا المصدر الهام باكورة الرحلات الحجازية التي قام بها الورثلاني⁴، التي أرخت لفترة هامة من تاريخ الجزائر العثمانية القرن الثامن عشر ميلادي، ويبدو في مؤلفه أن الورثلاني كان كامل الإدراك

¹ أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص 181.

² أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص 338.

³ Arnaud (MA), Voyages extraordinaires et nouvelles agréable par Mohamed Bouras Ben Ahmed Ben Abdallah nasr, in RA N° 22, 1878, p p 434-473.

⁴ هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن عبد القادر بن يحيى بن أحمد الشريف بن علي البكائي البجائي الحسني من شرفا، تافيلالت الورثلاني (نسبة لبني ورثلاني) قبيلة أمازيغية بمنطقة بجاية ببلاد زواوة ولد عام 1125هـ/1713م، أخذ العلم على يد علماء وفقهاء زواوة، وثم بعدها على يد أشهر علماء عصره تدرس علم الفقه النحو التوحيد، الكلام، علم التاريخ، زاول التعليم فكان يعلم الناس في كل مكان حل به، اسم الورثلاني بجمع العلوم الفقهية وأصول الذكر على الطريقة الشاذلية، كما انشغل بكتابة القصائد، عرف برحلاته الحجازية لأداء فريضة الحج عدة مرات، التقى فيها بعدد العلماء، فقام بعدها بتدريس كل ما شاهده وعرفه وتعلمه خلال هاته الرحلات في رحلته

والوعي التام بالنقص الكبير والجمود الذي حل بحركة التأليف والكتابة التاريخية، نظرا لانعدام الاهتمام بالتاريخ، فأراد ملئ هذا الفراغ بإضافة قيمة تعيد شيء من الاعتبار والتقدير لها المحال في الجزائر ففي ذلك يقول: "فإن علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم يحسبونه كالأستهزاء أو انشغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها".¹

وهذه الدوافع ستبدو واضحة في مقدمة كتابه في حديثه عن شغفه الكبير تدوين كل ما رأى وشاهد أثناء رحلته أو ما سمع من العلماء والصلحاء".²

وقد اعتمد على الوصف الجغرافي والسرد التاريخي للأحداث الخاصة بالأماكن التي مر بها بتقديم ملاحظات دقيقة وانطباعات تفرد بها وتميز في وصفه للعادات والتقاليد، الأسواق، أزقة المدن، المساجد، مقامات الأولياء... وغيرها.

كما لا يخلو مؤلفاته وكعادة من عاصروه بتقديم قائمة طويلة من التراجم للأولياء والعلماء في الجزائر وغيرها، وفي ذلك يقول: "غير أن صلحاء بلدنا لم يتعرض لهم أحد قبل ولا بعد لعدم الاعتناء وضيق المعيشة، أردت التنبيه عليهم على سبيل الإيجاز والاختصار مع البيان والاستفسار...".³

ولذلك يمكن اعتبار الرحلة الورثانية عمل تاريخي، والذي يعود لسنة (1182هـ/1769م) علاوة عن المعلومات القيمة التي قدمها في شتى المجالات الجغرافية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، فإن ميزتها أيضا أن الورثاني أراد فيها إبراز مكان علم التاريخ وأهميته في فهم الحياة واستيعاب العبر والتجارب التي تزيد من مكانة الانسان وفضله⁴، كما أن أسلوبه في تدوين الأحداث التاريخية، مباشر وبعبارة تخلو من الطلاوة والتنميق في وصف أفضل العلماء الذين ترجم لهم، كما لا يخلو من الترتيب المنطقي للأحداث وتقديمها بموضوعية يقارب فيها الحقيقة التاريخية وبنظرة واضحة ومباشرة لها، ففي وصفه

الموسومة الرحلة الحجازية. (للمزيد أنظر حسين الورثاني، زهرة الأنظار في فضل علم التاريخ وأخبار دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1974، ص ص 17-146.

¹ حسين الورثاني، زهرة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تق: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيبفونتانة، الشرقية، الجزائر، 1908، ص 713.

² المصدر نفسه، الرحلة، ط 1974، ص 03.

³ حسين الورثاني، الرحلة، ص 24.

⁴ بكاري عبد القادر، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1515-1830)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، تاريخ الحديث، 2015-2016، ص 215.

لمسقط رأسه "بجاية" يقول: "فوطننا طيبا فيه العلم وبعض الكرم للغريب، وفيه الزيتون والعب والنين بكثرة والحراث، غير إن الوطن عزيز غال وسبب ذلك كثرة الناس، غير أنه خال من السلطان وأحكامه، فالوطن سائب -عمره الله بالأحكام الشرعية- أزال منه الفترة، وبدل ذلك بالعافية الدائمة وكذلك الغالب عليها البرد والثلج وبالجملة نسأل الله تعالى أن يعمر على يد سلطان عدل"¹.

وعلى ضوء ما سبق يمكن القول إن الرحلة الورثانية بمثابة موسوعة ثقافية لما احتواه من علوم شملت كل مجالات الحياة التي ميزت النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، ما يهمننا في سياق الدراسة هو ما ورد فيه من وصف الورثاني لمختلف المظاهر الثقافية التي عرفت الجزائر خلال هذه الفترة.

ج- التاريخ العام:

- المرأة: لصاحبه حمدان بن عثمان خوجة *

صدر هذا الكتاب بباريس في شهر أكتوبر سنة 1833، حرر باللغة التركية وفق ما ذكره الدكتور عبد الجليل التميمي وقد ألفه على رضا باشا ابن حمدان خوجة والذي يقول في مقدمته أن أباه أراد من خلال هذا الكتاب إطلاع الحكومة الفرنسية بما تقوم به إدارة الاحتلال من تجاوزات في الجزائر.²

أما النسخة الفرنسية التي قام بترجمتها صديقه حسونة الدغير المشرقي فقد صدرت تحت عنوان: *Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger* تناول الكتاب أوضاع الجزائر العامة، الطبيعة، السياسة، الاقتصادية الاجتماعية والثقافية.¹

¹ نفسه، ص 212.

* حمدان بن عثمان خوجة: حسب التقديرات يكون قد ولد سنة 1773 في عهد الداوي محمد عثمان باشا، ينحدر من أسرة حضرية عريقة من حيث الثروة والجاه، حيث اشتغل أفرادها بالتجارة والوظائف الإدارية، كان أبوه عثمان فقيها، مدرسا مقربا من السلطة العثمانية، ولأصوله الكرغلية زار برفقة والده إسطنبول ليعود إلى الجزائر أين واصل دراسته، فدرس الفقه، التاريخ، المنطق، الفلسفة والتصوف، كما تعلم عدة لغات أولها التركية من والده ثم الفرنسية والإنجليزية إلى جانب لغته العربية، زاول منذ صغره مهنة التدريس ثم اهتم بالتجارة، كانت ميوله أوروبية بعد زيارته المتكررة لأوروبا حيث عرف على مختلف العقليات والأفكار التي صقلت فكره وأثرت بشكل واضح على منهج كتابته التاريخية. (للمزيد أنظر حمدان خوجة، المرأة، ص ص 12-22).

² حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق حمد العربي الزبيري، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 43.

وتجدر الإشارة أن هذا الكتاب قد قام بترجمته إلى العربية اثنان من الباحثين الجزائريين، كانت الترجمة الأولى قد ظهرت سنة 1972 قام بها الأستاذ بن عبد الكريم وتعتبر ترجمته كاملة، حيث قام بترجمة كل محتويات الكتاب بما فيها الوثائق.

أما الترجمة الثانية فقد قام بها الأستاذ مُجَّد العربي الزبيري وهي النسخة التي بين أيدينا والتي تعتبر منقوصة من القسم الثالث التي يضم مجموعة من الوثائق الخاصة التي ألحقها المؤلف بالكتاب.²

فقدم حمدان خوجة كتابه أسلوبا تجديديا في الكتابة التاريخية مختلفا عن كل ما سبقوه أو عاصروه، فيبدو أنه كان شديد التأثر بالمنهج الأوروبية الحديثة، فكتابه يبدو في مجمله خاليا من جميع ألوان الأدب أو الاستعانة بآيات القرآن الكريم، بل اعتمد على تقديم الأحداث التاريخية وتحليلها، بأسلوب أوروبي تغلب عليه النزعة الرومنسية والتوحد القومي مجادلا تجنب أسلوب المواجهة والتحدي، فالأمر بالنسبة له يخص حياة أمة لها مقوماتها الشخصية الخاصة بها والقائمة بذاتها³، وهو ما يدل دلالة قاطعة على اتساع آفاق ثقافته وانفتاحها على ما يحدث في أوروبا، إضافة إلى تعدد علاقاته الودية مع شخصيات تنتمي إلى أوساط مختلفة فقد كان كثير التردد على النوادي الفكرية وكثير الاحتكاك بالأوساط السياسية والاقتصادية أيضا⁴، ولعل من أهم العوامل التي صقلت شخصيته التاريخية، وأثرت على أسلوب كتابته، سعة اطلاعه على كل ما كان ينشر باللغات الأخرى في العالم العربي، فقد كان يستعين بصديقه الوفي حسونة الدغيز الذي كان يترجم له كل كتاب ذي أهمية مثل كتاب حقوق الانسان أو مبادئ القانون الطبيعي⁵.

وعلى ضوء ما سبق كان الاعتماد على هذا المصدر الذي يؤرخ لفترة هامة من تاريخ الجزائر أواخر العهد العثماني وبداية فترة الاحتلال أمر فائق الضرورة، فقد قدم المرأة صورة واضحة المعالم عن الثقافة السائدة في الجزائر، فأسهب في وصف عادات وتقاليد سكان الجزائر من البدو والحضر معتمدا على المشاهدة المباشرة التي تعتبر أساس مرآته بصفته عاصر الأتراك العثمانيين، وكان مقربا من الفئات

¹ نفسه، ص 44.

² مُجَّد الطيب عقاب، حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، صدر عن وزارة الثقافة، الطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 30-31.

³ عبد القادر بكاري، المرجع السابق، ص 312.

⁴ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 21.

⁵ نفسه، ص 15.

الحاكمة¹، في هذا الشأن يذكر "لو لم أكن متخوفا من وضعية بلدي وما سببته لي شيخوختي لجمعت مزيدا من الوثائق حول هذه المنطقة من إفريقيا، أما البلاد البعيدة في الصحراء فإنني لم أزرهم شخصيا وما أقوله عنهم إنما رواية من أشخاص موثوق فيهم"، فقد بحق حسب سعد الله أول وثيقة تاريخية كتبها أحد الجزائريين قدم فيها أوضاع الجزائر من جهة وأحكامه عن العثمانيين والاحتلال الفرنسي من جهة أخرى.²

تعتبر هذه القراءات في المصادر المحلية مجرد قبسات لنماذج قليلة عن أبرز ما كتبه المصادر المحلية التي تعود لهذه الفترة، ولعل الدارس يدرك حقيقة تاريخية هامة أساسها عدم اهتمام الجزائريين بهذا العلم يبدو ذلك في حكم الورثاني الذي أشار أن "علم التاريخ منعدم عند أهل الجزائر"³.

وهو ما جعل كتابة التاريخ الجزائري في العصر الحديث يتعرض إلى انحرافات في التصور وفهم الدلالات والمناهج الحقيقية فاقترنت أعمال المؤرخ على التواريخ المحلية والتراجم⁴، في ذلك يقول أبو القاسم سعد الله أنه هذا العلم كان غامضا ودليلنا في ذلك أنه أخلط تارة بالأدب، السيرة والحقوق والدين، ويضيف أن "سيطرة التصوف والروح الدينية السلبية قد أضعفت العناية بعلم التاريخ والسير وأخبار الأولين ومن ثم أضعفت التأليف فيها..."⁵.

لذلك صار رواه ممن يعتمدون على شروح القصائد والآراجز والمقامات، فكان المؤرخون يتحرون جمال أسلوب وينشدون التأثير على القارئ، كما خضع إلى تعليقات القوى الغيبية والدعوة إلى التصديق بما تماشيا مع الذوق العام السائد في تلك الفترة.

فالقارئ لما كتبه أبو راس الناصري الذي يصفه سعد الله بأنه من أكثر المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية في تلك الفترة⁶، نجده بالرغم من تحكمه في مبادئ اللغة العربية تخللت كتاباته

¹ نفسه، ص 61-85.

² عبد الحميد زوزو، حمدان خوجة ومنهجه في كتابه التاريخ، مجلة الأصالة، ع 4، أكتوبر 1971، ص 95.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 322.

⁴ عبد القادر بكاري، المرجع السابق، ص 315.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 321.

⁶ نفسه، ج 2، ص 376.

ألفاظ بنطق عامي فعلى سبيل المثال لا الحصر وردت عبارات (البومبة، المزية، متهني...) ومال بأسلوبه إلى أسلوب عصره، فطغى عليه السجع والبلاغة تارة، والميل إلى التمجيد، المدح تارة أخرى.¹

كما أن أبرز من كتب في التاريخ العام أحمد المقرري صاحب (نفتح الطيب) تناول في موسوعته التاريخية دراسة شاملة وعامة لتاريخ أندلس دون أن تخصص نفس الدراسة لتناول تاريخ الجزائر.²

بينما ركنت الفئة الأخرى من مؤرخي هذا العصر إلى كثرة الحشو، النقل دون شرح، تعقيب أو تأويل، فساد بذلك الأسلوب القصصي على هذا العلم.³

وأمام كل ذلك يصبح الباحث الدارس لتاريخ هذه الفترة ملزماً إلى اللجوء إلى الكتابات والمصادر الأجنبية بكل ما تحمله من عيوب وشوائب إلا أنها تقدم صورة عامة لتاريخ الجزائر في مختلف جوانبه السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية.

والوقوف عند الحياة الثقافية للجزائر في العهد العثماني -موضوع الدراسة- لا تكتمل أركانه ومعاله الأساسية إلا بالاعتماد على هذه المصادر.

¹ مُجَّد أبو راس، زهو الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق بن عمر حمدادو، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، ص 15.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 329.

³ مُجَّد أبو راس، المصدر السابق، ص 15.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (10هـ/16م) إلى

(13هـ/19م)

1- دوافع الرحلات الأجنبية إلى الجزائر

أ- دوافع سياسية

ب- دوافع علمية

ج- دوافع إنسانية ودينية

د- دوافع سياحية ثقافية

2- أنواع الكتابات الأجنبية

أ- المصادر الغربية

- نماذج من كتابات الرحلة الاستكشافية

- كتابات الأسرى حول الجزائر

- كتابات القناصل والديبلوماسيين

- كتابات البعثات العلمية (مدرسة علماء الطبيعة)

- كتابات المدرسة الأمريكية

- كتابات المدرسة الألمانية

- نماذج من كتابات بعض الأسيرات الأوروبيات

- نماذج من كتابات ضباط الحملة

ب- المصادر المغربية

1- دوافع الرحلات الأجنبية إلى الجزائر:

قد تعددت دوافع هذه الكتابات حول إيالة الجزائر تبعا للظروف العامة بين دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد والإيالة في مختلف المراحل والفترات الزمنية للوجود العثماني في الجزائر وتبعا كذلك لظروف شخصية خاصة بأصحاب هذه الكتابات التي دفعتهم إلى تدوين مشاهداتهم عن الجزائر في الفترة التي قضاها في الإيالة وعليه يمكن تصنيفها كما يلي:

أ- دوافع سياسية:

عرف البحر الأبيض المتوسط في بداية القرن 16م صراعات بين القوى البحرية بين الدولة العثمانية التي حققت لها قاعدة قوية في الحوض الغربي لهذا البحر، تمثلت في إيالة الجزائر والدول الأوروبية التي رفعت شعار الحقد الصليبي والانتقام من الإسلام والمسلمين إلى جانب الصراع الديني ظهر صراع من أجل النفوذ والهيمنة على طرق ومنافذ التجارة العالمية¹، من أساليبها الجوسسة، فقد كانت أوضاع هذه الإيالة الداخلية غير خفية على الأوروبيين لكثرة ما كان لهم جواسيس رسميين كالقناصل أو غير رسميين كالتجار والسياح وغيرهم²، من خلال التقارير المفصلة عن الحياة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، في الإيالة، كما اعتمدت بعض الدول الأوروبية على جواسيس من الرحالة والأسرى الموجودين في سجون الجزائر أو العاملين في القصور.³

وكمثال يعترف الروسي كوكوفتشوف الذي زار مدينة عنابة سنة (1777م) أنه كان هدفه من هذه الزيارة هو الاستعلام عن قوة البحرية الجزائرية، ورغبة روسيا الاطلاع على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.⁴

ولقد كانت أطماع الدول الأوروبية كإسبانيا، بريطانيا فرنسا وهولندا كبيرة للقضاء على إيالة الجزائر، خاصة بعد أن تضررت مصالحهم التجارية جراء نشاط البحرية الجزائرية في الحوض المتوسط لذلك جندت الكثير من جواسيسها للاطلاع على الحياة العامة اخل الإيالة، فالأسير الإسباني ميقال

¹ Godfrey Fischer, Légende Barbaresque, Trad par Farida Hellal, O.P.U, Alger, 2002, p 19.

² عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ج3، ص 79.

³ أحمد السليمان، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، 1994، ص 71.

⁴ Marcel Ernest, Description de l'Algérie en 1787, RHM, Tunis, 1975, pp 209-210.

دي سرفانتاس¹ ما إن تم افتدائه بواسطة الترينيتارين² (Trinitarines) في أكتوبر 1580 حتى عاد إلى الجزائر بعد أقل من ثمانية أشهر من تحريره مبعوثاً من ملك إسبانيا والبرتغالي فيليب الثاني إلى الحاكم العام بوهان الدون مارتين دي كوردوبا في مهمة خاصة، ووقع عليه الاختيار لمعرفته بأحوال البلاد والعباد في هذه المدينة وهو الذي قضى خمس سنوات أسيراً، في مهمة لمحافظة إسبانيا على مصالحها في المنطقة.³ وبذلك أصبحت الجوسسة جزءاً لا يتجزأ من مهام الدبلوماسيين الأوروبيين الوافدين إلى الجزائر فالقنصل لومير (Lemaire) عند مغادرته للجزائر ترك توصيات لخليفته بيرو Perou بضرورة التقرب من العناصر النافذة في الحكم لمعرفة ما يجري في اجتماعات الديوان والقصر، وأن ييث له عيون في كل مكان ذلك من خلال استعمال الأسرى المسيحيين الذين يعملون في القصر مقابل وعدهم بالافتداء.⁴

ب- دوافع علمية:

توافد على مدينة الجزائر عدد كبير من الرحالة الغربيين والعرب من المغاربة بهدف علمي، منه البحث والاستكشاف وتنمية القدرات العلمية، فتعددت مجالات اهتماماتهم العلمية فدرسوا الطبيعة، الحيوانات، وحتى الآثار الرومانية، كما اهتموا بالأمراض التي كانت متفشية، كانت هذه الرحلات تنظم وتقول من طرف الجمعيات العلمية والتي تتكفل بطبع أعمالهم ونشرها، أمثال توماس شو⁵، والطبيب الفرنسي بيصونال⁶، والألماني أرنست هينسترايت 1732، هذا الأخير الذي كانت مهمته جلب عينات من حيوانات، طيور وأعشاب، أزهار، صخور، وقد كللت مهمته بالنجاح بفضل المساعدة التي تلقاها من طرف عبدي داي، فيقول في ذلك مصرحاً: "وبعد أن تأكد الداوي من أبحاثنا تشرف بلاده وبعد

¹ صاحب رواية الدون كيشوت أسر هو وأخوه رودريغو من طرف الرئيس مامي أرنابووا سنة 1575 بقي في الأسر (1575-1586)، من مؤلفاته "الحياة في الجزائر" وكتاب "سجون الجزائر" "Les bagnes d'Alger" (للمزيد أنظر

² طائفة دينية أسسها سان جان ماتا (St Jean de Matto) وجدت التشجيع والمساندة من طرف البابوات وملوك أوروبا المسيحيين فانتشرت في كامل أوروبا، دفنها الرئيسي كان المداوة وافتداء الأسرى بلغت قمة نشاطها خلال القرن السادس عشر ميلادي. (أنظر الهادي الوسلائي، المستشفى الترينيتاري الإسباني بتونس، م ت م ع 22/21، تونس، 1981، ص 167.

³ أحمد توفيق المدني، الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، س و ن ت، ط2، الجزائر، 1976، ص 86.

4

⁵ الهادي الوسلائي، المرجع السابق، ص 198.

⁶ Pyssonel et Desfontaines voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, T1, Librairie de Gide, Paris, 1838, p 21.

أن أوضح له القنصل بأنه لم يكن في نيتنا أي تصرف عدواني ضد كل ما يمس سلطته أخبرنا بواسطته مترجمه بأن بلده مفتوحة لنا وأنا نستطيع أن نعتمد على حمايته"¹، حيث سمح له الداوي على الانضمام إلى إحدى الفرق العسكرية التي كان من المقرر لها أن تجوب منطقة المدينة، حيث زار كل من المدينة، مليانة والبليدة وتحصلوا على كمية من النباتات، الحيوانات وأشياء أخرى²، كما أحسن باي قسنطينة استقبالهم وخصص لهم خيمة نظيفة وحرسا كافيا لمرافقتهم إلى الأماكن التي توجد فيها الآثار الرومانية.³

وهي نفس الرحلة التي قادها العالم الفرنسي ديوفنتان Dr Desfontaines في أواخر القرن 18م (1783-1786) وأصدر كتاب حول نباتات منطقة الأطلس⁴.

أما الرحلات المغربية فرحلة ابن زاكور الفاسي نموذج للرحلة العلمية بامتياز وهو ما يظهر جليا في عنوانها "نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان"⁵.

ج- دوافع سياحية وثقافية:

تمثلت الرغبة في دراسة ومعرفة الآخر، وفهم واستكشاف الدول وأحوال الشعوب، فالجزائر خلال هذه الفترة قد أصبحت مركزا هاما في حوض البحر المتوسط، يستقطب كل باحث ورحالة يحمل شغف اكتشاف المجهول والخوض في مغامرات سياسية وثقافية تهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق المتعة وحب الاطلاع واكتساب الخبرة لذلك زار مجموعة من الرحالة الأوروبيين خلال العهد العثماني الجزائر وأقاموا فيها⁶، فبعد مرحلة الأسر اختار مارمول كبريخال مواصلة رحلته في شمال إفريقيا في المناطق التي مازالت مجهولة بالنسبة إليه، وقد أضاف إلى المدة التي قضاها في الأسر أربعة عشر سنة أخرى، بذلك استقر في المنطقة مدة ثلاثة وعشرون سنة تعلم فيها اللغة العربية والعثمانية، كما تعرف على جغرافية المنطقة،

¹ Mounir Frendi, Trois voyageurs Allmands en Tunisie au XVIII siècle in R.H.M, N° 35-36, Tunis, 1984, p 85.

² Ibid, pp 88-91.

³ Eugene Vayssette, Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517-1837, Bouchene, Paris, p 99.

⁴ Pyssonel et Desfontaines, op.cit., p 28.

⁵ عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، د.م 1، ص 313

⁶ فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، الدار الغربية للكتاب، ط2، 2002، ص 20.

سكانها، حكامها، والأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة من النصف الثاني من القرن 16م، وبدافع الاستكشاف زار الرحالة الإنجليزي وليام لينغو الجزائر في الربع الأول من القرن 17م مدفوعا برغبته الجامحة لزيارة هذه البلاد المجهولة التي ذاع صيتها في أوروبا وشغلت العام والخاص بالحديث عن معارك وبطولات ومغامرات كان يقوم بها الأسطول الجزائري في حوض البحر الأبيض المتوسط، فحيكت الأساطير والروايات التي جذبت فضول بعض المغامرين لزيارتها وتدوين ملاحظاتهم عنها والتي كانت هذه الكتب تلقى صدى كبير ورواجا هائلا بين أوساط الأوروبيين وتعود على أصحابها بمبالغ مالية كبيرة، وكلما حرص هؤلاء على توظيف الخيال وعنصر التشويق كلما زادت شهرة هذه الكتابات.¹

د- الدوافع الإنسانية والدينية:

عرفت ظاهرة الأسر تفشيا ملحوظا تكاد تنفرد به الجزائر خلال القرن السادس عشر ميلادي، مما يجعل هذه الظاهرة تترك بصمات بارزة في الآثار التاريخية والفكرية لهذه الفترة وبعضهم أدرك الشهرة العالمية بفضل هذه التجربة التي قضاها أسيرا في الجزائر، ففي إحدى رسائله إلى الملك فيليب الثاني أخطره سرفانتيس عن وجود 25000 أسير بالجزائر، حسب بعض الإحصائيات فقد بلغ عدد الأسرى المتواجدين بالمدينة سنة 1621 حوالي 32 ألف أسير، أما التقارير الإنجليزية، فقد أكدت سنة 1646 عن وجود ما لا يقل عن 20 ألف أسير²، تولى هؤلاء الأسرى في الجزائر مهام وأعمالا مختلفة في الموانئ والمعامل البحرية، داخل القنصليات في المزارع وفي منازل وحضور الخاصة.³

وبالنسبة لأسرى الداوي العاملين في القصر فقد كانوا يستخدمون في المكاتب والمطابخ، مخازن القصر وهناك أيضا حرس الداوي الخاص والقائمين على نظافة القصر وحمل أطباق اللحم على مائدة الداوي وهؤلاء عادة ما يتمتعون بمستوى معيشي جيد⁴، أما أسرى الملاك فقد كانوا يقومون بأعمال

¹ بلقاسم قرباش، تاريخ الجزائر العثمانية في الكتابات الإنجليزية، مجلة عصور جديدة، ع 12/11، وهران، الجزائر، 2013/2014، ص 29.

² Abla Gheziel, Captifs et Captivité dans la régence d'Alger (XVII début XIX siècle), Cahier de la méditerranée, 87, 2013, p 80.

³ Mouley Belhamissi, Alger, l'Europe et la guerre sucrète (1518-1830), pub dahleb, Alger, 1999, p 43.

⁴ جيمس ليدر كاتكرت، مذكرات أسير الداوي قنصل أمريكا في المغرب، تر: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص ص 25-26.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (ق16-19م)

البستنة، والأمور المنزلية المتنوعة، حيث كانت بيوت مدينة الجزائر تعج بالأسرى الأوروبيين رجالاً ونساءً.¹

لقد أسالت قضية الأسرى المسيحيين الكثير من الحبر في العالم الأوروبي وكانت الموضوع الرئيسي لأغلب الأعمال الأدبية الأوروبية.²

وقد لخص القس (دو هايدو De Haedo) معاناة الأسرى المسيحيين في مدينة الجزائر، بقوله: "يعيش الأسرى في الجزائر البربرية حياة بائسة، أقسى من أي حياة أخرى في العالم، حيث يعاملون معاملة لا إنسانية...نحن رعايا بائسين لا نحبي حياة وإنما بلاء... إن الأسر قدر صعب ومشؤوم..."³.

هذا النوع من الدعاية التي قدمها بعض الأسرى فتحت المجال أمام الكتابات التي تحافت عليها مفتدي هؤلاء والتي تنفق في رسم صورة سوداوية قائمة لواقع الأسرى في مدينة الجزائر، ففي كتابات هؤلاء تظهر الجزائر "عش القرصنة، ومفسدة التجارة، مركز العبودية...سكن شياطين الجن وعاء المرتدين إلى الله خونة بلدانهم".⁴

وقد أوجدت دول أوروبا عدة تنظيمات خاصة لعملية افتداء الأسرى كتنظيم الثالوث المقدس، وتنظيم سيده الرحمة⁵، وتعمل هذه التنظيمات على جمع مبالغ مالية بمساهمة ملوك أوروبا ورجال الدين.

وقد تتدخل الدول الأوروبية لافتداء أسراها عن طريق البعثات والوفود السياسية والاتفاقيات والمعاهدات من خلال الجهود الدبلوماسية لقناصلها في الجزائر.⁶

¹ Laugier De Tassy, op.cit., p 61.

² Braudel (Ferraud), La méditerranée et le monde méditerranéen à la régence de Philippe II, Paris, 1976, p 200.

³ Diego Haedo, Topographie, p p 13-15.

⁴ Lotfi Ben Rejeb, The general of the word Berbery as genre and discourse in Mediterranean history, European Review of history, Vol19, N 19, 2012, p 18.

⁵ إبراهيم سعيود، جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقارنة تاريخية)، مجلة الحوار المتوسطي، ع 16/15، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، مارس 2017، ص 76.

⁶ نفسه، ص 146.

أو تقوم ببناء مستشفيات لهم وكنائس للعبادة، ويذكر كاتكارت أنه لولا قيمة العمل الإنساني لهذه المؤسسات لكان أمام هؤلاء سوى الموت المحقق في الشوارع أو في السجون.¹

وقد جاء العديد من الرحالة الأوربيين في إطار رحلات الفداء، فقد كان البعض ضمن أولوياته تحرير الأسرى، بينما اكتفى البعض الآخر بالكتابة عنهم والإشارة إلى أحوالهم المادية والمعنوية، مثلما قام به الأب دان في رحلة الافتداء إلى الجزائر، حيث قام بتحرير اثنين وأربعين أسيرا فرنسيا في سنة 1635 ورحلة توماس هيز الذي قام بافتداء مئة وسبعة وتسعون أسيرا هولنديا عادوا معه على متن سفينتين حرييتين.²

2- أنواع الكتابات الأجنبية

2-1- الكتابات الغربية:

أ- نماذج من كتابات الرحلة الاستكشافية لإيالة الجزائر العثمانية القرن 16م:

تدخل الكتابات الأجنبية حول الجزائر في أدب الرحلة³، وهي نوع من التجربة لمخالطة الناس والاقوام، لذلك تبرز قيمتها كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية ورصد جوانب من الحياة اليومية في مجتمع ما خلال فترة زمنية محددة، لهذا تزخر مؤلفات الرحالة بالعديد من النصوص التي تحتوي معلومات بالغة الأهمية في المواضيع والمعارف التي يستحيل على المشتغل في حقل الانسانيات عامة تجاوزها أو الاستغناء عنها كل حسب منظوره واهتمامه لنستخلص منها مختلف القيم المعرفية والفنية.⁴

وقد ارتبطت الكتابات الأجنبية بالتواجد الأوروبي في الجزائر بداية العهد العثماني لا شك أن هؤلاء الفضل في بروز النواة السياسية الأولى لإيالة العثمانية التي اتخذت من مدينة الجزائر عاصمة لها،

¹ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 103.

² حفيظة خشمون، مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية بمدينة الجزائر خلال الحقبة العثمانية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، 20062007، ص 71.

³ هي فن من فنون الكتابة يحكي فيه الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه مازجا بذلك بانطباعاته الذاتية عن المكان المرتحل إليه، يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره وتحولها إلى نص رحلي وهي وعاء (تاريخي أدبي) تصب فيه مختلف المعارف والعلوم في شتى الميادين. (للمزيد أنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002، ص ص 17-20).

⁴ أحميدة عميراي، المرجع السابق، ص 09.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

ومنذ بروزها تميزت بانتعاش سياسي واقتصادي، ثم تحولت إلى مركز استراتيجي مرموق في حوض البحر الأبيض المتوسط¹.

ونظرا لهذه المكانة والزخم الحضاري للمدينة التي شغلت الأوساط السياسية والاجتماعية الأوروبية بدأت الرحلات الاستطلاعية الأوروبية إلى الجزائر منذ منتصف القرن السادس عشر ميلادي ففي مقدمة كتاب ألفه (جورج ماسي) بعنوان "الجزائر البربرية" يصف المدينة بقوله: "... فإنه يتعلق الأمر بإحدى المدن الأكثر غرابة في العالم... فهي أكبر سفينة بلا شراع، وسلم للعمالقة... إنها منجم رخام ناصع البياض... إنها الشلال المتدفق... إنها مدينة الثلج تحت الضوء"².

ومنهم من رآها "جنة الله في الأرض"، فالجزائر كانت بلدا مزدهرا ومدنها آهلة بالسكان وقراها غنية بقطعاتها ومطامير حبوبها وموانئها، التي تتنازعها السفن القادمة من أوروبا لنقل الحبوب، بأراضيها الخصبة وجوها الجميل والدافئ وبمناظرها المختلفة عن المناظر الأوروبية.³

لذلك راجت كتب الانطباعات تلك التي تتناول الطبيعة، السكان وأنماط معيشتهم، وأضحت مدن الجزائر في كتابات ورحلات الغربيين موضوعا للكتابة والإثارة والبحث فسجلوا ملاحظاتهم وقدموا تفاصيل دقيقة عن هذا المجتمع⁴، الذي تميز بكل جوانب حياته العامة عن أصولهم الأوروبية، وكان ذلك بالنسبة لهم في البداية استكشاف لأسلوب حياة جديد لمعرفة الطرف الآخر، وهو ما مكّنهم فيما بعد لإدراك ومعرفة أطر التعامل معه.⁵

ومن أبرز هذه الرحلات:

¹ مولاي بلحميسي، جانب من جوانب الصراع الجزائري الأوروبي - الجوسسة الغربية في الجزائر العثمانية، مجلة الباحث، العدد 03، الجزائر، نوفمبر 1985، ص 55.

² العربي إيشبودان، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، منشورات دار القصبة، الجزائر، 2008، ص 54.

³ ليسات فلنزي، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ترجمة حمادي الساحلي، سبراس للنشر، تونس، 1994، ص 52.

⁴ حفناوي بعلي، المرجع السابق، ص 231.

⁵ بن عتو بلبروات، نظرات استشراقية لعادات وتقاليد مجتمع الجزائر العثمانية - مدينة الجزائر نموذجاً -، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 02، سيدي بلعباس، 2010، ص 81.

– رحلة الحسن الوزان Léon d'Afrique:

تدخل رحلة الحسن الوزان في إطار كتب الجغرافية والرحلة التي عدت من أهم المصادر التاريخية التي قدمت معلومات جغرافية وتاريخية شملت شتى المجالات.

هو الحسن بن مُجَّد الوزان الفاسي ينسب إلى قبيلة بني زيات الزيانية من بلاد الريف المغربي¹، ولد بغرناطة حوالي سنة 1495 أو 1500 وهناك من المؤرخين من يرجح ولادته سنة 1483م²، بعد ولادته بفترة قصيرة سافرت عائلته من غرناطة إلى فاس، درس بجامع القرويين فأخذ العلوم اللغوية، الأحكام الشرعية، الفنون الأدبية، كما تبحر في علوم اللغة والفقه والعقائد، والتصوف، والحساب، والمنطق.³

فكان من الطبيعي وأمام هذا النبوغ المبكر أن يلفت انتباه سلطان فاس مُجَّد الوطاسي (ت932هـ/1525م) المدعو بالبرتغالي، فوظفه رفقة والده كمبعوث للقبائل والعشائر المغربية.

زار الحسن الوزان العديد من الأقاليم والمناطق في المغرب الأقصى وخارجه فمند حادثة سنه رافق عمه في رحلة دبلوماسية إلى تمبكتو، كما تولى هو فيما بعد سفارات هامة إلى جنوب مراكش وقد استطاع أثناء رحلاته أن يكون صورة واضحة على جزء من إفريقيا الشمالية.⁴

أما أهم رحلاته وأخطرها في حياة الوزان كانت رحلته إلى بلاد الحجاز سنة 1516 سلك فيها مع ركب الحج الفاسي الطريق الشمالية عبر تلمسان فمدينة الجزائر وما جاورها، وفي هذه الرحلة دون معلومات في غاية الأهمية عن مدينة الجزائر في القرن 16م، وفي طريق العودة إلى المغرب عن طريق البلاد الليبية وتونس وقع في أسر قراصنة إيطاليا أواخر 1519⁵، وبعدها قدمه القنصل الصقلي بيترو بوفاديقليا (Pietro Bovadiglia) إلى "الباباليون العاشر" يوحنا المديسي (Lean Jean

¹ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ترجمة مُجَّد حجي ومُجَّد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 6-7.

² نفسه، ص 07.

³ أغناطيوس بوليا نوفتس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، تعريب صلاح الدين هاشم، لجنة الترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص 450.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين، رحالة وجغرافيين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 290.

⁵ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 10.

Medicis) (1521-1513) الذي عرف بحبه للعلم واهتمامه بالعلماء، فأكرم نزل الحسن الوزان وأحسن استقباله وأقر له معاشا ورغبة في الدخول إلى المسيحية، حيث خصص لهذه المهمة ثلاثة قساوسة.¹

ثم بعد ذلك عمده الباباليون العاشر ولقبه بـ "يوحنا الأسد"²، كما تعلم في هذه الفترة اللغتين الإيطالية واللاتينية، إلى جانب إتقانه للغة الإسبانية واللغة العربية، التي تولى تدريسها في جامعة بولونيا (Bologne)، كما ساعده ذلك على ترجمة رحلاته في إفريقيا بطلب من البابا.³

وعلى ضوء كل ذلك ألف الوزان كتابه "وصف إفريقيا" "Description dell Africa et dell cosimel abriliche quivi"⁴ باللغة الإيطالية معتمدا على مذكراته التي دوّنها باللغة العربية جمع فيها بين كتب الرحلات والمسالك والمشاهدات، حيث قال: "لقد دونت بجد واجتهاد من يوم لآخر تلك الأشياء التي رأيتها بعيني وبدا لي أنها تستحق الذكر عندما عبرت إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها، وما لم أراه بسبب ضيق الوقت وصعوبة الطريق فقد جهدت نفسي في الحصول عليه من أهل الثقة مما شاهدوه بأنفسهم ثم بذلت جهدي في جمع شتات هذه المائدة وصياغتها في شكل انتهت من تدوينه أثناء وجودي بروما في اليوم العاشر من شهر مارس (933هـ/1526م) من ميلاد المسيح"⁵، ترجم كتابه إلى عدة لغات بداية من سنة 994هـ/1556م بعنوان "تاريخ وصف إفريقيا" ويعود لهذا الكتاب الفضل في تزويد الأوروبيين بمعلومات واسعة ودقيقة حول مناطق وأقاليم بعيدة في إفريقيا التي كانت مجهولة تماما لدى الأوروبيين، وكان كتابه من أهم المصادر التي اقتبس عنها العديد من المؤرخين الأوروبيين.⁶

¹ نصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي، المرجع السابق، ص 299.

² لقد أشار محقق كتابه قضية تحوله إلى المسيحية مشيرا إلى أن الكثير من الدلائل في كتابه توحي أنه تظاهر بذلك قط، فقد طغت الروح الإسلامية على مفردات وأفكار الكتاب، كما أعرب في خاتمة كتابه ورغبته وشغفه العودة إلى المغرب بقوله "إنني أعتزم بعون الله فيما أعود من أوروبا إلى وطني أن أخص كل هذه الرحلات بالوصف"، توفي على الأرجح بتونس أو بفاس سنة 1537. (أنظر نصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي، ص 293).

³ عبد الكريم كرم، المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية في مختلف المظاهر الحضارية، ط2، منشورات جمعية المرخين، المغاربة، الرباط، 2006، ص 13.

⁴ أغناطيوس بوليا نوفتس، المرجع السابق، ص 452.

⁵ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 15.

⁶ كرم بجيت، الرحلة وصورة الآخر قراءات في نصوص رحلة الأوروبيين حول المغرب، مطبعة الأمنية، الرباط، 2013، ص 10.

وما يهمننا في هذه الدراسة الجزء الذي خصصه الوزان في كتابه الموسوعي عن مدن المغرب الأوسط، فإلى جانب وصفه للحياة الاقتصادية والسياسية والمظاهر الطبيعية فقد خص جانب كبير من مؤلفه لوصف طبائع السكان ومختلف العادات والتقاليد وأنماط العيش¹، وخص به الحديث عن مملكة تلمسان وعدد كبير من مدنها مثل ندرومة، أرشقون، هنين، السطحاء، وهران، مستغانم وصولاً إلى مدينة الجزائر، كما تحدث عن قسنطينة، جيجل، بونة، ميلة، وصولاً إلى المسيلة².

ونظراً لأهميته التاريخية كمصدر من المصادر التي تؤرخ للجزائر في بداية العهد العثماني ولوصفه بدقة معلوماته إلا أن الدارس والباحث لهذا الكتاب يلمح نوع من الأوصاف والعبارات القاسية التي نسبها الوزان لسكان المغرب الأوسط دون غيرها، بشكل يجعلنا نطرح الكثير من التساؤلات³.

وهذا لم يمنع من اعتمادنا على كتاب "وصف إفريقيا" كأحد أهم المصادر الأجنبية التي قدمت معلومات حول جانب من الحياة الثقافية للجزائر في بداية القرن 16م.

– رحلة نيكولاس دو نيكولاي Nicolas de Nicolay⁴:

رحالة وجغرافي فرنسي مكنته مشاركاته في الخدمة العسكرية من توسع مداركه الجغرافية، فبعد رحلة زار فيها العديد من الدول الأوروبية مثل الدانمارك، إنجلترا، السويد، إيطاليا، إسبانيا واليونان⁵ قربه الملك هنري الثاني Henri II، (1519-1559) من البلاط وأصبح يطلق عليه "جغرافي الملك" ليكلفه بعدها بمرافقة البعثة الدبلوماسية التي ترأسها السفير غريال دارامون إلى القسطنطينية سنة 1551 توقف هذا الوفد في عدة موانئ منها ميناء مدينة الجزائر، بجاية، عنابة، حيث دون ملاحظاته في وصف هذه

¹ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 51-64.

² المصدر نفسه، ص 51-64.

³ المصدر نفسه، ص 42.

⁴ ينحدر من أسرة محلية من النبلاء في منطقة دوفيني ولد سنة 1517، انخرط في شبابه في الجيش الفرنسي في حربها ضد النمسا، تعرف خلالها مع ضباط الجيش والبحرية العثمانية، التي كان يرأسها الأميرال خير الدين بربروس، نظراً لتحالف الأخير مع فرنسا، كما قضى حوالي 16 سنة من حياته في الرحلة والاستكشاف غرار العديد من دول أوروبا، تميز بقدراته الجغرافية الفائقة في وصف الأماكن، قدم خدمات جليلة لفرنسا في عهد الملك هنري الثاني نظراً لقيمة المعلومات، الرسوم والخرائط التي قدمها عن الدولة العثمانية توفي سنة 1583. (للمزيد أنظر David Brafman, Nicolas de Nicolay, ches worth edition, a bibliographical history VI Laiden, Brell, 2009, p 752-763).

⁵ Victor Adville, Notice historique sur Nicolas de Nicolay, sn.sd, Paris, 1865, p 03.

المدن في كتاب بعنوان "الأربع كتب الأولى للبحرية الشرقية" " Les quatre premiers livre de "la navigation orientale" طبع بعد خمسة عشر سنة من رحلته في مطبعة ليون بفرنسا.¹

وبالرغم من أن الرحالة الفرنسي لم تدم إقامته في هذه المدن إلى بضعة أيام إلا أن خبرته وقدراته الجغرافية مكنته من التنقل في هذه المدن وتقديم وصف وملاحظات قيمة خص بها مدينة الجزائر، فتحدث عن مرافق المدينة، الآثار القديمة، العمران، وبعض مظاهر الحياة اليومية والتقاليد "صورة لباس لإحدى العبيد"².

لذلك يعد هذا المصدر من المصادر النادرة التي تحدثت عن شمال إفريقيا في منتصف القرن السادس عشر ميلادي، ولما يحمله من صور وخرائط جغرافية عن المناطق التي زارها خلال رحلته إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية.³

صدر هذا الكتاب في وقت حققت فيه الرحلات إلى أقاليم الدولة العثمانية رواجاً تجارياً كبيراً، فترجم إلى عدة لغات، وقد فسر نيكولاي سبب تأجيله نشر هذا الكتاب إلى سرية المعلومات في مرحلة وصفها بالمرحلة السياسية والديبلوماسية الصعبة بالنسبة لفرنسا.⁴

والجدير بالذكر أن رحلة نيكولاس دو نيكلاوي تدخل ضمن رحلات التجسس، وجمع معلومات حول الدولة العثمانية، لاسيما عاصمة الإمبراطورية، حيث قدم الرحالة الجغرافي معلومات دقيقة ومفصلة عن التحصينات العسكرية، الأوضاع السياسية، السكان وطبائعهم، الممارسات الدينية، كما تحدث عن جانب من الثقافة العربية والفارسية⁵، وبذلك يتضح جلياً أن الرحالة قد جمع في هذه الرحلة صفات شخصية أساسها الفضول، حب الاطلاع والمغامرة والاستكشاف وبين التجسس وجمع المعلومات

¹ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 13.

² Mahfoud Kaddache, L'Algérie durant la période Ottoman, O.P.U, Alger, 1992, p 59.

³ David Bafman, op.cit, p 153.

⁴ Oury Goldman, De son pays au monde, expérience et échelles du voyage, le verger II, Paris, 1994, p 479.

⁵ David Bafman, op.cit., p 752.

وإعداد تقارير وخرائط لخدمة بلده فرنسا¹، لذلك فلا مناص من القول أن ما قدمه نيكولاوي عن الجزائر من معلومات جعلتنا نصنفه من أهم مصادر الرحلة الاستكشافية التي تعود لمنتصف القرن 16م.

- رحلة وليام ليثغو William Lithgow:

ذكر جوناثان بارابال في دراسة حديثة أن رحلة وليام ليثغو (1582-1645) جاءت في فترة اقترن فيها معنى الرحلة على الممارسة التي تعني في النهاية "التبادل المعرفي"².

ينحدر وليام ليثغو من أصول إسكتلندية من عائلة غنية ذات علاقات جيدة مع الطبقة النبيلة في اسكتلندا، فأمه امرأة مثقفة ذات فكر متفتح لمعرفة العالم الآخر وأسراره³، لذلك كان ليثغو مولعا بالترحال، اشغل لمعرفة واكتشاف المجهول، فما كاد يبلغ سن العشرين من عمره حتى بدأ مغامراته التي قادته إلى أوروبا، الشرق وجزء من شمال إفريقيا وآسيا.⁴

دون ملاحظات كثيرة عن رحلته التي نشرت سنة 1614 تحت عنوان "الوصف الكامل لتسعة عشر سنة من المغامرات العجائبية والرحلات المهلكة" "the total discourse of the rare adventures and painful peregrinations"⁵، نشرها نيكولاس أوكس Nicolas Okes ثم نشرت عدة مرات خلال القرنين 18م و19م.

تميزت رحلاته بالتنوع زار عدة مدن جزائرية وعلى رأسها مدينة الجزائر ومنها توجه شرقا إلى بجاية قسنطينة، وغربا إلى تلمسان... وغالب الظن أنه قرأ أو سمع مسجلا ملاحظاته التي تؤرخ لأواخر القرن السادس عشر ميلادي وبداية القرن السابع عشر بصفته مغامرا شغوف ومولعا بروح الاطلاع

¹ Oury Goldman, op.cit., p 24.

² Jonathan Barrabell, the pergrinations of lugless will deconstructing an early modern travel narrative, thesis presented to the university of Guelph Mester of arts in history antario, Canada, January 2016, p 03.

³ Ibid, p 04.

⁴ ميشال آبار، الجزائر في القرن السابع عشر لرحالة اسكتندي، ترجمة حنفي بن عيسى، مجلة الثقافة، ع 3، 1971، ص 44.

⁵ William Lithgow, the total discourse of the rare adventures and painful peregrinations of long nineteen years travels from Scotland to the most kingdom in Europe, Asia and Africa, London, 1614.

والاستكشاف¹، لذلك وصف ناصر الدين سعيدوني رحلته أنها من بين الأكثر موضوعية، لأنه لم يكن وراءها أي دوافع وأغراض سياسية أو خلفيات عدائية لإيالة الجزائر العثمانية، فيما قدمه من معلومات حقيقية عن الحياة الحضرية في الجزائر.²

تنتمي رحلة ليثغو إلى نوع الرحلة السفارية الاستكشافية التي تقوم على تقديم الفوائد العديدة للسفر والرحلة كمصدر من مصادر توسيع المعارف والمدارك حول الثقافات والشعوب لذلك، تضمن كتاب ليثغو أوصاف جغرافية للأماكن وملاحظات دقيقة ومتنوعة لكل ما تعرف عليه أو سمعه خلال رحلته العجائبية التي جمعت بين الحديث عن المخاطر والمتعة في آن واحد، بينما يطغى الاعتدال غالباً عندما وصف الشعوب التي زارها بالكرم وحسن الضيافة، لأن الهدف من الرحلة نوع من "الإشهار السياحي" التي تجذب القارئ، وتمنحه نوع من المتعة في وقت أجمع فيه الكتاب في أوروبا أنه مصدر هام من مصادر المعرفة والاطلاع على الأماكن والثقافات الأخرى.³

ب- كتابات الأسرى حول الجزائر العثمانية:

في مطلع القرن السادس عشر ميلادي كانت التجارة تمثل شريان الحياة بالنسبة لدول حوض البحر الأبيض المتوسط، خاصة المدن الإيطالية مثل جنوة التي أصبحت تحت رحمة هجومات البحارة المسلمين (المغاربة) الذين كانوا يبحرون من شمال إفريقيا.⁴

وقد زاد نشاط الإخوة بربروس في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بدعم قواعده في سواحل شمال إفريقيا للهجوم على السواحل الخاضعة للنفوذ الإسباني وعرقلة النشاط التجاري للمدن الإيطالية⁵، التي حولها قراصنة مالطا سنة 1566 إلى موانئ رئيسية للقرصنة.¹

¹ Cliford Edmund Bosworth, An intrepid scot William Lithgow of Lamark travels in the Ottoman Lands, North Africa and central Europe 1609-1621, Aldershort, 2006, p 17.

² ناصر الدين سعيدوني، ورفقات جزائرية، المرجع السابق، ص 21.

³ نفسه، ص 25.

⁴ Fernand Braudel, The Mediterranean and the mediterranean world in the age of Philip II, 2 vol, Translated sur from the French by Sion Rynolb, 2002, p 757.

⁵ Lenouar Merniche, Recherche dur l'Algérie à l'époque, Ottoman, tome I, Monnaies, prix et revenues, 1520-1830, Edif, Alger, 2000, p 173.

كما أعقب تطعيم قلعة البنيون غارات بحرية واسعة قام بها البحارة الجزائريين لعل أشهرها تلك التي قادها القبطان أيدن ريس وصالح ريس (1552-1556) اللذان قاما بعد اشتباك مع قائد الأسطول الإسباني العائد من جنوة على الاستيلاء على ستة سفن ضخمة من أصل ثمانية وألحق خسائر فادحة بها²، وهو الانتصار الذي حول مدينة الجزائر إلى إحدى الموانئ الهامة في حوض البحر المتوسط، ومع توالي انتصارات الأسطول الجزائري على الإسبان زاد عدد الأسرى في المدينة، حيث ذكر ماثيو كراي أن لكثرة عددهم باعوا عدد منهم بطريقة ازدراء وتحقير مقابل حبة بصل.³

وبذلك انطلقت عمليات الأسر خلال الفترة الحديثة التي كانت توجه في الغالب لأصحاب البشرة البيضاء "ما يعرف بالرقيق الأبيض" "White Slavery"، وهنا يبرز الصراع الإسلامي المسيحي في المتوسط والذي أعطى شرعية لهذه الهجمات البحرية فالمسلمون كانوا ينظرون إلى هذه العمليات "كجهاد بحري"، ضد الكفار، أما المسيحيون فأرو فيها حرب مقدسة "La guerre sainte"⁴، والعملية كانت متناظرة مع ما كان يقوم به المسيحيين من موانئ مالطا، وليفورنو في الهجوم على السفن الإسلامية، ولم يبق الأمر خلال هذه الفترة على هجمات القرصنة، بل تجاوزه أيضا إلى العديد من المعارك والحملات البحرية، فقد خلفت معركة لابريفيزا سنة 1538 التي وقعت بين العثمانيين والإسبان عددا هائلا من الأسرى، بالمقابل خلفت هيمنة الإسبان عند الهجوم على تونس سنة 1535 خسائر بشرية وعدد كبير من الأسرى عندما استباح الملك شارل الخامس المدينة لجنوده لثلاث أيام.⁵

¹ جماعة دينية صليبية وفرقة عسكرية يطلق عليها أيضا فرسان القديس يوحنا عرفوا بكثرة غاراتهم على السواحل والسفن الإسلامية، في إطار الحروب الصليبية مدعومة من هيئات حكومية وتجار اتخذوا مالطا مركزا لهم منذ 1530 تميز هذا التنظيم بعدائه الشديد للإسلام والمسلمين، وقرصنته المتكررة لسفنهم، كما استقروا في طرابلس، ومارسوا بما شتى أنواع القسوة والاستغلال، وقد ذكر أحد فرسان منظمة حدث تاريخي هام، عندما خير الدين بربوس تحريرها من يد الإسبان توحيد الجهتين الشرقية والغربية من الجزائر، قام بقصف القلعة بالمدافع، فأصبحت الحامية الإسبانية بالخوف والذعر وبعد إحداث ثغر في جدار القلعة دخل الجيش العثماني والاستيلاء على الحصن 27 ماي 1529، حيث تم أسر حوالي 700 جندي وأمر خير الدين بدم القلعة وربطها مباشرة بميناء الجزائر. (Adrien Berbrugger, Le pignon d'Alger ou les origines du Gouvernement Turk en Algérie collection regarde, 2012, p 134)

² Fernand Braudel, op.cit., p 757.

³ ماثيو كراي، مختصر تاريخ الجزائر، ترجمة على تابليت، ثالة، الجزائر، 2013، ص 37.

⁴ Gerald Maclean, Nabil Matar, Britain, and the Islamic world 1558-1713, Oxford university press New York, p 124.

⁵ إبراهيم سعيود، دور بعض لدويلات الإيطالية في الصراع المتوسطي خلال الفترة الحديثة، الجزائر، وتوازنات القوى البحرية غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر ميلادي، دراسة تاريخية، تقديم علي العبيدي، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2017، ص 62-63.

وبذلك ميز القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلاديين ظهور توسع القرصنة المتوسطية، وانتشرت أسواق خاصة بالأسرى أغلبها على المدن الساحلية لعل أهمها ليفورنو وجنوة الإيطالية، مارسيليا ومدينة الجزائر، حيث كانت هذه المدن وبدعم من حكامها في أسر أكبر عدد منهم لحاجاتها التجارية، إذ كان الكثير منهم يوجه للتجديف في السفن سواء الإسلامية أو المسيحية.¹

وانطلاقاً من ذلك يمكن القول أن العداء الشديد مع الإسبان والأزمة الأندلسية وكثرة الغارات على السفن والمدن الإسبانية، جعل أكثر الأسرى في مدينة الجزائر في أواخر القرن 16م، من الإسبان وهو ما فسر ظهور أول كتابات الأسرى الأوروبيين حول الجزائر، حيث فضل العديد من الأسرى الإسبان الذين عاشوا في مدينة الجزائر تسجيل انطباعات عن حياتهم اليومية وعن مأساة الأسر في المدينة²، فساهم هؤلاء في إطلاق أكبر الحملات الدعائية في تاريخ العصر الحديث على منطقة شمال إفريقيا، التي عرفت في كتاباتهم بتسمية بارباري Barbary وهي تسمية تتداخل فيها الجغرافية، العرق، والثقافة، عندما تصور هؤلاء المنطقة كمكان طبيعي لثقافة الشر، العرق الخاطئ (غير الأوروبيين)، الدين الخاطئ (الإسلام)، الأدب الخاطئ (التعصب والقسوة)، والسياسة الخاطئة (القرصنة)، فسكان البرابرة في أغلب كتابات هؤلاء هم الأعداء المعلنون، ومثل هذه الخطابات الدعائية ساهمت في إذكاء الأحقاد وخلقت صورة نمطية للقسوة والتعجرف لدى الأوروبيين.³

والجدير بالذكر سكوت المصادر المحلية والتقارير الرسمية عن الحديث عن وضعية أسراهم في أوروبا⁴ التي تبقى المعلومات عنها شحيحة تحتاج للكثير من الدراسة والتمحيص.

¹ Moulay Belhamissi, Marine et marins d'Alger (1518-1830), face à l'Europe, vol 03, bibliothèque national, Alger, 1996, pp 24-33.

² Moulay Bel Hamissi, Course et contre course en méditerranée, Cahier de la méditerranée, N° 65, 2002, pp 53-67.

³ Lotfi ben Rejeb, The general belief of the world Barbary as genre and discourse in Mediterranean history, Review of history, revue européenne d'histoire, Vol 19, N°1, 2012, p 17.

⁴ الدراسة التي قام بها الحميسي تبين بوضوح أعداء الأسرى الجزائريين الذين كانوا يسقطون بشكل دائم في أسر السفن الأوروبية خلال القرن 17م من أطفال ونساء ورجال، منها حادثة الهجوم على السفن المتوجهة إلى الحجاز والحملة بالحجيج والأموال من طرف سفن إنجليزية والأمثلة كثيرة عن معاملة المسيحيين للأسرى المسلمين اللإنسانية التي أقلها بشاعة تحويلهم بالقوة إلى المسيحية. (للمزيد أنظر دراسة

يقول جون وولف أن "القائمة طويلة لهؤلاء الأرقاء، فهذه مكتبة نيو بيري **New beery** بمدينة شيكاغو تحتوي على أكثر من أربعمائة كتاب أو أكثر من الكتب المعاصرة للرحالة التي ألفها أرقاء تحرروا، ويوجد في المكتبة الوطنية الفرنسية، والمتحف البريطاني أكثر من مئة عنوان، كما أن البيبليوغرافية التي وصفها بلايفير (**Playfair**) تضم حوالي مائتان وثلاثة وتسعون كتاباً"¹.

وعلى ضوء ذلك فإن النماذج التي تم إدراجها في هذه الدراسة من كتابات هذه الفئة من الأوروبيين تم اختبارها حسب معايير تأخذ بعين الاعتبار، اهتمام هؤلاء بالجانب الثقافي للجزائريين خلال هذه الفترة وعلى اختلاف الانتماءات والثقافات بين هؤلاء، فقد تنوعت وتعددت كتاباتهم حول هذا الجانب، وإذا كان ما يجمعهم هو كتابة تجربتهم التي وصفت أحيانا كثيرة بالقاسية في الأسر في مدينة الجزائر، فإن الملاحظ أن درجة الموضوعية في هذه الكتابات قد تباينت من أسير لآخر من فترة إلى أخرى وهو ما سيتم إلقاء الضوء عليه من خلال تقديم أبرز من كتبوا في هذا الجانب.

– مرمول كربخال **Marmol Karvajal**:

ولد مرمول موريس كربخال "Marmol Karvajal" بغرناطة في أوائل القرن السادس عشر²، اشتغل ضابطا في جيش الإمبراطور شارل الخامس (1500-1558م) شارك في الحملة على تونس سنة 1535 وبعد مغادرة الأسطول الإسباني لتونس بقي مرمول في شمال إفريقيا يقوم بمهمة كلفه بها شارل كان وطال مقامه نحو اثنين وعشرين سنة³، وقع فيها أسيرا لدى الأشراف السعديين أين بقي سبعة أعوام سير في ركبهم أين ساروا فتنقل في أرجاء واسعة في إفريقيا⁴، وخلال هذه المدة أيضا تعلم اللغة العربية والتي بواسطتها تمكن من جمع معلومات جغرافية وتاريخية عن هذه البلاد.⁵

أعدّها: Moulay Belhammissi, Course et contre course en méditerranéen, op.cit., pp 53- (67).

¹ جون وولف، المصدر السابق، ص 148-149.

² إسماعيل العربي، بجاية من خلال النصوص الغربية، مجلة الأصاله، العدد 13 (عدد خاص)، قسنطينة، 1972، ص 74.

³ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 192.

⁴ مرمول كربخال، إفريقيا، ج 1، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية الغربية للتأليف والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ص 05.

⁵ إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 75.

وبعد حصوله على حريته قام بتأليف كتاب "وصف إفريقيا" باللغة الإسبانية "Description général d'Afrique" غرناطة عام 1573 وقام بترجمته إلى الفرنسية ونشره في ثلاث أجزاء صدرت عن دابلونكورت D'Ablan Court NP في باريس سنة 1667.¹

اعتمد مارمول في كتابه على ملاحظات شخصية للكثير من التجارب التي عاشها في إفريقيا لمدة طويلة زار فيها مناطق بعيدة وصل إلى النيجر الصحراء الكبرى، إثيوبيا ومصر.²

كما اعتمد على كتب أفصح عن بعضها ضمن طيات كتابه، مثل كتاب ابن الرقيق القيرواني "تاريخ إفريقيا"، لكنه اعتمد بصفة كبيرة على كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، الذي يبدو أنه نقل عنه فصولا كثيرة حرفيا.³

هناك من يؤكد على زيارته للجزائر في إطار الزيارة الدبلوماسية التي قام بها بعد افتدائه وتحريره، فقدم معلومات قيمة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية، الاجتماعية والثقافية عن البلاد في النصف الثاني من القرن السادس عشر ميلادي، وخاصة في حديثه عن المجتمع الصحراوي وهنا تكمن أهمية هذا المصدر الذي تناول الحياة الثقافية في الجزائر بعيدا على المدن والحوضر سيما مدينة الجزائر التي اقتضرت عليها أغلب الدراسات الأجنبية في تلك الفترة، وبذلك ساهم في توصيل حلقات تاريخية كانت قد أهملتها المصادر الأخرى.⁴

والجدير بالذكر أن ما كتبه مرمول كبريخال لم يختلف عن عاصروه، الذين تعرضوا لظروف الأسر من طرف المسلمين، إذ يحمل مؤلفه بعض الإشارات عن التعصب المسيحي، فجاء في مقدمة كتابه "...لم يكن لي قصد في تأليف هذا التاريخ كله إلا تشجيع الدول الكاثوليكية عن حمل السلاح ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون بوقاحة مجد المسيحية ولا يفتأون يحاربوننا ويتحينون الفرص

¹ جون وولف، الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 463.

² Nour Eddine Melki, Marmoul Karvajal et ses sources arabe, 2ème colloque international, sur Ibn Khaldoun de 04 au 12 Juillet, 1986, CNEH, Alger p 37.

³ مارمول كبريخال، المصدر السابق، ص 06.

⁴ المصدر نفسه، ص 131-298.

لتحطينا لكن سيسهل علينا إهلاكهم أكثر من أن نسترجع منهم أرض المقدس لأننا نعرف الآن قواهم".¹

¹ المصدر نفسه، ص 12.

– ميغال دي سيرفانتس سافيدرا¹ (Miguel de cervantes Saavedire)

بعد رحلة قضاها في إيطاليا كجندي في الجيش الإيطالي ثم في جيش التحالف ضد الدولة العثمانية، خرج سيرفانتس من مدينة نابولي في 26 سبتمبر 1575، عائدا برفقة (Rodrigo) إلى إسبانيا لكنه وقع في أسر الرئيس أرناووط مامي وهو أحد الرياس الأقوياء، مسيحيا ألبانيا اعتنق الإسلام فكان يكره المسيحيين بشرة وخاصة الإسبان²، ويبدو أن ما كان يحمله من شهادات توصية لملك إسبانيا فيليب الثاني ممضاة من قبل نائب رئيس صقلية جعلت من أسروه يعتقدون أنه شخصية إسبانية مهمة فوضع تحت حراسة مشددة وحددت قيمة مالية ضخمة مقابل افتدائه.³

قضى سيرفانتس خمس سنوات أسيرا في مدينة الجزائر، أين كان له امتياز أن يكون أسيرا للحاكم، كما استثنى من الأعمال الشاقة التي عادة ما يكلف بها الأسرى قضى هذه المدة في السجن بين الكتابة، والتخطيط للهروب من الأسر.⁴

حيث تمكن في إحدى محاولاته الفاشلة مخاطبة الباشا قائلاً: "إذا كان جلالتك يرى بأن هذا الفعل المتمثل في الحصول على حريتنا جريمة فأنا المسؤول الوحيد عن ذلك فأرجو ألا تعاقب زملائي باعتباري أنا الذي أغريتهم فوثقوا في هذا الخائن الذي وشى بنا"⁵، وأعجب حسن باشا لجرأته وشجاعته فجلبه إلى القصر بعد أن اشتراه من الرئيس مامي بخمسمائة ريال ذهبي، وهو ما سمح له

¹ ولد في 29 سبتمبر 1547 (التاريخ المرجح)، من عائلة متواضعة تردد على مدارس مدينته، حيث كان من المتفوقين قوي الذهن، الإدراك والميل إلى الأدب وهو ما جعلوا والده رغم فقر يرسله لمواصلة دراسته العليا في مدرسة الآباء اليسوعيين، اهتم منذ صغره بالمرح، كما شارك في الخدمة العسكرية عندما انتقل إلى إيطاليا وهناك بدأت مغامراته البحرية جنديا في الجيش الإيطالي، كما مكنته الانتقال إليها التعرف قراءة كتب عديدة ثم انضم إلى التحالف المقدس التي يضم فرقة إسبانية وشارك في معركة ليبانتو ضد الدولة العثمانية سنة 1571 وقع في الأسر سنة 1575 بالقرب من السواحل الفرنسية من طرف بحارة جزائريين توفي سنة 1616 بمديريد. (عن حياته أنظر نجيب أبو ملهم وموسى عبود، سرفانتيس أمير الأدب الإسباني، مطبعة المخزن، تيطوان، المغرب الأقصى، 1947، ص 20-180).

² Fayçal Bensaadi, *Cerventés captifs à Alger*, Syneries, Algérie, N° 01, ed Gerflent, 2007, p 121.

³ Jean Babelon, *Cerventes notice sur sa vie et son œuvre maison charavay*, Paris, 1947, p 03.

⁴ نجيب أبو ملهم وموسى عبود، المرجع السابق، ص 106-112.

⁵ Henri Klein, *Feuillet et djazair*, Tome 3, edition tell, Alger, 2003, p 112.

بجانب من الحرية في التنقل في المدينة والتعرف على السكان إلى أن قامت جمعية الثالوث المقدس من افتدائه، فحصل على الحرية الكاملة حين مغادرته الجزائر سنة 1580.¹

بعد عودته لإسبانيا ونظرا لإصابته في يده التي تسببت له في شلل قرر سرفانتس التفرغ لكتابة الروايات التي كانت معظم مواضيعها تدور حول سنوات أسره في مدينة الجزائر، وعن المعاناة والمعاملة القاسية واللاإنسانية التي كانت يتعرض لها الأسرى، منها أيضا كان يبعث برسائل إلى الجمعيات الدينية في إثارة الحماس والأحقاد ضد الجزائر.²

ولعل من أشهر رواياته التي لها علاقة بموضوع الدراسة "رواية الأسير" وهي قصة متخرجة من روايته الشهيرة "دون كيشوت"، تحدث فيها سيرفانتس عن حالة الأسرى في سجون مدينة الجزائر، بين الأسرى الخواص وأسرى الدولة وعن يومياتهم الشاقة والقسوة التي كانوا يتعرضون لها، كما تضمنت الرواية قصص غرامية جمعت بين بعض السجناء المسيحيين، وبعض النساء العربيات في مدينة الجزائر مثل قصة السجن وابنة الأغا مورتو "زويدا"³ كما أورد وصف للأوضاع العامة في المدينة، كتبها بناء على تجربته التي قضاها في الأسر مستعينا بتعابير ومفردات مستمدة من الثقافة العربية الإسلامية، مما يدل على اطلاعه على هذه الثقافة وتسليط الضوء على حياته في مدينة الجزائر.⁴

تشكل المعلومات التي زدنا بها سيرفانتس من خلال تجربة أسره وإقامته في مدينة الجزائر وثيقة قيمة لدراسة وفهم مجتمع المدينة في القرن السادس عشر ميلادي، وكذا تعطي فكرة حول الأسر والأسرى، اللغات واللباس، بالرغم من دوافع سيرفس العدائية ضد المسلمين فقد كانت رواياته في عمومها تهدف إلى إثارة حماس إسبانيا الكاثوليكية ضد الجزائر في قالب أدبي يطغى عليه الخيال والدراما، إلا أنها تصنف من الكتابات الأجنبية التي يمكن العودة إليها لمعرفة جانب من الحياة الثقافية في مدينة الجزائر في النصف الثاني من القرن السادس عشر.⁵

¹ Henri Klein, op.cit., p 113.

² نجيب أبو ملهم وموسى عبود، المرجع السابق، ص 106-112.

³ Fayçal Bensaadi, op.cit, p 124.

⁴ Fatima Zohra Chiali, Oran l'Espagnol a travers de Miguel Cervantes, passerelle, Vol 8, N° 1, université Oran 02, 2019, p 07.

⁵ Ibid, p 08.

- دييغو دوهايديو **Diego de Haedo**:

مكث دوهايديو* في الجزائر أسيرا حوالي أربع سنوات مكنه من الاطلاع على أحوال البلاد، سكانها، العادات والتقاليد، نظام الحكم ومختلف الجوانب السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، وعند عودته دون ملاحظاته في مؤلفه الأول حول الجزائر الذي نشره سنة 1612 في بلد الوليد عنوان طبوغرافية وتاريخ الجزائر العام "Topographie et histoire général d'Alger"¹، ترجم إلى الفرنسية من طرف مونرو وبروجر berbrugger نشر في المجلة الإفريقية في عدة أعداد تباعا سنة 1870-1871، وفي حوالي تسعة أجزاء تعددت مواضيع هذا الكتاب، خصص فيها جزء للحديث عن الفئات المشكلة للمجتمع الجزائري، حياتهم اليومية، عاداتهم، طقوسهم الاحتفالية، ويبدو من الكتاب أن هايديو قد تمتع بقدر كبير من الحرية في وصف العديد من الأحداث والمباني العسكرية، وتحصينات المدينة، حيث قدم تفاصيل دقيقة في هذا الجانب.²

كتاب تاريخ ملوك الجزائر *histoire des rois d'Alger* نشر لأول مرة سنة 1880 في الجزائر في عشرة أجزاء من المجلة الإفريقية.

كتاب الأسر في الجزائر (*La captivité à Alger*) وهي دراسة مفصلة عاد فيها إلى الأزمنة القديمة، بينما تدور الفكرة الرئيسية لهذا الكتاب إلى اعتبار ظاهرة الأسر من أسوء الظواهر التي عرفتها البشرية، مقدا وصفا مستفيضا عن حياة الأسرى المسيحيين في سجون الجزائر، والحالة البائسة والمأساوية التي يعيشونها مقدا روايات لأحداث شاهدها وعاشها، أو قصها عليه من عاشوها من

* راهب بندكتي إسباني ولد في منطقة كارانسا (carança) ينحدر من أسرة عريقة في منطقة سبكايا، كان والده أسقفا في منطقة باليرمو، تتبع هايديو خطى أبيه وتوجه إلى صقلية ليصبح كاهنا في التنظيم البندكتي عمل رفقة العديد من رجال الدين على تطوير الكنيسة والدفاع عنها، وقع في الأسر في السواحل الجزائرية سنة 1578 بعد أن خرج لافتداء عدد من الأسرى الإسبان المتواجدين في الجزائر، حصل على حريته سنة 1581، وعند عودته عين أسقفا على مدينة فرو ميستا. (نجيب أو ملهم، موسى عبود، ص 211-212) (Dan, Les illustres captifs, histoire générale de la vie des fait et des aventures de pulques personnes notably prises par les infidèle musulmans présenté par de Grammont in RN° 27, 1887, p 205-206.

¹ Guy Tubet Delof, Bibliographie critique du Maghreb dans la littérature Française 1532-1715, Edition SNED, Alger, 1976, p 75.

² Belhamissi Moulay, Alger l'Europe et la guerre sucrette, op.cit., p 46.

الأسرى¹، ويبدو أن هايدو بتقديم هذه الصورة المأساوية عن حياة الأسر كان يهدف إلى استعطاف الرأي العام الأوروبي والإسباني خاصة لجمع الأموال لافتداء هؤلاء الأسرى.

وكغيره من كتابات الأسرى الآخرين تميزت كتابات دوهايدو بالرغم من قيمتها التاريخية الهامة في كتابه تاريخ الجزائر خلال هذه الفترة تميزت بالتهويل، وأحيانا بالتراجيديا والخيال المليء بالتشويق.² وكان الهدف الأول تحقيق أغراض شخصية محضة³، وهو ما يجعل الباحث يستخدم الكثير من أدوات الغرابة والتمحيص والكثير من الحذر في تقديم المعلومات التاريخية الواردة في أغلب مؤلفات الأسرى لا سيما منهم رجال الدين الذي تحركهم دوافع التعصب الديني والحقد الصليبي في تقديم هذه المعلومات.

– جون باتيست غراماي Jean Batiste Gramay⁴:

بعد ثلاث أشهر من الأسر، وصفها غراماي "بالأسر المريح" قضاها في غرفة خاصة في إقامة القنصلية، تمت فديته، وسمح له التنقل بحرية في المدينة، حيث تمكن من زيادة الكنائس والمرافق العامة، كما زار بعض المدن الجزائرية مثل بجاية، جيجل، قسنطينة، القل وعنابة ليعود إلى مدينة الجزائر.

¹ Diego Haedo, de la Captivité à Alger, Traduit par Molimier Violle, in R.A, N° 39, 1895, p 55.

² كان دوهايدو من الشخصيات المتحمسة لضرورة شن حملة عسكرية لاحتلال الجزائر، وهو ما يللمسه القارئ في كتابه (الأسر في الجزائر)، وما جاء فيه من تحويل للأحداث فيما أسماه كلاهما الصبر والتحمل ما يحدث لهم جراء ذلك من مآسي وأحداث مروعة. Diego, De la captivité, op.cit, p 57.

³ حفناوي، صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دروب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016، ص 51. – ورد في وثيقة الأرشيف الولائي قسنطينة تحت رقم 37778D أن كل من الأب هولي Houllier والأب بلكيور هيرود Heroud التابعان لتنظيم سيدة الرحمة قد قام في أكتوبر 1750 بافتداء 66 أسيرا فرنسيا.

⁴ ولد على الأرجح في 29 أبريل 1579 ينتمي إلى عائلة بوجوازية عريقة من أصول هولندية، عين أبه أمين في الشؤون المالية في عهد الملك فيليب الثاني، ونظرا للظروف الصعبة التي واجهتها العائلة أرسل الطفل جون باتيست إلى أحد أفراد العائلة في منطقة كولونيا لإتمام دراسته، حيث درس في جامعتها الفلسفة والقانون/ وتخصص أيضا في الكتابة التاريخية للعديد من مقاطعات بلجيكا، ثم تخصص في علم اللاهوت وعين مبعوثا دينيا، قام بعدة رحلات في أوروبا، آخرها إلى إيطاليا التي وأثناء عودته وقع في الأسر في 24 أبريل 1619 من طرف بحارة جزائريين، ومنذ الوهلة الأولى عومل معاملة خاصة باعتباره شخصية دينية معروفة ووضع في إقامة خاصة وحددت قيمة فديته بعد التفاوض بـ 200 طعة ذهبية. (للمزيد أنظر، Abdelhadi Ben Manson, l'Heureux captif d'un protonaire apostolique Jean Batiste Gramay à Alger (1619) , Bulletin de la science national des Antiquaines de France, 1997, Ed Boccard, Paris, pp 55-59.

ويبدو أن وضع غراماي كان مختلفا، حيث بالإضافة إلى أنه كان أسيرا رسميا لدى حكومة الجزائر، اعتبر أيضا في الكثير من الأحيان رهينة استخدم لتسوية بعض القضايا العالقة بين فرنسا والجزائر (مثل قضية المدفعين اللذان وقعا في قبضة الفرنسيين)، لذلك وبعد تأجيل مغادرته الجزائر من طرف الديوان لعدة مرات، سمح له في النهاية بالمغادرة برفقة عدد من الأسرى الذين تم افتدائهم مقابل هدايا قيمة، وبعد عودته إلى أوروبا قرر غراماي تدوين ما شاهده وسمعه عن التجربة التي مر بها في الجزائر، حيث أصدر كتابه الذي صدرت النسخة الثالثة منه سنة 1623 عن مطبعة Albin Dusseldorf بمنطقة كولونيا بعنوان "يوميات أحداث وقعت في الجزائر خلال سنة 1619" Diarum rerum argilae gestarum بقيت منه نسخة باللغة اللاتينية، يمكن تقسيم هذا العمل إلى جزئين الأول أشار فيه إلى تاريخ المدينة، أما الجزء الثاني فقد خصصه لفئات المجتمع الجزائري، وصف السكان، من عرب بربر أندلسيين، أتراك يهود، كراغلة، سكان الجنوب والأوروبيين.

استطاع أن يسير في المدينة بكل حرية مصورا الحياة اليومية فيها، كما كان مسموحا له، الدخول إلى المنازل وهو ما لم يكن متاح للجميع، فتمكن من تصوير المرأة الجزائرية وحياتها اليومية، والحمامات التي كان يتردد عليها بشكل مستمر، كما تطرقنا إلى جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية في المدينة، وبشكل مختلف تماما عن باقي كتابات الأسرى لم يتطرق هذا الأسير إلى معاناة الأسر فكان أقل تعصبا ممن كتبوا عن الجزائر، وهنا تكمن أهمية كتابه.

– كتابات إيمانويل دارندا Emmanuel D'Arande¹:

بعد عودته من الأسر في 24 مارس 1642، وبعد أربعة عشر سنة قضاها دارندا في إعادة تنظيم حياته²، قرر نشر كتاب يقدم فيه تجربته التي قضاها في الأسر في مدينة الجزائر صدرت النسخة الأولى

¹ المرجح أنه ولد سنة 1614 بمنطقة أراغون (إسبانيا)، والده كان تاجرا معروفا ولم تتوفر لدينا الكثير من المعلومات عن حياة دارندا، الذي وقع في الأسر من طرف بحارة جزائريين بالقرب من السواحل الفرنسية في 12 أوت 1640، نقل هو وإثنان من مرافقيه مكبلا بالأغلال إلى مدينة الجزائر، حيث ذكر أنه أخفى اسمه الحقيقي وجنسيته، ثم شرائه من طرف الرئيس علي تشين الذي وصف بولعه بشراء وبيع الأسرى، حيث كان يوجد في سجن الأسرى (البانيو) الذي يملكه حوالي خمسمائة وخمسون أسيرا (عبدا)، كلف دارندا أيضا بخدمة أحد الجنود الإنكشارية يدعى مصطفى، وبقي في الجزائر سنتين تقريبا، وبعد افتدائه عاد على بلده سنة 1642، وتوفي سنة 1686. للمزيد أنظر: David Thomas and Jhon Ches Worth and others, Christian muslim relations, Bibliographical, history, Brill, Boston, 2017, pp 483-487.

² Latifa Elhessar, Zechari, Les captifs d'Alger d'après les relation de Emmanuel d'Aranda, Jadis esclave à Alger 17 -ème siècle, Casbah éd, Alger, 2004, p 07.

منه سنة 1656 في بروكسل باللغة الإسبانية ثم ترجم إلى عدة لغات الفرنسية، الألمانية، والإنجليزية، تحت عنوان علاقة الأسر بالحرية للسيد إيمانويل دارندا *relation de la captivité et de la liberté du sieur Emmanuel d'Aranda*، تضمن الكتاب حوالي 336 صفحة¹، خصص الجزء الأول للحديث عن تجربته في الأسر انطلاقاً من وقوع السفينة الإنجليزية التي كان على متنها في الأسر لدى بحارة جزائريين ونقله إلى مدينة الجزائر مكبلاً ومنها إلى سوق الأسرى الباتستان (Batisten) قدم فيه روايات عن حياة الأسر، في سجن الأسرى (البانيو) ومعاناتهم من العبودية وعن العلاقة بين الأسير وسيده²، أما الجزء الثاني فقدم فيه وصفاً لمدينة الجزائر والسكان، لفئات المجتمع، العادات والتقاليد، وبعض الممارسات السائدة في المدينة، وأنهى كتابه في حوالي خمسون صفحة قدم فيها نصوص لشهادات عن بعض الأحداث التي عاشها في المدينة خلال فترة أسره³.

والملاحظ فيما كتبه دارندا عن تجربة الأسر في الجزائر، أنه كان الأكثر التزاماً بتقديم الحقائق دون جانب المبالغة والتحويل الذي ذهب إليه الكثير من الأسرى ممن سبقوه أو عاصروه، فقد التزم بتقديم تجربته بجانبها السليبي والايجابي، عندما تحدث عن عدم وجود اختلاف كبير بين المسيحية والإسلام، وعن وجود جانب من الحرية، كان يتمتع به الأسير المسيحي في الجزائر، مشيراً أن ظروف الأسر في أوروبا لا تختلف كثيراً عنها في الجزائر، قائلاً: "يوجد في مدينة دانكارك مئات الأتراك المسلمين الأسرى في حالات بائسة، يعيشون في القبو في حالات بائسة لا يعاملون أحسن من الأسرى المسيحيين في الجزائر".

والربع قرن اعتبر ما كتبه دارندا مثلاً للأسير المسيحي الذي نقل تجربة أسره دون مبالغة، حيث عرف بعبارته الشهيرة الأسير السعيد (L'heureux esclave)⁴.

– كتابات فرنسوا دو روكفيل *François de Rocquille*:

لا توجد معلومات كثيرة عن شخصية هذا الأسير الفرنسي، إلا أن مؤلفه في نظري يعتبر من أهم وأبرز ما كتبه الأسرى حول الحياة العامة في مدينة الجزائر، في جانبها الثقافي، ولما تحمله من شهادات

¹ Denise brahimi, op.cit., p 35.

² Ibid, p 35.

³ Latifa Elhessar, op.cit., p 08-09.

⁴ Denise Brahimi, op.cit., p 71.

وملاحظات عن نمط الحياة في المدينة خلال النصف الثاني من القرن السابع شر ميلادي، وما توفر لدينا من معلومات تؤكد أن دو روكفيل وقع في الأسر، وجلب إلى مدينة الجزائر سنة 1674، وبحسب ما ذكره في كتابه أن سيده بعدما اشتراه يقول: "قدم لي لباسا قديما من القماش المستخدم في أشربة السفن وقبعة حمراء أعطاني برميلا كبيرا وطلب مني في اليوم الموالي بلغة الفرانكا وبلهجة عنيفة ولا إنسانية، أن أملئ هذا البرميل بالماء وأبيعه لسكان المدينة ولا أعود في آخر اليوم إلا ومعني سبع قطع ذهبية وإلا تعرضت للضرب بالعصى...".¹

استعمل هذا الأسير الفرنسي في نقل الماء وهو عمل شاق يتطلب الكثير من التجربة والمجهود العضلي للتجول في شوارع وأزقة المدينة، لكن هذا العمل مكنته من الاحتكاك بمختلف فئات المجتمع الجزائري، والاطلاع على الحياة الخاصة لمعامله وخاصة النساء، إذ يعد من أكثر الأسرى الذين قدموا وصفا للمرأة في مجتمع مدينة الجزائر، فوصفهن في مؤلفه "بأنهن جميلات وهن جوانب معقدة من حياتهن تثير الإعجاب والحب".

وذكر أيضا "إذا كان نقل الماء يعتبر مصدر للمتعة والاستحمام لدى نساء المدينة فإنه بالنسبة لي تجربة للتعرف عن قرب عن هذا المجتمع".

نشر دو روكفيل مؤلفه في 2 جانفي 1675 بعنوان علاقة العادات وحكومة الأتراك بالجزائر "Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger" سرد فيه أحداث وتفصيل من داخل المجتمع الجزائري في المدة التي قضاها في المدينة والتي دامت تسعة أشهر، استهل كتابه بدعوة القراء إلى تصديق كل ما ذكره في هذا الكتاب الذي يعتبر عبارة عن مشاهدات حقيقية لما عاشه في المدينة²، وخصص الجزء الأول في وصف مدينة الجزائر، حكومة الأتراك ونظام الحكم، أنواع العقوبات المعتمدة لدى الأتراك عودة الحجاج من مكة، أما في الجزء الثاني فقد أسهب روكفيل في تقديم معلومات مفصلة عن العادات وتقاليدهم مجتمع مدينة الجزائر، من حيث اللغة، طقوس

¹ X. Marmies, Lettres sur l'Algérie, Arthus, éditeur, Paris, p 11.

² Le sieur de Roqueville, Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger, pré de Fatiha Loualich, éd Bouchène, France, 2018, p 08.

الاحتفال، الزواج، ومختلف الممارسات اليومية¹، وهو ما أعطى لهذا الكتاب قيمة تاريخية في هذه الدراسة، نظرا لطبيعة وحجم المعلومات التي قدمها روكفيل في وصف مجتمع مدينة الجزائر، الذي عاش فيه واحتك بمختلف فئاته، لذلك يعتبر حسب رأي شاهد عيان كثير من الأحداث التي وقعت في النصف الثاني من القرن السابع عشر ميلادي بمدينة الجزائر.

اعتبر هذا الكتاب من المصادر التاريخية ذات القيمة العالية، إذ يبدو في دو روكفيل كمؤرخ اعتمد في تقديم الحقائق على وثائق أوروبية وعربية وشهادات حية، تصنف كأول دراسة تاريخية لأسير أوروبي كتب عن الجزائر العثمانية معتمدا على المنهج التاريخي في سرد الأحداث، كما اعتبر عند البعض أن ما كتبه يعتبر الحلقة المفقودة بين ما كتبه دو هايدو والأب دان مقارنة بما كتبه تعتبر كتابات هؤلاء سطحية وتفتقد للدقة والموضوعية.

- كتابات جون فوس (John Foss):²

ذكر جيمس ستيفنسون في مستهل كتابه أن جون فوس (John Foss) التي ظهرت رواية في طبعين سنة 1738، فقد سجلت بداية لأدب الأسرى الأمريكيان في الجزائر، إذ بعد عشرون سنة الموالية كتب اثني عشرة أسيرا من الأمريكيان مذكراتهم ومعاناتهم في إفريقيا الشمالية، وقد وجدت روايات هؤلاء رواجاً واسعاً بين الجمهور الأمريكي، والتي كان الهدف منها تسليط الضوء على ظاهرة الأسر في محاولة للمدرسة الأمريكية إعادة إحياء ما كتبه الأوروبيين في نهاية القرن 16 وبداية القرن 17م، وإعطاء صورة عن منطقة شمال إفريقيا التي كانت مجهولة تماماً لدى الأمريكيين.³

بعد عودته من الأسر أصدر جون فوس كتابه "رحلة إلى الأسر والمعاناة لجون فوس، سنوات عديدة من الأسر المسيحيين"، ظهرت نفخته الأولى سنة 1796 وأمام الوضع العام طالبه الكونغرس

¹ Ibid, p 31-45.

² ولد حوالي 1772 في منطقة محافظة مدينة نيويورك بورت New Bury port بولاية ماساشوسيت Massachusetts (بالساحل الشرقي الأمريكي)، ولد خلال الثورة الأمريكية، عمل فوس في شبابه بحارا ثم عين قبطانا على رأس سفينة التي توجهت في صيف 1723 من بلنمور، تجاه قادس (Cadiz) محملة بالقمح الموجه إلى أوروبا وبالقرب من منطقة سانت فاسنان (St Vincent) تعرضت السفينة إلى هجوم البحارة الجزائريين ليقع هو ورفاقه في الأسر الذي قضى فيه ثلاث سنوات، اشتغل مجدداً إلى أن تم افتدائه برفقة بعض الأمريكيين ليعود إلى بلده سنة 1798. Christine Esears, American slaves and African masters. 1798. (Algeries and the western Sahara (1776-1820), United States, palgrave Macmillan, 2012, pp21-40)

³ جيمس ولسون ستيفنسون، الأسرى الأمريكيان في الجزائر، ترجمة علي تابلت منشورات تالة، الجزائر، 2007، ص 03.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

بالتحضير لإصدار طبعة ثانية منقحة يتحدث فيها بشكل دقيق عن الأوضاع الثقافية والدينية بالجزائر فظهرت الطبعة الثانية سنة 1798، عدت أول رواية لأمریکا المستقلة تفصل في أحداث الأسر بشمال إفريقيا، حيث أيقن الأمريكيون أن الحاجة أصبحت ملحة للتأسيس للإيديولوجية الفكرية للمجتمع الأمريكي، بعد تخلصهم من الارتباط الكلي لبريطانيا، واختارت الدولة الناشئة بداية تأسيس منظورها الفكري عن منطقة شمال إفريقيا باعتبارها خارج النطاق الأوروبي¹، وهو الدور الذي جسده بجدارة فوس في روايته، حيث أدى تضرر المصالح الأمريكية كدولة مستقلة في مياه الأطلسي وحوض البحر الأبيض المتوسط، أصبحت النظرة النمطية الأوروبية اتجاه إيالة الجزائر تطغى على الكتابات الأمريكية التي تصف المسلم "رمزا للشر والظلم والعبودية"، وهو أيضا المنهج الأمريكي الذي أراد خلق مخيال يغرس لدى الأمة الأمريكية فكرة "أمة المعاناة" بأسلوب يدعو إلى التعاطف، الاتحاد وبذل الجهود للخروج والتخلص من هذا الوضع.²

وبذلك اعتبر جون فوس روايته عبرة لكل قارئ قد يجد نفسه يوما مكبلا بالأغلال في مدينة الجزائر، ورأى من الضرورة اطلاع الشعب الأمريكي عن تقاليد وسلوكات سكان المنطقة من خلال الاطلاع على تجربته كأسير، وفي حديثه كان دائم المقارنة بين الجزائريين والهنود في الهمجية والوحشية، فيقول "إن شكلهم يبدو عاديا لكن ملابسهم ولحاهم تجعلهم كالوحوش ووصف الإسلام والمسلمين (المحمدين كما ذكرهم)، بأوصاف قوية وبكثير من التحفيز والإساءة، فذكر أن الإسلام هو دين العنف والهمجية"، هو ما يقدم انطبعا حول للعداء الديني الذي أعلنه هذه الدولة الناشئة بين المسيحية والإسلام.

وعموما فقد خصص جون فوس الجزء الثاني من كتابه بعد حديثه الطويل عن معاناة الأسر، إلى الحديث عن مدينة الجزائر وصف للمدينة والسكان من حيث العادات والتقاليد (اللباس، مراسم الاحتفالات...)، كما قدم وصفا للمظاهر العمرانية بالمدينة.³

¹ علي تابلت، العلاقات الجزائرية الأمريكية (1776-1830)، ج1، الجزائر، 2013، ص 101.

² John Foss, A journal of the captivity and suffering of John Foss, New Bury port, 1798, pp 20...

³ John Foss, op.cit.

وبالرغم من الأسلوب الذي أظهره جون فوس في كتابه المعادي للإسلام والمسلمين، إلا أنه مصدر من المصادر الأمريكية الهامة التي كتب عن فترة أواخر القرن الثامن عشر ميلادي بكل ما يحمله من أحداث أثرت بشكل مباشر على الحياة العامة في الجزائر.

- كتابات جوزيف بيتس Joseph Pitts¹:

صدر كتابه سنة 1738 تحت عنوان رواية صادقة عن الديانة وعادات المسلمين (المحمديين) *A faithful account of the religion and manners of the mohamedons in which is a particular of their pilgrimage, to Mecca and description of Medina*

قسمه إلى عشرة فصول تحدث فيها في الفصول الأولى عن تجربة الأسر منذ وقوعه في يد الجزائريين، وعن حياة الأسر ومعاناة الأسرى في السجون، ثم خصص جزءا كبيرا من كتابه للحديث عن عادات الأتراك والجزائريين في الأكل، السكن، طقوس الاحتفال بالزواج، ومختلف الممارسات اليومية، أما الجزء الثاني من الكتاب فخصصه للحديث عن رحلته إلى الحج، حيث اعتبر عند الكثير من المؤرخين أول أوروبي كتب في الرحلة الحجازية التي تنطلق من بلاد المغرب بكل ما تحمله من أحداث فقدم وصفا شاملا للمدن والمسالك التي سلكها وصولا إلى الإسكندرية التي خصها بوصف شامل ثم إلى مكة حيث قدم الكثير من المعلومات حول الإسلام والأماكن المقدمة عند المسلمين، وختم بيتس مؤلفه بالحديث عن ظروف هروبه من الأسر، بمساعدة القنصل بايكر (Baker).

ما يلاحظ فيما كتبه بيتس أو "الحاج يوسف" هو الدقة في سرده للأحداث، كما أضاف نوع من التجديد في الأفكار، فقد كان متحررا من الخيال، ويبدو أن إتقانه للغة العربية والتركية، مكنه من التعرف

¹ ولد بمقاطعة أكسون Exon بإنجلترا سنة 1663، دفعه ذكاؤه وحبه للمغامرة من مغادرة إنجلترا سنة 1678 وهو لم يتجاوز الخامسة عشر، عمل بحارا في إحدى السفن، وقع بيتس أسيرا لدى البحارة الجزائريين، فاتخذه قبطان السفينة أسيرا عنده، حيث قضى في الجزائر خمسة عشر سنة، جزء منها أسيرا وبعد ذهابه لأداء الحج اعتقه سيده واعتبره بمثابة ابنا له، فعاش سنوات أخرى برفقته حرا، مكنته هذه المدة الطويلة من تعلم اللغة العربية والتركية وأصبح يطلق عليه "الحاج يوسف"، فمكنته ذلك على الاطلاع على معلومات وفيرة عن الحياة العامة للجزائريين، فبالرغم من أنه لم يحظى بقدر عال من التعليم إلا ما كتبه، وشهادة الكثير من المؤرخين الأوروبيين كأن يخلو من التعصب والتهويل، وبدت عليه الموضوعية في تقديم بعض الأحداث، فلم يساهم بذلك في حملات الادعاء التي شنها معظم الأسرى عن حياة الأسر في الجزائر. (Joseph Pitts, A faithful account of the religion and manners of the mohamedons and a pile grimage, to Mecca and description of Medina, 1704)

بعمق على ثقافة المسلمين فلم يتحرر بيتس في كتابه الذي دونه باللغة الإنجليزية من بعض العبارات التي أوردها باللغة العربية.¹

ومن جهة أخرى يعتبر هذا المؤلف صورة نمطية للصراع الذي كان سائدا بين الإسلام والمسلمين في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، وهو ذاته الصراع الداخلي بين جوزيف بيتس المسلم والمسيحي، حيث قدم تجربة إنسانية لشخصية أوروبية تحولت إلى الإسلام الذي يبدو من نوع خاص (الإسلام السطحي) والذي تلقاه على يده سيده التركي الذي على ضوء - ما كتبه عنه من أوصاف - لم ينقل له الإسلام بأصوله الصحيحة والسلمية، وهو ما زاد في حدة الصراع والتناقض الداخلي ودفعه في النهاية للعودة لأصوله الأولى وهو ما لم يمنعه من إبداء تعاطفه مع الدين الإسلامي.²

وعليه يمكن القول إن لكتاب جوزيف بيتس قيمة عالية لما يحمله من التمييز والكثير من الواقعية، وبساطة ودقة في السرد التاريخي للأحداث وبساطة اللغة في وصف مختلف الأحداث التي عاشها طيلة هذه الفترة الطويلة من حياته بالجزائر.

- جوزيف ديمون (Joseph Dumant):

بعد نجاته من الغرق هو وبعض رفاقه تعرض ديمون للأسر من طرف القبائل القاطنة بالجبال المجاورة للمنطقة فاقتدوهم كأسرى، كما غنموا كل ما وجدوه بحوزتهم، وبعد ذلك تم بيع ديمون لأحد شيوخ الجبال المدعو الباي عصمان القاطن بجبال فيليكس (Filex)، حيث بقي أسيرا 34 عاما من سن الرابعة عشر، أمضى فيها مدة طويلة لدى الشيخ عصمان باي ثم انتقل إلى التيطري حيث قضى فيها ثلاث أشهر ليتم نقله إلى مدينة الجزائر، حيث بقي أسيرا في حماماتها إلى أن تم إطلاق سراحه على إثر حملة اللورد اسماوث على مدينة الجزائر سنة 1816.

وبعد عودته إلى مسقط رأسه بفرنسا انتشرت أخبار عن عودة أسير أمضى زمنا طويلا في الأسر، وهو ما أثار الحماس لدى الفرنسيين ومنهم السيد ج.س كيسن (Quesne) الذي التقى بديمون وقام

¹ رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر، مكة المكرمة والمدينة المنورة، تر عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، د.ت، ص ص 10-21.

² Nabil Matar, Joseph pitts slave in 17th century Algiers and Mecca, Journal of Islamic studies, do 10 june 2012, pp 239-241.

بتسجيل قصته في مدة لم تتجاوز الشهر، حيث سجل كل الأحداث التي حدثت له أثناء فترة الأسر وجمعت في كتاب أطلق عليه " Histoire de l'esclavage en Afrique: pendant trente-quatre ans de Joseph Dumont".¹

تعتبر تجربة ديمون الفريدة أولاً لطول المدة التي قضاها في الأسر في الجزائر، إضافة إلى تجربته بين القبائل في المناطق الريفية على غير عادة معظم الأسرى الذين استقروا في المدن وخاصة مدينة الجزائر، مما مكّنه من تقديم صورة واضحة عن الحياة الريفية من حيث النسيج الاجتماعي وأنماط العيش، كما أعطى صورة تفصيلية عن حمائم مدينة الجزائر، وبعض الإشارات عن منطقة التيطري، لهذا يعتبر من أهم وأبرز المصادر المعتمدة في هذه الدراسة، ومن أبرز الأحداث التي فصل فيها في كتابه ظروف تعرضه للأسر من طرف القبائل، زيارة أحد الأمراء المغاربة للأسرى، طرق العقاب وتعرضه للضرب من طرف عصمان باي، وصف الدوار حياة العرب، وصف للسكان المور والعرب، وصف لبعض المحاصيل الزراعية والحيوانات المتواجدة في المنطقة، ظروف انتقاله إلى مدينة الجزائر، وصف لحمائم الأسرى والقناصل الأوروبيين.²

¹ ولد بيار جوزيف ديمون عام 1768 بباريس، ترك منزل والديه في سن مبكرة والتحق بسلك البحرية منذ نعومة أظفاره، حيث وضع نفسه تحت خدمة الضابط البحري الفارس دوتيرني Chevalier Deternay، ورافقه في حملاته البحرية بنواحي جبل طارق، وفي شهر نوفمبر 1782 ركب ديمون على متن السفينة الفرنسية (Lièvre) من ميناء (Alcaciane) الإسباني برفقة 140 رجلاً متجهاً نحو ماهون، غير أن العاصفة الهوجاء قامت بتغيير مسار السفينة ودفعها نحو سواحل شمال إفريقيا، بالتحديد بين مدينتي الجزائر ووهران ولم يبق من طاقمها سوى 80 رجلاً بعدما تعرض البقية للغرق. Joseph Dumant, Histoire de l'esclavage en Afrique. pendans trente-quatre ans, rédigée sur ses propre declaration par JS Quensne, 2ed, Pilletaine imprimerie librairie, Paris, 1819, p 05.

² P.J. Dumant, op.cit., pp 154-159.

– مذكرات تيدينا Thédine¹:

وعن كتابات الأسرى الأجانب في بداية القرن 19م، يشير الدكتور بلقاسم قرباش إلى تغير نظرة الانغلاق ورفض الآخر، التي ميزت المخيال الأوروبي في القرن 16 و17م، الذي ميزه التعصب الديني لكن بزوغ عصر الأنوار وبداية ما يعرف بتحرير العقل الأوروبي، بدأ يضيف على الكتابات الأجنبية نوع من الموضوعية في الحديث عن سكان شمال إفريقيا وانتشار نظرية لا فرق بين الأديان.²

بعد عودته من الأسر بالجزائر مرض واشتد به الحال فأحس برغبته بتدوين معلومات عن تجربته في الأسر، والتي جاءت في شكل اعترافات دونها في إحدى مستشفيات زوريخ (Zurich) صدرت سنة 1785، جاءت هذه المذكرات في تسلسل تاريخي للأحداث كتبت بأسلوب بسيط فيه تداعي منطقي وتلقائي للأحداث، بدأها تيدينا منذ الوهلة التي تعرضت فيها سفينته للأسر من طرف بحارة جزائريين، حيث نوه تيدينا على اختلاف كتابات الأسرى الأخرى، أن "القراصنة لم يعاملونا معاملة سيئة مثلما كنا ننتظر، فقد كانوا إنسانيين بعض الشيء طيلة الأيام الأربعة التي قضيناها للوصول إلى مدينة الجزائر غير أنني كنت مكبلا بالحديد"، ثم انتقل للحديث عن ظروف اسره منذ شرائه من اليهودي إلى ظروف وصوله إلى بلاط باي معسكر الباي مُجد الكبير، حيث روى تيدينا مشاهد كثيرة عن رحلته لا سيما من رفيعي المستوى، كما قدم لنا وصفا شاملا لمدينة معسكر ولقصر الباي، خص تيدينا أيضا في مذكراته وصفا لشخصية الباي مُجد الكبير الذي أبدى إعجابا شديدا بثقافته الواسعة وحبه للأجانب وتقريبهم له، حيث كان يجيد الحديث بعدة لغات، مشيرا في اعترافاته عن المعاملة الإنسانية التي وجدها عند هذا الشعب، وعبر عن أمله أن يعامل العبيد الأتراك والعرب في أوروبا بنفس المعاملة، حيث وصف المسيحيين بالوحشية في معاملة هؤلاء الأسرى.

¹ ولد في مدينة أوزيس بمقاطعة لونغو دوك بفرنسا سنة 1758 في عائلة كاثوليكية ميسورة الحال، في شبابه رفض أن يدرس في المدرسة الكاثوليكية وأن يكون رهبانا فانضم إلى فيلق لحامية عسكرية بمقاطعة كورسيكا، سرعان ما سئم منها يتحول إلى العمل الإداري، حيث عمل ككاتب مقاطعة فضل تيدينا السفر والمغامرة فسافر إلى ليفورنيا وقادس (Cadis)، وانتهى به الأمر، ناقلا لبراميل الخمر من مالافا إلى مرسيلا، حيث اشتغل على متن سفينة إسبانيا، وبعد وقوعه أسيرا في يد البحارة الجزائريين اشتراه باي معسكر الباي مُجد الكبير الذي عرف بتقربه من المسيحيين وخاصة الفرنسيين، حيث مكنت حنكة وثقافة تيدينا الواسعة من الوصول إلى مراتب عليا (خزندان) بقي في بلاط الباي ثلاث سنوات وسبعة أشهر ثم عاد إلى بلده واستقر بعدها في صقلية. (أنظر أمحمد عميروفي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، مذكرات تيدينا أمودجا، المرجع السابق، ص 32-44).

² قرباش بلقاسم، قضية الأسرى الأوروبيين بالجزائر في الأدبيات الإنجليزية (1671-1830)، دار نور للنشر، الجزائر، 2018، ص 43.

وعموما فإن ما يهمنا في هذه الدراسة من اعترافات تيدينا الأسير هو حديثه عن مغامراته في القصر، حيث قدم فيها الكثير من المعلومات حول الحياة الثقافية للجزائريين (العادات والتقاليد، طقوس الاحتفال، اللباس، الأكل، ومختلف الممارسات اليومية).

وعلى ضوء ما ذكره الدكتور عمراوي حميدة، تعد مذكرات (اعترافات) تيدينا الوحيدة التي تعطينا معلومات عن المنطقة الغربية من الجزائر في بداية القرن الثامن عشر، وتتضح قيمتها أيضا فيما قدمه عن حياة المجتمع الجزائري في المنطقة الداخلية بعيدا عن المدن الساحلية.

كما تحمل هذه المذكرات قيمة تاريخية في جانب الموضوعية التي تحلى به تيدينا في حديثه عن الجزائريين عامة، حيث أسهب في وصف المعاملة الحسنة التي كان يحظى بالأسرى المسيحيين في الجزائر، كما حاول تبرير بعض المعاملات التي كان يمارسها الجزائريون في حوض البحر المتوسط أنها ضد سفن الدول المعادية وعلى رأسها إسبانيا التي قامت باحتلال الشواطئ الجزائرية.

إلا أن كل ذلك لم يمنع تيدينا من تقديم إحدى أولى المشاريع لدعوة فرنسا لاحتلال الجزائر كان ذلك سنة 1802.¹

- بنانتي Filippo Pananti²:

وقع الأديب الإيطالي بانننتي أسيرا أثناء عودته من إنجلترا نحو إيطاليا من قبل الرئيس حميدو وأخذ أسيرا لليلة واحدة بعد أن تدخل لصالحه قنصل بريطانيا ألف بنانتي أثناء إقامته بالجزائر كتابا تحدث فيه عن تجربته صدر باللغة الإيطالية سنة 1817 ثم ترجم إلى الإنجليزية سنة 1818 ثم إلى الفرنسية³، يتكون الكتاب من 626 صفحة وثلاثة وعشرون فصلا تناول فيه من المعلومات والملاحظات المهمة ما

¹أحميدة عمراوي، المرجع السابق.

²أديب إيطالي ينحدر من منتسكليا التي ولد بها عام 1766، وقد كان يعرف جيدا كل من فرنسا وإنجلترا باعتبارها أماكن ترعرعه عاصر كل الأحداث السياسية التي شهدتها أوروبا آنذاك، غادر إيطاليا متوجها نحو فرنسا بعد تأثره بأفكار الثورة الفرنسية 1799 ثم غادرها نحو إنجلترا. (أنظر Denise Brahimi, op.cit., p 175)

³ Ibid, p 175.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

يمس جميع الجوانب المتعلقة بإيالة الجزائر في بداية القرن 19م، فتطرق للجانب الثقافي في حديثه عن التعليم العلوم السائدة، الفنون، الموسيقى، المرابطون والأولياء.¹

ونظرا لهذا الزخم الكبير الذي جاء في هذا الكتاب من المعلومات، يعتبر من أهم المصادر الأجنبية في كتابة تاريخ الجزائر في هذه الفترة.

ج- كتابات بعض مفتدى الأسرى:

مع تزايد ظاهرة الأسر وازدياد عدد الأسرى المسيحيين بالجزائر بادرت العديد من الكنائس المسيحية مسؤولة التكفل بهم²، عن طريق أعضاء من المسلك الديني في شكل بعثات لهذا الغرض منذ منتصف القرن السادس عشر ميلادي، ومن أهم الجمعيات المسيحية التي نشطت في الجزائر خلال هذه الفترة تنظيم الثالوث المقدس وافتداء الأسرى.³

حيث تذكر بعض الإحصائيات أن الفترة الممتدة ما بين 1582-1690 شهدت وقوع 49960 أسير أوروبي في منطقة المغرب الإسلامي، بمعدل 458 أسير كل سنة أغلبهم من إيطاليا، إسبانيا، فرنسا.⁴

فبالإضافة إلى الرعاية الصحية والروحية التي كانت ترافق عمليات افتداء الأسرى المسيحيين من طرف قساوسة الفداء والتنظيمات الدينية، لم يخلو ذلك من القيام بعدة مهام أخرى، أبرزها الدعاية فقد أسالت قضية الأسرى المسيحيين في الجزائر الكثير من الخبر في العالم الأوروبي، حيث كانت الموضوع الرئيسي والسهل لأغلب الأعمال والكتابات الأوروبية، وعرفت آنذاك بأدبيات الأسر والفداء⁵، وذلك من خلال النشاط الدعائي الذي كان يقوم به قساوسة الفداء الذين زاد نشاطهم منذ النصف الأول من

¹ F. Pananti, Relation d'un séjour à Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence, les rapports des états barbaresques avec les puissances chrétiens, trad de l'Anglais par Anonyme, imprimerie de la normant, Paris, p 01.

² Belhmissi Moulay, Alger l'Europe, p 25.

³ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 31.

⁴ بلقاسم قرباش، الأسرى الأوروبيين بالجزائر، المرجع السابق، ص 144-157.

⁵ Fernand Braudel, La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philip II, les événements de politique et les hommes, 3ème édition, Arnaud Colin, Paris, 1976, p 199.

القرن السابع عشر ميلادي من خلال تقارير وكتابات بهدف تحريك آليات العمل الدعائي العدائي ضد الجزائر عن طريق تقديم صورة سوداء عن حياة معاناة الأسرى، فقد كتب دوهايديو قائلاً: "...يعيش الأسرى في الجزائر البربرية حياة بائسة، إننا هنا لا نجني إلا الأشواك التي تؤلمنا وتدمينا نحن رعايا بئسين لا نجني حياة وإنما بلاء"¹.

وتذكر المصادر الأوروبية أن المسيحيين قد شرعوا في التفكير في قضية افتداء أسراهم منذ الحروب الصليبية، في أول تنظيم تأسس في إحدى كنائس باريس الذي شرع بثالوث الفداء المقدس على يد جان دي مالطا Jean De Maltha الذي شرع في دعاياته المسمومة في الأوساط الأوروبية، فأغلب رواياته كانت من نسج الخيال بهدف إثارة الحمية الدينية ضد المسلمين والحصول على تبرعات مالية²، ومن أبرزهم وعلى رأسهم:

– الأب دان Père Dan*

اندمج في مهامه، حيث قام بحوالي تسعون عملية افتداء، ومن المهام التي كلف بها الأب دان هي التوجه إلى مدينة الجزائر في جويلية 1634، حيث أتم مهمته في الافتداء وأنجز كتابه المعروف تاريخ بربريا وقراصنتها *histoire de barbarie et de ses corsaires* الذي نشر بباريس سنة

¹ Haedo Frey Diego, de la captivité à Alger, R.A, N°39, 1895, pp 56-58.

² عبد الله حمادي، جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان المصادر، العدد 06، الجزائر، 2002، ص ص 270-271.

* الأب بيار دان Père Piere Dan مؤرخ فرنسي تحصل على شهادة التخصص في علم اللاهوت من جامعة باريس، كان كاهنا ورئيسا لدير الثالوث المقدس، كما عمل مستشارا للملك الذي يوجد الدير في قصره، اشتغل دان بعدها رتبة رئيس للمنظمة في بلدة شيل Shell الفرنسية في عهد لويس الثالث عشر، وفي هذا الإطار قام برحلة إلى شمال إفريقيا ضمن بعثة منظمة من أجل تحرير الأسرى الفرنسيين بكل من الجزائر وتونس وبعدها تقلد مهام إدارة ورئاسة المنظمة التي أسس قصر فونتانييلو وأصبح الراهب المقرب من الملك تابع رحلاته لشمال إفريقيا لافتداء الأسرى سنوات (1641-1638-1643-1645-1648)، تمكن من تحرير 42 أسيرا وألف في هذا الشأن كتابه الشهير تاريخ بارباريا "Histoire de barbarie et de ses corsaires"، يحتوي الكتاب على ستة أجزاء تحدث فيها ن دول شمال إفريقيا، قدم فيها العمارة وبعض ادات وتقاليده لسائدة إلا أنه في الجمل خصص كتابه لوصف حالة الأسرى في المدينة، اعتمد دان في تأليفه على عديد من المصادر الدينية وكتب اللاهوت المؤلفة من طرف علماء الكنيسة بهدف كسب تعاطف الرأي العام الأوروبي وجمع الأموال الكافية لعملية الافتداء. (أنظر: Père Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaire des royaume et des villes d'Alger de sale de tripoli, 2ed, Pierre racolat, Paris, 1649)

مولاي بلحميسي، المؤرخون الفرنسيون في الجزائر في العهد العثماني، مجلة الأصالة، مج 05، ع 14-15-16، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ص 74.

1637¹، حيث استطاع الأب دان تحرير حوالي اثنان وأربعون أسيرا عاد بهم إلى فرنسا، بعد أن مكث في مدينة الجزائر حوالي شهرين سجل خلالها ملاحظاته العديدة التي تضمنها كتابه الذي وضعه في مجلد ضخم قسم إلى ستة كتب ما يهمنا فيها هو الكتاب الثاني الذي تحدث فيه عن مدينة الجزائر، حيث قدم وصفا شاملا لتاريخ المدينة، حداثتها عمارتها، مساجدها، الاحتفالات... وغيرها من الملاحظات حول الحياة العامة في المدينة².

وهو يبقى من المصادر التي يجب التعامل بالكثير من الحذر بسبب طبيعة كتابته من استعمال ألفاظ وأوصاف تدل دلالة قاطعة على التعصب والحقد الصليبي الذي كان يكنه للجزائر، خاصة في حديثه عن القرصنة والقراصنة وحياة البؤس والعذاب اللذين سلطهما الأتراك والعرب على الأسرى المسيحيين على حد ذكره، وهي المواضيع التي خصص لها الجزء الأكبر من مؤلفه.

د- كتابات القناصل والديبلوماسيين:

التمثيل الديبلوماسي:

يبدو أن إقامة قنصلية فرنسية في الجزائر لم يكن بالأمر السهل مثلما كان الأمر ببلاد المشرق بسبب هيمنة رياس البحر على الحكم بالجزائر والذين وصفهم لافيني M. De Lavigne في رسالة إلى ملك فرنسا هنري II "أوباش وأنذال الجزائر"³.

وما يلاحظ عن تعيين القناصل هو هيمنة الجانب الفرنسي (الوسيط المارسييلي) على وظيفة قنصل الجزائر وإيالات شمال إفريقيا باعتبارها أغنى محطة تجارية واحتكارهم للتجارة الفرنسية في حوض البحر الأبيض المتوسط⁴.

¹ Denise Brahimi, Opinions et regards des européens sur le Maghreb aux XVII siècle, société nationale d'édition et de diffusion, Alger 1978, p 13.

² Pierre Dan, op.cit., p 90-91.

³ Masson P.H, Histoire des établissements et du commerce Français dans l'Afrique du Nord (1560-1793), Paris, 903, pp 57-58.

⁴ Ibid, p 60.

وقد أثرت أيضا مسألة الأسرى إلى جانب المصالح الاقتصادية على علاقات الجزائر بأوروبا لهذا تعددت الأوساط المتحكمة في تعيين القناصل الأوروبيين خاصة بالنسبة لفرنسا وإنجلترا بعيد عن أي تكوين ديبلوماسي فأغلبهم كانوا من الوسط التجاري.¹

ونظرا لتزايد النشاط التجاري لفرنسا وتزايد أسراها في الجزائر بشكل عام لم يعد يستطيع سفراءها في القسطنطينية حمايتهم، قررت فرنسا تعيين أول قنصل سنة 1564 يبدو أن أوجاق الجزائر (البلرباي حسن فنزيانو 1579)² وديوانها رفضوا وجود شخصية أوروبية، ولم تتوقف مساعي فرنسا في الاستماتة من أجل إقامة قنصلية في الجزائر، وبعد جهود كبيرة اعتمدت فرنسا "المارسييلي صورون"، رسميا قنصلا لها في الجزائر مثلما أثبتته وثيقة أرشيفية أن "صورون" كان متواجدا في الجزائر منذ شهر ماي 1581³، غير أن نشاط القنصلية الفرنسية في الجزائر هذه الفترة أحاط به الكثير من الغموض إلى غاية تعيين القنصل دوفياس Devies 1597، حيث بدأت المراسلات الدبلوماسية تتم بشكل عادي⁴، وأمام نجاح فرنسا الدبلوماسي ظهر الإنجليز على الساحة للمطالبة بامتيازات مماثلة فكان تعيين أول قنصل لها جون تبتون John Tipton منذ 1580⁵.

وفي ظل التطورات التي عرفها القرن 17م ازدياد عدد الأسرى أصبحت القنصليات بيد الوسط الديني، حيث تداول على القنصلية الفرنسية ثلاثة قناصل من الوسط الديني.⁶

كما كان نشاط رجال الدين عامة لا يتم بمعزل عن الهيئة القنصلية، إذ كان القنصل الفرنسي هو الحامي غير الرسمي للقساوسة، وكان الواجب الأساسي للقناصل الأوروبيين هو الافتداء المناسب للأسرى والتدخل لدى السلطات الجزائرية نيابة عن هؤلاء من أبناء وطنهم.⁷

¹ Busquet Raoul, Les origines du consulat de la notion française à Alger Marseille, 1927, p 06.

² Plantent E., Correspondance des Beys du Tunis et des consuls de France (1577-1830), Vol 03, Paris, 1893, p 03.

³ Busquet, op.cit., p 07.

⁴ P. Masson, op.cit., p 60.

⁵ Groumront H.DE, Histoir d'Alger, op.cit., p 201.

⁶ Ibid, p 204.

⁷ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 131.

والجدير بالذكر أن الأدوار الأساسية التي لعبها القناصل منذ القرن 17م هو اطلاع حكومتهم والدول التي ينتمون إليها، بأدق المعلومات والتفاصيل عن الإيالة في مختلف جوانب الحياة العامة، ويدخل هذا الاطلاع في أدبيات المذكرات، التقارير والمراسلات، حيث حاول القناصل والموظفين الدبلوماسيين التقصي واستكشاف الأماكن، نقاط الضعف والقوة، وجوانب من الحياة الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، فلا يخفى على المطلع على مصادر تلك الفترة ما كانت تحمله من أدق التفاصيل. ومن أبرز دبلوماسيي هذه الفترة الذين كتبوا وقدموا تفاصيل حررت بأقلام رجالات ذوي خبرة وكفاءة عالية ومكانة سياسية مرموقة، إذ تميز أغلبهم بإتقان اللغات الأجنبية وإدراكهم لمختلف القضايا والعلاقات الخارجية.¹

لذلك تميزت كتاباتهم بالدقة في الأسلوب والكثير من التفصيل في تقديم مختلف المعلومات.

– شوفالييه درفيو **Chevalier d'Arvieux**:²

قضى دارفيو أكثر من اثني عشرة سنة ينتقل بين مختلف مناطق الإمبراطورية العثمانية، ونظرا لاتقانه للغات الشرقية العربية والتركية واطلاعه على الثقافة الشرقية عينه الملك لويس الرابع عشر لأداء مهام دبلوماسية إلى بلاد المشرق، حيث عين مبعوث فرنسا إلى تونس وطرابلس سنة 1665 ثم إلى الباب العالي³، ليكلف بعدها في مهمة دبلوماسية معقدة إلى الجزائر التي وصل إليها سنة 1675 كمبعوث للملك إلى داي الجزائر، قضى في المدينة ثمانية أشهر، وصفها قائلا: "لا يوجد مكان في العالم

¹ بليل رحومنة، القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من (1564-1830)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2010-2011، ص 22 وما بعدها.

² ولد 21 جوان 1635 بمارسيليا ينتمي إلى عائلة نبيلة من أصول إيطالية مقاطعة (لمبارديا)، درس بمارسيليا حيث تميز بتفوقه في الرياضيات واللغات الأجنبية، أكمل دراسته العليا في الفلسفة، بعد وفاة والده تكفل دارفيو بعائلته، لكن ظروفه الصعبة جعلته ينظم لتنشيط الحركة التجارية مع بلاد الشام تعلم اللغات الشرقية العربية لم يتجاوز 18 سنة، وهناك في بلاد الشام تعلم اللغات الشرقية العربية والتركية، عين في أول مهمة دبلوماسية سنة 1665 مع تونس ثم إلى الباب العالي، وفي 1673 أرسل في بعثة دبلوماسية سنة 1665 مع تونس ثم إلى الباب العالي، وفي 1673 أرسل في بعثة دبلوماسية إلى الجزائر لحل بعض القضايا الشائكة بين الدولتين والتي وصفها بأنها من الصعب المهام في حياته بعد مغامرات طويلة في بلاد المشرق عاد درفيو واستقر في بلده إلى ان توفي سنة 1702. (للمزيد أنظر Vanezia Parlera, Un français parmi les arabes parcours orientale et de découverte de l'entre chez le chevalier d'Arvieux, Ed V.G.A, 2015, pp 19-33)

³ Geraud Roumaré, Naissance d'une institution royal des consuls de la notion française en le vant et la barbarie au XVI siècle Bulletin de la société d'histoire de France, p 65.

أسوء من هذا"، وذلك نظرا لل صعوبات والتحديات التي واجهته ليس في مفاوضاته مع حكام الجزائر فحسب وإنما صراعه مع الفرنسيين حول مصالح تجارية.¹

دون دارفيو تجربته الطويلة ومسيرته الدبلوماسية المليئة بالأحداث في مذكراته Mémoires de Chevalier d'Arvieux بضغط من بعض أصدقائه المقربين، حيث أطلع في البداية ما كتبه من معلومات على عدد محدود من القراء، وبعد وفاته نشر جزء منها سنة 1717، أما النسخة الكاملة لمذكرات دارفيو فقد نشرها آلان جون باتيست لابات (Labat) سنة 1735 في ستة أجزاء.² نقل فيها دارفيو كل ما وقعت عليه عيناه من أحداث وتجارب عاشها خلال مسيرته الطويلة في الشرق، حيث دفعه الفضول إلى وصف هذه الأماكن من قصور، مساجد وما لاحظته حول عادات وتقاليد هذه المجتمعات فيقول إن قمة انجذابه كانت ليست للأشياء المادية وإنما للممارسات الإنسانية، حيث عبر عن ذلك بقوله "قضيت أربع سنوات ونصف في مدينة الجزائر دون أي ندم أو حسرة لأنني غادرت وطني، وبدون أي رغبة ملحة للعودة إليه، حيث قابلت شعوب ومجتمعات أين أحسست بينها بكثير من المتعة..."³.

قدم دارفيو حول تجربته في الجزائر الكثير من المعلومات حول طرق المفاوضات الدبلوماسية مع حكام الإيالة، وكعاداته قدم وصفا للمدينة، تاريخها⁴، كما أسهب في الحديث عن الحياة العامة، نظام الحكم، الجيش الإنكشاري القرصنة والغنائم، طرق افتداء الأسرى، كما خصص جزء للحديث عن العادات والتقاليد السائدة (اللباس، الاحتفال بشهر رمضان...)،⁵ ويبدو أن إتقانه للغة العربية والتركية قد ساعده ليس على أداء جزء من مهمته فحسب، وإنما سهّل التعرف والاطلاع على الحياة العامة في

¹ Plantet (E), Correspondance des deys d'Alger, T01, p 76.

² Vanezia Parlara, Image de soi et de l'autre en artiste a la croisée des regards dans les mémoires de Chevalier d'Arvieux, Article en ligne, Mars 2015, p 03.

³ Ibid, p 06.

⁴ Guillaume Calafot, Les interprètes de la diplomatie au méditerranée, traiter a Alger (1670-1680), Albin Michel, Paris, 2013, p 383.

⁵ Vanezia Parlara, Français parmi les arabes, op.cit., p 45.

المدينة خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر ميلادي، لذلك عدت مذكراته من المصادر الهامة في تاريخ الجزائر العثمانية خلال هذه الفترة.¹

- توماس هيبز Thomas Hees:

عاش هيبز في مدينة الجزائر فترة طويلة استمرت من أكتوبر 1675 إلى غاية ماي 1680، تمكن خلالها من عقد اتفاقية للسلام والصداقة بين الجزائر وهولندا في 20 أبريل 1673²، بعد محاولات ومساعي كثيرة لتحقيق ذلك، بعد عودته دون هيبز تفاصيل رحلته وإقامته في مدينة الجزائر في شكل يوميات تحمل الكثير من المصطلحات العميقة وغير المألوفة، فيبدو أنه لم يكن ينوي نشرها لأن رحلته نشرت بعد وفاته بخمسة وثلاثين سنة من طرف هاندبرغ³.

هذه المهمة الديبلوماسية مكنت الطبيب الهولندي من الإقامة في مدينة الجزائر مدة طويلة (حوالي 4 سنوات)، مما أهله للحدوث عن المدينة وعن أحوالها بدءا من إجراءات وبروتوكولات إرساء سفن القناصل في المدينة والتي أثارت إعجابه، حيث استقبل في ميناء الجزاء بطلقات من المدفعية وقدم له ولطاقمه بعض المربي والمشروب⁴، ثم تحدث عن لقائه بالداي محمد التركي في قصره، حيث قدم وصفا مدققا على كل وقعت عليه عيناه، في الميناء والقصر، والإقامة التي خصصت له، إضافة إلى حديثه عن بعض الشخصيات وقادة كبار في الدولة وبعض قناصل الدول التي جمعت به علاقات مباشرة مثل القنصل الفرنسي والقنصل الإنجليزي.⁵

لم يخصص هيبز جزءا خاصا للحدوث عن الحياة العامة في المدينة، ذلك نظرا لطريقته في كتابة رحلته في شكل يوميات يتخللها من الحين للآخر الحديث عن مظاهر من الحياة الثقافية في المدينة نقلها

¹ Plantet (E), op.cit., p 102.

² ولد توماس فان هيبز Thomas Van Hees بالقرب من أمستردام سنة 1634، طبيب وأستاذ درس في جامعة أنجير Angers، كلف لتمثيل بلده هولندا وإجراء مفاوضات لعقد معاهدة سلام وصداقة مع الجزائر توفي بأمستردام سنة 1693. (Thomas Hees, Journal d'un voyage a Alger (1675-1676), trad GH. Bonsquet et GW. Mirandole, in RA, Tome, CI, Alger, 1975, p 85.

³ Ibid, p 86.

⁴ Thomas Hees, op.cit., p 92.

⁵ Ibid, p 92.

من خلال مشاهداته عندما كان يتجول بين شوارعها، حيث قدم وصفا للباس، الأكل، لاحتفالات، شهر رمضان والعيد، زيارة المقابر، بعض العادات السائدة في المدينة.¹

- لوجي دوطاسي Laugier De Tassy:

أدى تحسن العلاقات الفرنسية العثمانية إلى فتح مجال واسع أمام فرنسا اقتصاديا وديبلوماسيا، حيث جعلت منها الرعاية لشؤون أغلب الأمم والجماعات الأوروبية المسيحية، وهو ما سمح بدوره إلى تطور وتنوع الرحلات الفرنسية إلى الجزائر خاصة رحلات السفراء، المستشارين ورجال السياسة.²

وتعتبر رحلة لوجي دوطاسي* في الربع الأول من القرن 18م من أهم النماذج البارزة لهذا النوع من الرحلات.

تولى منصب مستشار القنصلية الفرنسية بالجزائر، بموجب رسالة من الملك لويس الخامس عشر، مؤرخة في 27 جويلية 1717 إلى جانب القنصل M.Baume الذي تقدم أمام داي الجزائر على شاوش^{3*}، بتاريخ 02 فيفري 1718، وقد عرض الوفد القنصلي ملابس أحداث تعرض بعض السفن الفرنسية للأسر، ملتجئين من الداى تحقيق العدالة وإعادة الممتلكات المسلوقة ومعاقبة قبطان السفينة.⁴

وقد كانت إقامة دوطاسي بالجزائر قصيرة، فبعد قضائه خمسة أشهر ونصف عاد إلى فرنسا بعد أن جمع بعض المادة الخبرية عن البلاد وذلك بسبب المرض، حيث عاد في عطلة في 02 جويلية 1718،

¹ Ibid, p 118.

² Filali Kamel, Les voyageurs religieux dans le regard de Laugier De Tassy, en mission à Alger (1725), Revue Emigotiers et voyages, université mentouri Constantine VI, Avril 2005, p 25.

* تولى الحكم سنة 1710 أحدث تطورا في علاقة الجزائر بالباب العالي بإلغاء ازدواجية الحكم ورفضه استقبال الباشا الوافد من الاستانة سنة 1711 معلنا أن الداى هو ممثل سلطان الدولة الجزائرية، توفي سنة 1718، (انظر ابن المفتى، مصدر سابق، ص 60-61).

* على ضوء الترجمة القصيرة التي خصه بها درفوكس Devoulx في شكل ملاحظات وردت في كتابه Releve des principaux François on rédidé a Alger de 1686-1830 المنشور في العدد السادس عشر من المجلة الإفريقية، فهو جاك فيليب لوجي دوطاسي رحالة ورجل سياسي فرنسي ولد في النصف الأول من القرن 17م وعاش إلى أوائل القرن 18م، عين مستشارا بالقنصلية الفرنسية في الجزائر ابتداء من 1718 توفي بأمستردام هولندا في 14 سبتمبر 1748.

³ أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 67-68.

⁴ Devoulx, Les archives du consulat, pp 26-27.

ليعود مرة أخرى إلى الجزائر إلى عمله كمستشار من خلال المعلومات الواردة في كتابه إلى غاية 1724 قبل أن ينتقل إلى أمستردام (هولندا) ليستقر بها، أين تقلد منصب مستشار (مندوب)، البحرية وهناك نشر كتابه حول الجزائر تاريخ مملكة الجزائر *Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement de ses forces de terre et de mer, de ses revenus, police, justice politique et commerce.* 1725¹، يعتبر هذا الكتاب بداية التحول في الكتابات الأجنبية حول الجزائر، إذ جسد دوره كمؤرخ إلى جانب كونه مستشار وديبلوماسي من خلال محاولة التخلص من التأثير الديني والعربي في تقديم معطيات تاريخية خالية من الصورة الدعائية التي تداولتها أدبيات رحلات الأسرى وحالات الفدية خلال القرنين 16 و17م.

وهو دراسة مفصلة حول تاريخ مملكة الجزائر والنظام الاقتصادي والسياسي، صدرت هذه الطبعة في مجلد يضم 348 صفحة²، كما صدرت طبعة أخرى مماثلة سنة 1927 بباريس.

استغل دوطاسي فرصة وجوده بالجزائر واحتكاكه مع مختلف الأوساط السياسية والدينية والعلمية ليقدم إفادات تاريخية متنوعة على ما أسماه بمملكة الجزائر.³

لقد جاء محتوى كتاب تاريخ مملكة الجزائر ليرسم صورا مغايرة عن المنطقة، يحارب خلالها الأحكام التي نسختها دعاة القساوسة ورجال الدين وكأنه تولى مهمة التعريف بواقع البلاد، وسكانها التي اعتبرت مجهولة بالنسبة للأوروبيين على الرغم من القرب الجغرافي، فيقول: "تتحدث عن الجزائريين، ولكن معرفتنا لهم أقل من معرفتنا للأمم الأكثر بعدا وانعزالا عن قارتنا"⁴، محاولا تصحيح العديد من المصطلحات التي كانت سائدة بين الأوروبيين مثل بربري *Barbarie* وهو المصطلح الذي استخدم بإفراط في العديد من الكتابات والمراسلات الرسمية في القرنين 15-17م عن منطقة شمال إفريقية، وهو حسب دوطاسي تجسيد لتصور سيء لعالم متوحش كرسه دعاة الصليبية والاسترداد لتجريد الآخر عن أي صلة بالحضارة

¹ Michaud, Biographie universelle ancienne et moderne, nouvelle éditions, Paris, 1854, p 347.

² Ibid, p 348.

³ De Tassy, préface, p 09.

⁴ Ibid, pp 09-10.

الإنسانية عندما شبهوا سكان شمال إفريقيا بالبرابرة، والمقصود بها الشياطين، الحيوانات، المتوحشة، البهائم، الذين لا يملكون القدرة على أداء أي سلوك حسن حتى أن الحيوانات أحسن منهم¹، ويعلق دوطاسي عن ذلك بقوله أنه يوجد هؤلاء ما يوجد عند غيرهم من الشعوب من العيوب والفضائل فالخصال والعيوب تتحكم فيها نوعية التنشئة، القوانين والعادات محاولة...واقعية².

وفي موضوع القرصنة التي أسالت بالكثير من الخبر لأغلب المؤلفات الأوروبية التي ذكرت القرصنة، عش للصوصية، ومرعبة العالم المسيحي...³، وانتقد دوطاسي هذه الأفكار مؤكداً أن القرصنة لم تكن حكراً على قرصنة الجزائر، فيقول: "أن عرب ومور بلاد البربر لصوص وصعاليك وبؤساء يقومون بنهب لأبعد عبدا في سلطتهم وحكومتهم، فالدول الأكثر تحضراً لا يندم بها اللصوص وقطاع الطرق الذين يلحقون الأذى وأقسى العقوبات بالناس، ألا تعج سردينيا، كورسيكا باللصوص، والسفاحين الذين يتمتعون بحماية أمراء أسياد البر والغابات، ومن هذا المنطق فالمسيحيون يشبهون البرابرة"⁴، وعلى صعيد آخر اعتبر دوطاسي أن القرصنة هي مظهر من مظاهر الصراع الإسباني العثماني في حوض البحر الأبيض المتوسط.⁵

ضم أيضاً هذا الكتاب بعض الحكايات، القصص والمغامرات لها علاقة بالمواضيع التي تناولها، فيقول في ذلك "...وقد أوردت بعض القصص والحكايات التي كنت شاهداً عليها ومنها ما أكد صحتها سكان البلاد وهو ما يزيل أي شك حولها"⁶، ويبدو أن دوطاسي قد لحن في كتابه التاريخي بلون جدي كمثل الروايات التي كانت تجذب انتباه القراء (مثل قصة الحب التي جمعت بين عروج بربروس مع الأميرة زفيرة زوجة سالم التومي التي ترجمت عن مخطوط جلدي كان يملكه أحد مرابطي قسنطينة.⁷

¹ Ibid, p 09.

² Filali Kamel, les voyageurs, p 26.

³ محمد أمين القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع21، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، سبتمبر 2000، ص 23.

⁴ De Tassy, op.cit., pp 184-185.

⁵ Denise Brahimi, op.cit., p 78.

⁶ De Tassy, Preface, op.cit., p 09.

⁷ William (A.H), Magazines in cyclopedique ou journal des sciences, des lettres et des arts, T1, imprimerie de delence, Paris, 1805, pp 344-345.

ولأهميته وقيّمته التاريخية ترجم الكتاب في عدة طبعات بالفرنسية، طبعة بالألمانية طبعتين بالإسبانية وطبعة بالإنجليزية¹، يضم الكتاب إحدى عشر فصلا ما يهمننا في هذه الدراسة القسم الثاني الذي يتناول فيه مدينة الجزائر في عشرين فصلا، قدم فيه تفاصيل في غاية الأهمية يهتم بجوانب عديدة منها الجانب الاجتماعي والثقافي محل الدراسة، نقلها عن أحداث شاهدها بنفسه وأخرى شهادات حية استقاها من أشخاص التقى بهم، مما جعله من المصادر التاريخية القيمة والجديرة بالقراءة والاطلاع.²

وبذلك يمثل دوطاسي الفكر الذي ساد أوروبا في النصف الأول من القرن 18م الذي يعبر عنه بفلسفة الأنوار، مقترحا إعادة النظر في صورة الآخر والتحرر من النظرة السوداء التي عمل رجال الدين المسيحي في رحلات افتداء الأسرى على نشرها في أدبياتهم، حيث عملوا على تشويه الحقائق بهدف كسب تعاطف العامة لجمع الأموال اللازمة للافتداء.³

- كتاب جوزيف مورغان Joseph Morgan:

A complete history of Algiers from the earliest to the present time, the whole interferred with many curious remarks and packages not touched on by any writer whatever, volume II by J. Morgan, London Bettenhom, 1728.

أكد في مستهل هذا الكتاب أن "الهدف كتابة تاريخ الجزائر، معتمدا على مصادر مستقاة من أفواه الأغوات الرياس، وآخرين كثيرين، وأترك الحكم على الأحداث لمن يقرأ هذا الكتاب حول مختلف أحداث التي أقوم بسردها، في أشكال تستحق الاستنكار عن الجزائريين، وأنا بعيد كل البعد على القيام بذلك".

جاءت مواضعه مقسمة كما يلي:

¹ جل النسخ متوفرة إلكترونيا.

² A.A. Berbier et N.L.M Desensserts, Nouvelle bibliothèque d'un homme de gout, T4, Paris, 1808, p 369.

³ Denise Brahimi, op.cit., p 122.

الفصل الأول: أهل تسمية الجزائر، المجتمع الجزائري، فئاته صفاته وضعية مدينة الجزائر.

الفصل الثاني: بعض روايات عن أشهر القراصنة الإخوة بربروس (اصولهم - وصولهم إلى حوض

البحر المتوسط، دورهم في مساعدة الجزائر ضد الإسبان، خير الدين إعلانه حاكما على الجزائر).

الفصل الثالث: الجزائر تحت حكم الأتراك ملاحظات حول بعض الروايات الرومانسية والتقاليد،

تحطم الأسطول الإسباني في مدينة الجزائر.

- حروب الجزائريين مع الإسبان - ملاحظات.

- معلومات خاطئة قدمها مرمول كربخال عن الجزائر.

الفصل الرابع: تعيين خير الدين باشا على إيالة الجزائر من طرف الباب العالي.

- الأسرى الإسبان ومعاناتهم في الجزائر.

- هيمنة القراصنة البربر على حوض البحر الأبيض المتوسط.

طبع كتاب جوزيف مورغان سنة 1731 عنوانه "الكامل في تاريخ الجزائر"، يقع في أكثر من 700 صفحة من الحجم الكبير، وهو في مجلدين، مجلد خصصه لتاريخ شمال إفريقيا، والمجلد الثاني عن تاريخ الجزائر في بداية الحكم العثماني حتى زمن طبع الكتاب وهو بدوره يحتوي على جزأين الأول تناول فيه قدوم الأتراك العثمانيين إلى حوض البحر المتوسط ودخولهم إلى الجزائر وإلى تولي الحاج باشا الحكم سنة 1545 والجزء الثاني تناول فيه فترة بداية القرن 16م، وقد فسر مولاي بلحميسي تزايد الاهتمام الأوروبي بالتاريخ الجزائري وأحداثه بتزايد قوة البحرية الجزائرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، والذي كان دافعا قويا إلى تتبع كل ما يحدث في الجزائر ليصبح محل اهتمام ودراسة وتحليل للوصول إلى نقاط الضعف واستغلالها لشن الغارات عليها¹، فكانت الجزائر ضمن الصراع المسيحي الإسلامي أي صراع بين حضارتين حضارة غربية مسيحية، وحضارة شرقية إسلامية.²

¹ مولاي بلحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين، مجلة الدراسات التاريخية، جوان 1988، ص 102.

² نفسه، ص ص 105-101.

إن تفرد الجزائر في حوض البحر الأبيض المتوسط بمكانتها الدولية، مما جعلها تحظى بإنتاج أدبي هائل في جوانب تاريخية مختلفة.¹

عاش مورغان سنوات طويلة في الجزائر وتولى بعض المهام في قنصلية بلاده في الجزائر في عهد القنصل البريطاني السيد روبر كول R. Cole (1694-1712) الذي أقام في الجزائر لأكثر من 40 سنة، وكان على اطلاع واسع بأحوال البلاد والمنطقة عامة، فقد كان يتقن قراءة وكتابة اللغة العربية ومطلع على التقاليد الإسلامية.²

فوجد مورغان على غير ممن سبقوه في الكتابة عن الجزائر ووصفوها بوكر اللصوص وقطاع الطرق والذين كثير منهم غلبت عليهم نظرة التعصب والحقد على المسلمين عامة والجزائر بصفة خاصة، نجده أبدى إعجابه بمدينة الجزائر، في قوله: "إنه من حق الجزائر أن تدعي التقدم والشرف ومن حقها أن تحتل مكانة بارزة بين أنبل مدن العالم أليست هي قائمة على أنقاض روما القيصرية".³

ومن جهة أخرى يعبر عن أسفه لما حدث في قوله: "كان من الصعب إنهاء كل هذا، ففي القائمة المطبوعة سنة 1689 يوجد 1600 سفينة إنجليزية أسرت من طرف الجزائر ما بين 1677-1688 ويمكننا الترجيح وجود ما بين 7000-9000 أسير بريطاني بين رجل وامرأة أخذوا للعبودية في الجزائر خلال هذه السنوات".⁴

- سيزار فيليب فاليار Césaire Philippe Valliere:

من أهم الكتابات الأجنبية التي ميزت القرن 18م في خضم الحركة العلمية التي ميزت هذه الفترة نجد من جهة أخرى حركة أكثر نشاطا سمحت لها الظروف في الإقامة في الجزائر في ظروف مريحة، كما سمحت مكانتها الاجتماعية والسياسية الحاكمة من خلال الاتصال المباشر بها والاطلاع على أخبارها وتفاصيل هامة عن أوضاعها، ومختلف فئات المجتمع الجزائري والجاليات الأوروبية المقيمة بالجزائر.

¹ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، 2007، ص 313.

² نفسه، ص 313.

³ نفسه، ص 321.

⁴ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ص 313.

لذلك كانت كتابات القناصل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي، رغم ما تحمله من تحيز وغموض أكثر شمولية ودقة، إذ تعتبر مصادر رسمية عادة ما تكون مدعمة بوثائق هامة في شكل تقارير ورسائل تحمل معلومات مفصلة عن الحياة العامة في الجزائر خلال هذه الفترة من تاريخها.

ومن القناصل الذين اهتموا بتقديم صورة عن الحياة الاجتماعية والثقافية لإيالة الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي القنصل الفرنسي فيليب فاليار * Césaire Philippe Valière، طبعت مذكراته سنة 1974 وحققها الكاتب لوسيان شايبو Lucien Chaillon مع بيار جيرال Pierre Gieral و Pierre Boyer المكلف بالأرشيف في أكس بروفانس.

قسم لوسيان شايبو العمل إلى واحد وأربعين عنصرا استهله بمقدمة، قد قدم فاليار ملاحظاته انطباعاته المختلفة حول الجزائر في حوالي مئة صفحة خصص لكل عنصر صفحة واحدة.¹

استهل فاليار مذكراته للحديث عن مدينة الجزائر وقصر الداوي، حيث وصف المدينة بقوله "فهى ترى من البحر من بعيد مبنية على شكل مدرج مسرحي على منحدر ثلثة تميل عليه وعند الاقتراب منها تبدو البيوت وكأنها مترامية الواحدة فوق الأخرى..."، بحكم أن المدينة كانت ذات أهمية كبيرة في حوض المتوسط فقد كانت محط استقطاب ووصف العديد من الأوروبيين والرحالة.²

ثم تطرق فاليار إلى الباشا أو كما يسميه الحاكم الأكبر، حيث تحدث عن تأثيره الكبير على الحكم، لكن في وصفه للجيش الانكشاري تحدث عن ضباط الإيالة وتدخلهم في الحكم وذكر الكثير

* ولد Philippe Vallière في 14 أكتوبر 1756 في عائلة بورجوازية غنية في مقاطعة بروفانس Province، وهي المنطقة التي زودت فرنسا بأحسن القناصل الذين عملوا في الشرق وشمال إفريقيا، ينتمي إلى عائلة ذات باع كبير في العمل الدبلوماسي، حيث كان جده كبير قناصل فرنسا في تونس، اهتم فاليار إلى جانب المجال الدبلوماسي بالبحرية، غير أنه سرعان ما توجه سنة 1772 للعمل ككاتب خاص لعمه جون أنطوان بالجزائر ليكتسب خبرة كبيرة في حوالي سبعة عشر شهرا كموظف القنصلية ويرتقي بعدها إلى منصب نائب القنصل سنة 1779، وفي سبتمبر 1781 قلق بالعمل في طرابلس حين بدأ تدوين مذكراته الخاصة عن الجزائر التي تعود إلى سنة 1771 والتي أهداها إلى السيد كاستيري Castries وزير الحرب آنذاك... كلف للقيام بأعمال في الجزائر سنة 1791 ونظرا لصعوبات مهمته خاصة في حل أزمة الأسرى الجزائريين تميزت علاقته بالداوي حسن بالبرودة وانتهت مهمته سنة 1796 ليعود إلى مارسيليا. Lucien Chaillon, L'Algérie 1781 mémoire de consule Ph Vallière, imprimerie nouvelle, Toulon, 1984, p II.

¹ C. PH. Vallière, L'Algérie en 1781 mémoire d'un consul C.PH. Vallière, pré par Lucien Chaillon, imprimerie nouvelle, Toulon, 1974, p 06.

² Ibid, p 46.

عن الحياة السياسية والاقتصادية للإيالة، كما تطرق بكثير من التفصيل إلى طبيعة العلاقات الخارجية للجزائر مع دول أوروبا، مشيراً إلى قيام حكام الجزائر دائماً باختراق معاهدات السلم بسبب ما تعود بها القرصنة عليهم من أرباح، هائلة كما تحدث عن تلك المنافسة الشديدة بين قناصل الدول، خاصة فرنسا وبريطانيا لكسب ود الجزائر والحصول على امتيازات تضمن مصالحهم في الحالة، وذلك باستعمال كل الطرق، أما الدول التي تهين علاقتها مع الجزائر وخص بالذكر الدانمارك، جمهورية البندقية، فإن الجزائر تعلن الحرب بلا هوادة على كل دولة لم تبرم معها معاهدات.¹

خصص أيضاً فاليار جزء كبير من مذكراته للحديث على العنف وانعدام العدالة والظغيان الذي كان يمارسه الأتراك بكل وحشية، واعتبر السكان بمثابة أسرى، حيث فصل في الحديث عن بعض العادات والتقاليد السائدة، خاصة من خلال الاحتفال بشهر رمضان والأعياد، الزواج، الذهاب إلى الحج، وخص الجانب الثقافي بشيء من الوصف فتحدث عن طرق التعلم والتربية ومؤسساته كالمساجد، المدارس، العلوم والفنون، وعموماً جاء ترتيب المواضيع على نحو التالي: عرض لمحتويات الفهرس، كما تناولها فاليار، ورتبها بشكل متناسق محقق الكتاب Lucier Chailier، مدينة الجزائر، قصر الداى حكومة الجزائر انتخابات الحاكم الأول، السكان، العادات المتنوعة للسكان، اللغات تقسيم المملكة الشرقية، الشواش، سياسة الأتراك، نحو الموريسكيين، وصف لمستشفى المدينة، دخول البايات إلى الجزائر، قوات المملكة (فترة السلم والحرب)، رواتب الجند، طريقة معالجة المسائل مع الجزائريين، إنتاج الجزائر للزراعة، التربية والتعليم، المدارس، الزواج، الطرق، الحجاج إلى مكة، الدين، انحرافات، السحر، المرابطون، التسامح، الزواج، النساء، المجدون، الحصون، البحرية، مستشفى، إسبانيا، الفنون العلوم، الميناء.²

تعتبر مذكرات فيليب فاليار من أكثر المصادر التي قدمت صورة شاملة حول إيالة الجزائر سنة 1781 (أواخر القرن الثامن عشر ميلادي)، قدمت من وجهة نظر رجل دبلوماسي ذو خبرة وحنكة سياسية عالية إلا أن ذلك لم يجرده من نوع الذاتية والتعصب على الطريقة الفرنسية، إذ أنه قدم أحيانا انطباعات عن تشدده في إصدار أحكام جد قاسية في وصفه الجزائريين.

¹ Ibid, p 48.

² Ch. Vallière, op.cit., pp 76-77.

– فونتور دو بارادي *Venture de Paradis*:

عرفت فرنسا في عهدي لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر، وفي إطار اشتداد التنافس والصراع الأوروبي، تطلع كبير لاستكشاف الشرق والولايات العثمانية في المغرب الإسلامي، فازدادت الرحلات الديبلوماسية الاستكشافية قادها العديد من الديبلوماسيين والمستشرقين* الذين ساهموا بشكل كبير في خدمة لمصالح الفرنسية عن طرق التعريف بالثقافات الشرقية، في هذا الإطار برز جون ميشال فونتير دو بارادي** في حاشية البلاط كأحد كبار الرحلة الفرنسية الرسمية في المشرق والمغرب.

مكنته إقامته في الجزائر مدة ثمانية عشر شهرا من الاحتكاك بالجزائريين من مختلف الفئات وزادته دراسته الشرقية وخبرته في التعامل مع المجتمعات الشرقية من إصدار كتابه "مذكرات حول الجزائر"، تعد من أثرى وأغزر المصادر حول تاريخ إيالة الجزائر في القرن 18م، بدأ كتابتها سنة 1788 في شكل نصوص مختلفة وملاحظات غير مترابطة، عمل الفرنسي E.Fagner على جمعها وفق تسلسل منطقي يجعل القارئ يعتقد بأن المؤلف قد ترك كتاب بعنوان الجزائر خلال القرن 18م – *Alger au 18ème siècle* نشرت لأول مرة في المجلة الإفريقية لسنوات 1895، 1896، 1897 لتظهر في

* الاستشراق تعني اصطلاحا طلب علوم الشرق، وعليه فالمستشرق هو المتخصص في دراسة ومعرفة علوم الشرق، أطلقت كلمة مستشرق لأول مرة سنة 1630 على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية ثم على من عرف لغات الشرق، أما كلمة استشراق فاستعملت لأول مرة في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة 1838، وقد نشأت حركة الاستشراق الواسعة في الغرب الأوروبي الناهض والمتطلع إلى السيطرة والتوسع خارج أوروبا إثر الحروب الصليبية وعصر النهضة، بما يتيح لأوروبا فهم عقلية الآخر (الشرقيين) ومزاجهم، وقد شجعت الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا دراسة اللغات الشرقية واللغة العربية على وجه الخصوص لتجعل من هؤلاء تراجمه في بلاط الملك، يتولون شؤون القنصليات والسفارات في البلاد العربية ويشرفون على المصالح التجارية الفرنسية. (للمزيد أنظر محمد فاروق النبهان، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، المغرب، 2012، ص ص 11-20)

** *(Jean Michel) Venture de Paradis*: ولد بمرسيليا 8 ماي 1739 من أم إغريقية ينحدر من عائلة مرموقة في مرسيليا لتقلدها عدة مناصب هامة في المجال التجاري والديبلوماسي، التحق بمدرسة لويس الكبير بباريس التي كان يتم فيها تكوين الشخصيات التي تتولى وظائف الترجمة في الشرق أين تلقى على أيدي الياسوعيين اللغات اليونانية، اللغات الشرقية القديمة، العربية والتركية، إضافة إلى الفارسية، حيث بدأت مهاراته تبرز في مجال الترجمة، وهي المهارة التي رشحته إلى التوجه إلى القسطنطينية سنة 1763، أين أجرى تربصا بالسفارة الفرنسية اهتم خلال هذه الفترة بدراسة السياسة، الأدب، حيث أولكت له مهمة دراسة مائتي كتاب في السنة، كما اهتم بالنبات، الطب الشعبي والحرفات،/ وفي إطار مهمة فرنسية نحو الشرق مراقبة مصالحها في الولايات العثمانية، شارك دوبارادي في تحرير وإعداد تقارير ومذكرات وجمعها إلى الملك لويس السادس عشر قدم فيها معلومات غزيرة عن مصر والتي أتاحت له التعرف أكثر على الشرق، كما زار مناطق أخرى مثل المغرب الأقصى 1778، تونس (1780-1785) مستشارا ومترجم بالقنصلية لفرنسية، ليوفد بعدها في مهمة ديبلوماسية وسياسة إلى الجزائر (1788-1790) إلى الداوي محمد عثمان باشا". (للمزيد أنظر Amer Attia, *Venture de Paradis orientaliste et voyageur (1739-1799) thèse de doctorat, faculté de lettre, université de Paris, 1957, p p 02-19.*

كتاب مستقل خدمها وعدلها أحد المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية Joseph Guoq سنة 1983 تحت عنوان¹(Alger 1788-1790) ، وأعاد نشرها وتقديمها وتذييلها الباحث عبد الرحمان رباحي في كتاب مستقل سنة 2006 تحت عنوان: " Alger au 18 -ème siècle Mémoires, notes, et observation d'un diplomate espion"².

تطلبت مهمة فونتير في الجزائر الإقامة بها ثمانية عشر شهر من 28 ديسمبر 1788 إلى 4 أبريل 1790، وبما أنه من المستشرقين المهتمين بدراسة الحضارات الشرقية فقد عمل على الاحتكاك بالمجتمع الجزائري إلى جانب خبرته الطويلة استطاع أن يكون رصيذا معرفيا ثريا، لأن يكتب مذكرات حول الجزائر تعد من أثرى المصادر حول تاريخ الإيالة في القرن 18م³.

شهدت العلاقات الفرنسية الجزائرية نوعا من الهدوء والاستقرار خلال فترة حكم الداوي محمد عثمان باشا بالجزائر (1766-1791)، ويبدو ذلك واضحا في نصوص المراسلات المتبادلة بين الطرفين، التي تدل دلالة واضحة على مشاعر الثقة والاحترام بين الطرفين، ففي إحدى هذه المراسلات بعث الداوي محمد عثمان باشا سنة 1775 رسالة على الكونت De Sartine تضمنت "مفاوضوكم رحالتكم عموما كل رعاياكم مهما كانت صفتهم ومن أي سكان قدموا سيحضون بالترحاب من طرفنا... فالأمة الفرنسية تحظى دائما عندنا بمكانة متميزة ومرموقة أكثر من الأمم الأخرى..."⁴.

وفي هذا الإطار أرسل فونتير دوبارادي سنة 1788 من قبل الحكومة الفرنسية في مهمة رسمية إلى الجزائر من أجل تسوية بعض القضايا الثنائية وإرساء الاستقرار في العلاقات بين الطرفين، على إثر حادثة السفينة الجزائرية التي تم إغراقها من قبل قراصنة نابولتانيون وأسر طاقمها مع بعض المدافع، وهو ما يعد

¹ Venture De Paradis (J.M), Tunis et Alger au XIII siècle Mémoires, observation rassembles et présenter par Joseph Guaq, éditions sindibad, Paris, 1983, pp 105-266.

² Venture De Paradis (J.M), Alger au 18 ème siècle (1788-1790) mémoires, notes et observation d'un diplomate espion présenter par Abderrahmane Rebahi, G.A.L, Alger, 2006.

³ Meouak Mouhamed, Langue, société et histoire 'Alger au XVIII siècle d'après les données de venture de Paradis (1739-1799) au voyage collectif sous la direction de Joceline maison œuvre la rose, institut de la recherche sur le Maghreb contemporain, p 307.

⁴ E. Plantet, op.cit., p 326.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

إخلاقاً لمعاهدة السلام المنعقدة بين الدولتين منذ سنة 1689، لذلك سعت الحكومة الفرنسية إلى حل سليم للخروج من هذه الأزمة.¹

وقد عين فونتير دوبارادي لحل هذه المسألة بعد أن أبدى استعداده للذهاب إلى الجزائر، بعد أن جمع المعلومات الضرورية حول هذه القضية وصل إلى مدينة الجزائر بتاريخ 28 سبتمبر 1788 محملاً بمدايا تقدر قيمتها بحوالي 6000 ليرة تمثلت في علبة ذهبية مليئة بالماس قدمها للداي محمد عثمان باشا ويبدو أن الاستقبال الذي حظي به فونتور يدل مما لا يدعو مجالاً للشك أنه شخصية ذات وزن سياسي وديبلوماسي ناهيك عن خبرته الكبيرة في مثل هذه القضايا، وقد استطاع بالفعل بحنكته ودهائه إلى إنهاء المسألة الشائكة بين الطرفين وتسويتها نهائياً.²

ويبدو أن فونتير المستشرق قد استغل تواجده بالجزائر لتعلم اللغة العربية والاطلاع على اللهجة البربرية، وفي ذلك قال "لقد عرفت كيف استغل محطات تواجدي بالبلاد لتعلم هذه اللغة وقمت بإنجاز قاموس كامل ودقيق مليء بالجميل التي تعمق فهمها..."، وقد اعترف صراحة أن ذلك بمساعدة البين مسلمين من جبال فليسة، حيث قضى معهما مدة زمنية طويلة بمعدل ساعة أو ساعتين يومياً تعلم خلالها الكثير من مبادئ هذه اللغة، إلا أن تمكن من إنشاء هذا المعجم مساهماً بذلك مساهمة نوعية في الدراسات اللغوية وواضعاً مصدراً نفيساً بين جمهور الباحثين من مؤرخين، لغويين، وأثنروبولوجيين عن اللهجة البربرية.³

أدرج فونتير دوبارادي في مذكراته كل ما له علاقة بالمجتمع ومظاهر الحضارة، السلطة ومؤسسات الحكم، الحياة الاقتصادية، والعلاقات الخارجية، محاولاً رسم صورة واضحة بكل أبعادها وتقاسيمها حول مدينة الجزائر، استهل في مذكراته الحديث عن مدينة الجزائر الموقع، التسمية التاريخ، وصف المعالم الحضارية بالمدينة (شوارع- منازل- قصور- سكنات- سجون الأسرى- المؤسسات الدينية والتعليمية، مساجد ومدارس وزوايا...)، تطرق إلى الحياة الاجتماعية لسكان المدينة مقدماً معطيات إحصائية

¹ Venture de Paradis, Tunis et Alger, p 18.

² E. Plantet, op.cit., T2, p 388.

³ Venture de Paradis, Grammaire et dictionnaire abrégé de la langue berbère, Revue par A Tombert publié par la société de géographie, Paris, 1983, p II.

لأعداد فئات المجتمع الجزائري، كما خصص جزءا من كتابه للحديث عن العادات والتقاليد السائدة كالأكل، اللباس، الجنائز، حيث التزم بذكر المصطلحات السائدة والمتناقلة داخل المجتمع.

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد خصصه للحديث عن الحياة السياسية نظام الحكم العثماني، الجيش الإنكشاري، والحياة العسكرية، كما تطرق بإسهاب على الحياة الاقتصادية مداخل الخزينة، الحركة التجارية، غنائم البحر¹، إلى جانب كل ذلك قدم فونتير دوبارادي ترجمة نثرية باللغة الفرنسية لبعض الأناشيد الشعبية مثل أنشودة حرب الدانمارك، حيث حرص على عرضها وترجمتها قطعة بعد قطعة بالفصل، كما توقف لشرح الكلمات أو الجمل المهمة إما باللغة العربية أو الفرنسية.²

وعلى ضوء كل ذلك يمكن القول أن التكوين الاستشراقي الذي تمتع به فونتير دوبارادي قد أتاح له -دون شك- وسائل المعرفة أكثر من الرحالة العاديين فقد مكّنه معرفة اللغات الشرقية من الاطلاع على مختلف الكتب والتعرف على مختلف المعارف في شتى المجالات ومن ثم التعرف بعمق على المجتمع الجزائري وخصوصياته فكان ما كتبه حول ذلك أكثر تميزا وأهمية، حيث ساهم بشكل كبير على اطلاع الأوروبيين على المجتمعات الشرقية عامة والجزائر بصورة خاصة، أما بالنسبة لمجال بحثنا فيعد من أثرى المصادر في وصف الحياة الثقافية في الجزائر خلال القرن 18م.

- ريهبايندر J. Rehbinder:

يمثل عمل القنصل الدانماركي في الجزائر ريهبايندر أحد أهم الأعمال المؤلفة حول المنطقة والعمل الوحيد الذي خلفه القناصل الدانماركيون بالجزائر خلال الفترة الحديثة، صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة 1798 ثم تلتها طبعة أخرى سنة 1800 (Rehbinder J. Nachrichten und bemerkungen iisun den Algierishen staet altua, 1798-1860, 2 vol, 8 volume with maps and plates)

جمع القنصل ريهبايندر تجاربه بالجزائر في ثلاث مجلدات تحت عنوان " أخبار وملاحظات حول بلاد الجزائر " وجاء العمل مشبعا بالأفكار التنويرية (عصر الأنوار) إن الهدف في هذا الكتاب كان لإزالة الأفكار الخاطئة التي كانت موجودة حول الجزائر " بلد القراصنة واللصوص " وكانت له رسالة

¹ Venture de Paradis, Tunis et Alger au XVIII siècle..., pp 105-266.

² Ibid, p 232.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

للدعوة إلى التسامح الديني مع الديانات الأخرى، أرجح هذه الأفكار الخاطئة إلى الدور الذي قام به الرهبان والبعثات الكاثوليكية بملاً مؤلفاتهم بأفكار خاطئة تحت عناوين علمية مزيفة، وقد جسد رهبانيندر محتوياتها بـ"كتابات رهبان مبتدئين قدرة ممزوجة بالحقارة".

وفي رأبي فإن كتاب هذه المؤلفات عملوا أي شيء لوصف السلوكيات الدينية والحياة اليومية الطبيعية لسكان البلاد، بنوع من الاشمئزاز النفور والدناءة...، وقاموا باتهام السكان الأصليين بأنهم المسؤولون عن معاملة المسيحيين المؤمنين كالعبيد الزنوج، ومن هذا المنطلق رأوا بأن الكتابة بهذه الطريقة حق محفوظ للأوروبيين الأتقياء العظماء، والحكام الحقيقيون للعالم، حيث لديهم الحق الكامل والحصري.¹

وبالتالي يعتبر ما قدمه القنصل رهبانيندر من الكتابات المنصفة حول تاريخ الجزائر، والتي عمل بشكل ملحوظ على تصحيح النظرة المبالغ فيها التي سادت في أوروبا عن الجزائر كنتيجة للجهود التي بذلها رجال الدين الكاثوليك.

هـ- كتابات البعثات العلمية (مدرسة علماء الطبيعة *Les Naturaliste*):

بدأت الرحلات العلمية تبرز خلال النصف الأول من القرن 18، بهدف اكتشاف عالم غريب، فظهرت الرغبة في توسيع الأبحاث العلمية القائمة على المنهج العلمي المبني على المشاهدة، المقارنة الضمنية ودراسة شعوب وبيئات مختلفة، وقد تكشف عن الإرادة والرغبة في توسيع الأفق العلمي وإثراء المعرفة الأوروبية التي اتسمت حينها صبغة التفوق في هذا المجال²، ومن أبرز هؤلاء:

¹ Ernsperter Ruche, Les Allemands fascinés par l'Algérie de voyage de 18 ème siècle et 19 ème siècle, Majallat El Terikh, Algiers, N°27, 1987, p 39-40.

² محمد العربي السنوسي، مقدمة تحقيق كتاب بيسونال أندري، الرحلة إلى تونس (1724) تصدير خليفة شاطر، مركز النشر الجامعي، 2003، ص ص 10-11.

– جون أندري بايصونال John André Paysonnel:

ويعتبر جون أندري بايصونال* من أوائل الرحالة العلميين الفرنسيين الذين برزوا في الربع الأول من القرن الثامن عشر ميلادي وعرف برحلته العلمية إلى تونس والجزائر فيما بين 1724-1775.

من المعلومات الهامة التي قدمها الطبيب بايصونال المقارنة التي أشار إليها في مراسلاته عن أوضاع العبيد في أمريكا والأسرى المسيحيين الأوروبيين في تونس، حيث استنتج أن الأتراك كانوا أكثر إنسانية، حيث سمحوا لبعض المسيحيين الذي أعلنوا إسلامهم إلى الوصول إلى أعلى مراتب السلطة، حيث قال في ذلك "بغض النظر عن الأسباب يمكن أن نؤكد بأن أتراك هذا البلد على جانب كبير من الإنسانية في معاملة أسراهم بالنسبة إلي، حيث كنت في أمريكا وفي الشرق أستطيع أن أؤكد بما أنني كنت شاهدا على قساوة ولا إنسانية المسيحيين تجاه أسراهم من الزنوج، بالمقابل هناك رفق حسن معاملة بالنسبة للأتراك حيال أسراهم..."، ويضيف: "أعلم أن هذه الفكرة سينظر إليها على أنها خاطئة وضالة وستقابل بالرفض من طرف الكثير من الأشخاص ولكن لن أتفوه بما يناقض الحقيقة، يجب ألا أخفي القول بأن الأتراك يسمحون بحرية ممارسة شعائر الديانة المسيحية داخل السجون وإقامة القداس والطقوس المسيحية بطريقة علنية..."¹.

كانت مهمة بايصونال إلى شمال إفريقية علمية بحتة تهدف بأمر ملكي إلى جمع النباتات، الأزهار والبذور والحيوانات، والقيام بملاحظات ذات علاقة بالتاريخ الطبيعي إضافة إلى الأمراض ووسائل علاجها، هذا بالإضافة إلى ملاحظات حول التاريخ والجغرافية القديمة والحديثة، وخصص جزء منها لجرد بعض المخطوطات العربية².

* Jean André Paysonnel: من عائلة معروفة في مجال الطب، حيث كان والده طبيبا، ولد بمرسيليا 19 جوان 1694 تلقى تعليمه الأول على غرار نبلاء عصره بمدرسة الكنيسة، عرف منذ صغره شغفه في المغامرة الترحال، وركوب البحر، حيث قام برحلة إلى الهند الغربية، كما زار جزر الأنتيل ووصل إلى نهر الميسيسيبي في المدة الممتدة ما بين 1710-1714 ومصر سنة 1715، بعد عودته إلى باريس تابع دراسة الطب إلى غاية 1710 ضرب فرنسا سنة 1720 عين رغم صغر سنه (18 سنة) كمراسل بأكاديمية العلوم بباريس وفي هذه الفترة من القرن 18 ظهر علم جديد في ميدان العلوم وهو التاريخ الطبيعي، منذ أن تظهر لدى بايصونال الرغبة في دراسة الطب البحري، وكان نتيجة تعرفه على مستشار الدولة وحافظ المكتبة الملكية L'Abbé Bignon على أن تحصل على إذن ملكي للذهاب والتعرف على أوضاعها وكان ذلك فيما بين 1724-1725. (J.A. Paysonnel, Voyage dans la régence de Tunis et d'Alger, pré par Lucette Valensi, éd la découverte, Paris, 1987, pp 10-11.

¹ J.A. Paysonnel, op.cit., p 41.

² Denise Brahimi, op.cit., p 131.

خص بايصونال في رحلته إلى تونس بالرسائل العشرة الأولى فحين كانت الجزائر موضوعا لرسائله الأربعة الأخيرة، لكنها كانت أطول وأثرى من حيث المحتوى، حيث بقي في الجزائر ثمانية أشهر ونصف.

بدأت رحلة بايصونال في الجزائر من 11 جانفي 1725 إلى 1 أكتوبر 1725 دخل إليها عبر القالة ليتوجه إلى عنابة، ثم نحو قسنطينة أين قضى وقتا بين المدينة ومناطق داخلية بالأوراس، ضمن محلة الباي حسين المدعو بوقمية* مرورا بقسنطينة، ومن الجزائر وعن طريق الساحل عاد من جديد إلى شرق البلاد، قضى معظم وقته خلال هذه الرحلة في مدينتي القالة والجزائر.¹

وعليه تعتبر رحلة الطبيب وعالم النبات الفرنسي جون أندري بايصونال من أهم الرحلات العلمية الاستكشافية إلى الجزائر في مطلع القرن 18م تميزت بمعلوماتها الثرية والمتنوعة، وبأسلوبها العلمي الخالي من النمط القصصي الإنشائي الذي ميز معظم الرحلات، حيث جاء في شكل رسائل وجهها إلى القس l'Abbé Bignon مستشار الدولة الفرنسية، ورئيس أكاديمية العلوم، تمثل هذه الرسائل تقارير مفصلة تضمنت معلومات في شكل وملاحظات حول المدن والمناطق التي أقام بها وارتحل إليها.

نشرت هذه الرسائل في مطبعة Dureau de la Melle سنة 1838 تحت عنوان relation d'un voyage sur les côtes de la barbarie fait par ordre du roi. وهي النصوص التي أعادت نشرها وتقديمها والتعليق عليها الأستاذة لوسان فالونسي سنة 1987.²

* أحد أهم بايات الشرق تميز بشجاعته وقدرته على إخماد الفتن التي عرفها بايلك الشرق، تميز بطول فترة حكمه، رافقه بايصونال في رحلته إلى قبائل الحنانشة والأوراس من أجل جمع الضرائب وتهدئة الأوضاع، حضر مجلسه في معسكره بفضله وساطة من الموظف الفرنسي رافق الباي في عدة مناطق زارها، ثم غادر ليواصل رحلته العودة إلى عنابة. (للمزيد أنظر، الفتري، مصدر سابق، ص ص 54-56).

¹ J.A. Payssonnel, op.cit., p 41.

² Pyssonnel et Desfontaines , op.cit..

- توماس شو Thomas Show¹:

تدخل رحلة الإنجليزي توماس شو ضمن الرحلات العلمية الاستكشافية التي بادرت بها بريطانيا على غرار ما قامت به منافستها فرنسا في الإيالة، وذلك في إطار تمتين العلاقات الدبلوماسية مع هذه الإمارة العثمانية القوية وفي خضم التجربة العلمية التي عرفتها أوروبا عامة بريطانيا بصورة خاصة أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، كانت رحلة الطبيب، رجل الدين، المستكشف والجغرافي توماس شو الذي جمع معلومات غزيرة وملاحظات متنوعة عن إيالة الجزائر من خلال إقامته الطويلة (1720-1732) في الإيالة وذلك في كتابه الشهير "رحلة في إيالة الجزائر" Voyages de Mons Show M.D dans plusieurs provinces de la barbarie et du levant contenant des observations, géographique, physique, philologique et mele'es sur les royaumes d'Alger et de Tunis sur la Syrie, l'Egypte et l'Arabie pétrée² طبعت الرحلة عدة مرات بعد ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، منها الطبعة الحجرية سنة 1743، حيث توجد منها نسخة بمكتبة الأرشيف بقسنطينة وهي نسخة مزودة بملاحظات هامشية للمؤلف، وكذا بعض الخرائط، أما الطبعة الثانية كانت سنة 1753 وتحتوي على بطاقات لأنواع من الحيوانات والنباتات والطبعة الثالثة تعود إلى سنة 1830³.

تمكن الدكتور شو من إجراء مسح طوبوغرافي شامل ورسم خرائط تقريبية مرتبطة بعمله مستفيدا من إقامته الطويلة بقنصلية بريطانيا بالجزائر، واستطاع أيضا القيام بعدة رحلات داخلية في مختلف أقاليم الإيالة، وقد خص بايالك الشرق بعناية خاصة، حيث تضمنت رحلته دراسة مفصلة للحياة الثقافية في هذه الأقاليم.

¹ ولد في 1692 أو 1694 كيندال Kindal بإنجلترا وتوفي سنة 1751 هو طبيب ورجل دين بريطاني، تعد رحلاته على شمال إفريقيا توثيقا مرجعيا خلال القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، تزود الثقافة الكلاسيكية، بالإضافة إلى معرفته للغات العربية والعبرية إلى جانب اللغة اللاتينية واليونانية، عمل ممثلا للكنيسة الإنجليكانية سنة 1720م، ثم رئيس كلية أكسفورد رولني، وعضو للجمعية الملكية بلندن، سافر إلى مدينة الجزائر زار العديد من المناطق في الإيالة طيلة فترة إقامته ما بين سنتي 1720-1732 وتمكن طيلة 12 سنة التي قضها في المنطقة تدوين ملاحظات حول المجتمع الجزائري، ووضع فهرسة لأنواع الحيوانات والنباتات في منطقة شمال إفريقيا. (أنظر: Dr. Show, Voyage dans la régence d'Alger, traduit par J.Mac Carthy, Paris, 1830, traduits de l'Anglais, T1, a la Hate, 1743.

² Thomas Show, op.cit., pp 07, 27.

³ Ibid, pp 24, 46..

إضافة إلى قيامه برحلات خارج الإيالة فادته إلى مصر، الجزيرة العربية، فلسطين، سوريا وتونس، حيث تضمنت بيانات جغرافية وخرائط جيولوجية وأثرية مرتبطة بعناية في أقسام مفصلة وضعها في خدمة الجمعية الملكية بلندن.¹

يحتوي الكتاب التي اعتمدت عليه هذه الدراسة على 401 صفحة، ضم عشرة فصول يقدم فيها شو دراسة شاملة حول الجزائر في جميع مجالات الحياة الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والسياسية، إضافة لكونها دراسة جغرافية وجيولوجية للمنطقة، كما تكمن شمولية الدراسة التي قدمها شو في تطرقه لعدة أقاليم ووصفه لمناطق واسعة في الإيالة، كما خصص دراسة أشار فيها إلى غنى الإيالة بالثروات الطبيعية والسطحية والباطنية لا سيما غناها بالمعادن.²

قدم شو دراسة مستفيضة عن مختلف العادات والتقاليد والعلوم السائدة في الإيالة واصفا حالة تعليم طرقه ومناهجه، كما لم يغفل عن الحديث عن الجانب السياسي، حيث أشار إلى ظلم وإخفاق حكومة الأتراك في استغلال السكان.³

تعتبر رحلة الدكتور الإنجليزي توماس شو الجزائر من أكثر المصادر ثراء بالمعلومات، إذ تعد دراسة شاملة وعامة للإيالة بداية القرن الثامن عشر ميلادي، إذ مكنته إقامته الطويلة من التعرف على الحياة العامة، ودراسة جميع المجالات، لذلك صنفت ضمن الرحلات العلمية الاستكشافية التي اعتبرت في تلك الفترة مرجعا لمن جاء بعده من الرحالة، كما ورد في مذكرات "شالر" الذي قال عن رحلة شو في بلاد البربر هي الدليل الوحيد الذي يستحقه الباحث في دراسة تاريخ وجغرافيا مملكة الجزائر.⁴

¹ بلقاسم قرياش، الأسرى الأوروبيين، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 19، أبريل 2018، ص 118.

² Thomas Show, op.cit., pp 85-86.

³ جون وولف، المرجع السابق، ص 154.

⁴ نفسه، ص 75.

– رحلة الألماني هابنسترايت (J.A. Hebenstreit):*

طبيب وعالم نبات ألماني، اخص في دراسة النباتات النادرة واصل دراسته في الطب وتحصل على مؤهل بمزاولة هذه المهمة، ويبدو من الإشارات التي وردت في كتاب الرحلة لهذا العالم أنه كان متمرسا في فنون الطب، النبات، والأدوية، فقد أشار مترجمها نصر الدين سعيدوني في قوله "نراه يؤكد على ذلك في كثير من تعليقاته، لا سيما أن هذا العالم كانت له طموحات في التوغل في صحراء الجزائر وأدغال إفريقيا لاكتشاف النباتات وطبيعة المجتمعات"¹، وعليه ركز هابنسترايت رحلته على الحث على المعرفة العلمية أكثر من تأدية المهمة الدبلوماسية التي كلفه بها الملك أغسطس الثاني (1670-1733)**، حيث ترأس بعثة علمية لإعداد تقارير مفصلة عن واقع منطقة شمال إفريقيا السياسية، الاجتماعية والدينية، وجمع عينات من النباتات والحيوانات لفائدة لقصر الملكي.²

عرف عن العالم الألماني أنه تمكن من كسب ثقة حكام الجزائر وتونس وطرابلس وإقامة علاقات ودية معهم، إلا أن الظروف التي سادت تلك الفترة احتلال وهران من طرف الإسبان وزيادة الحقد الصليبي، إضافة إلى وفاة الملك أوغستين الذي كلفه هذه المهمة في 04 ماي 1733 جعلته يعود إلى موطنه دون إنجائها.

أطلقت رحلته من مدينة درسيدين إلى مرسيليا ومنها ركب سفينة إنجليزية نحو الجزائر يوم 22 جانفي 1731 في رحلة بحرية دامت عشرون يوما.

كتب الرحلة في شكل رسائل، أدرج فيها ظروف وصوله على المدينة سنة 1732 ومقابلته الداوي عبدي باشا الذي أعلمه بالمهمة التي جاء من أجلها فأجابه الداوي بأن بلاده مفتوحة أمام رحلتهم

* هو جوهان أرنست هابنسترايت ولد في 15 جانفي 1702 في لايبزيغ (Leipzig) درس الطب، كما تحصل على الماجستير في الفلسفة سنة 1728، ثم الدكتوراه في الطب سنة 1729، وفي جوان 1731 عين في الأكاديمية الألمانية للعلوم في نيوبونديا (Neopolina) عرف بالانضباط والإخلاص في العمل مما جعله يحظى بثقة ملك بولونيا ومنحت الاكس الملك أغسطس الثاني.¹ ج.أ. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أ. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145-1732)، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص 13.

** ولد بدرسيدين (Dresden) عاصمة سكسونيا (Saxe) سنة 1670 أمير سكسونيا وملك بولونيا ما بين (1670-1733)، توفي بفرصوفيا سنة 1733. (للمزيد أنظر زكرياء العابد، الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوروبية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، 2007، ص 54.

² نفسه، ص 14.

ووعدهم بالتكفل بحمايتهم¹، أما الرسالة الثانية فخصصها إلى زيارة المدن والخروج مع جنود المحلة، حيث قدم فيها أوصاف عامة للمناطق التي حل بها، وجاء في الرسالة الثالثة بتاريخ 31 أوت 1732 عن حالة التأهب التي عرفتها الجزائر لمواجهة الإسبان، وهو ما حتم عليه مغادرة الجزائر وإنهاء هذه المهمة، بعد أن قدم شكره للداي على ما قدمه من حماية ورعاية، توجه بعدها الرحالة الألماني من الجزائر نحو تونس في 25 جويلية 1732 مواصلا بحوثه العلمية وصولا إلى طرابلس.²

الجدير بالذكر أن الطبيب الألماني قد اعتمد في كتابة رحلته في التعريف بالجزائر على ما قدمه الرحالة الأوروبيين الذين سبقوه، غير أن القارئ لرحلة الطبيب هابنسترايت يدرك مدى التزامه بجانب كبير من الموضوعية والوصف الدقيق الذي قدمه عن الأوضاع في الجزائر، وإلمام بالمصادر التي يبدو أنه اعتمد عليها، مثل رحلة لوجي دوطاسي Laugier De Tassy، حيث لم يخف ذلك بقوله مثلا: "مداخيل الداى ذات قيمة معتبرة، فقد قدرها لوجي دوطاسي بمائتي ألف قرش... يودع الجزء الأكبر منها في الخزينة..."³، إضافة إلى إشارات واضحة عن اعتماده على كتب الأسير الإسباني دو هايدو خاصة في الحديث عن التاريخ القديم للإيالة.⁴

والجدير في هذه الرحلة أن هابنسترايت استفاد من بعثة علمية أشار إلى أفرادها في رحلته من علماء نبات وحيوان، وأبرز مرافقيه الكاهن والطبيب الإنجليزي الدكتور شو (D. Show)، فغزارة معلومات هذه الرحلة تعود إلى تعدد الملاحظات والمعلومات التي ساهم هؤلاء في إضافتها⁵، حيث قدم معلومات ذات قيمة وأهمية كبيرة في التعريف بجوانب عديدة من الحياة الثقافية للمجتمع الجزائري، خلال

¹ ج.أ. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، ترجمة وتعليق نصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص 15-16.

² نفسه، ص 76.

³ نفسه، ص 41-42.

⁴ نفسه، ص 24.

⁵ منير الفندي، هابنسترايت وبعثة أمير سكسونيا العلمية بشمال إفريقيا (1732-1733)، المجلة التاريخية المغربية، العدد 35-36، تونس 1984، ص 231.

هذه الفترة في حديثه عن العادات والتقاليد والجانب المعماري¹، يذكر الأستاذ سعيدوني كيف تم العثور على المسودات التي تحوي رحلته وكيف نشرت أول مرة إلى أن أوصلت بين يديه وقام بترجمتها.²

- ديفونتين Desfontaines:

وكمثال آخر ذو أهمية عن كتابات الرحلة العلمية الاستكشافية في القرن 18م نجد الطبيب الفرنسي روني دي فونتين René Louiche des Fontines* طبيب من كبار علماء الطبيعة (النبات)³ في فرنسا آنذاك من خلال جهوده في تطوير هذا العلم بأكاديمية العلوم³، وعلى غرار مواطنه بايصونال تم تكليفه بأمر من الملك لويس السادس عشر ومن الأكاديمية للقيام برحلة استكشافية في مختلف أنحاء العالم، حيث اختار دي فونتين بحكم علاقته الجيدة بقنصل فرنسا والجزائر⁴، وعلى عكس مواطنه بايصونال، تلقى كل والتسهيلات، حيث ذكر بأنه أعد مشروع مهمته في سواحل تونس والجزائر بنفسه ثم تقدم به إلى أكاديمية العلوم بباريس التي قابلت المشروع بالموافقة وتكلفت بنفقاته الضرورية.⁵

ذكر ديفونتين بأنه يسعى من وراء رحلته إلى جمع معلومات وملاحظات حول جغرافية وتاريخ المنطقة العادات السكان والتركيز خاصة على التاريخ الطبيعي، فحظيت رحلته بإشراف وحماية من القنصل الفرنسي في الجزائر وحسن استقبال من داي الجزائر وباي تونس، اللذان وفرا له الحماية الكافية لأداء مهامه العلمية⁶، رغم أهميتها إلا أن أغلب أجزاء هذه الرحلة قد ضاعت بضياح نصوصها فلم يترك

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص 150.

² ج.أو هابنسترايت، المصدر السابق، ص 15-16.

* ولد René Louiche Desfontaines: في 14 فيفري 1750 في مقاطعة ريفية فرنسية التحق بمعهد Rennes، الذي يخرج منه العديد من المتخصصين في اللاهوت، الطب، والقضاء، وهناك أثبت تفوقا ملحوظا ليصنف بذلك ضمن النخبة أتجه بعدها إلى باريس لدراسة الطب، أين تحصل علم شهادة دكتوراه في الطب سنة 1782، انجذب ديفونتين إلى علم النبات أيضا، وأصبح من كبار علماء هذا العلم بفرنسا خلال دوره ونشاطاته الهامة بأكاديمية العلوم بعد العودة من الرحلة كرس ديفونتين حياته للتعليم كأستاذ بالحديقة الملكية، كما ساهم مع زملائه بتأسيس متحف التاريخ الطبيعي بباريس سنة 1793، عمل على تأليف العديد من الرسائل والمذكرات وبعض الكتب كانت خلاصة أبحاثه استوحى أغلبها من رحلته إلى شمال إفريقيا توفي سنة 1833. A.P. De Condole, Notice sur la vie et les travaux de M. Desfontaines, bibliothèque universelle, Paris, 1834, p 04.

* من العلوم التي ظهر في بداية القرن 18م علم جديد علم الطبيعة تعريفه Naturaliste.

³ Denise Brahimi, op.cit., p 74.

⁴ Chevalier Auguste, op.cit., p 135.

⁵ Denise Brahimi, op.cit., p 135.

⁶ Peyssonel et Desfontaines, op.cit., p 178.

ديفونتين كتاب أو مدون خاص يروي فيه مشاهدات في هذه المناطق وإنما قيدها في شكل رسائل تضمنت تقارير بالأعمال اليومية التي كان يقوم بها أثناء رحلته أرسل أغلبها إلى صديقه "Lemmonier"¹.

وفي فيفري 2010 قامت الباحثة الفرنسية Denise Brahimi بإعادة نشر هذه الرحلة تحت عنوان *Le voyage botanique de des fontaines*، حيث رتبت الرحلة وفق ترتيب كرونولوجي (1784-1786).

وفي رحلته في الجزائر واجه دي فونتين العديد من المشاكل والصعوبات التي يقول أنه تجاوزها بفضل مرونة مزاجه وتمتعه بروح التسامح، الحيلة والحذر والمعاملة الجيدة للسكان الذين كانوا يأتون جماعات إلى خيمته للتداوي وساعدته كفاءته في هذا المجال أن يصبح طبيب الباي مما أمن أكثر رحلته، إذ تلقى التسليح وكأنه جندي في الحرب مزود بمسدسين وخنجرا، سيفاً وبندياً²، وكان يرافقه في أغلب تنقلاته بالجزائر أربعة حراس (من الخدم وجندي من الإيالة)، وكان بمعية شخصية فرنسية يدعى M.Faure أقام بالجزائر مدة عشرون سنة تعرف فيها على لغة وعادات سكانها وتنقل عبر مختلف مناطق الإيالة³. وفي هذا السياق صرح ديفونتين أنه: "كل غريب زار تونس أو إحدى بلاد البربر ينبغي أن يتأقلم مع عادات البلاد... ولا بد أن يتجنب الحديث عن الدين لأن كل كلام حول هذا الموضوع يبدو لهم مشبوها هذا وينبغي التحلي بالحيلة والتزام التحفظ مع النساء"⁴.

وقد حصل ديفونتين بعد إلحاح شديد على إذن من الداى بالتجول في أنحاء الجزائر، حيث زار الجهات الغربية معسكر، تلمسان، كما سمح له بمرافقة المعسكر المتوجه إلى هذه المناطق، ويروي في رحلته تفاصيل عن ظروف استقباله من طرف الباي محمد الكبير بمعسكر والتسهيلات التي قدمها له "استقبلنا بحفاوة عرض علينا خدماته أخبرته بمهمتي فوعديني بأنه سيمنحني لوازم السفر والترحال، قدمت له هدية تتمثل في غطاء (لحاف) فرنسي فأخذه بكل سرور وأعطاني حايقا صوفيا أحمر اللون... كما

¹ Denise Brahimi, préface, op.cit., p 14.

² Pyssonel et Desfontaines, op.cit., p 103.

³ A.P. Condole, op.cit., p 139.

⁴ Pyssonel et Desfontaines, op.cit., p 97-98.

دلنا على الأماكن الغنية بالنباتات..."، وفي قسنطينة أيضا تلقى ديفونتين الدعم والمساعدة، حين طلب من الباي حرسا خاصا به كي يرافقه إلى بونة، وقد وافق على ذلك بكل سرور.¹

يكتسي ما كتبه ديفونتين عن إيالة الجزائر أواخر القرن 18م، أهمية كبيرة في جانب أهميته العلمية للرحلة، حيث ساهم في تقديم معلومات هائلة حول جغرافية المنطقة ونباتاتها، فإنه ساهم من جهة أخرى في تقديم ملاحظات دقيقة بأسلوب علمي موضوعي عن جوانب من الحياة العامة للمجتمع الجزائري، فيعد كتابه من أهم مصادر تاريخ الجزائر أواخر القرن 18م.

و- كتابات المدرسة الأمريكية حول الجزائر:

إذا كان الوضع بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط يسوده جو من الصراع الديني والتجاري أحيانا وتسابق الدول الأوروبية إلى شراء السلم مع إيالة الجزائر أحيانا أخرى، فإن ظهور الولايات المتحدة كدولة تبحث عن مكانة تجارية في المنطقة المتوسطية قد خلق نوع من التنافس والسباق الأوروبي الأمريكي.

يعود أول اتصال مع الجزائر إلى القرن 17م عندما تعرضت بعض السفن الأمريكية التي كانت تحت الوصاية الأوروبية إلى الاعتداء من طرف بحارة جزائريين، وبعد أن تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية، من تحقيقها استقلالها سنة 1776 سعت جاهدة للحصول على السلم مع الدول المغاربية وتحسين علاقتها معها وخاصة مع إيالة الجزائر، حيث طالب التجار وأصحاب السفن بموانئ الساحل الشرقي الأمريكي لجعل الساحل الجنوبي الغربي الأوروبي في مأمن من اعتداءات السفن المغاربية على سفنهم، وخاصة من طرف البحرية الجزائرية التي كانت تعترض هذه السفن في الجهة الأطلسية.²

وفي المجمل تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من توقيع وإبرام تسع معاهدات* مع الدول المغاربية في الفترة الممتدة ما بين (1776-1830) ساهمت في تنظيم العلاقات بين الأطراف المتعاقدة وذلك

¹ Denise Brahimi, op.cit., p 153.

² Naval, Document related to the United States was with the Barbary power (1785-1801), Vol United States government, printing office Washington, 1933, p 03.

* أصدر الكونغرس الأمريكي في 07 مارس 1784 قرارا يقضي بتعيين كل من جون آدامز John Adams، بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin، وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson، لإجراء اتصالات مع حكام إيالات شمال إفريقيا، إلا أن توصلت الدبلوماسية الأمريكية بعد جهود حثيثة مع دايات الجزائر إلى عقد اتفاقية السلام والصدقة التي حررت باللغة التركية في 21 صفر الموافق 5 سبتمبر 1797، اعترفت فيها الجزائر باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وبالمقابل التزمت و.م.أ بدفع مبالغ هائلة وتزويد

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

بفضل التقارير والرسائل التي كان يرسلها المبعوثين الأمريكيين لتحسين صورة و.م.أ لدى دايات الجزائر خاصة، ومن جهتها اعتبرت الكتابات اتفاقية 1795 إهانة بالغة لشرف هذه الدولة الفتية، لذلك على أمريكا العمل جاهدة إلى إلغائها والتخلص من قيودها وهو ما حدث فعلا في عقد و.م.أ التحالف الأوروي الأمريكي ضد الجزائر سنة 1816.¹

وبالرغم من جهود السلام الأمريكية إلا أن سفن لولايات المتحدة الأمريكية لم تسلم من اعتداءات البحارة الجزائريين، يفسر ذلك جيمس ستفنسن بعدم وجود قوة بحرية تدعمها فأصبحت تجارتها الواسعة مع أوروبا تمثل إغراء كبيرا للقراصنة، فإلى جانب العائدات الهائلة والسلع الثمينة تزايدت أعداد الأسرى الأمريكيين في الجزائر خاصة منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي.²

وفي ذلك أورد جيمس ستفنسن مشهدا لأسر السفينة الأمريكية بريزدانت *Président* في أكتوبر 1793 في المياه الأطلسية من طرف بحارة جزائريين الذين قاموا بنهب السفينة ودفعوا بطاقمها بكل وحشية إلى مركبهم وبعد حصولهم على الغنيمة أقاموا حفلا كبيرا على متن السفينة التي وصلت بعد أيام إلى مدينة الجزائر أين تم تقديم هؤلاء الأسرى أمام الداى الذي طلب منهم التوجه إلى سجن البايك.³

من أبرز الكتابات الأمريكية خلال هذه الفترة:

البحرية الجزائرية بعدة سفن وتقديم هدايا ثمينة وهو ما سمح بانتعاش التجارة الأمريكية في حوض البحر المتوسط. (أنظر مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج1، ص 229 وما بعدها).

¹ الجليلي شقرون، العلاقات بين إيالة الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية خلال العهد العثماني (1776-1830)، مجلة جيل للعلوم الإنسانية، ع 04، وهران، الجزائر، 2018.

² جيمس ستفنسون، المرجع السابق، ص 253.

³ نفسه، ص 254-258.

– جيمس ليندر كاتكارت James Leandr Cathcart¹

لم يسجل كاتكارت يومياته للنشر إذ لم تنشر إلا بعد وفاته بنحو نصف قرن، حيث تولت ابنته J.B Newkirk ذلك تحليدا لوالدها، ولم تحمل الطبعة اسم ولا تاريخ النشر، احتوت فقط على اسم المطبعة "مطبعة هيرالد"، نشر بلغة إنجليزية بسيطة وواضحة.

يقدم الكتاب معلومات تاريخية هامة حول العلاقات الجزائرية الأمريكية في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، خصص جزء منه للحدث عن عادات وتقاليد الجزائريين في الاحتفالات الدينية والحياة اليومية حيث سجل انطباعاته الشخصية من خلال تعاملاته وإقامته في مدينة الجزائر، كما نقل كاتكارت في مذكراته وصفا لقصر الداوي وللمدينة الجزائر ومؤسساتها العمومية السياسية، الدينية التعليمية، وبوصفه أسيرا تحدث كاتكارت بإسهاب عن معاناة الأسرى في سجون الجزائر وطرق افتدائهم مقدما إحصائيات عن السفن التي وقعت في يد الأسطول الجزائري وعن عدد الأسرى ما بين 1785 و1795.

استغل كاتكارت علاقاته الجيدة بالداوي وتمكن من الوصول إلى معلومات هامة حول العلاقات الخارجية للجزائر خلال هذه الفترة، التي تحدث عنها بإسهاب مطولا، وذلك لطبيعة مهمته التي كان يؤديها في القصر إذ تطرق إلى التنافس الفرنسي البريطاني لكسب ود داي الجزائر، كما بدل جهوده لتحسين صورة بلاده.²

تعتبر مذكرات كاتكارت من المصادر التاريخية الهامة التي قدمت لنا معلومات عن الحياة العامة في الجزائر أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، إذ تعكس انطباعات آراء، وملاحظات دونها كاتكارت من

¹ يقول جيمس كاتكارت في مذكراته أن اسم عائلته كاتكارت مشتق من بارونيسة كاتكارت الواقعة في ولاية رانفيو بإيرلندا، ولد في 1 جوان 1767، هاجر إلى أمريكا في سن مبكرة بعد أن وضعه والده تحت كفالة قريبه القبطان جون كاتكارت الذي عين ضابط صف في البارجة الأمريكية "كونفدراسي"، خلال الثورة الأمريكية سجن لدى الإنجليز لمدة سنتين ونجح بعدها في الهروب، تمكن خلال هذه الفترة من إتقان اللغات الفرنسية والإسبانية، ليعمل بعد ذلك تاجرا أسره بحارة جزائريون عند الشواطئ البرتغالية، حيث كان على متن السفينة الأمريكية Maria ماريا التي انطلقت من بوسطن في 25 ماي 1787، استدعاه الداوي للعمل في قصره، حيث عين كبير أمنائه سنة 1792، شارك في المفاوضات الجزائرية الأمريكية سنة 1796، حيث أتقن اللغة العربية والتركية فعين وسيطا بين داي الجزائر و.و.م.أ، تحرر من الأسر وعاد إلى بلده سنة 1799 لكنه سرعان ما استدعي إلى غاية 1817، لأداء مهام خادم قنصلا في طرابلس وديبلوماسيا في تونس ثم قنصلا عاما بالجزائر، ثم تونس، البرتغال، وإسبانيا من 1823 إلى غاية وفاته سنة 1843 عين مسؤولا عن الخزينة الأمريكية بواشنطن. (للمزيد أنظر: Roberto Narvaez, On the cryptography of James Leander Cathcart (1767-), published online, 03 December 2015, at 15.45. 1843).

² جيمس ليندر كاتكارت، مذكرات أسير الداوي كاتكارت قنصل أمريكا بالمغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982، ص ص 13-17.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (ق16-19م)

خلال تجربته الطويلة في الأسر في الجزائر، ويبدو أنه تحرى فيها الموضوعية التامة، فلم يكن له أي دافع سياسي، ديني أو شخصي إذ لم ينشرها خلال فترة حياته، مما يكسبها قدر كبير من المصداقية.

– كتابات آبدايك اندرهيل Updike Underhill¹:

يعتبر ما كتبه أندرهيل من أولى الروايات الأمريكية التي نشرت عن الجزائر بعد إعلان الاستقلال الأمريكي، حيث نشر كتابه بعنوان "الأسر في الجزائر أو مغامرات الدكتور أندرهيل لستة سنوات أسيرا لدى الجزائريين"، قدم فيه صورة واضحة عن طريقة وقوعه في الأسر فيقول: "أنه جرد من ملابسه إلا ما يستر عورته وعرض للبيع رفقة الإبل، البغال، الماعز، الأرناب، المهاري والنساء والرجال، إما لإشباع الشهوة وإما للاستعمال..."².

كما قدم وصف لشخصية الداى حسن باشا (1790-1798) وللقصر، وعملية شرائه من قبل سيده عبد الله، واصفا طريقة تعامله مع الأسرى التابعين له، كما خصص جزء من كتابه لتلك المجادلات التي كان يقوم مع أحد العلماء المسلمين الذي حاول إقناعه للتحويل إلى الإسلام، كما أشار أندرهيل أن ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب أنه وجد في أوروبا أن مثل هذا النوع من الروايات أصبحت محط طلب وإعجاب من القراء أما الجزء الآخر من الكتاب فقد تحدث فيه عن كيفية تعايشه مع مختلف العادات والتقاليد السائدة في البلاد والتي تحدث عنها بإسهاب وبكثير من الوصف مثل طقوس الزواج، الممارسات اليومية، بعد العادات الإسلامية مثل طريقة أداء الصلاة، أراد أندرهيل تقديم هذا الكتاب للمجتمع الأمريكي ليبرز له نظرة جديدة لثقافات أخرى، وأن يجعل من تجربته القاسية في الأسر درسا لمعنى الحرية، الحقوق والقانون التي يعيشها المجتمع الأمريكي، وهو ما يجعلهم يفتخرون بثقافتهم ومبادئهم، ويتجاوزون كل مظاهر التفرقة فيما بينهم، فلا يعرف قيمة الحرية وطعمها إلا من سلبت منه وهو العالم المخيف والمفزع الذي وجده في الضفة الأخرى من الأطلسي فقد اعترف أندرهيل أن تجربة الأسر بالرغم من قساوتها قد جعلته يصل إلى درجة عالية استطاع بفضل مهارته الطبية أن يوفر بعض الأموال الضرورية لفداء نفسه.

¹ ولد في 16 جويلية 1762، بإنجلترا الجديدة (الساحل الشمالي الشرقي الأمريكي)، في أسرة متواضعة منذ صغره تميز بالطموح وحب العمل والاحتراف من أجل تحسين وضعه الاجتماعي درس اللغات القديمة مثل الإغريقية واللاتينية، وعلم اللاهوت ثم توجه بعدها لدراسة الطب، وبعد عشرات كثيرة قرر مغادرة بلاده نحو الساحل الإفريقي بحثا عن ظروف أفضل للعيش والحصول على الثروة والتعرف على العالم، انطلق في قارب للعبيد، ووصل لندن ثم غادرها متوجها إلى شمال إفريقيا تعرض قاربه لهجوم من بحارة جزائريين ووقع في الأسر حوالي سنة 1788 بقي أسير في مدينة الجزائر تسعة سنوات.

² Updike Underhill, the Algerine Captive or life and Adventures of Doctor Updike, six years a prisoner among the Algerines, Hartford printed by peter B. Gleason, 1816.

وبالرغم من تعرضه للتلاعب من طرف أحد التجار اليهود إلا أن لحسن حظه استطاع أن يحصل على حريته ويعود إلى وطنه على متن سفينة برتغالية.¹

- وليام شالر William Schaller:

بادر مفاوضي الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن 19م إلى تقديم تقارير عن أوضاع الجزائر ومختلف معاملاتها، وهو ما قام به القنصل وليام شالر (1816-1824) من خلال ما قدمه في مذكراته، قام بدور مفاوض الجانب الأمريكي مع بداية الأمر ثم تقلد منصب القنصل العام، لعب دورا في معاهدة السلام مع الجزائر سنة 1815، حيث تلقى رسالة من جيمس مونرو (Monroe) أنه عينه قنصل عام على الجزائر بمقابل مالي قدر بأربعة آلاف دولار سنويا.²

وقد لقي ترحيبا من داي الجزائر لتمثيله لبلاده و.م.أ في الجزائر وطلب منه الداي عمر، استرجاع سفنها التي احتجزها الأمريكان بعد مقتل اليريس حميدو، وهي مهمة الأولى، فلم يكن ذاتيا في هذا الهجوم والاعتداء، ومهمته الثانية توزيع الهدايا من طرف القنصلية والتي قدرت بحوالي سبعة عشر ألف دولار، حيث حصل علي داي على القسم الأكبر منها، بالرغم من كونه كان رافضا هذه العادة في دفع الهدايا خاصة بعد تراجع قوة الجزائر في حوض البحر الأبيض المتوسط.³

بعد معاهدة السلام ترك شالر أعماله وواجباته الدبلوماسية إلى سكرتيره وليام جال William Guell غاب عن الجزائر بسبب المرض، وخلال فترة بقائه في الو.م.أ اهتم بالأبحاث والدراسة في فيلاديلفيا في معهد الدراسات الاجتماعية والفلسفية، حيث درس لغات شمال إفريقيا، وعندما عاد إلى الجزائر خصص معظم وقته في التحضير لكتابه عن الجزائر الذي نشر سنة 1826 بعنوان: Sketches

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص 168.

* ولد شالر سنة 1773 في منطقة تيموتي (Timothy)، شارك في عمر الثامنة في الثورة الأمريكية سنة 1776، وبعد وفاة والده في سن 13، بإمكانيات دراية محدودة لكل شالر مكتب التجارة في نيويورك، وبعد مدة قصيرة أصبح موظف تجاري، ومبعوث بين نيويورك وفرنسا، وهنا وفي هذه المرحلة تعلم اللغة الفرنسية واطلع على الأدب الفرنسي، حيث اضطلع على أفكار الثورة الفرنسية وأدرك مفهوم الحرية، المساواة، والأخوة، وهو ما ولد لديه بعدها شعور كبير بالمواطنة لوطنه ومبادئ وأفكار الديمقراطية ما بين 1797-1815 عندما عين قنصل أمريكا في الجزائر، قام بتنقلاته التجارية ما بين أمريكا وآسيا والساحل الإفريقي، حيث تعرضت سفينته إلى الأسر، وقد كان ديبلوماسيا، حيث كان من أحد مفاوضي الولايات. م. أ للتفاوض حول اتفاقية السلام، بهدف حماية المصالح الأمريكية التجارية في المحيط، الأطلسي والبحر المتوسط، ولهذا أرسل إلى الجزائر على رأس إلى الجزائر، على رأس بعثة بحرية لاقتراح على داي الجزائر معاهدة للسلام.

² Ali Tablet, William Shaler the language of the barbers, January 2009.

³ Ibid, p 408.

of Algiers political, historical and civil containing an account of geography population, gouvernement, revenus, commerces, agriculture, arts, civil institution, tribes, manner language and recent political history of this country¹ وفيه عاين تاريخ إيالة الجزائر، حيث راسل شالر معهد فيلاديلفيا للدراسات الاجتماعية والفلسفية ولقي اهتماما من طرف Duponceau الذي جمع هذه المراسلات لحين عودة شالر سنة 1826، قضى شالر معظم وقته في السنوات الأخيرة في الجزائر في البحث من أجل Duponceau ومنشوراته الخاصة، وإكمال مؤلفه بالرغم من تفاقم تدهور حالته الصحية.²

وفي 10 جانفي 1825 أرسل شالر مخطوطه الكامل بحجم 335 صفحة، فيها كل واحدة حوالي 29 سطر إلى Peter Duponceau الذي وافق على نشرها سنة 1826 لدار النشر Cumming Hillierd and company³، ذكر في مقدمة الكتاب دوافع كتابة هذا الكتاب بسبب غياب عمل يقدم نظرة صحيحة للقوة الحقيقية والسياسية لإيالة دولة الجزائر، لأنه كان مؤمن أن عدد قليل من الناس كان لهم الفرصة للقيام بملاحظات للتطور السياسي لهذه الدولة وطرح سؤال إشكالي حول عدم استخدام الاستعمار للدولة الأم فالأفضل الاستعمار هنا يكون بدافع حضاري، وعليه أن يكون تحت رعاية وطنه لكي ينتعش ويتطور وأثناء غيابه كان الداى في حالة صراع مع فرنسا حول مصالحها لاستغلال المرجان في الجزائر ومشكلة الديون ورفض حكومة فرنسا التواصل مع الداى حسين.⁴

¹ وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، نع وتق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 19.

² Ali Tablet, op.cit., pp 23-42.

³ Ibid.

⁴ وليام شالر، المصدر السابق، ص 5-6.

عاد شالر إلى الو.م.أ سنة 1828 وأخبره Duponceau بأنه عين عضو في معية فيلاديلفيا إلا أنه أوفد مرة أخرى سفيرا لدى بلاده في هافانا (كوبا) سنة 1830، وتوفي هناك بمرض الكوليرا 1833.¹

ز- المدرسة الألمانية:

ظهور المدرسة الألمانية في الترجمة:

صادف وجود تيار في ألمانيا "ألمانيا الفتاة" وظهر أدب الرحلة لدى الألمان نحو الجزائر، البلد الذي ذاع صيته بين الأوساط الأوروبية خلال هذه الفترة قد عرف الأدب الألماني بأدب المتعة عن طريق الرحلة إلى البلد من أجل استكشافه وتقريبه إلى القارئ من خلال نقل التجارب والمعاشات، وهو أدب يعتمد على أسلوب الوصف، التبليغ، دون الاهتمام بالمجال الفني للكتابة زار العديد من الألمان الجزائر خلال أواخر القرن 18م والقرن 19م، بصفتهم أسرى فتركوا أعمالا توثق تجربة أسرهم في الجزائر خلال القرن 19م، ولذلك عدت المدرسة الألمانية من المدارس المتأثرة بالكتابة عن إيالة الجزائر، وهي مدرسة اعتمدت كثيرا على فن الكتابة ترجمة كل ما سبقها من كتابات وخاصة الإنجليزية مثل رحلة (توماس شو)، فتكونت لدى هؤلاء صورة نمطية عن الجزائر بلد القراصنة²، فقد كتب عالم الطبيعة "موريس فاغنر" سنة 1830 "جدير بالذكر أن دولتا الجزائر والمغرب يقطنهما شعب بربري متعصب، متعطش للقراصنة والقتل، وتعتبر من أكثر البلدان انغلاقا بالنسبة للمسيحيين، كما أن الأسرى فيها يعانون من سوء المعاملة..."³، كما خصص جانبا كبيرا من رحلته للحديث عن لعادات التقاليد (صوم رمضان، المسرح الشعبي)، ويقول "أن الجزائر قد مارست على أوروبا قوة جذب كبيرة خاصة في القرن 19م، فأيقظت اهتمام الأوروبيين بها، بسبب ثقافتها وتاريخها القديم، كما شكلت مكانا لعلماء أوروبا..."³، فبعد إنشاء الجمعية الإفريقية سنة 1788، بدأ معهد الدراسات الإفريقية ذات الأهداف الإنسانية خاصة محاربة الرق ولم يتسنى للألمان ذلك إلا بعد أن أخذت العلاقات بين أوروبا وشمال إفريقيا شكلا منظما، حيث خضعت دول أوروبا المسيحية إلى دفع أموال مذلة لشراء السلام مع دولة البرابرة،

¹ Ali Tablet, op.cit., pp 23-42.

² رضوان ضاوي، الجزائر في الرؤى الألمانية، صحيفة الرأي اليوم، ديسمبر 2019، (تاريخ الاطلاع على المقال 2022/02/24 الساعة 13:06)

³ أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 88.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

عندها أصبح بإمكان بعض الرحالة مساعدة القناصل المعتمدين زيارة بعض المناطق، غير أن ظروف الرحلة الألمانية أصبحت أكثر ملائمة بعد الإنزال الفرنسي في الجزائر.¹

فرحلة الألمانية ماري فون سفارتس التي أقامت في الجزائر شهرين في رحلة استكشافية، تدخل في إطار المغامرة واكتشاف العجيب، فالجزائر بالنسبة لهذه الرحالة تعتبر عالم جديد يحمل الكثير من ملامح الشرق، كما يدخل في إطار الرحلة العطلة Journey vacation، وهو سفر من أجل المتعة، خاصة بعد أن وفرت أوروبا في منتصف القرن 19م وسائل النقل الحديثة، كما أراد هؤلاء الرحالة مغادرة شتاء ألمانيا البارد والذهاب إلى شمال إفريقيا للاستشفاء والاستجمام وهي صورة مغايرة تماما لما تم توظيفه لدى رحالة الدول الأخرى وفي مقدمتها إسبانيا وفرنسا.²

فقد بذلت ألمانيا في القرن 19م جهدا كبيرا لتوسيع مداركها ومعارفها عن الجزائر وبهذا ساهم الرحالة الألمان على غرار الرحالة الأوروبيين من دول أوروبا في تقديم ملاحظاتهم وانطباعاتهم حول الحياة العامة في هذه الإيالة، وتحسد دورهم أيضا في شكل رحلات علمية من خلال جمع المعلومات المختلفة في جوانب عديدة سياسية، جغرافية، اجتماعية إثنوغرافية...³

ومن أبرز هؤلاء:

– فندلين شلوصر Wendelin Schlosseret :

عاش شلوصر في قصر أحمد باي بصفته مملوكا من مماليكه ما يقارب خمس سنوات، مارس خلالها عدة أعمال، كان آخرها توليه لمنصب المدفعي في جيش أحمد باي، عاد إلى بلاده بعد احتلال قسنطينة مباشرة وأصدر كتابا سنة 1839.

وضع المؤلف عنوان طويلا لمؤلفه، حيث سماه (رحلات البرازيل، والجزائر أو مصائر فندلين شلوصر البومباجي السابق لأحمد باي قسنطينة)، وقسمه إلى جزئين، تحدث في الجزء الأول منه عن حياته في

¹ أبو العبد دودو، المؤرخون الألمان في الجزائر، مجلة الأصالة، المجلد 05، العدد 15/14، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 2012، ص ص 117-118.

² عبد الرحمان بدوي، الأدب الألماني في نصف قرن، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1994، ص 95.

³ رضوان ضاوي، المرجع السابق.

البرازيل ما بين (1827-1829)، أما الجزء الثاني فقد خصصه للحديث عن إقامته في الجزائر، إذ كانت حياته فيها أطول وأكثر تنوعا.

اعترف الكاتب في مقدمة كتابه أنه عاش في الجزائر كواحد من أهاليها لذلك التزم بتقديم صورة أمينة عن حياة سكانها وأخلاقهم، عاداتهم وتقاليدهم، يضيف أن هذه الشهادات تعتبر الأكثر صدقا من ذي قبل مقدما اعتذاره لعدم قدرته على تعلم اللغة العربية رغم الجهود التي بذلها بعض الجزائريين في تلقينه قواعدهم¹، لهذا تميزت معلوماته بالوضوح والبساطة، وصف فيها كل الشخصيات التي صادفها في مدة إقامته في الجزائر، وخصص مساحة كبيرة من كتابه للحديث عن مدينة قسنطينة أيام أحمد باي، والحياة العامة فيها من أفراحها وأحزانها في صوة منهجية وقريبة جدا من الحقيقة التاريخية فهي حسب المؤرخ الجزائري أبو العيد دودو تتطابق بشكل كبير مع المصادر المحلية التي أرخت للمدينة.²

- سيمون بفايفر Simon Pfeiffer:

بعد عودته إلى بلاده اتصل بفايفر بالعالم اللغوي سميث هينر Smith Henner طلب منه كتابة تجاربه وانطباعاته عن البلدان التي زارها منها الجزائر بهدف إطلاع الجمهور، وعندما انتهى بفايفر من كتابه كتب شمييز مقدمة الكتابة منوها بدقة ملاحظات بفايفر وموضوعيته في سرده للأحداث.

صدر كتابه "رحلتي وسنوات أسري الخمس في الجزائر" بمدينة Giessen في جويلية 1832، ثم أصدر بالمدينة نفسها ملحق للكتاب بعنوان وصف ولاية الجزائر وسكانها" سنة 1833، وقد ظل هذا الكتاب مجهولا لدى المؤرخين الفرنسيين لأكثر من عشرين سنة إلى أن اكتشفه أحد العلماء الفرنسيين بمحض الصدفة سنة 1854 وهو A.Michiels وترجم أهم ما جاء فيه ونشره في مجلة Revue

¹ ولد شلوصر في كدينة إيفورت في أسرة فقيرة، فاضطرته ظروفه للتخلي عن دراسته الثانوية والتحق بمدرسة مهنية، التحق بعدها للعمل بأحد المعامل المنجمية، انتقل بعدها إلى منطقة هارتس، أين تعرف على إنجليزي تعاقده معه للعمل في شركته في البرازيل، حيث سافر سنة 1827، عاد إلى ألمانيا سنة 1829 نظرا لصعوبة الوضع هناك، الرغبة في تحسين وضعه الاجتماعي دفعه مرة أخرى إلى مغادرة بلده متوجها إلى فرنسا، وانضم إلى الفرقة الأجنبية المتوجهة إلى الجزائر سنة 1831، وقع بين أيدي رجال المقاومة سنة 1832، واشتراه أحد المرابطين إلى أن استقر به المقام في قصر أحمد باي بقسنطينة، عاصر فترة الاحتلال الفرنسي للمدينة. (فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد، ص 05-06)

² فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 6-7.

contemporaine تحت عنوان "سقوط الجزائر في رواية أحد الأسرى"، أعيد نشره في المجلة الإفريقية سنة 1875-1876، حيث أشار الكاتب لأهمية وروعة المعلومات الواردة في الكتاب.¹

إذ حرص بفايفر على تقديم الحقائق كما سمعها، وشاهدها، وهنا تبرز أهمية مذكرته في تاريخ مرحلة فاصلة من تاريخ الجزائر الحديث وهي أواخر العهد العثماني وبداية الفترة الاستعمارية الفرنسية، إذ لم يغفل الكاتب الألماني من الحديث بإسهاب عن ظروف وملابسات سقوط مدينة الجزائر بأيدي الفرنسيين، والنسخة التي اعتمدها عليها، والتي أشرف على ترجمتها المؤرخ الكبير أبو العيد دودو، مقسمة إلى إحدى عشر فصلا، تحمل كل فصولها معلومات وشهادات قيمة عن إيالة الجزائر في مختلف جوانب الحياة العامة، ولهذا كان علينا قراءة كل تفاصيل الكتاب لاستخراج ملاحظات وانطباعات بفايفر حول الحياة الثقافية في الجزائر.

- فيلهلم شيمبر **Wilhelm Schimper** *

زار الجزائر في شهر ديسمبر سنة 1831 بعد مدة قصيرة من الاحتلال الفرنسي وأقام عشرة أشهر، أصدر كتابا صغير الحجم بعنوان "رحلة فيلهلم شيمبر" إلى الجزائر "831-1832" ثم طبعه في مدينة شتوتغارت عام 1834، تناولت رحلته بين الجزائر وأوروبا، كما يسرد روايات عن بعض الشخصيات العامة التي صاحبها في رحلته، كما خصص جانبا هاما من كتابه عن الحياة الثقافية في الجزائر وبعض العادات والتقاليد السائدة في المدينة مقدما قصص وصفية عن بعض مظاهرها مثل

¹ ولد سيمون بفايفر 9 سبتمبر 1906 بمنطقة رانيس Rheinessen حوالي سنة 1810 منذ صغر سنة شعر بميل شديد لممارسة الجراحة فأقبل على دراسته وأظهر فيه تمكنا كبيرا، كان شغوبا بالرحلة والتنقل فسافر إلى هولندا عند أحد أقاربه أين التحق بالمدرسة البحرية التي كانت تفتح أبوابها للشباب ملاحين، أطباء، طبنا، وفي شهر ديسمبر 1824 صدرت أوامر بمغادرة السفينة ديانا الميناء وعلى متنها بفايفر متوجهة إلى البحر الأبيض المتوسط، نظر لعاصفة بحرية انتهى أمر هذه السفينة في مدينة إزمير التركية، وبعد إقامة قصيرة نزل بمدينة أخرى أورله غير البعيدة، قضى بفايفر معظم وقته في معالجة المرضى والعناية بهم، أثناء هجوم من فرقة إنكشارية انتهى الأمر بفايفر محملا على ظهر سفينة مرفقة مجموعة من العبيد توجهت بهم إلى الجزائر، التحق بقصر الخزانجي وعمل طباحا عنده ثم أصبح طبيبه الخاص، وبقي في هذا المنصب إلى غاية إطلاق سراحه، بعد رحلة أسر طويلة عاد بفايفر إلى بلاده ألمانيا في 16 سبتمبر 1830. (سيمون بفايفر، المقدمة، ص ص 1-5).

* ولقد سنة 1804 من الشخصيات الألمانية التي وصفت بالواقعية والموضوعية والإنسانية في تعاملاته، يعتبر من علماء النبات، حيث كان له إلماما كبيرا بهذا الجانب، قام برحلات علمية قادته لكل من فرنسا، الجزائر، مصر، الجزيرة العربية، في إطار البعثات العلمية التي كانت تشرف عليها الجمعية النباتية ولنجاحه في مهمته أرسل في مهمة أخرى إلى الحبشة، والتي استقر فيها إلى أن توفي سنة 1878. (أبو العيد دودو، ص 13)

الحمامات والمقاهي من خلال تجربته الشخصي في ذلك، كما تحدث عن مظاهر التكافل الاجتماعي بين السكان.¹

مقدما رؤية واضحة ذات نزعة إنسانية في اعتباره للجزائريين شعب لا يختلف عن باقي شعوب العالم فالخير والشر يجتمعان جنبا إلى جنب مثلما هو الحال في أي مكان، بل نجدهم أحيانا تميزهم بخصال حميدة غير موجودة في أوروبا.

وتكمن أهمية رحلة الألماني شيمبز في أنها لم تقتصر على الحواضر الكبرى وعلى مدينة الجزائر مثل دأب اغلب الرحالة الأوروبيين الذين سبقوه، بل انتقل داخل القرى البعيدة، فيقدم صورة عن حياة القبائل العربية.

وما يؤكد طبيعة رحلة العالم الألماني أنها العلمية الاستكشافية بأنه ختمها في النهاية بتقديم توصيات لمواطنيه من الألمان حول الأماكن الآمنة والجديرة بالزيارة، كما تحذروهم بضرورة عدم الالتحاق للخدمة في صفوف القوات الفرنسية لبشاعة ما كان يقوم به الفرنسيون "الأسافل الأذنياء"، الجنود المتوحشين² حسب وصفه، وهو ما يضيف قيمة تاريخية هامة لرحلة العالم الألماني، كمصدر تاريخي ووثيقة هامة تؤرخ للسنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر بنظرة أوروبية بحتة.

- نماذج من كتابات بعض الأسيرات الأوروبيات:

كتبت أولى الروايات النسائية سنة 1735 وهي سنة جد متأخرة إذا ما قورنت بأولى المذكرات التي خلفها الأسرى، الرجال عن تجربة الأسر في شمال إفريقيا، من أبرزهن:

- ماريا مارتن Maria Martin:

نشرت ماريا مارتن Marie Martin* كتابها عام 1811 سردت فيه كل ما عاشته لستة سنوات كأسيرة عند العثمانيين في الجزائر مقدمة وصف للديوان وأمور الحكم والسياسة، الحياة الاقتصادية

¹ أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المرجع السابق، ص ص 08-09.

² حفناوي بعلي، المرجع السابق، ص 215.

* ماريا مارتن ولدت بإنجلترا سنة 1779 من أسرة غنية أرستقراطية وفي سنة 1797 تزوجت من الكابتن هنري مارتن قائد إحدى السفن التابعة لشركة المشرق The levant company، تميزت بشغفها للتجول حول العالم واكتشاف المناطق المجهولة، تعرضت سفينتها للأسر في البحر المتوسط من طرف العثمانيين في رحلتها نحو مايوركا، ونظرا للعاصفة القوية دفعت السفينة إلى الساحل الجزائري يوم 14 أوت 1800، حيث نجى القليل من أفرادها الذين كان عددهم حوالي 100 مسافر، على بعد ثلاثين ميلا عن تنس وتسعين ميلا عن

وجوانب من الحياة الثقافية من عادات وتقاليد المجتمع الذي عاشت بين أفرادها، بينما خصصت جانبا كبيرا من كتابها لقصة أسرها التي تحدثت عنها بالتفصيل سردت فيه كل ما حصل لها بالضبط.

تعتبر رواية ماريا مارتن من الروايات النسائية الأوروبية النادرة التي كتبت عن شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة، والأكثر شهرة وتدخل ضمن سبع روايات أوروبية تعود لنساء مسيحيات عاشوا كأسيرات في شمال إفريقيا خلال هذه الفترة من الحكم العثماني، وهو ما يعطي هذه الرواية قيمة علمية كبيرة جدا.

وبدأت الرواية بالحديث عن ظروف انفصالها عن زوجها ثم بيعها في سوق العبيد، حيث بيعت لروسي اشتغلت عنده في الأعمال المنزلية، قضت ستة سنوات أسيرة في المدينة ليدخل في النهاية القنصل الإنجليزي ويحررها من الأسر، ثم حرر زوجها لاحقا وانضم إليها في إنجلترا.¹

إن الوصف الذي قدمته ماريا مارتن في روايتها كان يصدر من امرأة حاقدة ومحطمة نفسيا خاصة كونها امرأة ارستقراطية غنية انتهى بها الأمر تباع في سوق العبيد في بلد تعتبر مجهولة عنها، كما أن حادثة تحطم السفينة وغرق الكثير من ركبها وتفريقها عن زوجها ترك لديها آلام ومعاناة نفسية كبيرة، وهو ما انعكس على ما كتبت من ملاحظات وانطباعات طغت عليها، روح الكره والمقت الشديد، خاصة عند وصفها للمجتمع الجزائري (سكان مدينة تنس بالتحديد)، إذ يغلب على الرواية عبارات مليئة بالتعصب والكراهية الشديدة حتى في وصفها لأبسط العادات والتقاليد.²

إلا أن ذلك لم يمنع توفر الرواية على معلومة هامة صادرة من امرأة ذات نظرة دقيقة في وصف الكثير من التفاصيل، كما تظهر على روايتها نظرة الاستعلاء الأوروبي عندما تحاول التمييز بين ما

مدينة الجزائر، حيث تعرضت برفقة زوجها إلى الأسر، حيث بيعت في أحد أسواق المدينة للعبيد. (Marie Martin, History of the captivity and suffering of Msr Marie Martin, Boston, printed for W. Cray, 1807)

¹ Jone Londers, Katherine Crowford, White slaves in barbary, thesis submitted to the faculty of the graduate school of vander bilt, university for the degree of Master of Arts N.A shville Tennessee, May 2009, p 17.

² وقد حاولت النساء في رواياتهن إجمالا تصوير المعاناة وإثبات دور المرأة في منافسة الرجل من أجل التضحية والسعي للحرية بالمحافظة على دينها ومعتقداتها.

أطلقت عليه بالبربرية الجزائرية مقابل التحضر الأوروبي فكل تصرفات السكان التي تحدث أمامها تدخل في خانة اللاتحضر.¹

تقع رواية ماريا مارتن في أكثر من تسعين صفحة تعتبر أنموذجا فريدا من كتابات الأوروبيات النادرة حول الجزائر، وإن كانت تحمل الكثير من الذاتية والتعصب، حيث غلب عليها مفردات قاسية أحيانا كثيرة، إلا أنها تعتبر غنية وفريدة في كتابة التاريخ المحلي لمنطقة تنس من وجهة نظر أوروبية، كما أن الهوائية التي طغت على الرواية في الحديث عن السكان أحيانا بذوي الذوق الموسيقي الرفيع العارفين بالفلك تعطىها قيمة تاريخية هامة.

- السيدة براوغتون Broughton:

يعتبر ما كتبه السيدة براوغتون Broughton إحدى المصادر المهمة في تقديم معلومات حول إيالة الجزائر في أواخر العهد العثماني، وهي ابنة السيد هنري ستانفورد براوغتون Henry Stanford Broughton الوكيل والقنصل الإنجليزي في الجزائر (1806-1812)، اعتمدت الكاتبة في إنجاز عملها على مذكرات والدتها اليومية بشكل شبه كلي كما ضم كتابها بعض الصور.

ضمنت هذه المذكرات روايات كثيرة عن الأسرى، وقد صدرت أول طبعة للكتاب سنة 1839 بعنوان "ستة سنوات في الجزائر" "Six years residence" احتوى الكتاب على عدد كبير من الفصول حوالي ثلاثة وعشرون فصلا، وبعده صفحت 413 صفحة.

عرفت هذه المذكرات نجاحا كبيرا خاصة وأنها صادرة عن عائلة القنصل هنري بروغنتون المعروف لدى الأوساط العلمية والخاصة، وبالرغم من أن أغلبها كانت روايات عن حياة الأسرى ودور القنصل البريطاني للاهتمام بشؤونهم في الجزائر، إلا أنها أشارت إلى جوانب من الحياة الثقافية خاصة لعادات والتقاليد، والمنشآت العمرانية في المدينة، كما أنها تعتبر من الكتابات الموضوعية في نقلها للحقائق والمشاهدات والأحداث التي عاشها في الجزائر في أوائل القرن 19م.

يعتبر هذا العمل عبارة عن جمع لمذكرات والدتها وما كانت تكتبه عن المدينة، حيث احتوت على الكثير من التفاصيل حول المجتمع الجزائري من عادات وتقاليد، مواضيع أخرى عن المعاملات القنصلية

¹ Marie Martin, op.cit.

وحكومة الداى في تلك الفترة، وتميز كتابها بإضافتها لذكريات الطفولة في شوارع مدينة الجزائر، لهذا يعتبر من المصادر المهم والمثيرة للدراسة.¹

– لارندا فليتا L'Aranda Valetta (1829-1830):

ولدت بنابولي، سافرت مع شقيقها باتجاه جبل طارق في سبتمبر 1829 لكن سوء الأحوال الجوية أدى إلى تحطم سفينتهم بالقرب من سواحل وهران وقعوا بعدها في الأسر في يد إحدى القبائل البدو الرحل القادمين من مدينة الجزائر متجهين إلى الصحراء، وبعد يومين من وصولهم إلى الصحراء ثم تقسيم مسافري وطاقم السفينة لتفصل فليتا عن أخيها وتسلم لآسرها، حيث كلفت بحلب الجمال وجلب المياه فجرا من الينبوع وجمع الحلزونات، وقد عانت من كثرة الترحال الذي كان يقوم به البدويون بحثا عن المياه وتعرضها للضرب نظرا لتمسكها بتعاليم دينها، وعلى حد تعبيرها قاومت هؤلاء البرابرة "وأمام كل هذا لم يكن يحق الاستياء من تلك المعاملة القاسية وما كان مني سوى الإذعان لهم دون الهمس ولو بكلمة واحدة وهكذا لم يبق إلا الرب الذي دعوته مخلصه لتحريرني من قبضة هؤلاء البرابرة".

وبعد الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830 غادرت القبيلة باتجاه مدينة الجزائر تاركة الأطفال والشيوخ والنساء وحدهم ومعهم فليتا، أثناء ذلك اقترحت فليتا على إحدى القبائل المارة من المنطقة تسليمها إلى الفرنسيين مقابل منحهم الكثير من الذهب كفدية وقد تم ذلك في النهاية.

تكمن أهمية ما كتبه هذه الأسيرة بالرغم من أنها خصصته للحديث عن معاناة الأسر والبربرية الوحشية التي تعرضت لها، إلا أنه يتخلله بعض المعلومات عن الحياة اليومية لدى القبائل البدوية في منطقة الصحراء، والتي تحدثت عنها بكثير من الوصف مما يكسب هذا المصدر قيمة تاريخية هامة لفترة أواخر العهد العثماني في منطقة الصحراء الجزائرية.²

¹ Broughton Elizabeth, Six years residence in Algiers, the mouthly review, vol 2, 1839, p 210.

² Valetta Neopolitan Captive, Interesting narrative of captivity and suffering Miss Viletta Laranda, wreked near Man on the barbary coast, rescued from barbarian bondage by the commender of detached regiment of the Victorious French Army, Henderson, New York, p 1830.

ط- كتابات فرنسية مبكرة لأحد ضباط الحملة الفرنسية على الجزائر 1830:

قدم نقيب الهندسة العسكري في الجيش الفرنسي جون كلود روزيت* رحلته المسماة "رحلة في إيالة الجزائر" "Voyage dans la régence d'Alger" ويبدو أنه اعتمد في كتابه على العديد من الكتابات والمصادر السابقة التي تحدثت عن الجزائر، حيث أسهب في الحديث عن الناحية التاريخية للمنطقة وتكوينها الطبيعي والجغرافي، مناخها، حيواناتها، منتوجاتها.

ثم أعرج للحديث عن السكان وقسمهم إلى فئات مختلفة مخصصا لكل فئة منهم فصلا مطولا تناول فيه الأصل والأوصاف المورفولوجية العادات والتقاليد، السكن، حيث قدم تفاصيل دقيقة ومفصلة في هذه الفصول عن جوانب من حياة السكان الجزائريين وطرق معيشتهم، حيث تميزت رحلته بغزارة في المعلومات التاريخية المقدمة، كما قدم آراء عديدة حول نظام الحكم وخصص جانب للأترك، الإنكشارية والكراغلة، وأسهب في الحديث عن أوصافهم¹.

ينتمي روزيت بصفته ضابط في الهندسة العسكرية إلى المدرسة الوصفية والقارئ لرحلته يجد متعة في التجول بين سطور الكتاب وكأنه يتجول فعلا في مدينة الجزائر، من خلال وصفه الدقيق لشوارعها، منازلها، حدائقها، دروبها، مؤسساتها (السكنات، القصبية، البحرية...)، كما قدم نظرة عن فحوص المدينة بما يحتويه سهل متيجة من منازل ريفية وأشجار فواكه أبدى فيها روزيت إعجابا كبيرا.²

* Claude Antoine Rozet: ولد في 9 جويلية 1798 في منطقة ألبري Alberey ضابط وعالم طبيعة ومستكشف فرنسي، شارك في الحملة الفرنسية في منطقة التل وكان له دور كبير في إعداد خرائط كثيرة ودقيقة للمناطق التي وصلت إليها، كان عضوا بارزا في الجمعية الجيولوجية الفرنسية، كتب رحلته سنة 1833 وصدرت سنة 1850، فخصص في علم الجيولوجيات Géognosie وهو علم يهتم بتكوين الأرض ووصف وتحليل المكونات والمعادن الموجودة في طبقات القشرة الأرضية، ظهر هذا العلم سنة 1776 إلى أن تغير اسمه، تولى روزيه تدريسه في مدرسته العسكرية، توفي سنة 1853، بعد حصوله على وسام الشرف من طرف فرنسا على مشاركاته كعالم وضابط في الجيش الفرنسي. (Numa Broc, Dictionnaire des explorateurs Français du XIX siècle, Tome1, Afrique, CTHS, 1988, p 297-298.

¹ Rozet et Corette, Algérie par M.M Capitaines du René Rozet et Corette, ed Bouslamie, Tunis, pp 1-14.

² Ibid, pp 14-16.

وتظهر القيمة التاريخية لرحلته في تقديم معلومات عن مناطق أخرى مثل القليعة، المدية، وهران، قسنطينة وضواحيها، بونة، وبجاية، حيث خصص عنصرا تاريخيا أسهب في الحديث عن تاريخ كل منطقة منذ أقدم العصور حتى انتهاء العهد العثماني، كما لم يهمل الطريقة التي انضمت إليها الجزائر إلى الدولة العثمانية، في حديثه عن الإخوة بربوس، إلى جانب الحملات العسكرية التي تعرضت لها الجزائر منذ حملة شارلكان 1541 إلى غاية سقوطها في قبضة الجيش الفرنسي 1830.¹

تبقى رحلة الضابط الفرنسي روزيت بالرغم من غناها بالمعلومات التاريخية والجغرافية، إلا أنها كتبت من طرف فرنسي شارك في الحملة على مدينة الجزائر، كما أنها كتبت بمنظور رجل عسكري، بالرغم من ذلك ما كتبه روزيه من إضافات، ومعلومات حول جوانب عديدة كانت من قبل مجهولة والوصف الدقيق في تقديم التفاصيل في المعلومات المقدمة عدت بحق إحدى المصادر الهامة في هذه الرحلة.

2-2- المصادر المغربية حول الجزائر:

تدخل الكتابات المغربية عن الجزائر ضمن أدب الرحلات الذي يقوم أساسا على السرد التاريخي والوصف الجغرافي بتقديم مادة خبرية غزيرة ومتنوعة بأسلوب أدبي رفيع، فلم تكد هذه الرحلات تغفل صغيرة ولا كبيرة إلا وتذكرها ويصفها بدقة متناهية، فقد ورد في رحلات المغاربة الذين زاروا الجزائر وصف مفصل لمختلف المظاهر الطبيعية، التجمعات البشرية، المنشآت العمرانية، وقد شملت أيضا الوصف الحسي والمعنوي لأحوال الناس وترجمة لمشاعرهم وطرق وأساليب عيشتهم.²

كما اهتم الكثير منها على وصف الحياة الثقافية بمختلف جوانبها، حيث اهتمت هذه الرحلات بسرد تراجم، سير الأعلام، وأخبار العلماء، الأولياء، المتصوفة، وحتى الحكام.³

وقد تنوعت مصادر هذه الرحلات بين التجارب الشخصية التي عاشها صاحب الرحلة والمصادر الشفوية، إضافة إلى الاقتباس من المصادر التاريخية، والتي يبدو أن كثرة الاعتماد عليها يدل دلالة واضحة

¹ Rozet et Corette, op.cit., pp 16-32.

² حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة العربية العامة للنشر، ط1، مصر، 1991، ص 132.

³ عبد القادر بكار، المرجع السابق، ص 209.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (16-19م)

على سعة اطلاعهم واهتمامهم البالغ بعلم التاريخ الذي حظي بمكانة خاصة ومميزة لدى الكثير من سلاطين البلاط المغربي.¹

والملاحظ أن الكثير من الكتاب المغاربة قد اعتمدوا في نقل الأحداث على منهج النقد في حديثهم عن الأوضاع السائدة لا سيما الجوانب الثقافية التي شاهدوا مظاهر منها في إيالة الجزائر العثمانية فعبروا في مواضع كثيرة من رحلاتهم عن أسفهم عن تراجع مستوى العلم وعزوف الكثير من الجزائريين عن حلقاته ومجالسه.²

فكان من الضروري تصنيف الكتابات المغربية من الكتابات غير المحلية التي دونت الكثير حول إيالة الجزائر خلال الفترة العثمانية، فقد تضافرت ظروف سياسية وتاريخية فرضها واقع تلك الفترة إلى تجزئة الكيان السياسي والبشري لمنطقة شمال إفريقيا، عندما فرض الأتراك العثمانيون كلمتهم وسياستهم على جزء كبير من هذا الإقليم الذي تحول إلى إيالات (ولايات) عثمانية، في وقت حافظ فيه المغرب الأقصى على كيانه السياسي في ظل قيام أسر محلية استطاعت أن تحمي الثغور المغربية من الاعتداءات الأجنبية بل وكونت كيانات سياسية قوية ومنافسة.³

وقد تعددت دوافع وأسباب زيارات المغاربة للجزائر، كما تعددت دوافع الكتابات التي دونوا عنها، لكن يبدو أن العامل الديني (الرحلة الحجازية لأداء فريضة الحج واعتبار الجزائر محطة عبور)، كان الدافع الرئيسي لهذه الرحلات، أما أهدافها: فكانت الإفادة العلمية بالتعريف بكبار العلماء، وذكر مجالس العلم ومختلف العلوم التي تعلموها خلال هذه الرحلات إضافة إلى التعريف بالمدن والمسالك، والأحوال السياسية السائدة لا سيما في التخوم المجاورة.⁴

¹ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج1، ص 232.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 450..

³ نصر الدين سعيدوني، النظام المالي الجزائري أواخر العهد العثماني (1732-1830)، البصائر الجديدة، للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2012، ص 21-23.

⁴ صادق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر ميلادي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، الجزائر، ع 10، جانفي 2017، ص 437.

ومما لا شك فيه أن وحدة اللغة والمقومات الثقافية والجغرافية قد سهلت على التدوين والكتابة حول جوانب كثيرة عن الحياة الثقافية في الجزائر، بالرغم من أن هذه الكتابات كانت لا يخلو من طابع الولاء، والتقرب من البلاط.¹

ومجمل القول: أننا أدرجنا لهذه الكتابات المغربية كان الغرض الرئيسي منه هو الاعتماد على نوع من التاريخ المقارن الذي يعتبر أساس الكتابات التاريخية الحديثة، بهدف محاولة المقارنة والمقاربة من الحقائق التاريخية، لذلك اعتمدنا على نماذج من هذه الكتابات والتي تحرينا فيها الوصف الدقيق والتصوير الموضوعي للأحداث وكذلك تقديم مادة خبرية جيدة في وصف جوانب الحياة الثقافية في إيالة الجزائر في فترات مختلفة من الوجود العثماني. أبرزهم:

أ- رحلة أبو الحسن التيمقوتي:²

تمثل الدافع الرئيسي لرحلة التيمقوتي لإيالة الجزائر، نظرا لطبيعة العلاقات بين حكومة الأتراك مع المغرب الأقصى، والتي تميزت في أغلب الأحيان بالتوتر، لذلك حاول السلطان السعدي أحمد المنصور كسب ود الأتراك الذين ساهموا في وصوله إلى الحكم فقرر إرسال بعثات دبلوماسية للسلطان العثماني في إسطنبول³، وقد تكررت هذه البعثات في مناسبات عديدة منها بعثة أبو الحسن التيمقوتي الذي أرسل من طرف أحمد المنصور إلى السلطان مراد الثالث (1574-1595)، سنة 1589.⁴

تنقل التيمقوتي بحرا ونزل ببعض المدن الجزائرية استمرت رحلته حوالي ثلاث سنوات، حيث عاد إلى المغرب الأقصى سنة 1591، سجل فيها انطباعاته عن كل ما شاهده في هذه الرحلة في كتاب عنوانه "النفحة المسكية في السفارة التركية" الذي طبع سنة 1829 ثم ترجم على الفرنسية من طرف هنري دي كانزي.

¹ نصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 96.

² هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجزولي التيمقوتي نسبة إلى قرية مقرون بوادي درعة ولد سنة 967هـ/1520م، نال حظا واسعا من التعليم ارتقى به للوصول إلى أعلى المناصب أيام الدولة السعدية، حيث عين كاتباً لأحمد المنصور السعدي (1578-1603م) بفاس، توفي سنة 1003هـ/1595م. (ينظر أبي الحسن التيمقوتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتعليق سليمان الصيد، ط1، جار سلامة للطباعة والنشر، تونس، 1968، ص 03).

³ مصطفى العياشي، صورة مغربية للإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي، التيمقوتي نموذجاً، مجلة الاجتهاد، العدد 44، د.م، 1999، ص 87.

⁴ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، المرجع السابق، ص 16.

قدم التيمقوتي وصفا مفصلا للعديد من المدن الجزائرية وكان لمدينة الجزائر التي مر بها ذهابا وإيابا حضورا كبيرا في رحلته، حيث مكث فيها حوالي شهرين كتب عن كل ما شاهده من مظاهر الحياة الحضرية أواخر القرن السادس عشر ميلادي¹، عنى التيمقوتي عناية خاصة بالعلم والعلماء، فتضمنت قائمة لأبرزهم.²

وبالرغم ما ورد عنه أنه ذلك الرجل الدبلوماسي ذو الوقار والهيبة الذي كان بصدد القيام بمهمة دبلوماسية لتمثيل بلاده لدى السلطان العثماني أكثر من الرحالة الحريص على تدوين كل مشاهداته، إلا أن ظروف رحلة التيمقوتي المريحة عكس الكتابات الأوروبية جعلت ما دونه عن المدن الجزائرية في غاية الأهمية، عكس الكتابات الأوروبية، حيث قدم صورة عن الواقع الاجتماعي والثقافي والوضع السياسي للإيالة أواخر القرن السادس عشر ميلادي.³

وتجدر الإشارة أن التيمقوتي قد تميز بدقة الملاحظة واعتماده على عدد من المصادر التاريخية والجغرافية لإثبات صحة مشاهداته ومروياته.

وقد أشاد أبو القاسم سعد الله برحلة التيمقوتي الذي استغل وجوده بمدينة الجزائر ليلتقي بأبرز علمائها، ويقدم وصفا للحالة الثقافية التي كان عليها البلاد.⁴

فاعتمد مصدرا من مصادر الرحلة التي كان من الضروري الرجوع إليها في هذا البحث.

ب- رحلة العياشي:

هو الشيخ أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، ولد بقبيلة آيت عياش⁵، قرب التانيات (شعبان 1037هـ/1628م)، قال إنه شريفا إدريسيا.

¹ نفسه، ص 23.

² مصطفى العياشي، المرجع السابق، ص 90.

³ نصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص 96.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 440.

⁵ قبيلة بربرية توجد جنوب ميدلت المتاخمة للصحراء من أحواز سجلماسة بالجنوب الشرقي المغربي. (ينظر أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية الحجية الصغرى، تح. عبد الله حمادي، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2013، ص 15).

ينحدر من أسرة علمية فأبوه علم من أعلام المغرب وشيخ زاوية تلقى على يديه العلم منذ صغره، ثم شد الرحال نحو البوادي والحواضر، أهمها واد درعا أين تلقى العلم على يد أكبر مشايخها مُجَّد بن ناصر الدرعي، ثم توجه إلى المشرق أين تلقى العلم على يد علي الأجهوري (ت967هـ/1066م) والشهاب الأفندي (ت1069هـ).

قضى العياشي جل حياته في طلب العلم والترحال إلى أن توفي سنة (1090-1679).¹

عرف بغزارة علمه وصفاء فكان محدثا وصوفيا وعالما، وشاعرا، محنكا، ارتحل للمشرق لأداء فريضة الحج ولطلب العلم مرات عدة كان أولها سنة (1059هـ/1649م) والثانية سنة (1064هـ/1653م) والمرة الثالثة (1073هـ/1664م) وفي حجته الثالثة ألف رحلته الحجازية الشهيرة الموسومة "بماء الموائد"، أو الرحلة العياشبية في مجلدين كبيرين كما تعرف بالرحلة الكبرى²، جمع فيها معلومات في شتى المجالات، كما تضمنت خلاصة تجاربه ورحلاته الثلاثة.

وقد أشاد مولاي بلحميسي بأسلوبه ودقة كتاباته بقوله "رزق العياشي الدقة في الملاحظة والميل إلى الاستطلاع وروح المقارنة، وقد ساعدته منزلته الاجتماعية على كسب المعلومات والأخبار والعثور على ما فات غيره من الكتب والوثائق وقد سجل في رحلته معلومات دقيقة ودون فيها ما لا يوجد في الرحلات الأخرى، من أخبار البلاد والعباد"³، لذلك عدت حلته بمثابة موسوعة في علم الشريعة والتصوف، ومصدرا هاما قدم معلومات غزيرة وقيمة عن وصف الصحراء، السكان، أحوال الناس، الأوضاع السياسية والاجتماعية، وحتى الاقتصادية⁴، فلا نغالي إذ قلنا أنه من أبرز الرحالة المغاربة في تلك الفترة في وصف المسالك، الأقاليم، المدن، الأودية، والشعاب المختلفة التي مر بها من المغرب إلى الحرمين الشريفين مرورا بالحواضر الصحراوية بالجنوب الجزائري واصفا كل مدينة دخلها وتحدث عن أهلها، عاداتهم وتقاليدهم، وما شاع بينهم من أحوال، كما كان أحسن من قدم وصفا دقيقا للمساجد والأضرحة، وخزائن الكتب متعرضا بشيء من التفصيل إلى الكتب التي اطلع عليها وأعجب بها، كما

¹ ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص ص 376-382.

² أبو سالم العياشي، رحلة العياشي الحجية الصغرى، المصدر السابق، ص ص 32-35.

³ مولاي بلحميسي، ورقلة من خلال النصوص الأجنبية، مجلة الأصالة، الجزائر، 1977، ص 20.

⁴ عبد الله بن مُجَّد العياشي، الرحلة العياشبية (1661-1663)، ج1، تحقيق سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار النشر السويدي، الإمارات العربية، ص 135-203.

ذكر الشيوخ الذين التقى بهم في كل مدينة فترجم للبعض منهم¹، كما تضمنت رحلته نصوص كاملة للعديد من الرسائل وبعض الكتب المختصرة المفقودة والإجازات العلمية.²

وفي مجمل القول تعبر رحلة العياشي مصدر هام وقيم من المصادر المغربية التي تعرضت بالوصف الدقيق لجانب من الحياة الثقافية لبعض الحواضر الجزائرية لا سيما الصحراوية منها، كمدينة "وركلا" التي زارها سنة 1663م، مؤكداً في رحلته إلى وجود إمارات محلية تحكم أغلب المناطق الصحراء الجزائرية، وأشار إلى أنه النفوذ العثماني كان فيها شكلياً أو روحياً فقط إذ كانت هذه الإمارات تتمتع بالاستقلالية في تسير شؤونها، إلا أنها لم تسلم من الفوضى واللامن بسبب التنافس على الحكم والزعامة وسط النفوذ، ولقيمتها العلمية اعتمد عليها العديد من المؤرخين الذين نهلوا واقتبسوا منها الكثير أمثال أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (الرحلة الناصرية)، الحسين الورثلاي في رحلته "نزهة الأنظار"، كما أخذ الزباني فقرات ضمناً كتابة "الترجمة الكبرى".

ترجمت الرحلة العياشية إلى الفرنسية سنة 1846، حيث قامت ببروجيه Berbruger بترجمة الأجزاء الخاصة بالجنوب الجزائري، مما أضفى عليها قيمة تاريخية هامة.³

ج- رحلة أحمد بن زاكور الفاسي:⁴

تدخل رحلة ابن زاكور إلى الجزائر سنة 1683م في إطار الرحلة العلمية التي قادته إلى الجزائر، حيث قدم إليها بحراً فجلس إلى عدد من علمائها وأدبائها فأخذ عنهم وحصل على إجازات علمية، ومن أشهر شيوخه محمد بن سعيد المعروف "بقدورة" وغيره ممن ذاع صيتهم وقتها، وقد ذكرهم ابن زاكور

¹ المصدر نفسه، ج1، ص 251-406.

² أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، المصدر السابق، ص 441؛ 487.

³ ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ص ص 378-379.

⁴ هو أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي، ولد بمدينة فاس في بيت عز، علم وجاه، يرجح أنه ولد في الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري أي حوالي 1076هـ/1665م، تميز منذ صغره بذكائه المفرط مما أهله لحضور مجالس العلم لبعض الشيوخ الكبار بمدينة فاس، ثم انتقل إلى مدينة تطوان أين لازم شيوخ من أهل العلم والأدب فأخذ عنهم ظفر بإجازات علمية كثيرة تعددت رحلاته خارج المغرب الأقصى طلباً للعلم، توفي بفاس سنة 1120هـ/1708م تاركاً ورائه آثار علمية قيمة في تى المجالات، خاصة الأدب، اللغة، التراجم وغيرها. (ينظر عبد الله كينون ومحمد تاريت، ثلاث رحلات مغربية ويليه مجموع رحلات جزائرية، تحقيق مصطفى حنيف ومحفوظ بوكراع، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 13) اعتمدنا على النسخة المتوفرة في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (قسنطينة).

في رحلته¹، الموسومة "نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر وأعيان"، التي طبعت بالجزائر سنة 1319هـ/1902م لأول مرة بمطبعة بيبير فونتانة تقع في حوالي تسعة وستين صفحة مع مقدمة في ثلاث صفحات، طبعت أيضا في المغرب الأقصى سنة 1967²، كما قام الأستاذ مولاي بلحميسي سنة 1981 بطبع نصف الكتاب أي الجزء الخاص بالجزائر فقط³.

استهل ابن زاكور رحلته بنص نثري فيه الكثير من البلاغة والسجع تحدث فيه عن قيمة العلم والعلماء ووصف الرحلة بأنها "منة من الله ورحلة تكسب غليظ الطباع غاية الرقة والانطباع وتعقب من كابد لها نصب علما عزيزا وأدبا..."، ثم انتقل إلى وصف مدينة الجزائر، حيث أشاد بجمال المدينة في طبيعتها وهوائها وموقعها الجغرافي وتاريخها الحافل، ليأتي بعدها للحديث عن شيوخه وكل من تعرف عليه وعرف بعلمه وحضر مجلسه وعلى رأسهم أبي حفص عمر بن محمد المانجلاني، وسعيد بن إبراهيم قدورة وغيرهم الكثير ممن ورد ذكرهم في الرحلة، ثم ختم رحلته بأسفه الشديد لمغادرة مدينة الجزائر، والعودة إلى وطنه في أبيات شعرية فيها الكثير من المدح والثناء لذوي الفضل عليه ممن عرفهم⁴.

وعليه تصنف رحلة ابن زاكور من المصادر التاريخية الهامة، التي تحدثت عن مدينة الجزائر في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي عندما قدم فيها قائمة من أسماء الشيوخ والعلماء والعلوم على أخذها في شتى المجالات، كما قدم وصف جغرافي وسرد تاريخي للمناطق التي مر بها⁵، وهو ما يعطينا صورة واضحة عن المستوى الثقافي والعلمي، كما أن الهام في هذه الرحلة أن بن زاكور لم يكن يخضع لأي تأثيرات سياسية أو دينية على اختلاف من زاروا الجزائر من الكثير من المغاربة فقد كان بعيدا عن البلاط والحكم، فكانت رحلته علمية طوعية للتزود والاستجازه على يد علماء الجزائر المعروفين في تلك الفترة، وهو ما يضيف عليها قيمة تاريخية عالية⁶، خاصة وأنه قد نبغ في علوم اللغة، الفقه، والتاريخ، بل ساهم بعلمه في تدريس العديد من الطلبة على رأسهم العلامة ابن حمادوش الذي ذكر في رحلته "ابن زاكور شيخنا، العلامة المحقق، المدقق، الأديب، الشاعر، المتخلق... صاحب التأليف العجيبة

¹ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، المرجع السابق، ص 19.

² عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة، ط1، بيروت، 1997، ص 193.

³ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، المرجع السابق، ص 19.

⁴ عبد الله كنون، المرجع السابق، ص 24-25.

⁵ نصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص 96.

⁶ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، المرجع السابق، ص 20.

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (ق16-19م)

والتصانيف الأنيقة... قرأت عليه شرحه على الخزرجية...¹، وما يدل دلالة واضحة أن العالم لم يأت لطلب العلم فحسب وإنما أيضا لتقديم علمه ومعارفه لانعاش الحياة الثقافية في مدينة الجزائر.

¹ عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تق، تح وتع أبو القاسم سعد الله، موفم الجزائر، 1983، ص 58.

د- رحلة أبو القاسم الزياني:¹

بعد سنوات طويلة في الخدمة في البلاط الملكي، والتنقل والترحال، استقر الزياني في فاس متفرغاً للكتابة والتأليف، لكل ما حمله من تجارب وخبرات من خلال الرحلات الطويلة التي قام بها، وقد قاربت مؤلفاته العشرون مؤلفاً أهمها رحلة الموسومة "الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا وما تخللها من الأمصار، المدن، والقرى، والقفار والبحر والجبال والأنهار والعيون والمعادن والآبار، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار وما يزيد ذلك في تفسير الآثار ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار".²

يعتبر من المصادر التاريخية الهامة التي تحدثت عن الجزائر التي خصص لها حوالي عشرون صفحة، اقام الزياني بمدينة الجزائر خلال سنة 1791، وأشار إلى ذلك في قوله: "...الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان...وتقدس أسماؤه وصفاته...رجوعنا من الحرم الشريف ودخولنا إلى ثغر الجزائر الشهير عن التعريف، وإقامتنا به للمانع الذي حصل...كنت أجمع مع أفراد من الأخيار، وجماعة من العلماء الأحرار وأتفاوض معهم في سيرة سلطانهم الأعظم، الماجد، الأكرم، وحامي بقبضته الإسلام...".³

¹ هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الزياني الفاسي، ينتمي إلى قبيلة زيان البربرية الشهيرة بجبال فازاز الأطلس الأوسط، ولد بفاس سنة 1139هـ/1734م، تفرغ لطلب العلم على يد كبار مشايخ المدينة فأخذ عنهم الفقه، التفسير، النحو، المنطق، كما ورث علم الجدول، التاريخ والنسب والجغرافيا عن جده، ورغم صغر سنه انتقل للخدمة في البلاط الملكي ليعين كاتباً في القصر، فأظهر إتقانه للعمل وتفانيه، الأمر الذي قرّبه من السلطان مولاي محمد بن عبد الله (1757-1790) فأسندت له عدة مهام في إخماد تمرد بعض القبائل الفائرة، تعرض الزياني إلى العزل والتكبييل على يد بعض سلاطين بني مرين ليعود مرة أخرى إلى البلاط في فترة حكم السلطان مولاي سليمان بن محمد (1792-1822)، إلا أن حياة الخدمة في القصر لم تعد تستهويه فقرر التوجه إلى تلمسان ثم تونس وإسطنبول وحج في الركب العثماني، ثم عاد إلى تلمسان ليقرر الاستقرار بها إلا أن السلطان مولاي سليمان دعاه للعودة بعد إعفائه من الخدمة، تفرغ للكتابة بقية حياته، توفي سنة 1229هـ/1835م. (ينظر أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر، 2000، ص 234. مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 20).

² أبو القاسم الزياني، الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991، ص 01.

³ المصدر نفسه، ص 192.

ويبدو أن الزياني قد طلب له المقام في الجزائر، حيث حظي بحفاوة من الاستقبال بعد أن أكرمه أهلها وحاكمها حسن باشا، الذي يبدو أنه أحاطه باستقبال خاص يليق بمقامه ومكانته العلمية والسياسية، لذلك فصل الزياني أثناء أزمته مع السلطان المغربي الاستقرار بشكل نهائي في تلمسان¹.

ذكر الزياني في رحلته في الجزء المخصص للجزائر وصفا للمدينة، العمران المأكولات، كما سجل ملاحظات هامة عن الحياة الثقافية والدينية أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، كما أورد ذكر شخصيات كثيرة من أهل العلم، الذين قد التقى بهم أثناء إقامته في المدينة²، كما تضمنت الرحلة في ثناياها أخبار عن فترة تخلصت فيها البلاد من الوجود الإسباني بعد تحرير وهران التي نزلها عائدا إلى تلمسان، كما زار مدن كثيرة أهمها قسنطينة³.

وفي الجمل يمكن القول إن أغلب الرحلات المغربية لم تكن الجزائر الوجهة المقصودة للكتابة والتأليف وإنما كانت محطة من المحطات العلمية والسياسية وحتى الجغرافية اعتبارها محطة عبور هامة للمغاربة نحو المشرق برا وبحرا إلا أن ما قدمته هذه الرحلات من أخبار يمثل رصيذا معرفيا ثريا وغزيرا تضيف في أدب الرحلة بما يحمله من دقة الوصف سلاسة الأسلوب وثراء المحتوى وهو ما دفعنا للاعتماد عليها كمصادر ذات قيمة عالية لمعرفة طبيعة الحياة الثقافية في الجزائر خلال الفترة العثمانية التي تغير بحق الفترة الأكثر غموضا.

¹ مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 185.

² نفسه، ص 186.

³ نفسه، ص 35.

الفصل الثاني: لمحة عن الأوضاع العامة في الجزائر خلال الفترة العثمانية

1- الأوضاع السياسية الفكرية للجزائر مطلع القرن السادس عشر ميلادي

أ- ظهور الإخوة بربروس على مسرح الأحداث

ب- تجنيد الإنكشارية في الجزائر

2- إعلان الجزائر إيالة عثمانية

أ- طبيعة الحكم السياسي العثماني

- سياسة القسوة والظلم

- سياسة التفرقة بين الأهالي

- سياسة التهميش

- إرهاب الجزائريين بالضرائب

ب- ردة فعل الجزائريين (حركة التمرد والثورة)

3- الأوضاع الاجتماعية

أ- تركيبة المجتمع الجزائري

ب- نظرة حول الوضع الديمغرافي والصحي في الإيالة

1- الأوضاع السياسية الفكرية للجزائر مطلع القرن السادس عشر ميلادي

كانت الجزائر تعيش أوضاعا صعبة على جميع الجبهات، منها الصراع القائم بين القوى السياسية المنقسمة على نفسها وبين نفوذ القوى المحلية ذات الطابع القبلي والديني فقد عمت ظاهرة الانحطاط والتفكك السياسي والفوضى في كل هذه المناطق، مما فتح المجال لظهور قوتين جديدتين في الضفة الغربية من حوض البحر المتوسط، تمثلتا في إسبانيا المسيحية والدولة العثمانية الرافعة لراية الخلافة الإسلامية¹، وكانت رغبة الانتقام والتعصب الديني السمتان المميزتان لنشر المسيحية وزحزحة حدود الإسلام، وهذا ما دفع بالإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وطيلة القرن السادس عشر الميلادي إلى السيطرة على منطقة شمال إفريقيا.²

وفي هذا الإطار تعرضت لمدن الساحلية الجزائرية للاحتلال الإسباني في فترة زمنية وجيزة امتدت بين 1505 و1511 فضلا عن باقي الموانئ في المغرب الأدنى والأقصى، التي تعرضت إلى نفس لمصير من طرف الاحتلال البرتغالي.³

أدت في النهاية هذه الأوضاع المتردية والفوضى السياسية العارمة إلى تزايد الأطماع الصليبية، وهو ما نلمسه بوضوح فيما كتبه فرناندو دي زافرا الذي كان كاتباً بالبلاط الإسباني مكلفاً بحراسة شواطئ إسبانيا ومراقبة حركة الأندلسيين المتوجهين إلى بلاد المغرب ي أعقاب إجراءات الطرد "إن بلاد المغرب بأكملها تجتاز حالة انهيار نفسي، يظهر معها أن الله قد أراد منحها لصاحب الجلالة..."⁴.

ومن الذرائع التي ذكرتها الكتابات الغربية ذريعة محاربة نشاط البحارة المسلمين، خاصة بعد التحاق عدد كبير من مهاجرين الأندلس الذين كانت لديهم دراية ومعرفة جيدة بالسواحل الإسبانية⁵،

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص ص 23-24.

² Fernand Braudel, Les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577, in R.A, N° 49, 1928, pp 198-199.

³ H. Kleun, Feuilletts d'El Djazair, L. Chaix, Alger, 1937, p 107.

⁴ Charles André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe à 1830, 2 ème éd, Suède, 1978, Alger, p 250.

⁵ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة عام سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 69.

وإذا كانت متعددة ومتداخلة بين الديني والسياسي فإن طموح إسبانيا في تكوين إمبراطورية بعد نشوة الانتصار على المسلمين في غرناطة وتزعمها لحركة الكشوفات الجغرافية أمر لا يمكن إغفاله.

كانت أول نقطة احتلها الإسبان بالمغرب الأوسط هي المرسى الكبير عام 1505م، والذي كانت له أهمية بالغة منذ زمن بعيد نظرا لأهميته الاستراتيجية فقد سماه الرومان المرسى الرباني¹، وبعد سنتين من احتلاله حاولت إسبانيا التوغل نحو الداخل فوجهت حملة عسكرية إلى منطقة مسرغين يوم 06 جوان 1507 لكنها منيت بهزيمة نكراء، فوجه الإسبان أنظارهم نحو الساحل الشرقي، حيث احتلوا بجاية في 05 جانفي 1510، أما مدينة الجزائر فقد توجه حاكمها "سالم التومي" في 31 ماي 1510 إلى بجاية ووافق على تسليم إسبانيا إحدى الجزر، وأكبرها وهي التي بنوا عليها ما اشتهر بحصن البنيون سنة 1511 بالقرب من مدينة الجزائر، إضافة إلى الالتزام بدفع ضريبة الولاء، هذا وذهبت بعض الروايات إلى القول أن القائد الإسباني "بيدرو نافارو" قد اشترط على سالم التومي التوجه إلى إسبانيا لإعلان فروض الطاعة والولاء والالتزام بتغيير شروط المعاهدة أمام الملك الإسباني².

ثم أعلنت كل من دلس ومستغانم ولائهما والتزامهما بدفع ضريبة الولاء لإسبانيا عام 1511، وهكذا استطاعت إسبانيا في ظرف وجيز من تطويق الساحل الجزائري عن طريق احتلالها لنقاط استراتيجية، مما ساعدها على إحكام قبضتها على الجزائر من جهة وقطع الطريق أمام الأندلسيين الفارين من جهة أخرى³.

¹ أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 69.

² Charle Fearud, Lettre arabe e l'époque de l'occupation Espagnole en Afrique (16-1574), in R.A, N° 20, 1873, pp 313-314.

³ Chevalier Corine, Les trente première années de l'état d'Alger (1510-1541), O.P.U, Alger, 1986, p 34.

أ- ظهور الإخوة بربروس (عروج وخير الدين) على مسرح الأحداث:

ذاعت أصداء الإخوة بربروس* في الحوض الغربي للمتوسط من خلال مساعدة البحارة العثمانيين لمهاجري الأندلس عقب سقوط غرناطة عام 1492، آخر معاقل المسلمين هناك¹، وفي عام 1512 شكل علماء وأعيان بجاية وفدا لمقابلة عروج ليطلبوا منه إنقاذ المدينة واسترجاعها من الإسبان على إثره لبي الإخوة النداء وساروا على رأس جيش لمحاصرة بجاية إلا أنهم أرغموا على التراجع والعودة إلى خلف الوادي بتونس بعد أن فقد عروج ذراعه أثناء المعركة مع الإسبان، ورغم فشل المحاولة وإلا أنها فرصة فتحت المجال لبداية توحيد الجهود بين سكان المغرب الأوسط والإخوة بربروس فمن حلق الوادي قرر الإخوة الانتقال إلى جيجل وأزاحا منها تجار جنوة المستقرين هناك، وحولوها لقاعدة لانطلاق حملاتهم ضد الإسبان منذ 1513، وبعد فشل محاولة الإخوة بربروس الثانية لتحرير بجاية، قرروا في 23 جانفي 1516 مستغلين انشغال إسبانيا بوفاة ملكها فرديناند الكاثوليكي وتوجهوا على رأس قوة عسكرية تضم 16 سفينة صغيرة (غليوطة) تحمل خمسمائة رجل مسلح، بالإضافة إلى قوة برية انطلقت من جيجل قوامها ثلاثة آلاف جندي، نحو مدينة الجزائر محققين انتصارات كبيرة على الإسبان²، الذين تواصلت هزائمهم أمام قوة العثمانيين الذين استنجد بهم سكان تلمسان فاستولى عروج على قلعة المشور وعين أميرا على المدينة، وهو ما أثار غضب إسبانيا التي وجهت من وهران قوة عسكرية قوامها 10 آلاف

* يذكر هايدو أن والد الإخوة بربروس مسيحي يدعى يعقوب كان فقيرا وكثير الأولاد فقرر الأولاد الثلاثة (خير الدين، عروج، إسحاق) التخفيف عن العائلة والذهاب في مغامرة كقرصنة في البحار، ستقروا على رأس أربع سفن في تونس سنة 1504، وكانوا يجوبون البحر بالقرب من السواحل الإيطالية يقومون بالسلب والنهب. (Diego De Haydo, Topographie, op-cit, pp 11-12)، ويعتبر من بين القضايا الهامة التي أثارها الكتابات الأجنبية والمرتبطة بالجانب السياسي، الفترة المتعلقة بكيفية استيلاء الإخوة بربروس على الحكم في الجزائر، ففي حين تؤكد المصادر المحلية أن قدوم عروج وخير الدين بربروس إلى الجزائر كان بعد طلب قدمه سكانها إليهما لما كانا بمدينة جيجل لتخليصهم من الوجود الإسباني في إطار التصدي للحملات والتحرشات الصليبية على المنطقة، حيث كانا يتمركزان في قلعة الصخر (Pénon) منذ 1511، فإن أغلب المصادر الأجنبية تؤكد على أن الوجود العثماني في الجزائر كان عن طريق القوة والسيطرة كما كان الحال في البلاد الإسلامية، أي عكس الكتابات المحلية التي أكدت رواية الاستنجد وطلب الإلحاق، يفصل لوجي دوتاسي (Laugier de Tassy) في الدافع الحقيقي الذي جعل روج يقدم على قتل سالم التومي حاكم مدينة الجزائر، وذلك في رواية عن خنقه في حمامه، فيحصر الدافع الحقيقي في إعجاب عروج "بزيفة" زوجة ابن التومي فقرر التخلص منه حتى يتمكن من الزواج منها، غير أن هذه الأخيرة فضلت تجرع السم والموت على الزواج منه، فإن المصادر المحلية تكاد تجمع أن مقتل سالم التومي وما قام به عروج يعود إلى اتصاله بالإسبان وتأمره معهم ضد الإخوة بربروس لطردهما من المدينة، وهو ما أكده أحمد توفيق المدني، بوجود وثيقة موجودة في أرشيف سمانكس بإسبانيا تؤكد هذه الرواية. (أنظر Laugier de Tassy, Histoire de royaume d'Alger 1724, Edition Laysel, Paris, 1992, p 22.)

¹ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 36.

² Chevalier Corine, op.cit., p 34.

جندي لاسترجاع تلمسان وإعادة تنصيب أبي حمو الثالث المتعاون معهم¹، فضربوا على المدينة حصارا دام ستة أشهر واستشهد على إثرها عروج في إحدى المعارك التي دارت بين الطرفين.

- انضمام الجزائر للدولة العثمانية:

أدرك خير الدين بربروس نفسه بعد استشهاد أخيه في موقف صعب للغاية فالأعداء كانوا يحيطونه من كل جانب، فقد كان الحفصيين يتربصون به من الشرق وبقايا الزيانيين بتلمسان وحلفائهم الإسبان وهران، كما واجه نقصا في السلاح والعتاد، وفي ذلك ذكر صاحب الغزوات أثناء تدوينه للحوار الذي دار بين خير الدين بربروس وأعيان مدينة الجزائر قائلا: "...أنا بقيت في بلادكم منفردا غريبا لا ناصر لي ولا معين وقد رأيتم ما وقع من سلطان تلمسان ما أجلب به علينا من النصارى..."².

ولا ريب أن الوضع الصعب قد دفع بخير الدين الاستعانة بالقوة العثمانية التي كانت في أوج توسعها بعد فتح القسطنطينية عام 1453م، كما توالى انتصارات الجيش العثماني على الفرس وعلى المماليك في سوريا ومصر ونظرا لذلك وجه أعيان مدينة الجزائر رسالة إلى السلطان سليم الأول يناشدونه فيها بالحماية والانضمام إلى الخلافة العثمانية وهي أول رسالة تؤرخ لبداية العلاقات بين الطرفين³، فسارع السلطان العثماني منح رتبة بايلرباي لخير الدين أي أمير للأمرء وهي رتبة تحول صاحبها اختصاصات إدارية وسياسة واسعة، كما تجعله قائدا أعلى للقوات العسكرية في إقليمه وممثلا للسلطان العثماني، كما زوده بألفين جندي إنكشاري وعدد من المدافع والذخيرة.

ب- تجنيد الإنكشارية* في الجزائر خلال القرن 16م:

أرغمت الضرورة العسكرية واتساع حركة الجهاد والتصدي للأخطار الخارجية خاصة الخطر الإسباني على إيالة الجزائر إلى الاهتمام بجمع المجندين من أنحاء الدولة العثمانية، وكانت ترسل لهذا

¹ Chevalier Corine, op.cit., p 35.

² مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 44.

³ عبد الجليل التميمي، رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول سنة 1519م، المجلة التاريخية المغربية، العدد 06، تونس، جويلية 1476، ص ص 119-120.

* بالتركية يكيچري بمعنى الجند الجدد، وهم فرقة من المشاة كونها السلطان أورخان (ت 1326) تحت رعاية الحاج بكتاش. للمزيد أنظر دائرة المعارف الإسلامية، ط1، بيروت، مج3، مادة الإنكشارية.

الغرض أفراد يطلق عليهم الدائيات وهم من إنكشارية الجزائر، وكان هؤلاء يطلق عليهم الدوشرمة** في "خان" وهو عبارة عن مبنى يتكون من اثنين وثلاثون غرفة مقره مدينة إزمير، حيث يتم فيه جمع المتطوعين في انتظار نقلهم إلى الجزائر.

أما بخصوص الطرق المعتمدة في التجنيد فإلى جانب البعثات الرسمية التي كانت تتكون من مجموعة من الموظفين الأتراك العثمانيين يرأسها ضابط سامي، اعتمد كذلك على بعض الوكلاء المستقرين بسواحل آسيا الصغرى وبعض جزر بحر إيجه، الأكيد أن عمليات التجنيد كانت تكلف خزينة الجزائر الكثير من الأموال تشمل النفقات على الجنود المقيمين في الخان ودفع مرتبات الدائيات المشرقين على عملية التجنيد، بالإضافة إلى الهدايا الموجهة إلى الموظفين السامين في الدولة العثمانية، حكام الأقاليم الذين ساهموا في تسهيل العملية.

فلم يكن يسمح لباش داي لجزائر تنظيم العملية دون الحصول على تسريح من الباب العالي، قبل أن يرفع تقرير إلى القبودان باشا يوضح فيه الوضع العسكري بالإيالة والحاجة الماسة للمجندين وبعد الحصول على موافقة السلطان يرسل الأمر إلى مدينة إزمير لسماح بإقامة خيمة للتجنيد، ويقوم الوكلاء بدعوة الشباب من مختلف المقاطعات العثمانية للانضمام إليهم مقابل إغراءات مالية ووضع اجتماعي يليق بذلك¹، وعند وصول المجند إلى الجزائر يقوم المقطعجي بتولي مهمة ضبط اسم المجند واسم أبيه وموطنه الأصلي والحرفة، التي يمارسها ورقم الوجود الذي ينتسب إليه²، والثكنة التي يقيم فيها ويصم على الوجه الخلفي من ذراعه الأيسر برقم حجرته³، ثم يوزعون على الوجودات التي كان عددها حوالي 424 وجقا، ويتلقى المجند الجديد مبادئ عهد الأمان التي تقوم عليها العقيدة البكداشية التي على أساسها اختاروا العمل العسكري وكرسوا حياتهم لأجله⁴.

** الدوشرمة كلمة يونانية تعني جمع الغلمان بين 10-15 سنة الذين يتم إلحاقهم بالإنكشارية أو في خدمة القصور. (أنظر دائرة المعارف الإسلامية، مج1، ص319).

¹ حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2007، ص 200.

² P. Boyer, Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger, Revue de l'occident musulman et la méditerranée, N° spéciale, 1970, p 127.

³ Venture de Paradis, op.cit., p

⁴ N. Weissman, Les janissaires étude de l'organisation militaire des Ottomans, thèse pour le doctorat, présenté à la faculté de lettre, Paris, 1983, p 13.

اعتمد خير الدين ** بربروس الذي يعتبر مؤسس الحكم العثماني في الجزائر بعد استشهاد أخيه عروج*، على فرق من الإنكشارية وفرق خاصة من الجزائريين بلغ عددها ثمانية آلاف وجهها خاصة للخدمة في البحر، كما اعتمد على فرق من الإنكشارية لاستتباب الأمن الداخلي بين القبائل.¹

وإلى جانب هؤلاء اعتمد العثمانيون على عبيد من المتطوعين من خارج الإيالة أي من الأقاليم المختلفة للإمبراطورية، وبالرجوع إلى المصادر الأجنبية نجد أنها تعطينا أوصافاً لهؤلاء المتطوعين، إذ تكاد تجمع كلها على أنهم ينتمون إلى أدنى الفئات الاجتماعية في بلدانهم الأصلية وأنهم من ذوي الأخلاق السيئة والسوابق²، فيذكر دوهايدو De Haydo أن معظمهم كانوا من المتسولين واللصوص قدموا إلى الجزائر طمعا في جمع الثروة، فشبهم بالإسبان الذين ذهبوا إلى الهند في فترة الكشوفات الجغرافية لنفس لغاية.³

وبذلك أصبحت الجزائر توفر ملجأ آمناً ومصدراً للثراء وجمع الأموال للمغامرين، المجرمين الوافدين من كل أنحاء الإمبراطورية (من أوروبا إلى أواسط آسيا)⁴، كما سمح السلطان سليمان القانوني (1520-1566) لخير الدين بربروس حق التجنيد في مناطق الأناضول ابتداءً من سنة 1525⁵، ومنذ ذلك التاريخ أصبح للجزائر وكالات خاصة منها خان إزمير يقيم فيه الموظفون المشرفون على جمع المتطوعين

** اسمه الحقيقي لخضر (1472-1543) اشتهر بلقب بربروس ذو اللحية الحمراء (الشرقاء) أطلق عليه السلطان سليم الأول خير الدين، وقد ذكر توفيق المدني أن اسمه الحقيقي هو خسروق وأن أهل الأندلس هم من أطلقوا عليه اسم خير الدين. (توفيق المدني، المرجع السابق، ص 152).

* بايع أهالي الجزائر عروج واسمه الحقيقي أروج Urug ويقراً أورتس كذلك لأنه ولد ليلة الإسراء والمعراج، حسب ما ذكره توفيق المدني، ص 160. وقد تمكن عروج من تحرير كل من مستغمام، دلس، وتنس، تمكن من بسط نفوذه على شرق ووسط البلاد، فقرر التوجه غرباً على رأس قوة دخل بها تلمسان وهزم السلطان الزياني الذي قام بإعدامه، ثم واجه عروج الإسبان ونظراً لاستحالة المقاومة انسحبت القوات العثمانية من تلمسان فأدركتهم فرقة إسبانية أين قتل عروج ومن معه بمكان يسمى بني يزناش. (مؤلف مجهول، غزوات خير الدين وعروج، نص تح نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934، ص ص 31-34)

¹ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص ص 34-35.

² وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 34.

³ De Haydo, Histoire des rois d'Alger, R.A.F, 1880, p 238.

⁴ Fisher, Sir Godfrey, Légende Barbaresque, guerre, commerce et piraterie en Afrique du Nord de 1415-1830, Traduit par Helbal Farido, O.P.U, Alger, 1991, p 101.

⁵ De Haydo, op.cit., p 07.

وإرسالهم إلى الجزائر وكانوا يعرفون "بالدائيات" يرأسهم باش دائي كما كان لها موكل بميناء إزمير بالأناضول.¹

وفي ذلك ذكر فونتور دو بارادي *Venture de paradis* أنه كان يتم تسجيل المتطوعين من شباب المنطقة، بعد أن تقدم لهم كل المغريات المادية والمعنوية للالتحاق بالعمل العسكري في إيالة الجزائر، "جزائر الغرب" أو "دار الجهاد"، وعلى رأس هذه المغريات جمع الثروات الطائلة والوصول إلى المناصب العليا في الدولة.²

ويبدو بحسب ما ذكره حمدان بن عثمان خوجة أن التجنيد في صفوف الإنكشارية كان في البداية يتم بين الشجعان والمستقيمين أخلاقيا، ليصبح بعد فترة يتم بجمع المشردين، المجرمين الفارين من العدالة، ويعد ذلك سببا انحطاط حكومة الجزائر إلى مستوى هذه النوعية من المجندين قائلا: "كان من أسباب انحطاطها إرسال مندوبين إلى إزمير يجمعون الأجناد وبدل من أن يتبع هؤلاء الطريقة القديمة التي لم تكن تسمح بأن تجند الميليشيا إلا الرجال النزهاء. الذين لهم جاه ومكانة، فإنهم كانوا يفتحون أبواب الميليشيا لأيا كان حتى أناس كانوا قد أدبوا وأدينوا، ومنهم يهود ويونانيين ختنوا أنفسهم".³

ويبدو أن الباب العالي نفسه كان يشجع على ذلك بإبعاد العناصر المنحرفة للمحافظة على الأمن وهو ما عبرت عنه عريضة بتاريخ (1219هـ/1804م) تحث على إرسال أشقياء يتراوح عددهم بين 40 و50 شقي تسببوا في أحداث شغب بقرية ذو منجي بجزيرة قبرص، للجهاد بإيالة الجزائر، وما جاء في العريضة "إن الشيء الذي نلاحظه بشأن هؤلاء الأشقياء الذين استحقوا اشد الجزاء من الدولة العليا لارتكابهم أعمالا تبرر ذلك أن يبعد هؤلاء من أوطانهم وأهلبيهم ويرسلوا إلى أوجات جزائر الغرب... من أجل الجهاد في سبيل الدين والدولة...".⁴

¹ Devoulx Albert, Recherche sur la coopération de la régence d'Alger, a la guerre d'indépendance, R.A, 1856-1857, p 209.

² *Venture de Paradis, Tunis et Alger au XVIII siècle*, sindibed, Paris, 1983, p 160.

³ حمدان خوجة، المرأة، تعريب محمد العربي الزيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 149.

⁴ جميلة معاشي، الإنكشارية والمجتمع ببيلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011، ص 25.

والجدير بالملاحظة فقد وصف ديفلوكس Devoulx في مقال نشره في المجلة الإفريقية وجود الإنكشارية بالجزائر "لقد تميز قدوم هؤلاء العساكر بعدم الانضباط وإثارة الفوضى، ومنذ بداية الأيام الأولى ظهرت بوادر ثورات ويتصف هؤلاء الإنكشارية بالوحشية التي سوف تتطور فيما بعد، ففي سنة كانت أول ثورة لهؤلاء..."¹.

2- إعلان الجزائر إيالة عثمانية:

بعد الانتصارات التي حققها الإخوة بربروس على الإسبان، والمكانة الكبيرة التي حظوا بها لدى سكان الجزائر، استطاع خير الدين بعد وفاة أخيه عروج سنة 1518م أن ينشئ إيالة الجزائر²، واحتفاءً بذلك راسل السلطان العثماني سليم الأول طالبا منه المساعدة، وموضحا له أهمية المنطقة كقاعدة إسلامية للقتال ضد المسيحيين³، اتفق خير الدين مع القبائل على أداء الطاعة للسلطان العثماني⁴.

وبعد فرمان الإلحاق كرس خير الدين جهوده في بناء الأسس الدينية والسياسية لهذه الإيالة، حيث صك العملة باسم السلطان العثماني سنة 1520، كما ركز السلطة السياسية في يد البيلرباي، والاعتماد كلياً على الإنكشارية وجمع فرق خاصة بلغت ثمانية آلاف من السكان الأصليين ومن الأسرى الأوروبيين، وألحق معظمهم بخدمة البحر، ثم بدأ في بسط نفوذه نحو الداخل معتمداً على فرق الإنكشارية⁵، ونظراً للجهود الكبيرة التي كرسها العثمانيون في بناء أسطول قوي يمكن البلبرايات من القضاء النهائي على الأطماع الإسبانية، لذلك سقطت صخرة البنيون (Pénon)* سنة 1529، التي بناها الإسبان سنة 1511⁶.

¹ Devoulx Albert, La premier révolte des janissaires Alger, R.AF, N°15, 1871, p p 1-2.

² Auguste Charbonneau, Inscription arabes de la province de Constantine, annuaire archéologique de Constantine, 1856-1857, p 101.

³ عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص ص 119-120.

⁴ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 44.

⁵ Chevalier Corine, op.cit., p 35.

* يذكر هايديو أن عملية تدمير القلعة استغرق خمسة عشر يوماً وفي اليوم السادس عشر هاجم خير الدين بربروس على رأس 14 سفينة على متنها 12 ألف مقاتل من الأتراك، وبعد الانتصار وتدمير القلعة، استخدمت الحجارة لبناء الميناء، وقد أوكلت العملية لآلاف الأسرى المسيحيين، حيث ربط هذا المكان بالمدينة وقد تم ذلك خلال شهرين. De Haydo, op.cit, p 49.

⁶ Devoulx (A), Reçue Africaine La marine de la régence d'Alger, Rais, Challamiae Aine édition, 1869, p 8.

والجدير بالذكر أن المرحلة الأولى من الحكم العثماني لإيالة الجزائر تميزت بنوع من الاستقرار السياسي والعسكري، إذ تمكن البلربايات من كسب ود السكان، كما وجهوا جهودهم وحملوا على عاتقهم تحرير البلاد من الاحتلال المسيحي الصليبي، وهو ما أكسبهم ثقة السكان ورجال الدين والطرق الصوفية.¹

كما تم تقسيم البلاد على الطراز العثماني إلى ثلاث سناجق أو ولايات وهي:

دار السلطان: العاصمة السياسية تحدها الولايات الشرقية، الغربية والوسطى يحكمها الباشا العثماني تساعده قوة من الإنكشارية وقد حددت حدود الإيالة من وجدة على مجرى واد الملوية غربا إلى أقصى شرقي بلاد القبائل والونشريس وإلى حدود الصحراء جنوبا²، وتشير أغلب الدراسات أن العثمانيون لم يتمكنوا من فرض هيمنتهم الفعلية إلا على سدس البلاد، بينما سيطرت القبائل والأسر المحلية مثل قبيلة زناتة (بلاد الشاوية والزاب)، أسرة بوعكاز على الحضنة وبلاد تقرت وبني جلاب³، بينما ورد في تحفة الزائر أن السلطة العثمانية، قد امتدت إلى بلاد الزاب متوغلة في الصحراء، حيث أن ثبت أن صالح ريس* قد بعث بطواير عسكرية سنة 1552 إلى واحات ورقلة وتقرت داخل الصحراء.⁴

وقد تحدثت الكثير من المصادر الأجنبية عن نظام الحكم الذي أسسه الأتراك العثمانيون في الجزائر منذ 1518 فيقول بانتي "إن سكان الجزائر كانوا تحت قبضة من حديد لحكومة عسكرية وأسياد غرباء يتصفون بالنفاق والخداع القسوة ولا يملكون ذرة شرف أو كرامة..."⁵، ومن جهته أشار دوهايدو أيضا أن "الأتراك قد عاملوا السكان وكأنهم عبيد، حيث تعرض هؤلاء إلى السلب والنهب

¹ Marcel Boudin, Notes et questions sur sidi Ahmed ben Youcef, R.A.F, N°66, A) K Alger, 1925, p p 181-182.

² أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري فعالياته خلال العهد العثماني (1519-1830)، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010، ص 42.

³ أحمد بن سحنون الراشدي، الشعر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح المهددي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، 1973، ص 200. * تذكر بعض المصادر أنه من أصل غربي نشأ عند الأتراك، شارك أثناء دخول الأتراك لمصر ثم سافر إلى تركيا والمغرب، كان له دور كبير في اتساع رقعة البلاد، حيث وصلت أقصى اتساعها في عهده حيث وصلت توسعته إلى ورقلة للمزيد أنظر ناصر الدين سعيدوني، ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني، مجلة الأصالة، ع 11، منشورات وزارة الشؤون الدينية، تلمسان، 2011، ص 2.

⁴ محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ح1، ط1، شرح وتعليق ممدوح، دار البيقطة العربية للتأليف والترجمة والنشر، الجزائر، 1964، ص 47.

⁵ F. Pananti, Relation d'un séjour à Alger, Trad de l'Anglais par Anonyme, imprimerie de la normant, Paris, p 409.

وسوء المعاملة لتكبر الأتراك وغرورهم المعروف، لدرجة أن سكان الجزائر تمنوا الخضوع للمسيحيين...¹.

وإن كانت نظرة الأوروبيين لحكومة الأتراك في الجزائر تحمل الكثير من المعلومات الصحيحة، إلا أن هذا لم يمنع وجود حكام عرفوا بالنزاهة وحسن التصرف، كما حققوا إنجازات وانتصارات جعلت إيالة الجزائر مهابة الجانب بين جيرانها وفي حوض البحر الأبيض المتوسط يحسب لها ألف حساب.²

وقد أشار دوهايدو عند حديثه عن "ملوك الجزائر" إلى الكثير منهم أمثال حسن باشا (1562-1567) الذي حكم الأيالة ثلاث فترات فبالرغم من كثرة أعدائه ومنافسيه كثرة الوشايات عنه لدى السلطان العثماني إلا أن هذا الأخير عينه سنة 1562 لحكم الإيالة لفترة ثلاثة وعند وصوله إلى الجزائر، يصف هايدو ذلك قائلاً: "وصل إلى مدينة الجزائر في سبتمبر 1562 وقد أفرح وصوله الجميع، فحتى نساء المدينة اللواتي لا تخرجن أبداً من بيوتهن، ظهرن على أسقف المنازل وهن يهتفن بالزغاريد والترحيب..."، وقد استطاع حسن باشا في فترة قصيرة انعاش الحياة الاقتصادية، وبدأت أسواق المدينة تعج بمختلف السلع والبضائع، كما أعاد النظام، حيث كان محبوباً من طرف أفراد الديوان، القيادة والانكشارية، وكون قوة عسكرية كبيرة حاول على رأسها تحرير المرسى الكبير ووهران من الإسبان.³

وأشارت مصادر أجنبية أخرى إلى فترة الدايات لاسيما لفترة الممتدة ما بين (1711-1830) وهي بداية فترة الاستقلالية التامة للجزائر عن الدولة العثمانية عندما منع الداوي "علي شاش" نزول إبراهيم باشا "مبعوث السلطان في ميناء الجزائر، بحجة إثارة الفتنة والفوضى في المدينة."⁴

¹ Diego de Haydo, Les rois d'Alger, op.cit., p p 136-137.

² أرزقي شوبنام، المرجع السابق، ص 39.

³ Diego de Haydo, Les rois d'Alger, op.cit., p p 136-137.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ص 161.

وتم تجسيد مبدأ الانتخاب في اختيار حاكم الإيالة الذي يراعى فيه الكفاءة في غالب الأحيان¹، غير أن دوطاسي أشار في معظم حديثه عن هذه الفترة إلى الأحداث الدموية وكثرة الاغتيالات لعل أبرزها اغتيال ست دايات في يوم واحد.²

وفي سياق آخر تحدث فوتور دوباراي عن الإنجازات التي حققتها بعض هؤلاء الدايات مشيراً إلى المكانة، الأخلاق التي حظي بها الداوي محمد بن عثمان (1791-766)³، الذي وجه الثروة* التي جمعها في تشييد المسجد المقابل لقصره أين كان يذهب لإقامة صلاة الجمعة، كما شيد القلاع الحصون لحماية مرسى الجزائر، وساهم من ماله الخاص في تحصين المدينة ببلغ مائتي ألف محبوب، كما رفض عرض الديوان إعادة أمواله قائلًا: "أنه لا يحتاج شيئاً وأنه سيتك بعد موته للخزينة جميع ما يملك فالأولى أنه يسلمه وهو على قيد الحياة..."⁴.

وفي ذات السياق أشار فاليار Vallière أن "شؤون الإيالة في فترة حكم الدايات كانت تتم بكفاءة عالية، حيث يعقد الدايات المعاهدات ويستقبل القناصل، وينظر بشكل يومي في شؤون الدولة"⁵.

أ- طبيعة الحكم السياسي العثماني:

يشار هنا أن التاريخ السياسي للجزائر خلال هذه الفترة قد أخذ حقه ونصيبه من طرف الباحثين والمؤرخين، ويبقى الحديث عن جوانب للحياة السياسية، في سياق هذا البحث هو لمعرفة الجو السياسي الذي كان سائداً في البلاد، ومدى تأثيره على الحياة الثقافية.

¹ L'Abbé Poiret, Lettre de Barbarie (1786-1786), Pref de de Denise Brahimi, Edition le Sycomore Pain, 1980, p 200.

² De Tassy, op.cit., p 221.

³ Venture de Paradis, op.cit., p 257.

* قدر راتب الذي حوالي عشر قطع نقدية من صنف ريال الجزائر (أو البوجو) الذي قدرت قيمته بـ 1.80 فرنك، وقدرت المداخيل بـ 200 ألف قرش. (حسب ما ورد عند De Tassy, op.cit., p 221.)

⁴ توفيق المدني، محمد بن عثمان باشا داي الجزائر (1791-766) سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة، الحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

⁵ CH. Vallière, op.cit., p 04.

يقول الدكتور سعد الله: "أن العثمانيين في حكمهم قد أساءوا التصرف، حيث حكموا كفتنة متميزة واحتكروا السلطة في أيديهم طيلة هذه الفترة واستبدوا بالحكم واستذلوا السكان واستعلوا عليهم وعاملوهم معاملة الحاكم للمحكوم، والمنتصر للمهزوم، بالرغم من أنهم دخلوا إلى الجزائر أساسا بطلب من أهلها"¹.

وتبدو جليا جوانب هذه السياسة فيما يلي:

- سياسة القسوة والظلم:

تجمع المصادر المحلية والأجنبية أن تاريخ الجزائر السياسي خلال هذه الفترة كانت تتجاذبه قوتان تستمد الأولى مكانتها من الدين (مرابطون-شيوخ-زوايا) والثانية من الإنكشارية والرياس، حيث وقف المرابطون في الريف والعلماء في المدن كحلفاء أو وسطاء لتلك السلطة السياسية بصفتهم زعماء روحيين لمختلف التشكيلات الاجتماعية²، لكنهم لم يشاركوا مباشرة في الحكم، فما يميز المرحلة انعدام شبه كلي لمشاركة الأهالي في اتخاذ القرارات على المستوى العام أو إدارة شؤون البلاد السياسية.³

ويبدو أن العثمانيين اتبعوا سياسة التقرب من المرابطين ورجال الزوايا بهدف بسط سلطتهم على البلاد بفرض سيطرتهم على القبائل المتمردة، لما كانت تحظى به هذه الفئة من الاحترام والثقة العمياء لدى السكان، وفي ذلك يقول حمدان خوجة أن العثمانيون منذ وصولهم، قد استفادوا مما سمعوه من أعيان مدينة الجزائر عن طباع سكان البلاد وعاداتهم⁴، ولأحكام سلطتهم تقربوا من الأولياء والمرابطين وأعدقوا عليهم بالهدايا الثمينة والامتيازات السياسية الواسعة، كما ساهموا ببناء العديد من الزوايا والأضرحة، التي أصبحت حصنا يلجأ إليه كل الفارين من عقاب السلطة العثمانية.⁵

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 135.

² Filali Kamel, Sainteté maraboutique et mysticisme (16-17 siècle), Thèse de doctorat, université des Strasbourg (France), 1999, pp 17 et 37.

³ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 50.

⁴ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص 110-111.

⁵ CH. Feraud, Les chérifs kabyles de 1804 et 1809, R.A N° 13, 1869, p 211-212.

وفي ذات السياق يسوق لنا بيصونال حادثة تؤكد النفوذ الروحي القوي لهذه الفئة لدى القبائل والمتمثلة بحادثة غرق الأنسة دوبر في منطقة بين بجاية وجيجل، في شهر سبتمبر 1720 جاءت على متن سفينة رفقة والدتها للالتحاق بوالدها السفير الفرنسي¹، وقد صادفتهم عاصفة حطمت السفينة على الضفة البربرية، فقام السكان بإنقاذ حياة الأنسة "دوبر" التي بقيت برفقة والدتها، لدى القبيلة ومن ثم تدخل قنصل فرنسا السيد دوسول Dessault لدى الداوي محمد بن حسان (1719-1724) التي قام بتكليف باي قسنطينة تلك المهمة، ورغم تهديده بإرسال المحلة رفض رجال القبيلة إطلاق سراح المعتقلين، ولم تسوى هذه المشكلة إلا بتدخل أحد مرابطي منطقة أولاد زهور ويدعى سيدي بغريشي وهو ما يؤكد أيضا لجوء الحكام العثمانيون لهؤلاء أثناء الأزمات السياسية.²

وإلى جانب ذلك أكدت المصادر أن الكثير من الحكام العثمانيين قد لجئوا إلى العنف والقسوة في حل القضايا ومعاملة العامة، يذكر العنتري الكثير من الروايات لعدد من البايات الذين عرفوا بهذه السياسة فيقول عن دالي باي (1676-1679) بأنه رجل سفك للدماء مخرب يأخذ أموال الناس بالباطل³، وفي 1765 نقلد أحمد القلي السلطة وبدأ عمله بغزو القبائل الخارجة عن سلطة البايك ووصل إلى خارج حدوده فغزا أهل الشافية أولاد سلطان الأوراس وقتل الكثير من الناس.⁴

وبلغت قسوة الحكام بالتمثيل بالناس وتوقيع أقصى العقوبات عليهم من ذلك محمد شاعر باي (1814-1229هـ) فبعد يوم من دخوله إلى قسنطينة استدعى أحد القضاة ووضع له خيطا في منخاره وشفته لإرهاب الناس حتى لا يخرجوا عن طاعته وكان لا يتناول فطوره إلا بعد إعدام أحد من العامة، فقبل عنه: "أنه رجل ذو بطش كبير غلبت عليه صلابة العجم سفك الدماء في الحق والباطل"⁵.

وعن هذه الظاهرة أشار صاحب الثغر الجماني واصفا حالة البلاد نقلا عن شاهد عيان قائلا:
"...ثار الرأي العام عن الجرائم التي كان يرتكبها الأتراك على يد بعض البايات السفاحين الذين

¹ Pyssenol, op.cit., p 482.

² A. Hanauteau et A. Toureaux, La Kabylie et les coutumes Kabyles, Hallamel (A), Paris, 1893, p 192.

³ صالح العنتري، فريدة منيصة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مرا وتح يحيى بوغزير، ط.خ، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 49.

⁴ نفسه، ص 50.

⁵ مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الأخيرة، تح: مختار حساني، مطبعة دحلب، الجزائر، د.ت، ص 38.

كانوا يستخفون بأرواح الأبرياء، فأخر بايات وهران حسن باي كان يتبع رجال العلم والدين فيسجن ويعذب ويقتل، قام بإحداث ما يشبه محاكم التفتيش التي أحدثها الإسبان فقتل الكثير من العلماء والعامة من الناس¹، وفي ذات السياق قد تحدث حمدان خوجة عن تعفن الوضع السياسي أواخر العهد العثماني، حيث انتهز رجل معتوه ومجهول يدعى علي البورصلي (1710-1718)* الفرصة فجمع الجيش واستولى على مقاليد الحكم في الجزائر وقام على إثرها بارتكاب عدد من الجرائم ضد السكان، كما أمر سكان مدينة الجزائر بغلق أبواب منازلهم في ساعة مبكرة، كما أمر بغلق الشككات ونقل جميع الكنوز إلى القصبة وخلال ولايته التي دامت ستة أشهر ساءت بشدة أحوال البلاد²، وقد أشار تيدينا إلى المظالم التي كان يرتكبها باي معسكر على سكان الأرياف عند قيامه بالرحلة على رأس المحلة فيقول: "كان سكان هذه الأرياف الفقيرة والبائسة خائفين من اقتراب كل هؤلاء الأشخاص... كنت أتفرج على أشياء ترعيني، فقد هبنا 14 إلى 15 دوار... وهو شيء يدفع إلى المبالغة وإلى غير المعقول..."³.

كما تحدث عن تفنن الباي بقطع رأس كل من يخالف القانون فيقول: "رأيت قطع رؤوس سبعة أشخاص في أقل من عشر دقائق لأنهم سرقوا بضعة أغنام من أحد الدواوير، وبعد أن ينفذ الشاويش هذا الحكم يؤخذ هؤلاء من دليل شعورهم كل هذا أمام مرأى الباي وبعد الانتهاء من ذلك يظهروا هادئين وكأنهم كانوا يدخلون ولا أحدهم منهم يتأثر بشيء..."⁴.

¹ أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 231.

* أشارت أغلب المصادر الأجنبية إلى الصراعات الداخلية في هرم السلطة فإذا استثنينا فترة البلربايات والباشوات فإن أغلب الحكام الجزائريين العثمانيين انتهت مدة حكمهم بالاغتيال والإعدام أو العزل، ففي الفترة الممتدة ما بين (1798-1830) من بين ثمانين دايات أغتيل ستة منهم وهم الداوي مصطفى باشا (1805)، الداوي أحمد (1808) الداوي الغسال (1809)، الداوي الحاج علي (1809)، الداوي محمد (1814)، والداوي عمر آغا (1817)، (أنظر Vaysettes, Histoire des derniers Beys de Constantine (depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadje Ahmed, in R.A, Vol 03, Alger, 1858, p 471).

² حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 159.

³ أحيدة عميروي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدينا أنموذجاً)، دار الهدى، الجزائر، 2003، ص 58-85.

⁴ نفسه، ص 78.

- سياسة التفرقة بين الأهالي:

شجع العثمانيون الصراع القبلي العشائري في مناطق واسعة من الهضاب العليا، الأوراس، الصحراء، ذلك بهدف بقاء سلطة البايك هي العليا، حيث أخضعت القبائل الكبرى بشتى الطرق إلى التقسيم أو الترحيل إلى جهات بعيدة، كما انتهج العثمانيون سياسة جديدة تمثلت في إنشاء تنظيم جديد عرف "بقبائل المخزن"، والتي مثلت في بصورة واضحة السكان المتعاونين مع السلطة مقابل الامتيازات التي منحت لهم مما ميزهم على قبائل الرعية الخاضعة مباشرة لسلطة البايك، والتي كانت كثيرا ما تتعرض للاضطهاد والإكراه والاستغلال من خلال دفع الضرائب الثقيلة وإرغامها على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة، وهو ما يزيد من استنزاف مواردها.¹

وأدى بدوره إلى الانهيار الاقتصادي، والاضطراب الاجتماعي لهذه المناطق، وبالمقابل كانت العائلات التي تنتمي إلى قبائل المخزن كثيرا ما تتمتع بالأمن والحماية والرخاء، لما تدره أراضيها الخصبة من إنتاج وخير، ولما تستفيد منه من أموال من قبائل الرعية المجاورة فضلا عن الهبات والمنح التي يحصل عليها فرسان المخزن مقابل قيامهم بقمع الثورات وإخمادها²، حيث عادة ما عرف هؤلاء الفرسان بالقوة والجور، وقد ورد ذلك عند ابن العطار في قوله: "...وكان أهل مخزن قسنطينة أهل غلظة وفضاظة لكون غالبهم من البادية فلا يراعون حق السلطة بل تحملهم غلظتهم على العنف ومجاوزة الحد..."³.

- سياسة التهميش:

¹ مجموعات سكانية مختلطة لا تعود أصولها إلى نسب واحد أو أصل مشترك فهم خليط من العبيد الكراغلة، عرب الصحراء، سكان الهضاب والجبال، استقدموا كأفراد مغامرين أو متطوعين لؤلؤوا جماعة شبه عسكرية، منحت لهم أراضي للاستقرار فيها هدفها تمثيل السلطة العثمانية في حفظ الأمن، جباية الضرائب، جمع الثورات وتأييد القبائل الثائرة، كما كلفت هذه القبائل بمراقبة النشاط الزراعي، في الأرياف، وبذلك عدت أداة لخدمة مصالح السلطة العثمانية في المناطق البعيدة. (Marcel, Emeint, Les tribus privilégier en Algérie dans la première moitié de XIX siècle, Annale économique, 1966, p 39)

² M. Emier, La situation économique de la regence d'Alger, information historique, N° 02, 1952, p 170.

³ أحمد بن مبارك العطار، تاريخ بلد قسنطينة تع وتح وتق عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2016، ص 105.

اعتمد الأتراك العثمانيون في إدارتهم لشؤون إيالة الجزائر على تهميش العنصر المحلي، وإبعاده عن أي مساهمة في الأمور السياسية، وقد يفسر هذا الإحجام عن الاندماج بالسكان إلى رغبتهم في الاستحواذ بالحكم وتسيير الإيالة بالشكل الذي يخدم مصالحهم الشخصية¹، وهو ما ولد روح من الحقد والتذمر خاصة لدى الطبقة المتعلمة والأعيان اتجاه هذه الطبقة الغريبة عنهم، وقطيعة بينهم وبين الحكام الأتراك تجلت في ظهور العديد من الثورات ذات الطابع السياسي²، وما يلاحظ بالمقابل افساح العثمانيين المجال أمام المرتدين عن المسيحية (الإعلاج) الذين لعبوا أدورا سياسية وتولوا مناصب عليا في الدولة³، كما تجلت مظاهر التهميش السياسي للعنصر المحلي في التمثيل الدبلوماسي للحكومة الجزائرية مع الدول الأوروبية السفراء أو مبعوثين أو كل ما يتعلق بصلاتهم بالباب العالي، واقتصر القيام بهذه الأدوار على العنصر التركي العثماني⁴، ومنذ أواخر القرن 16م أبعدت جماعة الكراغلة عن هذه المهام بعد تزايد أعدادها بسرعة، حيث يذكر بوايي (Boyer) أن تقارير الأوروبيين تشير إلى أن عددها قد وصل سنة 1621 إلى حوالي 5000 كرجلي، مما اعتبر تزايدهم خطر يهدد مصير الأتراك العثمانيين في الجزائر إلا أن ذلك لم يثن هؤلاء عن المشاركة في الكثير من الأحداث التي ميزت أواخر القرن 18م⁵، وعلى الصعيد العسكري وضع العثمانيون عراقيل في وجه فئات من السكان لمنعهم من الانخراط في الجيش، وأمام الحاجة الماسة والمتزايدة للمتطوعين كانت تنظم حملات للبحث عن راغبين في التجنيد والهجرة إلى الجزائر، بالرغم من أن ذلك كان يكلف الخزينة أموال كبيرة ويأجماع من المصادر الأجنبية كان هؤلاء المتطوعين من المنبوذين، المرشدين، ومن أدنى فئات المجتمع.⁶

¹ هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2008، ص 10.

² نفسه، ص 10.

³ تقلد الكثير من هؤلاء حكم الإيالة رسميا في المرحلة الأولى (عهد البلربايات 1518-1587)، حيث سبعة منهم أبرزهم حسن آغا (1533-1544) أصولهم من سردينيا، حسن قورصو (1556-1557)، عالج علي (1568-1571)، حسن فنريانو (1583-1587) ... (Diégo De Haydo, Rois d'Alger, Traduit par Henri Delmat de Grommant, 1880-1881, Ed Grand Alger, Alger 2004, p p 69-104.

⁴ جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص ص 57-58.

⁵ Pierre Boyer, Le problème kouloughli dans la régence d'Alger in R.M, N° spéciale, 1970, p p 80-82.

⁶ Laugier de Tassy, op.cit., p 125. Venture de Paradis, op.cit., p 160.

وقد أدى تهميش سكان البلاد في أي مشاركة إلى إضفاء الطابع العثماني على الدولة الجزائرية في جانبه السياسي والعسكري والإداري، بكل مقاليد الحكم كانت مقتصرة على هذه الفئة، منهم يعين الحكام والوزراء والموظفين والإنكشارية من مختلف الرتب والألقاب¹.

وعلى صعيد آخر ومنذ بداية القرن 19م سمح العثمانيون لفئة اليهود بتقلد مختلف المناصب السياسية الهامة في الدولة لا سيما في عهد الداوي مصطفى (1798-1805) الذي اعتبرهم مستشاريه المقربين². وخاصة الدور الذي لعبه يهود الأندلس، ويهود ليفورن الذين سيطروا على معظم القطاعات الاقتصادية واحتكروا أنواع التجارة، أهمها تجارة الحبوب وتجارة الرقيق التي كانت تدر عليهم أموال طائلة³، وكانت تتم من خلال شركات يهودية على نطاق واسع مثل شركة "دانيال دو كستا" و"آرون ليفي لويزاد" وهما يهوديان تاجران من أصول برتغالية إلى جانب شركة "إسحاق باروش" و"جاكوب ماشورد"، كما تجدر الإشارة إلى شركة بكري وبوشناق للاستيراد والتصدير والنشاط البنكي⁴، وقد كانت ممارساتهم لهذه الأنشطة تتم بالموافقة ودعم من السلطة العثمانية، وذلك على حساب الأهالي الجزائريين الذين جردوا من هذه الحقوق⁵.

- إرهاب الجزائريين بالضرائب:

أجمعت المصادر الأجنبية والمحلية على أن العلاقة التي ربطت بين السلطة العثمانية والمجتمع الجزائري تجسدت في الأساس على نظام الضرائب الذي فرضته على سكان المدن والأرياف.

وقد أورد الدكتور ناصر الدين سعيدوني من خلال كتاب النظام المالي تفصيلا لأنواع الضرائب والسياسة المالية للعثمانيين في الجزائر وصنفها إلى صنفين⁶:

¹ حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص 21.

² نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 77.

³ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 159.

⁴ وداد بيلامي، النفوذ الاقتصادي والسياسي ليهود الجزائر (1516-1830)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث،

تحت إشراف الدكتورة أمحمد عمراوي، قسنطينة، 2004، ص 75.

⁵ نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 77.

⁶ نصر الدين سعيدوني، النظام المالي لإيالة الجزائر أواخر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ص 94.

- ضرائب المدن:

أهمها الضريبة المفروضة على الحرفيين، حيث كانت قيمة الضرائب المستحقة على التجمعات الحرفية، تختلف من حرفة إلى أخرى، كما اختص أمناء بجمعها على المحلات الخاصة في الأسواق أو في الفنادق والورشات¹، حيث يؤدي الأمين دورا بالغا في النظام الضريبي، من خلال إشرافه على جمع المستحقات العالقة بذمة الحرفيين حتى بعد وفاتهم إذ يشرف على تصفية تلك الديون.²

هذا إضافة إلى ضرائب المصادرة والتغريم التي كانت تطال موظفي الدولة، وفي ذلك يقول بناني بأنها أسلوب عقابي للاستحواذ على الأموال وتجريد الأغنياء من السكان وأفراد الحكومة من ممتلكاتهم، حيث عادة ما يزج هؤلاء في السجون مقيدين بالسلاسل.³

الدنوش: من أهم المصادر الرئيسية للخرزينة، وهي عبارة عن مساهمات فصلية وسنوية تساهم بها البايلاكات (الشرق، الغرب وال تيپري) بالإضافة إلى ما يقدم من دار السلطان وقيادة سباو، حيث يحول جزء منها لخرزينة الدولة وجزء آخر يخصص كهدايا ترضية لموظفي الدولة، وكانت تسلم في مواعيد معينة.⁴ إذ يلزم البايات بدفعها في مواعيدها كل ثلاث سنوات وهو ما يعرف بالدنوش الكبرى حاملا معه إلى دار السلطان هبات معتبرة من الأموال والهدايا الثمينة⁵، التي يهدف بها التقرب من الحاكم وطلب رضاه، لضمان استمراريته على رأس البايلاك، وعادة ما تكون هذه الغنائم ناتجة عن الضرائب المفروضة على سكان البايلاك ويتم استخلاصها بالضغط وإرسال الحملات العسكرية التي تقودها قبائل المخزن

¹ P. Renaud, Les anciennes impôts de l'Afrique du Nord, ed tablettes straphal, Paris, 1925, p 25.

² عائشة غطاس، الحرف والحرفيين بمدينة الجزائر (1700-1830)، دراسة اقتصادية واجتماعية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص 202.

³ Pananti, op.cit., p 442.

⁴ علي أحقو، شهرزاد شلبي، مؤسسة الخزينة في الجزائر أواخر العهد العثماني ودورها الاقتصادي والعسكري (1798-1830)، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 21، ديسمبر 2016، ص 350.

⁵ فالدنوش بالمفهوم المحلي تعني المحاسبة، أما بالمفهوم التركي فتعني العودة، قدم بفايفر وصفا لموكب دخولها قائلا: "...يأتي أولا خليفة التيپري الذي يحمل أقل من سواه نظرا لما تعانیه المقاطعة من فقر، ويدخل في موكب طويل من أبتاعه من البغال المحملة تحت طلقات المدافع وأقام الموسيقى، ويقدم الإتاوة لخرزينة الدولة، ويحمل للداي عدد من الأكياس، المملوكة ذهباً يطلق عليها العوائد، ويتناول معه القهوة وتقف حاشية الذي لها في صفيين عند المدخل في انتظار العبيد أو يتم الأسر كذلك بالنسبة للخرزناجي في اليوم التالي وبقية الوزراء أيضا". أنظر: سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 197-198.

فيما يعرف بالحملة العثمانية¹، وقد تحدث تيدينا عليها التي كان يقوم بها مُجَّد الكبير باي معسكر على الجنوب، فيقول أنهم نُهبوا حوالي خمسة عشر قرية واستولوا على سبعة وستون ألف رأس من الحيوانات الصوفية وخمسة آلاف جمل، وستمائة وثلاثة وخمسون دابة سبعة آلاف وعشرون بقرة وثور وأسر ستون شخص أغلبهم نساء، ويضيف عادة ما يقوم الباي بإرسال كتبا للبلاد التي يريد سلبها حتى يفاجئهم أكثر ويرسل الرجال إلى مكان محدد في الوقت الذي ينتظره الرجال في المكان يكون قد شن الغارة على الخيام، وأخذ كل شيء حتى النساء والأطفال²، وعن ذلك عبر مُجَّد الشريف الزهار قائلا "...وهكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي والأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم الظلمات ونهب أموال المسلمين، وما وقع هذا حتى صار الناس فجارا والأمراء ظالمين..."³.

ومن جهته تحدث الضابط الفرنسي هيبولت عن رحلة الدنوش الصغرى في فترة حكم أحمد باي على بايلك الشرق، والتي كانت تقدم كل ستة أشهر من طرف خليفة الباي التي يتوجه إلى مدينة الجزائر على رأس قوة عسكرية، مكونة من عشرة خيام، وقدرت الدنوش الصغرى التي كان يقدمها بايلك الشرق بجوالي ثلاثمائة وأربعون ألف ريل من العوائد، إضافة إلى 15 ألف بقرة، 6000 خروف، 17 فرسا أصيل، 100 بغلة، و70 برنوسا من النوع التونسي الرفيع و50 غطاء من نوع الحايك، 40 دزينة من الطاقيات الحمراء، 32 سبحة من العنبر والمرجان، 3 أوقيات من عطر الياسمين، 16 كيسا مخصصا لحفظ الساعات، 30 قطعة من جلد النمر أو الأسد، من 8 إلى 10 نمور، 700 قفة من التمر، 150 سلة من الزيتون الأخضر، حمولتي بغل من القماش، 20 حمولة من الزبدة، و20 حمولة من الكسكسي⁴.

ويعود الخليفة إلى مدينة قسنطينة حاملا معه قفطان الخلعة كهدية شرفية من الداوي إلى الباي، تعبر عن رضاه عنه، لذلك تقام الأفراح عند عودة الخليفة بالخلعة التي يرسل على إثرها الباي أيضا 1000 سلطاني اعترافا له بالجميل الذي عليه⁵.

¹ W. Ester Hazy, Note historique sur le Maghzen d'Oran, Oran, 1849, p 60.

² أمحيدة عميراي، المصدر السابق، ص 85.

³ أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف مدينة الجزائر (1168-1246/1754-1830)، نج: أحمد توفيق المدني، ط1، س.و. ن.ت، الجزائر، 1974، ص 35.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، بايلك الشرق أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف، نقد وتر وتغ، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص ص 156-157.

⁵ المرجع نفسه، ص 157.

الضرائب المفروضة على سكان الأرياف:

استهدفت السلطة العثمانية المتمثلة في نظام البايلك الأرياف بفرض نظام ضريبي متنوع استهدف بالدرجة الأولى النشاط الاقتصادي الممارس، والقائم على الزراعة والرعي، ومن أهمها:

ضريبة العشور والزكاة: تعد من الضرائب الشرعية التي فرضت على أراضي الملكيات الخاصة، والتي اعتمدت على مبدأ الزويجة أو الجابدة¹، وحددت في قطعة أرض مساحتها من ثمانية إلى عشر هكتارات، فتقدم للسلطة العثمانية كمية من المحصول قمحا أو شعيرا... كما تقدم القبائل الزكاة التي كانت تؤخذ على الحيوانات.²

الحكور: عادة ما كان يحصل البايات على هذه الأراضي عن طريق المصادرة، مثلما حدث في عهد أحمد باي الذي صادر أراضي قبائل أولاد عبد النور بالهضاب العليا الشرقية³، فيقوم البايلك بكرائها للأهالي، وكانت تؤخذ نقدا أو عينا، وقد حددها دوبرادي ما بين 5% و15% عن الجبدة الواحدة، أما عينا فتقدر بـ 12 صاعا من الشعير عن الجابدة الواحدة.⁴

الغرامة واللزمة: تفرض على القبائل البعيدة عن أعين سلطة البايلك يستخلصها جماعة القيادة عينا في قطعان الماشية والمواد الغذائية بتوجيه حملات عسكرية على تلك القبائل، أما اللزمة فهي مساهمة مالية للأوطان القريبة عن أعين السلطة تدفع حسب عدد أفراد القبيلة وحالتهم الاجتماعية.⁵

الخطية: تدفعها القبائل عن تجاوزات، عصيان أو مخالفة القانون يقوم بها فرد أو جماعة إذ تعتمد فيها السلطة على مبدأ المسؤولية الجماعية⁶، كما تدفعها القبائل الصحراوية الغربية في شكل هدية نقدية

¹ P. Renaud, op.cit., p 40.

² Vayssetes, op.cit., p 115.

³ Ch.A. Feraud, Note historique, op.cit., p 151.

⁴ Venture de Paradis, op.cit., p 59.

⁵ Vayssette, op.cit., p 116.

⁶ نصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، ط3، دار البصائر الجديدة، الجزائر، 2012، ص 94.

وثلاثون ألف بوجو مقابل المرور إلى مينا، وهران لبيع بضاعتها¹، كما كانت تفرض على القبائل الريفية دفع رسوم الأسواق نقدا مقابل عرض منتجاتها الفلاحية والحيوانية والتي تعرف برسوم حق العسة.

فضلا عن ضرائب أخرى تفرض على القبائل في شكل مساهمات عينية كتلك التي تفرض على الأوطان التي تقع على خط سير المحلة، حيث تكلف هذه القبائل بتزويد المحلة بكل ما تحتاجه من مؤونة واستضافة أفرادها على الأكل والشرب، حيث تكلف بذبح أجود ما عندها من الخراف وتعد النساء الكسكسي باللحم، كما تقدم لها أيضا الخيول للنقل وحمل الأمتعة وكل من يمتنع عن ذلك يعرض للضرب كما يعرض حياته للخطر.²

ب- رد فعل الجزائريين (حركة التمرد والثورة):

تشير المعطيات الإحصائية التي قدمها لمنور مروش إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية للجزائر أواخر القرن 18م، بالنظر إلى قلة المداخيل وغلاء المواد الغذائية وندرتها في الأسواق، حيث شهدت الجزائر في بداية القرن 19م حالة من المجاعة وانتشار وباء الطاعون ووضع كارثي عام، وهو ما يفسر اندلاع العديد من الثورات المناهضة لحكم الأتراك وسياستهم في البلاد.³

وقد تحدث بعض الأوروبيين الذين زاروا الجزائر في هذه الفترة عن انتشار مظاهر التمرد والثورة في أوساط القبائل في أغلب جهات البلاد، حيث أشار دي فونتان إلى قبيلتي سماتة وبني مناد الواقعتين على ضفاف واد جر بجبال الأطلس التلي، والتي كانت في حالة تمرد دائم على السلطة العثمانية لامتناعها عن دفع الضرائب، كما كانت هذه القبائل تقوم بأعمال النهب على طول الطريق الجنوبي إلى غرب الإيالة.⁴

وعن ذلك سجل بفايفر قوله "لقد أثار الأتراك الشعب الجزائري ضدهم بسبب ما أحقوه في عصور مضت من أذى وإهانة واضطهاد، ومن ثم بدأ الجزائريون يشعرون على مهل بقواهم الكامنة

¹ Pananti, op.cit., p 274

² نصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص 182.

³ Lemnouar Merouche, Recherche sur l'Algérie à l'époque Ottoman, Monnaies, prix, et revenus (1520-1830), EDIF, Alger, 2010, p 273.

⁴ J.A. Pysonnel et F. Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, pré, tucette Valensi, éd la découverte, Paris, 1987, p 143.

في جماعتهم ويطالبون بحقوقهم كاملة...¹، حيث حملت العديد من القبائل في مختلف المناطق شعورا قويا بالاستقلال لا يمكن قهره، بأي حال من الأحوال إذ لم تستطع حكومة الأتراك إخضاع أي قبيلة إخضاعا تاما بقوة السلاح لذلك ثارت هذه القبائل في أغلب تراب الإيالة².

فلاستبداد والسياسة الضريبية كانت العامل لرئيسي الذي دفع هذه القبائل إلى الثورة والتمرد³، ومن الذين عايشوا هذه الأحداث الزياني في قوله: "فاعلم أن الأتراك لما تمهد لهم الملك في الجزائر كثير ظلمهم وفسادهم، بحيث لا يليق أن يذكر ما كانوا منهم من ظلم والمناكر...وسألت الناس الله أن يزيل عنهم ما حل من ظلمهم"⁴، فيبدو أن الضغط المالي والضغط الاقتصادي قد ساهم في تفاقم الأوضاع واضطراب جهاز الحكم، إذ تعاقب على حكم الإيالة في مدة لا تزيد عن ثلاثة عشر سنة (1805-1817م) ستة دايات كان لأغلبهم نهاية مأساوية⁵، عندما بدأت الجزائر تفقد مكانتها البحرية وتحولت أنظار العثمانيين نحو الموارد الداخلية من خلال نظام ضريبي مجحف تتم فيه جباية الضرائب في أغلب المناطق باستخدام القوة العسكرية، وذلك لامتناع القبائل عن الدفع⁶، والملاحظ أن هذه الفترة قد ميزها أيضا فتور في علاقة التقارب التي كانت تجمع بين السلطة العثمانية والسلطة الروحية المتمثلة في المرابطين ورجال الطرق الصوفية، قد دفع هؤلاء إلى تزعم الكثير من هذه الثورات.⁷

وعلى ضوء كل ذلك يمكن القول أن هذه الثورات التي انتشرت في كل أنحاء الإيالة قد أدت على إضعاف السلطة العثمانية التي بذلت جهود معتبرة لإخمادها، كما ساهمت في فقدان الحكام السيطرة على أمن واستقرار مدينة الجزائر نفسها، وكلفت الخزينة العثمانية أموال طائلة بل زادت في عمق علاقة

¹ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 74.

² وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تر وع إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص 116.

³ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث، المرجع السابق، ص 61.

⁴ محمد بن يوسف الزياني، دليل الخيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013، ص 59.

⁵ حنيفي هلايلي، الثورات الشعبية في الجزائر أواخر العهد العثماني كرد فعل على سياسة التهميش، مقال على الإنترنت، جامعة سيدي بلعباس، ص 200.

⁶ Le Roy (M), Etat générale et particulier du royaume d'Alger, La haye, Randals, s.d, p 151.

⁷ CH. Feraud, Les cherifs Kabyles de 1804-1809, RA, N° 13, 1860, p 217.

التنافر والعداء بين السلطة العثمانية والمجتمع الجزائري، وهو ما أكده ابن الشريف الدرقاوي¹، عند حصاره لمدينة وهران سنة 1806، حيث شكوا لمبعوث السلطان المغربي المولى سليمان قائلاً: "أن ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعية من عسف الترك وجورهم وإتهائمهم في ذلك إلى القتل والطرده من الوطن"².

كما يذكر العنتري عن تأثير ثورة ابن الأحرش³ على الأوضاع قائلاً: "أتلقت فيها خزائن الباي عثمان... انعدمت الحراثة وافتقدت الحبوب وقل من يأتي إلى الأسواق، فحصلت للناس شدة ومجاعة، قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك خصوصاً بعض نواحي القبلة فإنهم تشتتوا بسبب الهول في وطنهم"⁴.

¹ هو عبد القادر الشريف الدرقاوي القفليتي من أولاد بليل الكياني، يعود أصله إلى قبيلة كسالة البربرية، أخذ العلم على يد علماء فاس بالمغرب الأقصى، اتبع الطريقة الدرقاوية على يد شيخها الذي عينه مقدماً لها، زاد أتباعه اصة في المناطق الصحراوية، أعلن الثورة على الأتراك بسبب كثرة المظالم واتجه إلى البطحاء رافعا راية الحرب محللاً دماءه، ص ص م وأمواهم، تشير المصادر أن ثورته من أخطر الثورات التي أرهقت الأتراك، وعجلت سقوط حكمهم في الجزائر، وذلك إنتشارها على نطاق واسع ولدورها في حدوث القطيعة والعداوة بين العثمانيين والسلطة الدينية واعتبرها الناس مخلصهم الوحيد من ظلم الأتراك وجورهم، وتعتبر موقعة فرطاسة بنواحي معسكر من أكبر المعارك التي خاضها الدرقاوي ضد الباي مصطفى العجمي وأحرز فيها نصراً كبيراً، حيث سيطر على محلة الباي الذي فر هارباً نحو معسكر، وقتل خلال هذه المعركة كاتبه أحمد بن هطال التلمساني والعالم أبو عبد الله محمد الغزلاوي وأصبحت المنطقة الممتدة من مليانة إلى وجدة تحت حكم الدرقاوي، وما زاد قوته انضمام بعض قبائل المخزن لهذه الثورة، واستمر الباي الجديد لوهران المدعو المقلش في محاربة الدرقاوي وأتباعه، كما توالى هزائمه على يد الباي الملقب بوكابوس، الذي استطاع تشتيت الجموع المناصرين لهذه الثورة وتفير الناس عنه، ويبدو أنه بالرغم من مقتل عبد القادر الدرقاوي إلى أن صدى هذه الثورة كان عميقاً وكبيراً على العثمانيين. (أنظر بونقاب مختار، انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري (1802-1816)، مجلة المواقف، مج 1، ع 3، جامعة معسكر، 2008، ص ص 135-138).

² محمد بن يوسف الزباني، المصدر السابق، ص 278.

³ محمد العنتري، تاريخ قسنطينة، ط1، عالم المعرفة للنشر، الجزائر، 2009، ص 382.

* ثورة ابن الأحرش: تنسب إلى زعيمها الذي ادعى الإمامة والقيام ببعض الطقوس الغربية للسيطرة على عقول الناس خاصة في المجتمعات الريفية، واستطاع أن يستميل عدد من البسطاء الساخطين على سياسة الأتراك العثمانيين وخاصة في بايلك الشرق الذين أثقل كاهلهم بالضرائب، وسياسة الباي عثمان القاسية على قبائل المنطقة من خلال حملاته التأديبية، كما قام بتجريد شيوخ الطرق الصوفية من الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها لذلك، تحالف الشيخ الزبوشي مقدم الطريقة الرحمانية عليه مع ابن الأحرش، وقد كانت لثورته آثار وخيمة وخسائر كبيرة حيث قتل الباي عثمان في موقعة وادي زهور بنواحي جيجل وتمكن أتباعه من قتل وسي وهب عدد كبير من جيشه، ولم تنته ثورة ابن الأحرش إلا بعد أن جند لها البايك عدد كبير من الجيش الانكشاري الذين قضوا عليه برفقة عدد من أتباعه. أنظر: A.Berbrugger, Un cherif Kabil en 1804, in R.A, vol , Alger, 1858, p 210. + A. Feraud, «zebouchi et Osman bey », in R.A, Vol 16, Alger, 1862, p 121.

⁴ ناصر الدين سعيدي، دراسات وأبحاث، المرجع السابق، ص ص 231-246.

وبالرغم من عدم تحقيقها لأهدافها إلا أن هذه الثورات قد ساهمت في إزعاج حكومة الأتراك وإضعافها، وكانت أحد العوامل في التعجيل بزوالها عندما فككت الجبهة الداخلية ورأى الجزائريون في الفرنسيين الغزاة الخلاص الوحيد من جور الأتراك وظلمهم.

3- الأوضاع الاجتماعية:

تناولت العديد من المصادر الأجنبية ملامح عن الحياة الاجتماعية لسكان الجزائر من حيث، عدد فئاتهم، مكانة كل فئة وعلاقة هذه لفئات ببعضها البعض، فعلى تنوع الأجانب الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة جاء الحديث عن المجتمع الجزائري الذي على ما يبدو كان مجتمعاً منفتحاً على الآخر وله قابلية للتعامل والاحتكاك، لذلك كان الوصف الذي قدمه هؤلاء عن هذا المجتمع متنوعاً ودقيقاً في عمومته.

فقد ركزت أغلب هذه المصادر على تنوع الأعراق والأجناس التي ميزت ساكنة الجزائر على مستوى المدن والأرياف، وهو ما أشار إليه نيكولاس دي نيكولاي في رحلته سنة 1551، حيث ذكر أن حي البحرية كان أهلاً بالسكان المور والأتراك بأعداد كبيرة، كما يوجد في مدينة الجزائر المحمديين والمسيحيين والأجناس من جميع الأمم (إسبانيين وإيطاليين وغيرهم¹)، وهو ما أشار إليه أيضاً الرحالة المغربي التيمقوتي دون أن يقدم تفصيلاً في قوله أن مدينة الجزائر أهلة وعامرة وكثيرة الجند.²

أما دوهايدو فيحصى عدد سكان المدينة خلال القرن 16م بحوالي 12200 منزل منها 2500 منزل للبلديين و1000 منزل للأندلسيين و16 ألف للأتراك، إضافة إلى الوافدين من المسيحيين واليهود³، وهو ما تؤكد رسالة لأحد الفرنسيين يدعى جيروني إلى أحد مستشاري ملك فرنسا، حررت سنة 1630 أن عدد سكان الجزائر قد بلغ 200 ألف نسمة موزعين على 37 ألف من الأهالي، 30 ألف من الأتراك، 20 ألف من الأسرى والعبيد 10 آلاف من اليهود...⁴.

¹ Nicolas de Nicolay, Les quatre premiers Livre des navigation et pérégrination oriental, Lion, France, 1568, p 17., p 17.

² أبي الحسن التيمقوتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، نقد وتعليق سليمان الصيد المحامي، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1988، ص 18.

³ Diego De Haydo, Topologie, p 46.

⁴ Venture de Paradis, op.cit., p 267.

وعلى تقارب المصادر الأجنبية واختلافها طوال الفترة العثمانية حول عدد سكان الجزائر، فإن أغلبها يقدم إحصاءا خاصا بمدينة الجزائر، وهو ما أشار إليه الرحالة شو Show الذي اعترف بعدم إمكانية تحديد سكان مدينة الجزائر لذلك ذكر أن عددهم يتراوح ما بين 80 ألف و180 ألف نسمة وهم من المحمديين، المسيحيين واليهود¹، ويبدو أن تقديره كان فيه الكثير من المبالغة لأن الضابط الفرنسي Rozet قد أشار أن عدد سكان المدينة لم يتجاوز سنة 1830 ثلاثون ألف نسمة².

أ- تركيبة المجتمع الجزائري:

سكان المدن:

الأتراك:

يعود استقرارهم في الجزائر إلى القرن 16م، بعد إعلان السلطان سليم الأول 1518 إحاق إيالة الجزائر، بالدولة العثمانية وتعيين خير الدين بربروس بيلر باي (أمير للأمرء) عليها، كما زوده بحامية من الجيش الإنكشاري تعدادها ألفين جندي³، استقروا في المدن التلية وبعض مناطق الهضاب، وقد قسمهم هايدو إلى قسمين هما فئة أترك الأناضول، وفئة الأتراك المنحدرين من الأراضي العثمانية في إقليم الروملي في الضفة الأوروبية جلبوا إلى الجزائر محاربين أو متطوعين هدفهم الرئيسي جمع المال، أما القسم الثاني فيتمثل في الأعلج أو كما يطلق عليهم الكتاب الأوروبيين بالمرتدين الذين دخلوا الإسلام، وسمح لهم بتقلد المناصب الراقية في الحكم فمنهم باشوات، رياس البحر، أعضاء للديوان ودايات، ذلك أطلق عليهم هايدو أترك الوظيفة⁴، تصفهم المصادر الأوروبية بشكل عام بالرشوة، الفساد، الظلم، والانحراف والاستغلال الشنيع الذي مارسوه في الجزائر⁵.

غير أن أغلب الأتراك في الجزائر كانوا من فئة الإنكشارية الذين يستقرون عادة في الحصون والثكنات وعلى مستوى الحاميات التي كان عددها حوالي 15 حامية⁶، وقد قدر عددهم شالر بعشرة

¹ Thomas Show, op.cit., p 393.

² Rozet et Carette, Algérie états tripolitains, Ed Bouslama, Tunis, 1980, p 15.

³ De Haydo, Topologie, p 47.

⁴ Ibid, p 47.

⁵ جون وولف، المصدر السابق، ص 162.

⁶ نفسه، ص 74.

آلاف، لذلك يبقى العنصر التركي قليلا مقارنة بالفئات الأخرى¹، ويضيف شارل أنهم كانوا من أكثر الأتراك استقراراً لأنهم كانوا منعزلين عن شواغل السياسة وهموما تدفعهم المطامع إلى كسب الثروة، وهو ما يدفعهم أيضا إلى التمسك بالولاء لحكومتهم التي كانت تغذيها الاضطرابات والثورات².

وعن طباعهم أشار دوطاسي إلى الطباع السيئة للأتراك لعثمانيين واقتصرها في شيوع الفاحشة بينهم وهي جريمة لا يعاقب عليها من قبل السلطة العثمانية في الجزائر³، كما كانوا يمارسون الأمور التي حرمها الدين الإسلامي كمعاشرة النساء وشرب الخمر وارتياح الحانات⁴، حيث عرف من الإنكشارية في الجزائر تفضيلهم حياة العزوبية رغم أن الدولة في وقت لاحق سمحت لهم بالزواج إذ يعيش الجندي على حساب الدولة التي تدفع له أجرا وتؤمن له متطلباته من أكل ولبس وشرب من (الخبوب، الزيت، اللحم)، وإذا ما قرر الزواج تلغي كل هذه الامتيازات ما عدا الأجرة، وهو ما أدى إلى إثارة البغاء بين هؤلاء⁵، وتشير أغلب المصادر إلى عدم حدوث اندماج اجتماعي بالمعنى الواسع بين الأتراك وسكان البلاد، إلا من خلال بعض معاملات البيع والشراء، وبعض حالات زواج عدد من الجنود من النساء الحضريات من ذوي المكانة المرموقة في المدينة فكان نتاج ذلك الزواج فئة الكراغلة الذين رغم أصولهم التركية اعتبروا من فئة السكان الأصليين⁶.

والجدير بالذكر الوصف الذي قدمه الألماني بفايفر حول فئة الأتراك، إذ يصفهم بالهمجيين والمتوحشين في قوله: "كانت هذه الطوائف المختلفة المتفرقة كلها تخضع لحكم الترك وهم آخر شعب حل بهذه البلاد تحت طغيان شرذمة من النازحين يعود الفضل في إنشاء دولتهم إلى قرصان واحد جريء، وقد أراد خير الدين أن يخلع على هذه الدولة نوعا من القسوة والصلابة عن طريق منع الانكشارية من الزواج، إلا أن سرعان ما اكتشف ما ينطوي عليه بهذا المنع من خطأ، فقد كان الأتراك متعودين على الانغماس، في الملذات وكان المناخ الحار يدفعهم إليها دفعا، ومن ثم سرعان ما

¹ وليام شارل، المصدر السابق، ص 74.

² نفسه، ص 57.

³ Laugier De Tassy, op.cit., p 58.

⁴ Ch. Vallière, L'Algérie en 1781, mémoire du consul CH. Vallière, pré par Lucien Chaillou, imprimerie nouvelle, Toulon, France, 1974, p 09.

⁵ Laugier de Tassy, op.cit., p 60.

⁶ وليام شارل، المصدر السابق، ص 56.

أقبلوا على المتع والطيبات"¹، فحين أثر بعضهم الحديث عن ذكر بعض الصفات الطيبة للأتراك، فوجد سبنسر يقول أنهم شديدو التعلق بدينهم فالتركي يرتبط بكلمته حينما يقسم برأسه واضعا يده على جبهته².

كما يصفهم شالر بأنهم شعب بسيط حذر لهم نفس الفضائل والردائل التي نجدها في دولتهم نصف المتحضرة، فإنهم يتصفون أيضا بالأدب والأخلاق واللباقة والإنسانية في معاملاتهم اليومية، لكن حينما يجدون أنفسهم في الحياة السياسية يكشفون في أنفسهم وحشية نادرة³، ويميز شالر بين الأتراك الأصليين، والوافدين من المناطق أخرى من الإمبراطورية، فيقول لولا المجندين الجدد الذين يصلون إلى الجزائر باستمرار لاندمج الأتراك في السكان، وذلك لتمسكهم بالشريعة الإسلامية⁴، وهو ما يؤكد حمدان خوجة (ذو الأصول التركية) فيشيد بإقامتهم للصلاة بانتظام، مما جعل العرب والبربر يتصورون أنهم مرابطون كما كانوا شديدي الحرص على احترام عادات البلاد ومن كان له مساوئ كان يعمل على إخفائها أو إصلاحها⁵.

بدأت فئة الكراغلة التي يعود أصلها إلى الأتراك بالظهور كفئة مستقلة ومتميزة تطالب بحقوقها في الامتيازات التي يحظى بها الأتراك منذ 1596⁶، والجدير بالملاحظة أن هذه الفئة كانت تتواجد في المدن مع السكان الحضر وقد مارست بعض المهن، كما عرفت مزاولتها للنشاط التجاري الذي أكسبها ثروات كبيرة إذ من النادر العثور على كرغلي فقير، حيث كان الأثرياء يقضون أوقاتهم في بساتينهم الغناء، كما كان لباسهم يوحي بالمكانة الاجتماعية الريفية والراقية⁷.

ويبدو أن المكانة السياسية التي حظوا بها طيلة الفترة الأولى من حكم الأتراك للبلاد، قد بدأت تتراجع مع بداية القرن 17م مع بداية تزايد نفوذ الإنكشارية الذين تحوفوا من هذه الفئة لعلاقة القرابة

¹ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص ص 186-187.

² وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 105.

³ وليام شالر، المصدر السابق، ص 54.

⁴ نفسه، ص 107.

⁵ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 119.

⁶ P. Boyer, op.cit., p 80.

⁷ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص ص 184-185.

والصلة التي كانت تربطها بالعائلات الجزائرية، إضافة إلى مواقفهم المساند لطائفة رياس البحر¹، وكان نتيجة اتحاد هذه الفئة فيما بينها إلى تنظيم عدة مؤامرات ضد حكومة الأتراك أولها كانت سنة 1629م ثم سنة 1633 أين قاموا بثورة عارمة ثم على إثرها تم طردهم من مدينة الجزائر، فتنفرق شملهم في مختلف أنحاء البلاد، واستقر الكثير منهم في منطقة القبائل²، كما حرموا من تولي المناصب السياسية والعسكرية إلا أنهم ظلوا يتقاضوا رواتبهم من الحكومة خوفا من ثورتهم مرة أخرى.³

وقد بقيت هذه الفئة تعاني من التهميش السياسي وفي ذلك علق شارل، قائلاً: "أن الكراغلة لا يتمتعون بحقوق أكثر مما يتمتع بها الجزائريون، فيما يتعلق بمناصب الدولة... فلا تربطهم أي علاقة بالأتراك، إذ رفضهم العنصر التركي رفضاً قاطعاً واعتبرهم من جنس السكان الجزائريين..."⁴

إلا أن الظروف التي ميزت أواخر القرن 18م من فساد سياسي وثورات، قد خلقت نوع من التقارب بين الكراغلة، وحكومة الدايات عندما تم الاستعانة بها لمواجهة تمرد الإنكشارية، حيث سمح لهم تقلد بعض المناصب في الإيالة مثل منصب الباي الذي شغله أحمد باي آخر بايات قسنطينة، وقد كان كرغليبا، كما استعان الداوي حسين بقاضي كرغلي معلماً لابنه.⁵

وفي حديثه عن الكراغلة ذكر وولف أنهم لو نجحوا في تغيير وجه التاريخ الجزائري لوجدنا حكماً وطنياً أكثر تعاطفاً مع الجزائريين.⁶

ويبدو أن التحسن في تلك العلاقة كان محدوداً ومحفوفاً بالكثير من الحذر، حيث كان الكرغلي يعزل من الخدمة العسكرية بمجرد وصوله إلى رتبة ضابط، كما فضل الأتراك أواخر العهد العثماني الاستعانة باليهود في مختلف الميادين بدلاً منهم⁷، فوجد الكراغلة أنفسهم عند سقوط مدينة الجزائر في يد الفرنسيين معزولين عن الأهالي لأنهم كانوا يشكلون مجموعة مترفعة عنهم وعن العثمانيين الذين أنكروا

¹ Thomas Show, op.cit., p 185.

² محمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 143.

³ حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 155.

⁴ وليام شارل، المصدر السابق، ص 98.

⁵ Rozet, op.cit., p 18.

⁶ جون وولف، المصدر السابق، ص 162.

⁷ حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 158.

قربتهم لهم ونظرا لتعرضهم إلى مضايقات كثيرة من طرف القبائل اضطر الكثير منهم التعامل والانضمام إلى الجيش الفرنسي بعد أن فقدوا هوية الانتماء لديهم.¹

ويشار هنا إلى العزلة التي ظلت تعيشها الأقلية التركية طيلة العهد العثماني، وهو ما أرجعتها الكثير من المصادر إلى رغبة الحكام الأتراك المحافظة على مبدأ الامتياز والتفوق على باقي العناصر الأخرى بذلك انغلقت على نفسها، كما تمسكت بعاداتها ولغتها وأسلوب عيشها.²

جماعة الحضرة: ورد ذكر هذه الفئة لدى بعض المصادر لأوروبية تحت اسم السكان "المور Maure"³، غير أن الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان عرفهم في منتصف القرن 19م بأنهم النواة الأولى لسكان المدن وهم خليط من عناصر عربية أصيلة وعناصر بربرية مستعربة وأندلسيين من ذوي الأصل البربري⁴، فيما نجد دوبارادي تحصرهم في فئة الأندلسيين ويقدر عددهم في مدينة الجزائر بـ 32 ألف موري، فقد كان لهجرة الأندلسيين إلى مدن وحواضر الإيالة عامل ازدهار اقتصادي وتطور عمراني، حيث انتعشت مدن قديمة مثل تلمسان، الجزائر... وبعثت مدن جديدة مثل شرشال، البليدة، القليعة، وكان أثرهم مباشر في نمط العيش، الفنون والعمارة في الجزائر⁵، حيث اشتغل الكثير منهم في مجال التجارة، الصناعة المحلية كإنتاج الأقمشة الحريرية والقطنية... كما مارسوا البناء الخياطة وصناعة الأحذية والخزف... غيرها، وفي ذلك يقول الدكتور سعيدوني أنهم استطاعوا بكل ذلك أن يخلقوا إلى جانب سكان المدن الآخرين ما يشبه بوجوازية المدن، حيث ألفوا طبقة اجتماعية ميسورة تضم العلماء، التجار، أصحاب الحرف والصنائع، والكتاب الإداريين وذلك بفضل اهتمامهم بتنمية ثروتهم واستغلال أملاكهم.⁶

¹ Rozet, op.cit., p 78.

² نصر الدين سعيدوني، ومهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 94.

³ هو خطأ شائع المقصود به فئة الأندلسيين أو المورسكيين أي الوافدين من الأندلس منذ القرن 14م، ونظرا لتزايد عددهم في مدن وحواضر الإيالة، عممت التسمية على سكان المدن والأصل أن الحضرة بهم هم العرب والأمازيغ الذين ولدوا وترعرعوا في هذه المدن عبر مراحل تاريخية ومنهم أيضا جماعة الأشراف المنتسبين لآل بيت الرسول ﷺ والذين عرفوا بالورع والتقوى وحظوا الكثير من الاحترام والتقدير. (أنظر سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 149 وما بعدها).

⁴ هايزش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، تر أبو العيد دودو، ج1، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت، ص 56.

⁵ Ventur De Paradis, op.cit., p 109.

⁶ ناصر الدين عيوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المرجع السابق، ص 144.

وبالرغم من دورهم الاقتصادي والاجتماعي إلا أنهم حرموا من تولي المناصب السياسية، حيث عمل الأتراك على منعهم من الارتقاء في هرم السلطة ما عدا تولي بعض الوظائف البسيطة والعمل في البحرية.¹

وفي وصفه لهذه الفئة فند شالر الطباع السيئة التي عرفوا بها لدى بعض الكتابات الأجنبية مثل المكر، السرقة، والكسل في قوله: "إن هؤلاء السكان أبعد ما يكونوا عن البربرية التي يتصف بها بعض الجزائريين، فإن في سلوكهم لباقة ومجاملة وأنا قد وجدتهم في المعاملات اليومية دائما مهذبين متمدين وإنسانيين وأنا لم أكتشف فيهم أعراض التعصب الديني أو الكره للأشخاص الذين لا يدينون بدين آخر غير دينهم"²، ويضيف قائلا: "أني أعرف جيدا أن هذه الصورة التي أرسمها للجزائريين لا تتفق مع الصورة التي رسمها لهم كتاب آخرون، وأنها تناقض الرأي العام الشائع في أوروبا وأمريكا عنهم، ولكن هذه الآراء تختلف كثيرا من الحقيقة، كما شاهدتها بنفسي خلال إقامة طويلة"³.

وهو اعتراف صريح من المدرسة الأمريكية بقيادة وليام شالر، لما كانت تحمله المصادر الأوروبية من أكاذيب ومغالطات عن المجتمع الجزائري، والتي تجعلها بعيدة عن الموضوعية في توثيق الأحداث التي ميزت تاريخ الجزائر خلال هذه الفترة.

فئة البرانية: هم السكان الوافدين إلى المدن الكبرى كالجزائر، قسنطينة تلمسان بدافع الإقامة والعمل وقد فرض عليها الوضع الاجتماعي نوعية النشاط الاقتصادي، فكانت تصنف حسب أصولها ومناطق انتمائها مثل البسكريون، الجيجليون، الأغواطيون، الميزابيون، وسكان القبائل إضافة إلى العبيد.

فالجيجليون (أي سكان جيجل) قد حظوا بمكانة هامة لدى الأتراك بسبب ترحيبهم بدخولهم إلى البلاد وتطوع الكثير منهم في تحرير مدينة الجزائر من الإسبان، لذلك كانت لهم امتيازات هامة، حيث سمح لهم ارتداء الملابس المطرزة بالذهب وحمل السلاح، كما عينوا في وظائف ذات راتب، وقد عرفوا

¹ ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، المرجع السابق، ص 252.

² وليام شالر، المصدر السابق، ص 80.

³ نفسه.

أيضاً بالاشتغال في الأفران لإعداد الخبز للجيش الإنكشاري، وقد اعتبرهم دو بارادي في منزلة الأتراك بسبب هذه الامتيازات.¹

¹ Venture De Paradis, op.cit., p 120.

جماعة البساكرة: المرجح أن هذه الجماعة قد بدأ توافدها على مدينة الجزائر واستقرارهم بها في أواخر القرن 16م، وقد قدر بفايفر عددهم بـ 80 إلى 100 شخص¹، عمل أفرادها في بعض المهن المتواضعة منها حمل المياه في أوعية نحاسية كبيرة وإيصالها إلى باب المنازل²، كما اشتغلوا في تنظيف المداخل وباعة متجولين أو حراس عرفوا بالقوة والنشاط، في أداء أعمالهم³.

جماعة بنو ميزاب: تخصص أصحاب هذه الجماعة في إدارة الحمامات ومطاحن الحبوب، كما اشتغلوا في المقاهي والدكاكين⁴، عرفت هذه الفئة بفقرها وقلة إمكانياتها، وكذلك انفصالها عن باقي الفئات الأخرى لكونها تنتمي إلى المذهب الإباضي، لكن تميز أفرادها بالتعاون والتآزر فيما بينهم خاصة في الأزمات المالية التي كانت تواجههم⁵.

جماعة القبائل: يعود أصلهم إلى المناطق الجبلية القريبة من مدينة الجزائر عرفوا أيضا في المصادر الأجنبية بالجبالية وصفهم شالر بالدكاء، النشاط والأمانة لذلك تم توظيف الكثير منهم في خدمة منازل القناصل الأوروبيين إلا أنهم كانوا يرفضون المكوث مدة طويلة، وذلك لتعلقهم ببيئتهم والحنين للعودة إليها⁶، وبالمقابل نجد هاينريش فون مالتسان يصف بعضهم بالتعصب والبخل، إذ يفضل العيش على قطعة خبز وقليل من زيت الزيتون دون أن يصرف فلسا واحدا من أمواله لكنه في الوقت نفسه يصفهم بالنشاط والمثابرة في العمل⁷.

العبيد: تعود أغلب أصولهم إلى السودان، حيث كان التجار الطوارق يقومون بشرايتهم مقابل بعض السلع والبضائع كالأقمشة والأحذية، إذ كان يصل إلى مدينة الجزائر سنويا ما بين 150 و 500 من العبيد، اشتغل أغلبهم في الأعمال المنزلية أما الأحرار فشكلوا جماعات منتظمة يرأسها أمين يدعى

¹ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 172.

² Le sieur de Rocqueville, relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger, pré de Fatiha Loualich, Ed Bouchene, France, 2018, p 08.

³ Venture De Paradis, op.cit., p 109 et 118.

⁴ Ibid p 119.

⁵ عائشة غطاس، الوافدون البرانية على مدينة الجزائر (1787-1830م) بين التهميش والإدماج، المجلة التاريخية الغربية للدراسات العثمانية، العدد 25، أوت 2002، ص 168.

⁶ وليام شالر، المصدر السابق، ص 193.

⁷ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 79.

قائد الوصفان، حيث مارسوا مختلف المهن كالبناء النسيج، إضافة إلى بعض الفنون كالغناء والموسيقى¹، فيما عرف البعض ممارسة السحر والشعوذة²، وفي حديثه عن هذه الفئة أشار فاليار أن وضعها كان متشابها لوضع الأسرى المسيحيين، حيث كانوا يعرضون للبيع وهم عراة تماما حتى يتسنى للزبون فحصهم جيدا، وهم يحملون قيودا، حيث يجلبون إلى السوق مثل قطع الثيران أين يتم عرضهم أمام الجميع³، غير أن بعضهم وخاصة من فئة النساء (الأمات) كن يتخلصن من العبودية بالزواج من أسيادهن فيصبح لهن الحق بأن يرثن أزواجهن بواسطة عقد يتركه الزوج لزوجته، غير أن بعض البايات قد استفاد من هؤلاء وشكلوا منهم قبائل مخزنية تسمى زمالة العبيد وجهت لصد وإخضاع قبائل جرجرة، حيث قام الباي محمد الذباح بنقل العديد منهم إلى برج سيباو وجرجرة التي تسيطر عليها قبيلة عمراوة لتكون هناك "رمالة"، "الشملال"، ويذكر أن قائدها قد تزوج من فتاة عربية من قبيلة بني جعاد.⁴

فئة الدخلاء: وتنقسم إلى قسمين:

فئة اليهود: تناولت العديد من المصادر الأجنبية الحديث عن طائفة اليهود⁵، فقد أحصى الأمير البرتغالي جاو ماسكار نيهاس عددهم في بداية القرن 17م (1621-1625) بحوالي 150 بيتا موزعين في حين، كل حي يوجد فيه معبد يهودي وهم من جنسيات مختلفة وخاصة من الفرنسيين

¹ E. Mercier, Ethnographie de l'Afrique septentrionale notes sur l'origine du peuple Berbère in R.A, N°15, Alger, 1871, p 430.

² De Haydo, op.cit., p 90.

³ Ch. Vallière, op.cit., p 27.

⁴ Abbe Poiret, Lettre de Barbarie (1785-1786), pref de Denise Brahimi, éd le Sycomore, Paris, 1980, p 146.

⁵ استوطن اليهود الجزائر منذ القدم، وقد تكونت هذه الطائفة عبر العصور من فئات أساسية منها اليهود الأهالي الذين احتفظوا بعقيدتهم وشكلوا جماعات اجتماعية ودينية متماسكة، يعود أصلهم إلى الفينيقيين، وقد تأثر بعض السكان البربر بالديانة اليهودية عن الأفواج المهاجرة فعرفوا باليهود الأهالي الذين أصبح يصعب تمييزهم عن باقي السكان أما اليهود الذين تعرضوا لمحاكم التفتيش في الأندلس، فقد هاجروا مع المسلمين في نهاية القرن 15م، وضمت هذه الفئة العديد من رجال العلم وعرفوا بالهيوغورتم أي الهارب.

أما الطائفة الثالثة فهم اليهود المغامرين الذين هاجروا إلى الجزائر وخاصة من المدن الإيطالية مثل ليفورنا منذ القرن 17م وطيلة القرن 18م، تميزوا بمستواهم الرفيع وقرسهم في التجارة، اتقان اللغات المختلفة، وتوسع علاقاتهم التجارية مع مختلف الدول الأوروبية، وسرعان ما استولى الوافدين الجدد بعد استقرارهم على مقاليد الزعامة على هذه الطائفة ووصلوا إلى مكانة مرموقة في التجارة والمال فتوسع نفوذهم داخل الإيالة ليصل إلى السياسة ونظام الحكم العثماني. (أنظر وليام شارل، المصدر السابق، ص 79-89) (Maurice Fisenbeth, Les Juifs en Algérie, et n Tunisie à l'époque Ottomane (1516-1830), in R.A, N°96, Alger, 1952)

والإسبان، غير أن أغلبية عددهم من طائفة اليهود البربر، يدفعون ضريبة مقابل إقامتهم تقدر بـ 180 دوپلا أو 350 باتاك.¹

كما أحصى عددهم الأب دان بـ 9 أو 10 آلاف نسمة يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة، غير أن قائد هذه الطائفة كان يفرض عليهم العقاب بالطرق الإسلامية، ويعلق عن ذلك الأب دان أنها الطريقة الوحيدة للحفاظ على الانضباط داخل هذه الطائفة ويعود أيضا إلى فساد نظامهم القضائي.²

وتشير التقديرات التي تعود إلى القرن 19م أن عددهم في مدينة الجزائر أكثر من 8 آلاف نسمة وحوالي 20 ألف موزعين في كامل مناطق الإيالة، وقد تحدث ذات المصدر عن الأوضاع السيئة التي كان يعيشها اليهود مقارنة ببقية السكان، حيث كانت تطبق عليهم إجراءات وقوانين خاصة، حيث فرض عليهم ارتداء اللون الأسود فقط، وقد منعوا من ارتداء الملابس الملونة تمييزا لهم، كما أن نساءهم كن لا يسمح لهن إلا بتغطية جزء بسيط من وجوههن والخروج إلى الشارع بوجه مكشوف، ومنعوا أيضا من ركوب الخيول.³

وهو ما ذكرته أغلب المصادر الأوروبية التي تحدثت عن حالة الاحتقار والتهميش التي كان يعاني منها اليهود خلال هذه الفترة واعتبرها البعض السبب الرئيسي في انتشار الفسق والدعارة داخل هذه الطائفة، حيث كان الأتراك يقصدون البيوت اليهودية فتقوم المرأة اليهودية على أداء دورها بعناية وإلا تتعرض للضرب والإهانة.⁴

¹ Joao Mascarenhas, *Esclave à Alger récit de captivité de Joao Mascarenhas (1621-1626)*, trad et pré par Poule Teissier, éd Chandigné, Bijon, 1993, p 75.

² P.P. Dan, *Histoire de Barbarie et de ses corsaires des royaumes et des villes d'Alger, Tunis de sale et de Tripoli*, 2 ed, Pierre Racolat, Paris, 1649, p 89.

³ Anonyme, *Description historique et géographique de la ville d'Alger et de ses environs*, le normant fils, imprimerie du roi, Paris, 1830, p 08, p 8.

⁴ J. Mascarenhas, op.cit., p 75.

ومن جهة أخرى تناولت هذه المصادر في وصفها لهذه الطائفة أن أفرادها كانوا على درجة عالية من النشاط والذكاء، حيث اشتغل أغلبهم في التجارة وصناعة المجوهرات¹، وكان لهم دور رئيسي أواخر العهد العثماني من خلال تدخلهم في النهاية المساوية لصالح باي من خلال تأمرهم ضده بسبب تضرر نشاطهم التجاري جراء سياسة الرقابة التي فرضها الباي عليهم.²

كما أنهم شاركوا في توجيه سياسة البلاد أواخر العهد العثماني وفق ما يخدم مصالحهم، حتى صار أفراد من يهود ليفورن يلقبون "بحكام الجزائر"، وفي ذلك يقول حمدان خوجة: "وهكذا فإن اليهود قد ارتبطوا بالأتراك من أجل المصلحة وقد جمعوا في تلك الظروف أموالا طائلة... حتى ارتبطت محلات عائلة بكري بمصالح حسن باشا ومصطفى باشا واستطاعوا تحصيل ثروة تقدر بالملايين على حساب جميع سكان الإيالة"³.

المسيحيين: هم العناصر الأجنبية عن المجتمع الجزائري، كالتجار، القناصل الأوروبيين رجال البعثات الدينية والأسرى⁴، وهم الفئات التي اعتمد عليها بحثنا من خلال التفاعل المباشر وغير المباشر لهؤلاء بالحياة العامة للإيالة، فكان لهم دور كبير في كتابة جوانب هامة من تاريخ الجزائر خلال هذه الفترة، ويبدو من خلال تصفح بعض المصادر الأوروبية أن علاقات هذه الدول بإيالة الجزائر كانت تحدد بشكل كبير وضع جالياتها داخل الإيالة والامتيازات التي تحظى بها فمن منطلق الاتفاقية التي عقدها الجزائر سنة 1689 مع فرنسا والتي اعترف فيها حاكم الإيالة للقناصل والتجار الفرنسيين بالحق باختيار المنازل والإقامات التي سكنوها مقابل الاتجار⁵، لذلك كان وضع الجالية الفرنسية جيدا مقارنة بالجاليات الأخرى، وقد سار الانجليز على خطى الفرنسيين، حيث نصبوا قنصل وممثل لرعاية شؤون رعاياهم

¹ Cano d'Alonso, La régence d'Alger au 18-ème siècle nouvelle aspect topographique de la ville, manuscrit pré et trad de l'Espagnole par Ismet Terki Hassaine, Dar Al-Quds El Arabi, Algérie, 2010, p 85.

² محمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 49.

³ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 158-159.

⁴ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 130.

⁵ خديجة حالة، الجاليات الأوروبية في الجزائر إبان العهد العثماني، شهادة ماجستير في التاريخ الاجتماعي، والثقافي المغاربي عبر العصور، جامعة أحمد دراسة، أدرار، 2012-2013، ص 07.

وتسهيل المعاملات التجارية لهم داخل الإيالة¹، والملاحظ أن التجارة كانت الدافع الرئيسي لإقامة علاقة سلم وود بين الطرفين، فقد أمنت مثل هذه الاتفاقيات الأمن، الاستقرار، حرية التنقل والعبادة لهؤلاء داخل الإيالة.²

وعن قناصل الدول تحدث دوبارادي عن تمييز حكام الإيالة للقنصل الفرنسي، بينما قناصل الدول الأخرى كان ينظر إليهم على أنهم بمرتبة الأسرى والعبيد، كما يفرض عليهم الكثير من قوانين، إذ يمنع عليهم دخول الميناء دون إذن، كما لا يمكنهم حمل سيف أو خنجر داخل المدينة، ويفرض عليهم مقابلة الداى أو الخزناسي راعين على الركبتين³، ولا تضع السلطة العثمانية أمام بيوتهم أي حماية مثلما هو الحال لدى الدول الأخرى في بلاد المشرق، كما كانوا يتعرضون للضرب والإهانة من طرف الداى⁴، وفي ذلك يؤكد دومون Dument الذي قضى ثمانية أشهر في مدينة الجزائر أن كل القناصل كانوا يمرون عبر الطابور للقاء الداى ويضيف: "رأيت الذي يطلب منهم أشياء ثمينة عندما تدخل سفنهم إلى الميناء وعندما لا يؤمنوها له ييزق على وجه القنصل وهو في حالة غضب شديد..."⁵.

كما يذكر دوطاسي حادثة وقعت لأحد القناصل الذي دخل إلى بلاط الداى بابا علي وراح يشي عليه بعبارات الشكر والتبجيل فأوقفه الداى قائلا: "توقف عن الكذب واحتفظ بمجاملاتك لنفسك لست بحاجة إليها فما عليك إلا تأدية التحية فقط... لأنك تقول ما لا تعتقده لأن المسيحيين يريدون دمارنا ونحن نتمنى لهم ذلك أيضا..."⁶.

والمعروف أن كل الأجانب الذين يدخلون إلى الإيالة يقتادون إلى قصر الباى أو الداى، وفي ذلك ذكر بيصونال أنه وقف أمام الداى وهو في حالة خوف شديد "فشكله كان مرعبا، اقتربت منه وقبلت يده، سألتى لما أتيت وماذا أتيت تفعل، وبعد طلبات وأسئلة كثيرة، قدمت له رسالة من عاصم باي

¹ Ali Tablit, The image of Algerian in British writings, Arab historical Ottoman studies, N° 28, October 2003, Tunis, p 161.

² Colin Heywood, English Merchant, and consul general in Algiers (1676-1712) Robert Colin, Arab historical Ottoman studies, N° 28, October 2003, Tunis, p 51.

³ Venture De Paradis, op.cit., p 239.

⁴ Ibid, p 240.

⁵ Dumont, op.cit., p 107.

⁶ De Tassy, op.cit., p 309.

قسطنطينة، وأعلمته أنني طبيب مما جعله يهدأ قليلاً... وشكرني في النهاية على المهمة العلمية التي أقوم بها".¹

أما دان قد أشار أن حياة هؤلاء الأجانب في الإيالة كانت تعيسة ومحفوفة بالمخاطر، فعادة ما كانوا يتعرضون للضرب السب والشتم بألفاظ قبيحة من طرف السكان²، لكنه أشار أيضا إلى أن هؤلاء التجار والأجانب عامة³، كان يسمح لهم بكرة منازل في المدينة في أي حي أو شارع من شوارعها وكان بعضهم يفضل النزول في الفنادق وهي تشبه الخانات القيصريات في بلاد المشرق، حيث عادة ما يتبع الفندق جناح من المحلات، تعرض فيها مختلف السلع والبضائع⁴، كما كان اليهود يخصصون غرف مهينة لكرائها لهؤلاء، وفي المجمل كان هؤلاء التجار يفضلون كراء سكنات في المدينة السفلى لاتصالها المباشر بالمدينة وشوارعها الرئيسية، كما يستأجرون منازل خاصة بهم في مدن بايلك الشرق أين كانت التجارة رائجة.⁵

وأشار كل من دان ودوطاسي وجود عدد من الخانات في العديد من مدن الإيالة يقوم بإدارتها الأسرى المسيحيين، حيث تقدم خدمات كثيرة لهؤلاء متمثلة في الخبز، النبيذ واللحم بكل أنواعه إلا أن وحسب دوطاسي كان يرتادها عدد قليل من المسيحيين لكثرة انشغالاتهم وأعمالهم في المدينة.⁶

وعن إقامات القناصل تحدث القنصل الفرنسي فاليار أنهم كانوا يقيمون في منازل مرتفعة في المدينة، كما كانت لهم إقامات في الفحوص القريبة يقضون فيها فصل الصيف⁷، غير أن البعض كان يفضل تحويل هذه القصور إلى إقامات ذات نمط عمراني أوروبي، وقد استقر معظم هؤلاء فيما يعرف بحي القناصل والذي يوجد به مبنى يسمى بدار النصرى.⁸

¹ Pyssonel, op.cit., p 463.

² P. Dan, op. cit., p 90.

³ Ibid, p 90.

⁴ خديجة حالة، المرجع السابق، ص 44.

⁵ نفسه، ص 147.

⁶ P. Dan, op.cit., p 90. De Tassej, op.cit., p 103.

⁷ CH. Vallier, op.cit., p 54.

⁸ ناصر الدين سعيدوني والبوعبدلي، المرجع السابق، ص 114.

ولعل من أبرز الشهادات التي كتبها هؤلاء حول أوضاع المسيحيين في الإيالة، ما كتبه القنصل الأمريكي شالر الذي استمرت إقامته في المدينة عشر سنوات، حيث أكد تفتح الجزائريين واحترامهم للأجانب في قوله: "...لم أكتشف فيهم أعراض التعصب الديني، أو الكره للأشخاص الذين يدينون بدين آخر غير دينهم..."¹، وقد كان أيضا لعائلة القنصل الإنجليزي "براوغتون" علاقات جيدة مع بعض الشخصيات الرفيعة في المدينة، حيث اعترفت عائلته التي رافقته إعجابها بنمط العيش والحياة الرائعة، حيث وجدت صعوبة وأسف شديد لمغادرة المدينة الفاتنة.²

أما الفئة الثانية من المسيحيين هي فئة الأسرى التي سبق الحديث عنها حيث كان هؤلاء مسخرين داخل الإيالة للخدمة في قصور الدايات، الحانات أو السجون، التجديف في السفن، رعاية البساتين وكانوا قبل القرن 17م، يمثلون موردا اقتصاديا هاما للخزينة عند اقتنائهم من طرف دولهم، في فترة رواج النشاط البحري الأسطول الجزائري في حوض البحر الأبيض المتوسط³، وتشير الإحصاءات التي تعود إلى هذه الفترة أن عددهم قد تجاوز 3 آلاف أسير في 1721م⁴، انخفض هذا العدد أواخر العهد العثماني بعد حملة اللورد اسماوت على مدينة الجزائر إلى 1600 أسير⁵.

وقد ورد الحديث عنهم في كتابات الأوروبيين والتي تميز أغلبها باللاموضوعية والتضخيم، ويعتقد جوزيف مورقان، أن ذلك التحامل ضد الأتراك والمسيحيين أمر متجذر في نفوس المسيحيين، حيث سعى الآباء الإسبان إلى نشر الكثير من الأكاذيب والتهويل عن رحلاتهم إلى منطقة شمال إفريقيا، وكان يهدف بالدرجة الأولى استعطاف الرأي العام الأوروبي لتوفير أموال فدية الأسرى.⁶

¹ وليام شالر، المصدر السابق، ص 80.

² Zakia Zehra, Alger vue par la fille d'un consul Anglais au début de 19ème siècle, « Elisabeth Broughton », Arab historical for Ottoman studies, N° 28, October 2003, Tunis, p 178.

³ حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 173.

⁴ J. Mascarenhes, op.cit., p 73.

⁵ قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر (1671-1830م)، أطروحة شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر، 2016/2015، ص 163.

⁶ Joseph Morgan, A complot history of the piratical states of berbery, Algiers, Tunis Tripoli and Morocco cordon, R Griffiths, 1750, p 4.

ولذلك وعند القيام بقراءة تقييمية نجد أن أغلب من كتبوا عن معاناة الأسرى في الجزائر كانوا من فئة رجال الدين ذوي النظرة الميثوقراطية المتعصبة للإسلام والمسلمين عامة، بينما عارض فكرة الاضطهاد والحياة البائسة للأسرى في الجزائر رجال العلم وبعض الفئات الراقية من الأجانب في المجتمع والذين عرفوا بقدر من الموضوعية في سرد الأحداث العامة في الإيالة.

وفي ذات السياق تحدث توماس سميث أن المعاملة فوق السفينة، لم تكن بذلك السوء الذي يصوره الكثير من الأسرى فيقول: "خلال فترة تواجدنا على متن السفينة عوملنا بطريقة حضارية... وأطعمنا من نفس الطعام الذي أكله الجزائريون، من ثوم، سمك، خبز، محمر أرز... غيره"¹، وفي شهادة أخرى ذكر دمون Dument أن بعد عودته من الأسر عاش حياة قاسية في فرنسا من جوع وفقر فيقول: "رغم سنوات العبودية لم أفقد بعد كرامتي لمد يدي لأحد، فقررت العودة إلى إفريقيا وإلى مدينة الجزائر أعمل هناك مترجما، لكن الظروف لم تسمح لي بذلك..."².

وعموما فإن الخوض في هذا الموضوع يستدعي بحثا منفصلا لذلك يمكن أن نلخص بعض الصور عن فئة الأسرى الذين كانت مدينة الجزائر تعج بهم، وقد اختلفت حياة هؤلاء حسب الظروف التي وجدوا فيها، وحسب مؤهلاتهم العلمية وكفاءتهم، فقد نجد أسيرا يرفع إلى مرتبة خزندار³، أو مجدفا على سفينة.

والجدير بالذكر أن الأتراك (حكام الإيالة) كانوا يفضلون المسيحيين عن سكان البلاد من الجزائريين، فكانوا يعترفون بأبنائهم من العلجيات، كما استطاع الكثير منهم ممن دخلوا الإسلام من الأعلاج* الارتقاء إلى المناصب العليا مثل منصب حاكم الإيالة.⁴

- سكان الريف: الريف في إيالة الجزائر العثمانية هو مجموعة من القبائل والأعراب، يمثلون غالبية السكان، حيث تشير التقديرات أنهم يشكلون 94% من مجموع السكان، تم تصنيفهم من طرف

¹ بلقاسم قرياش، المرجع السابق، ص 165.

² Dument, op.cit., p 141.

³ أحمدية عمراوي، مذكرات أسير، المرجع السابق، ص 58.

* العالج بمعنى الرجل الغليظ وقيل هو كل ذي لحية واشتهر المصطلح معنى الرجل الكافر. (أنظر لسان العرب، طبعة بولاق، 1301هـ، مج 3 و4، مادة عالج، ص 151).

⁴ Pananti, op.cit., p 165.

الكتابات الأجنبية على أساس العرق، النشاط وعلاقتهم بالسلطة العثمانية، حيث شكلت هذه القبائل نمطا حضاريا خاصا تحكمه التقاليد والأعراف الموروثة واتصفت بصفات التماسك الاجتماعي والبساطة في أسلوب العيش.¹

وتقسم إلى فرعين أساسيين:

الأمازيغ: تحصر الدراسات الأجنبية هذا المجتمع في التجمعات التي استقرت بالمرتفعات الجبلية الساحلية ويعرفون بالجبالية أو القبائل²، وحصرتهم دوبرادي في إطار جغرافي يمتد من دلس إلى القل شرقا أين تتوزع 300 قبيلة³، أما شالر فيشير أن تسمية القبائل تنطبق على مجموع القبائل المستقرة في جبال الأطلس الكبير والسلاسل المتفرعة عنه، مثل بني سويس وبني زروال وبني زاووة وبني عباس⁴، وهم قبائل مستقلة عن بعضها البعض تتحد أحيانا إذا ربطتها المصالح السياسية والتجارية إلا أنها في أغلب الوقت تكون في حروب مستمرة، تعمل السلطة العثمانية على إذكائها تتضمن السيطرة عليهم، إذ ترفض هذه القبائل الخضوع وتمتنع عن دفع الضرائب، حيث كانت "تقاوم العثمانيون مقاومة لا هواده فيها لذلك لم تتمكن السلطة المركزية من إخضاع قبيلة واحدة منها..."⁵، لأنهم حسب لامبير عرفوا بالعصبية والشدة.⁶

وصفت هذه القبائل في الكتابات الأجنبية بأن أفرادها يتميزون بالنشاط والعمل، حيث مارسوا الزراعة وتربية الحيوانات لتأمين ما يحتاجونه في معيشتهم، كما مارسوا صناعة النسيج وصهر الحديد التي كانوا يصنعون منها الأواني، الآلات الزراعية البسيطة وعدة أنواع من الأسلحة.⁷

¹ تحدث دوطاسي أن القبائل الريفية هي عدد من العائلات التي تميز بينها بأسماء المناطق والجهات التي تسكنها أو بأسماء الأجداد الذين ينحدرون منهم (De tassy, p 200)، ويضيف الضابط روزيت Rozet أنهم عادة ما يسمون ببني أمي أولاد مثل بني صالح، بني مناد... (Rozet, op.cit, p 05).

² وليام شالر، المصدر السابق، ص 113.

³ Venture de Paradis, op.cit., p 118.

⁴ وليام شالر، المصدر السابق، ص 113.

⁵ المصدر نفسه، ص 164.

⁶ L'Abbé Edmond Lambert, A travers l'Algérie, Histoire mœurs et légendes des arabes, éd René Haton, Paris, 1884, p 54.

⁷ وليام شالر، المصدر السابق، ص 28.

وخلال رحلته من تونس إلى مدينة الجزائر تحدث دي فونتين عن هذه القبائل بقوله: "المناطق الساحلية التي يقطنها بعض القبائل العرب، وهم قوم متوحشون، ومعظمهم عائلات تعود إلى الأصول البربرية القديمة مثل قبيلة عزواق... لا يعيشون مثل عرب هذه البلاد يشكلون قرى في قمم الجبال مكونة من 12 كوخا مبنية بالحجارة ومغطاة بالقش كل قرية سيدة نفسها يديرها الشخص الأكبر سنا أو الأكثر شجاعة... كلما باغتهم الأتراك لإرغامهم على دفع الضرائب لجئوا إلى أعالي الجبال التي لا يمكن للسلطة العثمانية الوصول إليها مثل جبال القل وبجاية فكانوا يطلقون الرصاص على أفراد الحامية العثمانية كلما مرت بالقرب منها..."¹.

وفي ذات السياق تحدث الضابط الفرنسي Rozet روزيت أن معظم هذه القبائل تعيش على النهب بالهجوم على القبائل التي تمر بالقرب منهم²، وعن طريقة عيشهم يضيف روزيت أن بيوتهم المبنية من الطين والحجارة كانت نظيفة يحيط بها حدائق، كما تكون مزودة بمخابئ للمؤونة (المطمور) تخزين الطعام مثل الفواكه، جافة، العسل، زيت الزيتون، الزبدة، الكسكس.³

وقد تحدث أيضا شلوصر، عن حبهم للعمل الذي يتعاون فيه كل من الرجل والمرأة على حد سواء، كما أشار إلى أنهم عادة ما يحتفلون عند نهاية جني المحاصيل وعصر الزيتون فتعم بهجة كبيرة بينهم⁴، ويميز بانانتي قبائل أخرى ذات أصول أمازيغية وهم طوارق الصحراء، الذين استقروا في الصحراء في رحلات إجبارية هروبا من المخاطر الخارجية ويصفهم بأنهم قبائل فقيرة تظهر غير متشددة اتجاه الغرباء والأجانب.⁵

¹ وليام شارل، المصدر السابق، ص 115.

² Rozet, op.cit., p 05.

³ Ibid, p 08.

⁴ فنديلين شلوصر، المصدر السابق، ص 91.

⁵ Pananti, op.cit., p 243.

العرب: تصنف المصادر الأجنبية تواجد العنصر العربي في شمال إفريقيا ما عرف بالاحتلال الاستيطاني الذي غزا المنطقة¹، وهو نوعين:

العرب الذين استقروا في الريف في القرى والدواوير المنتشرة في المنطقة السهلية الحصبة المنحصرة بين السواحل وسلسلة جبال الأطلس التلي اهتموا بزراعة الحبوب وتربية النحل، وعرفوا بعرب متيحة²، اتخذوا الأكواخ الطينية أو الحجرية بيوتاً لهم، عاشوا حياة فقيرة في بيئة مليئة بالأوساخ والقذارة، حيث استخدمت هذه الأكواخ كغرفة واحدة للنوم والمعيشة لهم ولحيواناتهم، كانوا عرضة لهجمات سكان الجبال والحيوانات المفترسة.³

وقد أشارت العديد من المصادر الأجنبية إلى الدور الذي كانت تقوم به المرأة العربية في تحمل جميع المسؤوليات من تربية الأطفال، العمل في الزراعة جلب الماء والحطب، إعداد الطعام... ووصفتها بأنها كانت في حالة مزرية من الفقر والوساخة⁴، وفي ذلك يقول شلوصر أن الرجل العربي في هذه البيئة يقضي معظم وقته بين الصلاة والنوم.⁵

أما العرب الرحل: فقد انتشروا في السهول الداخلية وبالقرب من الوديان، اعتمدوا على تربية المواشي وحياة الترحال أينما وجدوا الكلاً والماء⁶، وينحدر من هؤلاء العرب من ذوي نبالة الأصل أي الذين ينتمون إلى الأصل الشريف وهو كل من ثبت نسبه لفاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وإلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.⁷

وقد تحدث هاينريش أن عدد هؤلاء الأشراف كبير جدا في الجزائر، وقد مارس الكثير منهم وظائف في الإفتاء والقضاء.⁸

¹ التاريخ يسجل العرب المسلمين جاءوا فاتحين ونظرا لتعاليم الإسلام السمحاء دخل السكان المحليين في الإسلام واندمج العرقين مكونين السكان الجدد لشمال إفريقيا.

² De Tassy, op.cit., p

³ Pananti, op.cit., p 280.

⁴ Abbe Poiret, op.cit., p 152.

⁵ فنديلين شلوصر، المرجع السابق، ص 89.

⁶ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 137.

⁷ Eugène Daumes, op.cit., p 37.

⁸ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج1، ص 244.

وعموما فإن هؤلاء العرب كانوا يتميزون بالبساطة يعيشون في خيم مصنوعة من الصوف وشعر الماعز ووبر الجمال وجريد النخيل تتوسطها خيمة شيخ القبيلة التي تتميز بارتفاعها عن بقية الخيام الأخرى، وتوجد بالقرب منها خيمة أخرى لاستقبال الضيوف¹، تميزوا أيضا بفصاحة الكلام، فقد برع معظمهم في الشعر وعرفوا بالطيبة، الشهامة والكرم، غير أنهم عانوا معاناة كبيرة من تسلط السلطة العثمانية عليهم، ودفعتهم الضرائب مجحفة.²

تحدث شالر أيضا على عرب الصحراء الذين كان بعضهم يعيش في خيام والبعض الآخر سكن في بيوت من الطين أو الحجارة يعتمدون في معيشتهم على تربية الماشية والجمال، ويملك بعضهم من النخيل، ويعمل بعضهم في تجارة الصوف والتمور، حيث تنطلق القوافل نحو تونس وقسنطينة، يعتمدون في غذائهم على حليب النوق ويأكلون لحومها التي تتميز بلونها الأحمر الفاتح، كما أنها عديمة الدهن تطبخ مدة طويلة لتصبح صالحة للأكل، ومذاقها يشبه لحم الحصان، كما يجمعون التمور التي تجفف في الشمس حتى تزول رخاوتها ودهانها ثم تدك، وتوضع في جلود الماعز وتوضع فوقها أحجار ثقيلة ليوجه بعضها للبيع.³

ويضيف شلوصر أن سكان هذه المناطق عرفوا أيضا بزراعة نبات يدخنه العرب والأتراك بكثرة يسمى "الكيف"، وهو يشبه نبات القنب يعطي أوراق طويلة وبعضها قصيرة، تقتلع سيقانه في فصل الخريف وتجفف لتباع بكميات كبيرة، حيث تخلط بالتبغ المدقوق وتستعمل في التدخين، كما عرف عرب الصحراء باستخراج الملح وتجفيفه في الشمس، حيث يبيعه في أسواق قسنطينة في شكل حجارة تزن قنطارين لتستخدم بكثرة في الطبخ.⁴

¹ Rozet, op.cit., p 259.

² وليام شالر، المصدر السابق، ص 109.

³ المصدر نفسه، ص 109.

⁴ فنديلين شلوصر، المصدر السابق، ص 99-101.

ب- نظرة حول الوضع الديمغرافي والصحي في الإيالة:

أفاد تقرير الضابط الفرنسي بوتان الذي زار الجزائر سنة 1808م أن عدد سكان الإيالة أواخر العهد العثماني تتراوح ما بين 3 ملايين وثلاثة ملايين ونصف يعيش أغلبهم في الأرياف، حيث لم يكن يتجاوز سكان المدن 5%¹ يتمركزون بصفة خاصة في الجهة الغربية والوسطى.

وقد عدت المجاعات التي ضربت الجزائر خلال هذه الفترة من أهم الآفات التي أثرت على النمو الديمغرافي لسكان الجزائر، إذ تشير معظم الكتابات التي تعود إلى بداية القرن 18م إلى أن إتلاف مساحات زراعية كثيرة جراء مرور الجراد، قد أدى إلى نقص المؤونة والغذاء، والتي أدى بدوره إلى حدوث مجاعة سنة 1703 والتي قضت على ثلث سكان الإيالة، ويضيف دوغرامون مشيرا إلى خطورة هذه المجاعات التي عرفتها الجزائر في فترات متلاحقة قوله "قد بيع لحم البشر في الأسواق من شدة الجوع".²

هذا وقد تميز الربع الأول من القرن التاسع عشر بحدوث مجاعات خطيرة في سنوات متلاحقة، ففي سنة 1800 حدثت مجاعة في البلاد شحت فيها الأقوات في الأسواق على حد وصف حمدان خوجة وهو ما دفع الداوي مصطفى باشا إلى استيراد كميات من القمح من البحر الأسود، لتوزيعه على السكان كما شددت الحراسة على مخازن الحبوب ارتفعت أثمان المواد الغذائية في الأسواق³، وأشار إلى ذلك دوبارادي بقوله "ليس هناك حياة أكثر بؤسا من حياة الجزائريين"⁴.

وقد كان من نتائج هذه المجاعات المتلاحقة انتشار وباء الطاعون في كامل مناطق الإيالة، إذ يرجح البعض ذلك إلى انفتاح الجزائر وتعدد علاقاتها بالدول الأوروبية وارتباطها ببلاد المشرق.⁵

¹ J. Boutin, Reconnaissance des villes, forts et batterie d'Alger, pub par G. Esquer, Paris, 1927, p 72.

² H.D De Gammant, Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), E. Leroux, Paris, 1887, p 278.

³ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 160.

⁴ Venture de Paradis, op.cit., p 106.

⁵ J.L Guyon, Histoire chronologique des épidémies d'Afrique du Nord depuis les temps reculer jusqu'à nos jours imprimerie du gouvernements, Alger, 1855, p 310.

مما أدى إلى انتشار العدوى من الأقطار المجاورة عن طريق التجار، البحارة والحجاج، فإلى جانب الطاعون انتشرت أوبئة أخرى مثل الكوليرا، السل، الجدري وغيرها...¹، وهو ما أشار إليه الزهار متحدثا عن الوباء الذي وصل إلى الجزائر سنة 1787 بقوله: "جاء الوباء إلى الجزائر حتى وصل عدد الأموات أحيانا لخمسمائة جنازة في اليوم وسمي بالوباء الكبير، قيل إنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية وطال بها إلى غاية 1211هـ"².

وعلى عهد الباي حسن بن موسى سنة 1826م حدث وباء عظيم مات به خلق كثير على رأسهم علماء أمثال أبو راس الناصري المعسكري، وقد تحدث الرحالة المغربي الزباني عن سنوات الوباء في الجزائر مشيرا أنه كان يتكرر كل عشرة أو خمسة سنة ويستمر أحيانا لسنوات طويلة ويقضي على كثير من السكان فوباء 1664 تناقص فيه سكان الجزائر إلى النصف.³

ويؤكد دوهايدو أن العوامل التي أدت إلى انتشار هذه الأوبئة يعود إلى انعدام الطب في الجزائر أثناء الفترة العثمانية، والتي لا تكاد يتعدى بعض العقاقير والممارسات الشعبية بما في ذلك الشعوذة، حيث كان السكان يلجئون إلى الحلاقين الذين كانوا يستخدمون في العلاج أدوات بسيطة دون مراعاة أدنى شروط النظافة.⁴

وقد أشارت العديد من الكتابات الأوروبية على انعدام المستشفيات بالجزائر باستثناء المستشفى الذي بناه الإسبان للاعتناء والتخفيف من معاناة الأسرى المسيحيين، وبتمويل من الكثير من الدول الأوروبية، كان يعمل بها بعض الأطباء والجراحين الأوروبيين⁵، وفي ذلك يتحدث بيصونال أنه صادف أثناء مروره بالقبائل العربية العديد من المرضى الذين كانوا يعانون دون علاج، وقد روى في ذلك عن أحد

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 88.

² محمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 51.

³ أبو القاسم الزباني، الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تح وتعد عبد الكريم الفيلاي، مكتبة فضالة المغرب الأقصى، 967، ص

⁴ Diego de Haydo, op.cit., p 213.

⁵ CH. Vallière, op.cit., p 63.

المرضى وهو من أبناء زعيمة لقبيلة عربية والتي طلبت منه علاجه مقابل الحصول على أموال وهدايا وعند تحسن حالته منع بيصونال من مغادرة القبيلة حتى يقدم لأفرادها ذلك الدواء.¹

أما الحكام الأتراك فقد أحاطوا أنفسهم وعائلاتهم بأطباء خاصين* كانوا عادة ما يختارونهم من الأسرى الأوروبيين²، كما اقتصرت مساعدتهم للتخفيف من حدة الأوبئة على فرض حجر صحي في منع دخول بعض السفن التي تأتي من مناطق انتشار الوباء وهو ما قام به صالح باي سنة 1787 في فرض حجر صحي على منطقة عنابة ليمنع انتقال العدوى إلى مدينة قسنطينة.³

كما أن الشخصيات النافذة في الدولة، ومنهم بايات الإيالة كانوا يلجئون للتداوي في المستشفى الإسباني⁴، ومن العوامل التي زادت الحالة، الصحية سوءا قلة الأدوية فالجزائر كانت يخلو من الصيدليات ما عدا صيدلية موجودة في مدينة الجزائر بالقرب من قصر الداوي، لكنها لا تحتوي إلا بعض زجاجات العقاقير والتوابل يشرف عليها أحد الأتراك يجهل في الغالب لكيفيات استخدامها.⁵

وعلى ضوء كل ما سبق يمكن القول إن الحالة الصحية المتدهورة للسكان يعود لانتشار العديد من المجمعات والأوبئة الفتاكة، وقد كانت له آثار وانعكاسات وخيمة على الحياة الثقافية في الجزائر خلال هذه الفترة.

¹ Pyssonel et des Fontaines, op.cit., p 370.

* صحح مسار التطبيب ولو بشكل بسيط ومحدود على يد الأوروبيين بعدما تحول إلى سحر وعوذة وأحجبة، فكانت قصور البايات والدايات تضم عددا من الأطباء الأوروبيين أحرار وأسرى وقد فضل بعضهم تقديم الرعاية الصحية للسكان التي أهملت كلية من السلطة العثمانية. (أنظر رسالة 50 مخطوط بالمكتبة لوطنية الجزائر، رقم 1903 مجموع من الرسالة 56-84 والرسالة 86 و84 مخ رقم 1641 وردت فيها إشارة لطبيب فرنسي يسكن بعنابة كان يترد على قسنطينة لتقديم خدماته الطبية مقابل أجره يأخذها من الباي.

² وفي ذلك يؤكد بفايفر أن إتقانه للطب والجراحة قد قربه من الداوي وأنقذ حياته. (أنظر سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 133).

³ نفسه، ص 135.

⁴ D'Alonzo Gono, op.cit., p 181.

⁵ حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر العثماني، ص 164.

الفصل الثالث: حالة التعليم في الجزائر العثمانية

1- واقعه

2- المؤسسات التعليمية

أ- المساجد

ب- الزوايا

ج- المدارس

د- المكتبات

3- طرقه ومناهجه

أ- مرحلة التعليم الابتدائي

ب- مرحلة التعليم الثانوي والعالى

4- دور مؤسسة الأوقاف في تمويل التعليم

5- نماذج من كبار المدرسين (المعلمين)

6- أشهر العلوم المدرسة

7- نماذج من جهود العثمانيين في الحركة التعليمية (جهود رسمية)

أ- جهود الباي محمد الكبير ببايلك الغرب

ب- جهود صالح باي في دفع الحركة التعليمية في قسنطينة

1- واقعه:

ترتبط الحياة الثقافية لأي أمة بالحركة التعليمية التي تمثل الركيزة الأساسية في تقدمها وازدهارها الحضاري¹، فالتعليم فن من الفنون التي تفيد في التمكين من بناء الحضارات وترقية المجتمعات وهو من أبرز مظاهر الثقافة فيما يعدّ المرآة العاكسة للحياة العلمية فيها بشئى أنواعها بصفتها الوعاء الذي يحفظ فيه المجتمع هويته وثقافته على مرّ الأجيال، لذلك تعدّ الحركة التعليمية في مجتمع ما بمثابة المقياس الذي نقيس به ثقافة هذا المجتمع².

ولقد عرفت حركة التعليم في العهد العثماني نوع من الخصوصية، فالمتتبع لمساره من خلال الكتابات المحليّة أو الأجنبية يقف على واقع ضبابي تحيط به الكثير من التساؤلات وأحيانا بعض التناقضات حول الحالة السائدة للتعليم داخل المجتمع الجزائري.

ولعل من الأسئلة التي يطرحها الباحث في هذا الشأن: إلى أي مدى تفاعل المجتمع الجزائري بحركة التعليم التي كانت سائدة في تلك الفترة؟ وإذا كان الأستاذ أبو القاسم سعد الله قد أزاح جانبا من الغموض حول حالة التعليم السائدة واصفا الوضع الثقافي بالتدهور والركود، كما أشار إلى أنّ "التعليم نوع واحد، وهو ذو طابع ديني وقد كان شائعا في الجزائر وباقي العالم الإسلامي لإيمان المسلمين على العموم بأهمية الدين وعلومه... والقليل القليل من توجهوا إلى علم الطب وصناعة الأسلحة..."، وكان انتشار هذا النوع من التعليم انتشارا واسعا وخاصة التعليم الأوّلي، فلم يكن يوجد في الجزائر من لا يعرف القراءة والكتابة، ولم تكن تخلو منه المدن والقرى وحتى البوادي والجبال النائية³ وهو ما أشارت إليه بعض المصادر المحليّة، حيث نجد الورثياني يعبّر في رحلته عن امتعاضه عن قلة العلوم وأربابها في الجزائر، ويرجع ذلك إلى إهمال حكومة الأتراك لذلك واستيلاءهم على أملاك الأوقاف، وأنّ العلم الذي كان سائدا في تلك الفترة اقتصر على تحفيظ القرآن وبعض الفقه وأصول الدّين، كما أنّ مساجد الجزائر ورغم جمال عمرانها فهي لم ترقى إلى مساجد الدول الأخرى كجامع الأزهر بمصر والزيتونة

¹ توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1755-1791)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص134.

² عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، صص101-103.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص274.

بتونس لما كان فيها من تبخر في العلوم العقلية، النقلية والدينية¹، وفي ذات السياق أبدى أبو راس الناصري أسفه من تدهور أوضاع تلمسان العلمية بعد دخول العثمانيين إليها في قوله "نظرا إلى ما كانت عليه في سالف الأزمان وأما الآن فهي كالأمس الدابر والميت في المقابر... فقد استولى على أكثرها الخراب، وناح على خاوي عروشها الغراب... تلمسان ذات الأفلاذ الوادعة والدعوة الصادقة المعمرة للقراءة والتكبير والعلم الدقيق الأثيل، فأصبحت خامدة الحس ضيقة النفس كأن لم يكن بالأمس"².

وفي وصفه لحاضرة الشرق قسنطينة أشار الرحالة المغربي العياشي أنّ المدينة "لا تخلو من العلم غير أن تدريسه فيها إنما يكون في بعض الأوقات كالشتاء وأول الربيع وأما سائر الايام فلا"³، ويذكر أيضا أنّ قرية الخنقة (في الصحراء) لها فضل عظيم في إظهار العلم، فأهلها مشغولون بالنحو والفقہ والحديث لكن بالمقابل ينعدم لديهم علم الكلام والمنطق لاعتقادهم بجرمة الخوض فيه⁴.

وبالرجوع إلى المصادر الأجنبية الأوروبية خاصة، يمكن القول أنّها لم تقدّم حول الحالة التعليمية في الجزائر إلاّ النزر القليل لاسيما الكتابات الأولى التي تعود إلى القرنين 17م و18م، وذلك راجع في الغالب لدوافع شخصية، فأغلب من كتبوا حول الجزائر كانوا من الأسرى ورجال الدين الذين أجمعوا بعدم وجود حياة ثقافية شبيهة بأوروبا⁵، كما أنّ الظروف العامة التي كان يطغى عليها عدم الاستقرار السياسي والعسكري وهيمنة الجانب التجاري الذي ميّز سياسة العثمانيين غداة دخولهم لإيالة الجزائر قد جعل الحديث عن أي مظاهر ثقافية وحضارية أمر لا فائدة منه⁶.

فقد حصرت هذه الكتابات المجتمع الجزائري في زاوية ضيقة ووصفته بأوصاف تشويها الكثير من السوداوية فدولاكروا (القرن 17م) ذكر أنّ شعوب المغرب جهلة وليس لهم ذوق في العلم والفن، وأشار القنصل الفرنسي فاليار (القرن 18م) إلى عدم اهتمام الجزائريين بتربية أبنائهم أو تطوير فكرهم وثقافتهم،

¹ الورثياني، الرحلة الورثانية، ج1، ص 241.

² أبو راس، فتح الإله، المصدر السابق، ص188.

³ الرحلة العياشية، ج3، ص354.

⁴ المصدر نفسه، ص354.

⁵ Mahfoud Kaddache, l'Algérie durant la période ottomane, O.P.G, Alger, p50.

⁶ الرجوع إلى الجزائر الحضارية

فاعملية بالنسبة له متروكة للطبيعة والظروف المحيطة والمتمثلة في مدى قدرة الأبوين على توجيه أبنائهم وإرشادهم إلى ذلك¹.

وفي ذات السياق تحدثت ماريا مارتن (القرن 19م) في روايتها سنة 1808م، أنّ "سكان الجزائر كسلاء ميالون للراحة...شديدو الجهل..."²، ولذلك يمكن تصنيف الكتابات التي تعود إلى هذه الفترة بأنها بمثابة أفلام متحاملة تغيب عنها الموضوعية وذات نظرة عدوانية للمجتمعات الإسلامية، فعلاقة ضفتي المتوسط في هذه الفترة كان يطغى عليها واقع القرصنة والأسر³، وهناك من الأجانب من حاول تسليط الضوء على الحالة الثقافية السائدة في الجزائر بهدف إظهار مستواها المتدني أو مقارنتها بمناطق أخرى، فكل من الأب دان، دوطاسي وبانتي قد كتبوا بأنّ التعليم كان مقتصرًا على القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب وحفظ القرآن⁴، ويضيف الأسير الأمريكي كاتكارت بعض التفسير، كما أشار إلى أنّ أغلب الجزائريين يعلمون أبنائهم في منازلهم بينما يعيش طلبة العلم في فقر مُدقع حيث لا مورد لهم سوى صدقات المحسنين والأصدقاء⁵، أمّا الفنون الجميلة فليس لديهم إحساس بها على الإطلاق والعلم أبكم بالنسبة إليهم وليس لهم أي فكرة عن الأدب⁶.

وأشار دوطاسي إلى أنّ سكان الريف سواء كانوا من العرب أو البربر لا يعرفون الثقافة الإسلامية بشكل جيّد فشعائرهم الإسلامية التعبدية يمارسونها بالوراثة، وكأنها عادات تتناقلها الأجيال، وكل ما يمكن أن يفسدهم في مجال الشرع الإسلامي هو "المرابط"، ويعزى هذا الجهل في مضامين الإسلام في نظرة دوطاسي إلى انغلاق سكان الريف عن أنفسهم وعدم ترددهم على الحواضر التي يعتبر الكثير منها مراكز إشعاع في علوم الدين الإسلامي⁷.

¹ Ph valliere, op.cit., p26.

² Maria Martin, A History of the captivity and sufferings of Mrs. Maria Martin who was six years a slave in Algiers, Philadelphia Rackstraw, 1809, p 261.

³ بلقاسم قرباش، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات، المرجع السابق، ص 51-54.

⁴ P. Dan, op.cit., p 251.

⁵ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 101.

⁶ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 53.

⁷ De Tassy, op cit., p 49.

ويبدو هذا الشغور الثقافي لدى سكان الرّيف قد فتح المجال لتصاعد مظاهر الخرافة والشعوذة والتي تحدّث عنها شلوصر (القرن 19م)، حيث أورد الكثير من جوانبها، وأكدّ أنها كانت منتشرة بكثرة بين سكان الرّيف والبادية ونخصّ بالذكر أرياف الشرق الجزائري¹.

وفي سياق آخر تحدّث حسن الوزان عن حالة الفقر التي كان يعيش عليها أهل العلم من الطلبة والمعلّمين ووصفها بالسيئة²، لذلك اتّجه الكثير منهم لمزاولة مهن أخرى كالتجارة لكسب المال وتغطية حاجياتهم مثلما فعل سعيد قدورة وإبن حمادوش³.

وعموما فإنّ هذه الحالة لا يمكننا تعميمها بشكل مطلق على كل فترات الحكم العثماني والتي تميّزت من حين لآخر بمبادرات فردية أو رسمية ساهمت في تنشيط الحركة التعليميّة وساهمت على الأقل في نشر التعليم في كل أنحاء البلاد، وهو ما يعترف به الكُتّاب الأجانب في وصفهم لبعض مدن وقرى الإيالة، فالألماني تشمير (القرن 19م) أبدى إعجابه بانتشار التعليم الأوّل، في قوله: "لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه في حين أتّي وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا..."⁴.

والملاحظ أيضا تطوّر الكثير من المدن والحواضر من ارتفاع عدد مؤسّساتها التعليميّة والتي حافظت على موروثها الثقافي التاريخي من خلال المبادرات الفردية التي قام بها عدد من العلماء الذين حملوا على عاتقهم التكلّف بالتعليم حتى ظهرت في كل المدن عائلات (بيوتات علميّة) اهتمّت بنشر العلم والمحافظة على مؤسّساته التقليديّة المعروفة وعددها كبير جدا، حيث قامت بدور هام خلال فترة الوجود العثماني في الجزائر مثل عائلة قدورة في مدينة الجزائر، وعائلة الفكون بقسنطينة... وغيرها⁵.

¹ فنديلين شلوصر، المصدر السابق، ص 104.

² ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص 407.

³ نور الدّين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، ص 217.

⁴ أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلّفات الرحالة الألمان، ص 13.

⁵ فوزية لرغم، البيوت والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014/2013، ص 23.

كما شهد فونتور دي بارادي وأكدته تقارير الفرنسيين أنهم بعد الحملة على الجزائر بأن أعداد المتعلمين في الجزائر يفوق عددهم في فرنسا¹، ولعلّ من المظاهر التي لا يغفل الباحث في هذا الشأن عن ذكرها والتي ساهمت بشكل واضح في تفاقم حالة الركود الثقافي هي سياسة بعض الحكام العثمانيين مع عدد من العلماء الذين ناصبهم العداة وعرقلوا اجتهاداتهم، فما كان من هؤلاء إلا الهجرة تاركين البلاد، كما تعرّض بعضهم إلى النفي القصري ممّا ساهم بشكل كبير في إهمال التعليم وانخفاض مستواه².

فطغى عليه التكرار والحفظ بالرغم من ظهور بعض المبادرات الفردية للثورة على الجمود العقلي وسيطرة التخلف على التعليم وأهله، فقد حاول عبد الكريم الفكون صاحب منشور "الهداية" الثورة على ذلك عندما وصف فقهاء عصره بالتقليد وترديد أقوال المستقدمين وحفظها حفظاً سطحياً وهو أمر لا عقل فيه ولا تفكير وهم يتظاهرون بالحفظ وقوة الحافظة، ويوصف أحمد المقرّي بأنه أحفظ أهل زمانه مشيراً أنّ ظاهرة الحفظ والتقليد جمّدت الإنتاج في العلوم كلّها³.

ثمّ دعا ابن العنّابي إلى الثورة على الجمود العقلي السائد على علماء الجزائر بالأخذ بأسباب الحضارة الغربية، ثمّ دعا إلى الحدّ من نشاط الدراوشيين الذين أضروا بالمجتمع حسب رأيه في كل العلوم مؤكّداً ما ذكره دوطاسي في هذا الشأن، فهذه العلوم حسب ابن العنّابي تحتاج إلى ثقافة واسعة وعميقة كالتفسير، ذلك أنّ مفسّر القرآن الكريم يحتاج إلى ثقافة دينية، تاريخية ولغوية قوية وهو ما لم يكن يتوفّر عند الجزائريين في العهد العثماني⁴.

وانطلاقاً من كل ذلك يمكن القول أنّ كل من المصادر المحلية والأجنبية أكّدت أنّ حالة التعليم في الجزائر في العهد العثماني سيّئة، وهو أيضاً ما جنح إليه الدكتور أبو القاسم سعد الله في موسوعته الثقافية لاسيما في مسألة اهتمام العثمانيين بالتعليم، فقد ذكر أنّ هذا الاهتمام كان غائباً كون أغلب العثمانيين خاصة جنود الإنكشارية وبعض رجال الدولة كانوا عوّاباً ومجملهم دون أطفال لذلك لم يتحسّسوا قضية التعليم كما أنّ أغلبهم حديثي العهد بالإسلام وذوي تكوين ثقافي ضعيف ناهيك عن

¹ Venture De Paradis, op.cit., p 160.

* وفي ذلك ذكر توماس شو بأنّ الأتراك بظلمهم الذي عاملوا به السكّان لم يسمحوا لهم ولا لغيرهم بالانتقال بالعلوم، ولقد كان الأتراك يتميّزون بروح قلقة وعاصفة وكانوا يصرفون أموالهم في مضاربات تافهة لا فائدة منها، أنظر: Thomas Show, op.cit., p 151.

² A. Devoulx, Les édifices, op.cit., p 232.

³ الفكون، المصدر السابق، ص 232.

⁴ أبو القاسم سعد الله، ابن العنّابي، المرجع السابق، ص 11، 12.

سوء الأوضاع السياسيّة والعسكريّة المحيطة بالإيالة¹، وهو ما جعله متروكا لجهود الجزائريين سواء جهود فردية لبعض العلماء أو الأسر الذين رغم فقرهم أحيانا، تحمّلوا أعباءه وحرصوا على تعليم أبنائهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم²، وهو ما ذكره وليام شارل في قوله "إذ أوقفوا الحبس من أجل حماية المدرسة بهذه الهبات ثم بحفظ وتوفير المعلمين لكن بالمقابل ذلك للحفاظ على المفهوم الديني، وبقي التعليم ضيقا وطائفيا المرجو منه تعليم الأطفال وقراءة القرآن"³.

وعلى ضوء كل ما سبق يمكن القول أنّ حالة التعليم في العهد العثماني كانت شبيهة بفترة العصور الوسطى في أوروبا أو تعليم محو الأمية في الفترة الزاهنة.

2- المؤسسات التعليميّة:

أ- المساجد:

تعدّ المساجد روح وجوهر العقيدة الإسلاميّة، فلا يمكن أن تخلو منها أي مدينة من المدن الإسلاميّة، كما كانت المساجد في الأرياف بمثابة رابطة بين السكان لاشتراكهم في تشييدها، فلا نكاد أيضا نجد قرية أو حيّ دون مسجد والذي يعدّ مكانا للعبادة ومركزا للإشعاع العلمي⁴، وقد اهتمت الكتابات الأجنبيّة بهذه المؤسسة الدينيّة لما كانت تقوم به من أدوار مختلفة وملكانتها في نفوس الجزائريين، فمن بين الأدوار الهامة التي كان يؤدّيها المسجد: الدور التعليمي، فقد كانت أغلب مساجد الجزائر حافلة بحلقات الدروس اليوميّة والعلوم التي كانت تدرّس في تلك الفترة، فقد خصّص دو هايدو حيّزا هاما للحديث عن المساجد ووصفها بأنّها مؤسسات لائقة تستحقّ الثناء، وقال بأنّها في حدود المائة مسجد ما بين الكبيرة والصغيرة وهي مسيرة من طرف المرابطين، ثمّ أشار إلى أنّ أغلبها مشيّدة من طرف الأوروبيين والأتراك ولها دخلها الخاص سواء كبيرا أو صغيرا⁵، وقد قدّم بالوصف سبعة مساجد، ولاحظ من خلال الفترة الطويلة التي قضاها في مدينة الجزائر (1571-1581م)، بأنّ هذه المساجد كانت تنمّ عن الحياة

¹ أبو القاسم سعد الله، ص تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص

² CH. Vallière, op.cit., p 26.

³ وليام شارل، المصدر السابق، ص 199.

⁴ أشرف محمد السيد، المراكز الثقافية في دار السلطان أواخر العهد التركي، مجلّة أمايا تاك، الصادرة عن الأكاديمية الأمريكية العربيّة للعلوم والتكنولوجيا، ج7، 2017، ص64.

⁵ De haydo, op.cit., p113.

بداخلها، وهذا حسب هايدو نظرا للدور الذي كان يقوم به الأئمة (أو ما أسماهم بالمرابطين) والذين كانوا يحرصون بكل نشاط وحيوية على نظافة المكان وإشعال المصابيح في أوقات الصلاة ونداء العامة للصلاة وإمامة الناس واصفا طريقة الأذان ورفع العلم فوق المنارة في منتصف النهار وهي عادة ملازمة لمناداة الناس لكل صلاة¹.

ومن الأدوار المنوطة بها حلقات الذكر والتدريس التي كانت تقام يوميًا في المساجد وتحقيق مقابل ذلك عائدات تمنح لموظفي المساجد الكبرى إذ يتلقون ما بين 7 و 8 دويلا « double » كما يتحصلون من الباشا على راتب شهري يتراوح بين 10 و 20 دويلا²، كما أحصى الأسير البرتغالي جوا ماسكارنيهاس « Pedro Mascarenhas » (1621-1626) عدد المساجد بمدينة الجزائر بحوالي 110 وهي مؤثثة بسجاد ومصابيح، وهناك 8 مساجد مزودة بمنازل عالية على كل منارة سارية يوضع بها علم وقت الصلاة، وأضاف أنها مزودة بنافورات و 4 حنفيات تستعمل من طرف الأتراك للاغتسال أثناء الصلاة³، وأما دوطاسي « De Tassy » في القرن 18م، فأشار أنه يوجد في مدينة الجزائر 4 مساجد كبيرة وحوالي 50 مسجدا صغيرا⁴، وفي ذلك السياق أحصى فونتور دي بارادي « De Paradis » (القرن 18م) أنّ المدينة كانت تضم حوالي 12 مسجدا كبيرا والكثير من المساجد الصغيرة أغلبها على المذهب المالكي⁵، وعن مساجد الرّيف ذكر لامبير « Lambert » أنه توجد في كل قرية أو دشرة بالمناطق الجبلية وهي مباني بنيت من الطين ولها دورين: دور تعبدي ودور اجتماعي يتمثل في إيواء المسافرين والتكفل بهم ولها وكيل أو شيخ الدشرة أو القرية، أي أنها لم تكن تؤدي الدور التعليمي الذي كلّفت به الرباطات والزوايا⁶.

ولم يغفل رجال الدين المسيحيين أمثال الأب دان (Dan)، وإيمانويل دارندا (Daranda)، عن الحديث عن هذه المؤسسات الدينية، فأشاروا إلى وجود عدد كبير من المساجد لكن دون ذكر تفاصيل كثيرة عنها، واقتصر حديثهم على بعض الوصف الخارجي لها وطريقة بناءها دون تفاصيل عن الحياة

¹ De haydo, op.cit., p14.

² Ibid, p15.

³ Pedro Mascarenhas, op.cit., p164.

⁴ De Tassy, op.cit., p164.

⁵ Venture de Paradis, op.cit., p254.

⁶ L'Abbe Edmond Lambert, op.cit., p331.

بداخلها¹، وهي الملاحظة التي يمكن استخلاصها من تصفحنا لعدد من المصادر الأجنبية التي قدّمت إشارات مختصرة عن هذه المؤسسات الدينية والعلمية الهامة في مختلف مدن وقرى الإيالة، في حين تخلو الكثير من جلّ الكتابات الأجنبية عن ذكرها ونظرا لأنّ كتابات القرن 18م، قد بدأت تحمل بعض الجديد، فنجد القنصل الفرنسي فاليار (Vallière) يصف مساجد مدينة الجزائر بأنّها تشبه مساجد الشرق وهي مؤسسات مبنية بترف وعظمة، لكنها منشأة بدوق بسيط ووعاء واسع وبها سجّاد ومصاييح، ومن شرفة صغيرة في المنارة ينادى للصلاة دون إشارة إلى دورها الوظيفي².

ولعلّ الإجابة عن تساؤلنا عن قلّة التفاصيل التي أوردتها الكتابات الأجنبية عن الحياة داخل المسجد قد أجاب عنها وليام شارل (القرن 19م)، عندما اعترف بأنّ المسيحي غير مسموح له بالدخول إلى المساجد لذلك لم يأت على ذكرها بأوصافها، وأشار أنّها من المباني العمومية، وهناك تسعة منها كبيرة إلى جانب عدد لا يحصى من المساجد الصغيرة³.

كما سجّل الضابط الفرنسي روزيت (Rozet)، أثناء الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر سنة 1830م، بأنّ المساجد من المؤسسات المهمة في المدينة، وحصر عددها بحوالي عشر مساجد كبرى وخمسون صغيرة، مقدّما وصفا مفصّلا عن تفاصيل هندستها الداخليّة، كما أشار إلى أنّها مكان لإلقاء الدروس إلى جانب دورها الرئيسي في أداء الصلوات⁴، أمّا مصادر الرحلة المغربية فقد أسهبت في الحديث عن المساجد باعتبارها مراكز تعليميّة وعلى رأسهم رحلة ابن زاكور، وذلك لمنطلق رحلته وهي الاستزادة بالعلوم بمدينة الجزائر، فخصّص جزءا فصل فيه الطّرق والمسائل وأنواع العلوم التي كان يتم جزء كبير منها في المساجد وبالأخصّ المسجد الكبير الذي كان محطّ أنظار عدد من العلماء، الفقهاء والأئمّة والأعلام، وفي ذات السياق ذكر ابن زاكور عن ذلك "...غرر أعلام ينجلي بهم الإظلام وشمس أئمّة تتفرّج لهم كلّ غمّة وتفتخر لهم أخيار هذه الأئمّة..."، هؤلاء كانوا مقصد الطلاب من كلّ مكان⁵، ثمّ

¹ P. Dan, op.cit., p 261.

² F. Valliere, op.cit., p30.

³ وليام شارل، المصدر السابق، ص98.

⁴ Rozet et carette, op cit, pp14, 15.

⁵ ابن زاكور، المصدر السابق، ص64.

تحدّث المقرّي عن خطباء وعلماء وفقهاء المدينة الذين جالسهم داخل مساجد كانت مكان للمناظرات العلمية بين العلماء¹.

وقد أخبرنا ابن حمادوش في رحلته عن الحياة داخل المسجد فيما يخص طرق التدريس مذكراً ببعض القراء والعلماء الذين كانوا يدرّسون، ثمّ تحدّث عن الصلاة المعهودة عقب خمسة، وتحدّث أيضاً عن الدروس التي كان يلقونها بعض العلماء أثناء زيارتهم للمدينة، مثل الدرس الذي قدّمه الشيخ الورززي، وهو أحد علماء المغرب الأقصى على علماء مدينة الجزائر²، ومن جهة ذكر الرحالة المغربي الزباني أنه: "لما دخلت مدينة تلمسان... فكنت أقصد المسجد الجامع لعليّ أجمع... وأبحث عن الأعيان والأعلام وأهل المنابر والأقلام..."³.

وفي قسنطينة أشرف الشيخ عبد الكريم الفكون على التدريس في مسجد المدينة، حيث كان يتكفل بالتّفقة على الطلبة، ويشير الورثيلاي الذي زار المدينة في القرن 18م، أنه يوجد بها نحو خمس مساجد⁴.

وفي مجملها ذكر أبو القاسم سعد الله في وثيقة عثر عليها أنّ المدينة كانت تضمّ واحد وسبعون مسجداً، واحتوى كلّ منها على مقاعد مخصّصة لحفظ القرآن⁵.

وفي سياق الحديث عن المساجد نشير إلى ما ذكره دوبارادي (De Paradis)، عن وجود ثلاث جامعات مختصّة في تدريس المذهب المالكي⁶، وهو ما لم تذكره مجمل الكتابات المحليّة والأجنبيّة وفي هذا الصدد يقول الدكتور سعد الله أنّ مدينة الجزائر عاصمة الإيالة لم تكن بها جامعة واحدة بالأمر المتعارف عليه على غرار جامع الزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب الأقصى غير أنّ الدروس كانت تقدّم في جوامعها مثل الجامع الأعظم كانت تضاهي في قيمتها العلميّة والمعرفيّة ما كان يقدّم في الجامعات الكبرى كالجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين، حيث يشرف عليها عدد من العلماء عُرفوا بتجربتهم في مختلف

¹ أبو العباس المقرّي، المصدر السابق، ص 72-75.

² ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 34-135.

³ الزباني، الترجمة، ص 141.

⁴ الورثيلاي، المصدر السابق، ص 125.

⁵ عبد القادر دحدوح، المعالم الأثرية بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015، ص 170.

⁶ Venture de paradis, op.cit., p254.

العلوم ولاسيما العلوم الشرعية أثناء رحلاتهم الكثيرة مشرقا ومغربا¹، يقوم بخدمة الجامع الأعظم 19 مدرّسا و18 مؤدّنا و8 حزابين و13 قيما، بالإضافة إلى ثلاث وكلاء يسهرون على تنظيم الأعمال به، فكان بذلك محطّ أنظار العديد من أصحاب الرحلة بنوعيتها العربية والأوروبية².

وهي في نظر الكثير من المؤرّخين ما يعاب بالدّرجة الأولى على السلطنة العثمانية التي لم تقدّر قيمة العلم والعلماء، فلم توفّر أي جهد لتحويل هذا الصرح الحضاري إلى جامعة ومعهد عال يضاها على الأقل ما كان موجودا في باقي دول العالم الإسلامي*.

ب- الزوايا:

تكاد تخلو المصادر الأجنبية عامّة من الحديث عن الزوايا إلا فيما ذكره الألماني هاينريش فون مالتسان³ بخصوص التعليم فيما أسماه بالزوايا الريفية، في قوله: "كانت أصوات التلاميذ تمزّق الآذان عندما بدأوا يقرأون الفاتحة في زاوية شلالاته ببلاد القبائل الكبرى".

كما أشار لامبير أنّ الكثير من الزوايا الريفية كانت تقدّم تعليما متنوّعا أساسه تعلّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب دون ارتكاب أخطاء، إضافة إلى التفسير، النحو، البلاغة، وبعض الحساب⁴، أمّا فونتور دوبارادي فاعتبرها نوع من أنواع المساجد الصغيرة في سياق حديثه عن المساجد في مدينة الجزائر، وأشار أنّها كانت ملاذ للفارين من مختلف العقوبات وكانت مقدّمة من طرف السلطة والعامّة، خاصّة تلك التي تبنى على ضريح وأحصى ثلاث زوايا هامة وهي: زاوية سيدي عبد الرحمان وتقع في المخرج الشمالي لشارع باب الواد، زاوية سيدي عبد القادر وزاوية واد دادا التي بلغت خوارقها حدّ الأسطورة⁵.

¹ عبد القادر نور الدين، المرجع السابق، ص207.

² بلقاسم عياشي، واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني من خلال كتابات الباحثين الجزائريين، مجلة حوليات، م4، ع7، 2011، ص42.

* تجدر الإشارة إلى أن هذا المسجد قد بني على يد يوسف بن تاشفين المرابطي سنة 490 هـ / 1097م، وقد خصّه العديد من الرحالة بالوصف، وبعد تعرّضه للتهديم بفعل الزلازل التي ضربت المدينة أعاد بناءه حسن بوحنك سنة 1156هـ، وخصّص للصلاة والتعليم وقد خصّص له أوقاف هامة، للمزيد أنظر: نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص155.

³ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج2، ص134.

⁴ L'Abbè Lambert, op.cit., p331, 332.

⁵ Venture de Paradis, op.cit., p216.

وقد وردت إشارات عابرة عن دور الزوايا التعليمي في الكتابات المغربية، حيث ذكر الوزان في سياق حديثه عن مدينة بجاية بأنها يوجد فيها زاوية للمتصوفة¹، ثم أورد العياشي أسماء بعض الزوايا الصحراوية التي مرّ بها مثل زاوية سيدي عبد الرحمان الأخضرى بنواحي بسكرة²، وتحدّث الدرعيّ في رحلته عن زاوية بمنطقة أولاد جابر حرز الله في أعماق الصحراء³، وذكر الزباني زاوية سيدي عقبة ببسكرة بأنها بنيت على مسجد الولي الصالح سيدي عبد الرحمان الأخضرى⁴.

ولعلّ عدم حضور الزوايا في المصادر الأجنبية وخاصة الغربية منها يعود إلى انتشارها بصفة خاصة في المناطق البعيدة والنائية التي نادرا ما وصل إليها هؤلاء، بالرغم من أنّ الرحالة أمثال بيصونال Pyssonel، وديفونتين في رحلتهم من تونس وصولا إلى مدينة الجزائر كانوا يتحدثون عن مظاهر كثيرة عن الزّيف دون إشارة إلى هذا المعلم الثقافي الهام في حياة الجزائريين⁵.

وعموما فإنّ من الأسباب التي أدت إلى انتشار الزوايا خاصة في المناطق الجبلية والريفية الداخلية عامة هو انتقال العلماء من بجاية والحواضر العلمية إلى هذه المناطق هروبا من الاحتلال الإسباني لها، وقد ساهم بعضهم في تأسيس زوايا علمية ناقلين كنوزهم المعرفية والعلمية إلى هذه المناطق المنيعّة تنفيذًا لوصية الشيخ الثعالبي إلى أحد تلاميذه المقيمين ببجاية⁶، ونتيجة لهذه الظروف تحوّلت الكثير من الزوايا إلى مراكز تعليمية بعد أن كان دورها يقتصر في إيواء عابري السبيل، إطعام الفقراء، أو مراكز وأربطة للجهاد، غير أنّ أحداث القرن السادس عشر جعلت حركة التعليم لم تكلف هؤلاء العلماء جهدا لانطلاقها في الأرياف والمناطق الجبلية وهو ما ذكره ابن مريم عندما عرف بسيدي عبد الرحمان بن محمّد بن محمّد بن موسى الذي أخذ عن علماء زاوية في حدود 929هـ-1523م.

وعموما فقد أشارت الكتابات الأجنبية في سياق حديثها عن الانتشار الواسع للتعليم الأولي في الجزائر إلى انتشاره وأيضا في الأرياف والمناطق النائية مثلما أشرنا سابقا.

¹ حسن الوزان، المصدر السابق، ص50.

² العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص542.

³ الدرعي، الرحلة التاصرية، ص716.

⁴ الزباني، المصدر السابق، ص143.

⁵ Pyssonel, op.cit., p315.

⁶ المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء، في وهران والقبائل الكبرى، مجلّة الأصالة، ع13، 1972، مطبعة الشعب، قسنطينة، ص26.

وقد ورد تعريف للزاوية لدى دوماس (Doumas) بأنها مؤسسة دينية ودار مجانية للضيوف وبذلك تشبه الدير في العصور الوسطى¹، أما هاينريش فون مالتسان فيعرفها بأنها مكان للغرباء والأجانب يكون ملحق بالمسجد مخصّص لعابري السبيل الذين لا يختلطون بالطلبة²، وإذا أخذنا بالمعنى العام للزاوية التعليمية في العهد العثماني فهي أماكن لتعليم الطلبة، وهي أبنية متلاصقة تتكوّن من عدّة غرف وحجرات للتدريس ومسجدا، وهذا النوع غالبا ما تكون الأراضي التي أقيمت عليها وما حولها حبساً لها، ووفقاً لطلبتها الذين يتلقون العلم بها ويقومون بها يطلق عليها "المعمرة" لكونها عامرة بالطلبة الذين يتعلّمون القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم وعلوم أخرى كاللغة والحساب والتاريخ، وإلى ذلك من العلوم المتداولة في ذلك الوقت³.

أما النوع الثاني من الزوايا "أي الزوايا الصوفية" فيعتبر الدكتور أبو القاسم سعد الله أنه من أبرز مميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الطرق الصوفية، بحيث كانت منتشرة في الأرياف، المدن، الجبال والصحاري، وعاش معظم المتصوّفة يبتون عقائدهم ويلقّنون أتباعهم الأذكار والأوراد مبتعدين عن صخب الحياة مؤثرين العزلة والعبادة، وكثيرا ما كانوا يعلمون المزيد من العامة مبادئ الدين، فإذا ما اشتهر أحدهم من الناس أسّس لنفسه مركزا يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع، ويعلم الطلبة طريقة أستاذه في الأذكار ويتبرّع الناس لهذا المركز فيكثر ويتضاعف زوّاره ومرتدوه، ويصبح اسم المتصوّف (المرابط) رمزا للمكان ويصبح المكان يدعى "زاوية فلان"⁴.

ومن بين أشهر الطرق الصوفية التي أعطت أهمية لنشر التعليم في الجزائر: الطريقة القادرية والطريقة الرحمانية، وكانت كلّ طريقة تحمل أسماء مختلفة حسب المناطق والمشايخ والمقدمين، انتشر عددها أكثر وهي جزء من المساجد حيث أشارت المصادر إلى وجود 343 زاوية⁵، وهي منتشرة بكثرة في غرب

¹ Doumas et Fabes, la grande Kabylie, librairie à L'université royale et France, Alger, 1847, p238.

² هاينريش فول مالتسان، المصدر السابق، ص130.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 265.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص 261-266.

⁵ Xavier Coppoloni et H. Dépot, Les confrérie religieuses musulmanes, Adolph Jordan, Alger, 1897, p 215.

الجزائر عن شرقها، ولعلّ ذلك راجع إلى إستمرار حياة الجهاد والقرب من المغرب الأقصى الذي كان يعرف نشاطا صوفيا واسعا، ومن أشهر زوايا تلمسان: زاوية مازونة ووهران¹.

وقد أفاد أدريان دلباش "Adrien Delpeche"، بمعلومات عن الإجازة التي كان يقدمها مُجّد عبد الرحمان الأزهري مؤسس الزاوية الرحمانية بمنطقة جرجرة، حيث كان يذكر بالمشوار العلمي للطالب ذاكرة شيوخه والفقهاء الذين تداولوا على تدريسه والمصادر الفقهية التي درسها، وتقدّم له بذكر ورد الطريقة الخلوتية وسورة الفاتحة ثلاث مرّات²، كما كتب لامبير أنّه لا يغادر الزاوية الريفية أي طالب إلا بعد أن يجتمع معلّمه فيقرأ أحدهم الفاتحة فيشكره الطالب ويطلب منه العفو إذا سبّب له المتاعب في مشواره الدراسي³، ثم ذكر أنّ الشاب الذي يقصد الزاوية الريفية للدراسة لا يصطحب معه الأغذية وملابسه لأنّ التدريس بالزاوية مجاني، لأن العلم لا يباع، فيأكل الطلبة جماعة ومصدر الغداء تلك المؤونة التي تصل المرابط إلى زاويته من القبائل المجاورة في شكل زكاة وصدقات إذ يتحمّل القبائل أعباء الزاوية وعادة ما تدعى بالقبائل المرابطية، وعند إنقضاء مدّة إقامتهم بالزاوية يتعلّمون فيها علوم الدين والشريعة ويعودون بعد ست أو سبع سنوات من التعلّم إلى قبائلهم يفتحون كتاتيب صغيرة لتعليم الأطفال⁴.

وعن دور الزوايا التعليمية ذكر دونوفو Deneuve، في بداية الاحتلال أنّ شيوخها المتشبعين بمبادئ الإسلام، والذي يغدّبهم حقد لا هوادة فيه ضد النصارى، كانوا يحاولون دائما تلقين المبادئ وهو الجيل الذي قام بمقاومتنا⁵، ولذلك يمكن القول أنّ زوايا العلم قد تأسست لأداء نشاط تعليمي حطي بمكانة هامة ودور فعّال داخل المجتمع الجزائري خاصة في الأرياف، حيث قام هؤلاء بتعليم الطلبة ما يلزمهم من علوم اللّغة، الشريعة، التاريخ، ثم ساهموا في نشر القيم والفضائل والأخلاق فعرف الكثير من شيوخ زوايا التعليم بسلوكهم أكثر من التعليم بأقوالهم، ثمّ كانت هذه الزوايا مخازن ودواوين للكتب

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص 268-287.

² Adrien Delpech, Un Diplôme, in R.A, N° 161, 1883, pp 422- 427.

³ L'Abbè Lambert, op.cit., p331.

⁴ Ibid, p331.

⁵ Deneuve, les Khouren ordre religieux chez les musulmans de l'Algérie, 3ème Edition, A Jourdan, Alger, 1913, p 109.

والمخطوطات في مختلف العلوم وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها والطلبة بأنفسهم بنقل الكتب وجمعها، وبذلك كانت من أكبر مراكز التعليم التي أدت دورها داخل المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة¹.

ج- المدارس:

قد أحصى دوهايدو في القرن (16م) وجود حوالي 100 مدرسة يقوم عليها بعض المرابطين وهم أساتذة مدارس يعلّمون الأطفال القراءة والكتابة بالعربية والتركية، وهناك مدارس مخصّصة لهذه الفئة أو تلك، كما يعلّمون الأطفال العدّ بطريقة "فيتاغور" وطريقة كتابة الأرقام مثلها عند المسيحيين، كما يتعلّمون أشهر السنة وهي الطريقة التي يعيّنون بها أعيادهم ومناسباتهم الدينية²، وأشار أيضا إلى أن أغلب هذه المدارس كان مخصّصا لتعليم الأطفال القرآن الكريم، حيث تحدّث عن طرق مكافئتهم المعلّمين الذين يحفظون جزء من القرآن، حيث تقدّر له 2 أو 3 دويلا، وفي حالة ما إذا حفظ القرآن كاملا في ثلاث سنوات يقدّم للمعلّم أكلة جيّدة ولكل زملائه مع هديّة، ثم تقدّم له حوالي 15 أو 20 دويلا تكريما له، وهناك من العائلات من تقدّم له اللباس جاهزا، وهو ما يسمى بالفرجة³.

وفي نفس السياق يصف بانتي (pananti)، مشهدا احتفاليا لحافظ القرآن الكريم الذي يمتطي حصانا ويجول به في أرجاء المدينة برفقة زملائه وقد يصبح معلّما، وهو نوع من التباهي والافتخار لدى الجزائريين لكل من يحفظ القرآن الكريم⁴، ويذكر دو طاسي أنّ كثرة المدارس في مدينة الجزائر صعب عليه إحصاءها ثم يبيّن أنّ التعليم سواء في الكتاب أو المدرسة الصغيرة كان منتشرا بشكل كبير، وهو تعليم قاعدي لا يخرج عن تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم⁵.

وهذا ما يؤكّده الدكتور شاو (show)، في رحلته، حيث يضيف إلى كل ما سبق أنّ الأهالي والأتراك كانوا يرسلون أبناءهم إلى المدرسة في سن السادسة لتعلم آيات من القرآن، ثم بعد ذلك يتعلّمون جميع قواعد دينهم باهتمام بالغ⁶، وينفرد شو بقوله أنّ الطفل بعد أن يقضي ثلاث أو أربع سنوات في

¹ يحي بوعزيز، تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص134.

² De Haydo, op.cit., p114.

³ Ibid, p115.

⁴ Pananti, op.cit., p114.

⁵ De Tassy, op.cit., p104.

⁶ Thomas Show, op.cit., p78.

المدرسة سيتعلّم حرفه ما، أو يجنّد في احدى فرق الجيش فيصبح سنجقدار (sanja kdar)، أو معلّمًا للجيش¹.

وفي حديثه عن المدارس العموميّة أحصى الأسير الأمريكي كاتكارت (القرن 19) وجود أربعة مدارس في مدينة الجزائر، هي حسب وصفه بنايات مربعة تتألّف من غرفة صغيرة فيها يتمّ تعلّم القرآن والكتابة والحساب، والمعلّمون هم أئمّة المساجد، يتلقّون منحة سنوية من الحكومة إلى جانب بعض الهدايا من الأهالي الجزائريين، ولاحظ تدنيّ مستوى التعليم في هذه المدارس التي تعتمد حسب قوله في تسييرها على تبرّعات المحسنين².

يذكر فاليار بأنّ مدينة الجزائر كانت تضمّ عدّة مدارس منتشرة في أحيائها، وهي حجر صغيرة يتوسّطها معلّم يحمل بيده عصا وبجانبه يجلس الأطفال القرفصاء خلف بعضهم البعض، ولتقليل التكاليف ومصاريف التدريس اكتفى التلاميذ باستعمال قطعة طيشور ولوحة خشبية للكتابة بدل من الأوراق وقلم الحبر³، وهو نفس الوصف تقريبا نجده عند الفرنسي بولارد (Beaulard)، الذي وصف المدارس بمدينة الجزائر بالبسيطة، وهي غرفة غير مؤثّثة باستثناء فراش يجلس عليه الأطفال الذين يجتمعون من أجل أخذ الدروس⁴، أما دو بارادي فيحصي عدد المدارس بمدينة الجزائر بـ: 12 مدرسة، إضافة إلى عدد من المدارس الصغيرة والتي يسمّيها المسيد، وينفرد بالإشارة: إلى ما ذكرنا بوجود ثلاث جامعات مختصّة في تدريس المذهب المالكي⁵.

ويذكر فيرو في التقرير الذي أعدّه حول المباني الدينيّة في مدينة قسنطينة أنّها كانت تضمّ منذ عهد صالح باي إلى غاية سقوطها في يد الفرنسيين مستندا فيه إلى بعض الوثائق الرسمية والسجلات الوقفية

¹ Thomas Show, op.cit., pp78, 79.

² كاتكارت، المرجع السابق، ص 99.

³ PH. Valliere, op.cit., p26.

⁴ Louis Beaulard, Un voyage en Afrique est description d'Alger, impriment de X Jullien, p67.

⁵ Venture de Paradis, op.cit., p254, 255.

حوالي 3 مدارس كبرى، وهي: مدرسة بوسنيسة، مدرسة سيدي حيلوف والمدرسة التابعة للجامع الكبير بسوق الغزل والتي خصّصت لها أوقاف كبيرة¹.

وعلى عكس النظرة الضيقة لما كتبه أغلب الأوروبيين حول واقع التعليم في الجزائر خلال القرنين 16 و17م، نجد الكتابات الأمريكية تحمل بعض التفاؤل فيما كتبه وليام شارل (القرن 19)، حيث ذكر بأنّ مدينة الجزائر كانت تضمّ الكثير من المدارس العادية التي يتردّد عليها عدد من الأطفال، ويشيد في مجمل كلامه عن فضل العرب في تلقين الغرب الطرق التربوية².

وقد أشارت كتب الرحلة أن هذه المدارس كانت تبنى من طرف العامة، وهي في شكلها العام بسيطة ولا يوجد فيها ما يستدعي الحديث عنها³، غير أنّ ابن حمادوش ذكر أنّه كان يرسل ابنه إلى الكتاب العماني ثم نقله إلى الشماعين، دليل على أنّ هذه المدارس كان يرتادها أبناء الجزائريين من مختلف فئاتهم⁴، أمّا الورثياني فقد تحدّث عن عدم اهتمام الأتراك ببناء المدارس بقسنطينة، وعن استيلائهم على الأحباس والأوقاف التي تدعمها ببسكرة ما سبّب اندثار التعليم وأهله⁵.

وقد ذكر الرحالة المغربي العياشي وجود مدرسة للطلبة المهاجرين في منطقة أولاد جلال بالقرب من بلاد ميزاب⁶، والتي أشار إليها أيضا الدرعي وقال أنّها مدرسة خاصّة بالطلبة الغرباء⁷، ثم ورد عند الجامعي أنّ حاضرة الجزائر كانت تضمّ نحو مئة مكتب مملوءة بالأولاد⁸.

¹ Charles Feraud, Ces anciens Établissement, op.cit., pp 130-131.

² وليام شارل، المصدر السابق، ص82.

³ Ryssonel, op.cit., p251.

⁴ ابن حمادوش، المصدر السابق، ص221.

⁵ الورثياني، الرحلة الورثانية، ج3، ص354.

⁶ العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص545.

⁷ أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية (1709-1710)، ط1، تح عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2011، ص136.

⁸ نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص202.

د- المكتبات:

إندهش الباحثون الفرنسيون الذين رافقوا الحملة الفرنسية على الجزائريين سنة 1830م من كثرة الكتب والمخطوطات التي عثروا عليها في المساجد والزوايا، بل وأبدوا إعجابا كبيرا بجمالها وطريقة العناية بها في مختلف المدن والحواضر وحتى الصحراء.

فقد كان اعتناء الجزائريين بتوفير الكتب وملئ خزائن المكتبات بأقلام هذه الكتب يعود إلى العهد الزياني، وقد ساهم ذلك في تحويل تلمسان إلى منارة للعلم والعلماء، ولما كان الكتاب وسيلة تعليمية هامة بادر بنو زيان إلى إنشاء مكتبات داخل قصورهم وجلبوا إليها الكتب من مختلف الأمصار وغالبا ما وقعت في متناول الزوايا والمساجد، وبالرغم من سيادة الطابع الديني على هذه الكتب حيث كانت في مجملها حول علوم الفقه، الحديث، التفسير، اللغة، التصوف، التراجم، التاريخ، وبعض الفلك والحساب¹.

وهو ما تحدّث عنه الرحالة المغربي التيمقوتي (ق10هـ/16م)، حيث ذكر أنّ مدينة الجزائر كانت غنيّة بالمكتبات والكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقيا، وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا².

وقد تنوّعت المكتبات في الجزائر خلال هذه الفترة إلى نوعين: مكتبات عامة وتضمّ المخطوطات في شتى العلوم لاسيما العلوم الشرعية - كما أشرنا - يلجأ إليها الطلبة والمعلمون، وهي وقفا على المساجد والزوايا والمدارس³، ومكتبات خاصة بالعائلات والبيوتات العلمية والأعيان وبعض العلماء الذين كانوا يأترون ثراء الكتب على ملئ معدّتهم بالأكل الجيد والفرش المريح على حدّ وصف الدكتور سعد الله⁴.

فقد ذكر الرحالة المغربي العياشي أنّه التقى مع الشيخ محمد بن سماعيل المنساوي القراري أثناء رحلته، وأنّه كانت له مكتبة عامرة قلّ نظيرها⁵، ثم ذكر أبو راس الناصري في سياق حديثه عن أحد

¹ بشير رمضان التليسي، الإنجازات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن (10هـ - 16م)، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، د.ت، ص488.

² التيمقوتي، المصدر السابق، ص133.

³ محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص601.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص326.

⁵ سعيدوني، من التراث الإسلامي والجغرافي للمغرب الإسلامي، تراجم المؤرخين ورحالة جغرافيين، بيروت، 1999، ص376.

علماء المدينة وهو ابن الحاج البيدري الذي ركب معه الرحلة حاملا معه مكتبة وجزء من مكتبة المسجد الكبير بتلمسان الذي يزيد عدد كتبها عن ألفين كتاب¹.

وإلى جانب المكتبات الخاصة التي يملكها العلماء والبيوتات العلميّة ذات الشهرة الواسعة، إهتمّ الورّاقون بجمع الكتب ونسخها في الدكاكين التي كانت مكان لبيع السلع ونسخ الكتب والمصاحف، ثمّ عرفت الزوايا تكليف بعض الطلبة ممن عُرفوا بجودة خطّهم بنسخ الكتب فكانت تقدّم لهم المؤلّفات فينسخون منها نسخة أو أكثر تضاف إلى خزانة الزاوية وهو ما أشاد به الرحّالة الألماني هاینرش فون مالتسان أنّ كثيرا من الطلبة كان خطّهم جميلا².

ولشدة انتشار هذه المكتبات حتى في المناطق النائية والبعيدة أشار العياشي بوجود مكتبة غنيّة بالكتب بمنطقة كاكورارن بأعماق الصحراء يملكها الشيخ محمّد بن إسماعيل وتضمّ حوالي 1500 كتاب، إقتنى ابن إسماعيل أكثرها لما كان بمدينة إسطنبول، ثمّ أضاف أنّ أهل الصحراء يحتفظون بالكتب أكثر ممّا يحتفظون بغيرها وقد شاهد فيها نُسحا لعدد كبير ومتنوّع منها، ثمّ أشاد بمكتبة ورقلة التي وجدها تضمّ عدد من أمهات الكتب منها موطأ الإمام مالك، صحيح البخاري والمختصر وغيرها، ثمّ وجد في مكتبة أحد أعيان المدينة كتاب التوضّح، والتتالي والحواشي وغيرها الكثير....³.

وهو ما ذكره أيضا الدرعي الذي وجد في منطقة فجيج في أعماق الصحراء خزانة سيدي عبد الجبّار ملء بإجازات وفيها كتب عربيّة قريبة من الاندثار⁴.

أما مكتبة مازونة فقد كانت تضمّ خزانة رصيدها مكوّن من مجموعة من المخطوطات والتي وضعت في غرف خلف قاعة الصلاة مباشرة من جهة القبلة، وكانت فضاء علميّا للطلبة والمدرسين⁵.

وفي الجمل أكّد الدكتور سعد الله أنّ الجزائر خلال هذه الفترة كانت تواكب إلى حدّ ما البلدان الإسلاميّة في مجال النسخ لكثرة الكتب بها والمكتبات¹، فقد اشتهر منها الكثير من دور النشر في المدن

¹ أبو راس النَّاصري، المصدر السابق، ص ص 49، 50.

² هاینرش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 135.

³ العياشي، الرحلة، ج 1، صص 108 - 115.

⁴ الدرعي، المصدر السابق، ص 126.

⁵ رقاد سعديّة، المؤسّسات العلميّة ببايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1700-1830م)، مجلة عصور الجديدة، مج 8، ع 2، ديسمبر 2018، ص 116.

وكانت في مقدّمها مدينة تلمسان، التي بلغت فيها صناعة الكتب تأليفاً ونسخاً وجمعاً درجة عالية من الاجتهاد ممّا أدى إلى تنوع مكتباتها منها خاصة التي نجدها لدى العائلات الميسورة الحال التي جعلت من اقتناء الكتب هواية يتشبهون فيها بأهل العلم، وعمامة تابعة في الكثير من الأحيان للمساجد أو المدارس، كانت يجلب الكثير منها من بلاد الأندلس، المغرب، مصر، كما جلبت الكثير من المخطوطات من إسطنبول وبلاد الحجاز²، ويبدو أنّ في غالب الأحيان كان شراء هذه الكتب من طرف الأثرياء وحتى العلماء تعبيرا عن التباهي والتفاخر، أو البركة والتعبّد أكثر منه للاستفادة العلميّة³، كذلك كان لهذا الزخم الثقافي في كثرة الكتب وتنوّع المكتبات وغناها بالكتب إشارة ليست على المستوى التعليمي في جودة وكفاءة العلوم، فأكثر التأليف والكتب إن لم نقل كلّها تطغى عليها العلوم الشرعيّة (الصبغة الدينية) والتي كانت تستخدم بشكل واسع في جميع مستويات التعليم، إنّما هذا التأثير مثل ما أشار روزيت « Rozet » وغيره من ضباط الحملة في أنّ الأميّة كانت شبه منعدمة وأنّ كل الجزائريين كانوا يعرفون القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب، وأكّد أنّ الوضع كان أحسن ممّا كان في فرنسا⁴.

3- طرقه ومناهجه:

من الطبيعي أن تختلف طرائق التعليم ومناهجه باختلاف مؤسّساته ومستوياته، وقد أشارت الكتابات الأجنبية في مختلف الفترات التي عاشها أصحابها في الجزائر إلى بعض أساليب وطرق تعلّم الجزائريين، والملاحظ أنّ أغلبها قد تحدّث عن التعليم القاعدي أي الابتدائي دون الحديث عن المراحل التعليميّة الأخرى إلّا في إشارات قليلة في الكتابات المتأخّرة التي تعود إلى القرن 19م.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص285.

² رقاد سعدية، المرجع السابق، ص 128.

³ أبو القاسم سعد الله، الثقافي، ج1، ص293.

⁴ Rozet et Corrette, op.cit., p 230.

أ- مرحلة التعليم الابتدائي:

اختلفت أوضاعه من زمن لآخر ومن منطقة لأخرى حجما ومستوى وانطبعا وتأثيرا في الأساليب المتبعة في تعلم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم وعلوم اللغة وفنونها، فأغلب الكتابات الأجنبية أشارت إلى نظام الحلقة التي يتصدّر فيها الشيخ، أو المعلم أو المؤدّب الكتاب وتنظم الصبية حوله نصف دائرة يجلسون على حصيرة القرفصاء¹، وصف روزيت Rozet ذلك في قوله تجلس المؤدب عادة في صدر الكتاب متربعا على حصير مستندا ظهره إلى الجدار مرتديا عمامة وجبة فوقها وأحيانا بنوس وبيده عصا تصل أحيانا إلى أبعد تلميذ يستخدمها عند الحاجة، وكان التلاميذ يلتقون حوله في نصف دائرة وإذا كثروا تتعدّد حلقات هذه الدائرة وعموما فلم يكن يتجاوز عددهم 15 تلميذا ويبد كل تلميذ لوحة كبيرة أو صغيرة حسب إمكانياته².

وقد تحدّث دوطاسي De tassy أنّ الجزائريين في المدارس كانوا لا يستعملون الورق والذي يعوّض بلوح خشبي رقيق ومربّع يطلّى بطبقة خفيفة من الصلصال تسهّل على التلميذ إزالة الحروف التي خطّت عليه³، فكان حسب كاتكارت يمسح اللوحة بغسلها بالماء وهي طريقة اقتصادية مقارنة مع استخدام الورق⁴، هذا إضافة إلى أدوات أخرى بسيطة مصنوعة من القصب الذي ينحت بطنه قدر الظفر ليشكل ساقية تجري فيها المداد بعد شقّها عند الرأس على شكل مثلث، أمّا المداد أو السمق فتأخذ مادته من الودخ⁵، أمّا فاليار Valliere فتحدّث عن استخدام الأطفال لأدوات بسيطة إقتصرت على لوحة خشبية وقطعة طباشور وكانوا يمسحون الألواح بقطعة إسفنج مبللة وأحيانا يستخدمون بعض الأوراق البالية والاقلام الخشبية يصنعونها بأيديهم⁶.

¹ Ch.Vallière, op.cit., p26.

² Rozet, op.cit., p74.

³ De Tassy, op.cit., p121.

⁴ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص98.

⁵ وهو الصوف الموجود بين فخدي الشاة بعد حرقه على صفيحة من حديد ووضعه في محبرة زجاجية أو طينية ليضاف إليه الماء عند الإستعمال، (للمزيد أنظر أحمد الأزرق، الكتابات القرآنية ودورها في المحافظة على وحدة الأمة وأصالتها، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص36).

⁶ Ch.Vallière, op.cit., p26.

وبالرغم من بساطة الأدوات أبدى كاتكرات إعجابه وتعجبه في آن واحد لأن الأطفال كانوا يكتبون بخط غاية في الجمال حيث أتيحت له فرصة الاطلاع على بعض المصاحف¹ وهو نفس الإعجاب الذي أبداه الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان في سياق حديثه عن جمالية الخطوط العربيّة²، وعن طرق التعليم الابتدائي في الزاوية والكتاب، نورد الوصف الذي قدّمه الضابط الفرنسي روزيت Rozet، الذي ذكر بأنّه حضر أحد الحصص كاملة فيقول أنّ المعلّم كان يطلق عليه "سيدي" كان يمسك بعضى كبيرة، ويعلق الألواح على الحائط وعند دخول التلاميذ كانوا يتركوا أحذيتهم عند باب الكتاب ويقبل كل واحد منهم يد المعلّم قبل جلوسه لتلقي الدرس، حيث كانوا يجلسون بشكل دائري، ولم يُخف روزيت إعجابه بانضباط التلاميذ داخل الحصّة وهم يؤدّون العمل الذي كلفهم به المعلّم فيقول بأنّه ولشدة تركيزهم لم ينتبهوا لوجودي معهم³.

وعلى العموم فإنّ في هذه المرحلة يتدرّج المعلّم من مرحلة تعليم التلاميذ حروف الهجاء وضبطها بأشكالها وعند إتقانها لها يعمد إلى تعليمهم بعض السور القصيرة من القرآن الكريم، وإذا وصلوا سن السابعة يقوم بتعليمهم عقائد السنن ويأمر كل واحد منهم إلى أداء الصلوات فيعلّمه الوضوء والإقامة⁴، وعند إتقان القراءة والكتابة ينتقل التلميذ إلى الإملاء والحفظ، فقد يحفظ التلميذ النجيب القرآن الكريم في سن العاشرة وفي ذلك أشار هايدو أنّ من عادات الكتاب أنّه عندما يحفظ التلميذ القرآن كاملا يقام له حفلة صغيرة ثمّ تقدّم له هدايا تتمثّل في مبلغ من المال وبعض الحلوى والمؤونة كالقمح والشعير، زيت الزيتون، الخضر...⁵.

ويشار هنا إلى أنّ بعض الكتاتيب كانت تعلّم الأطفال قواعد تلاوة القرآن الكريم وتجويده وترتيله على طريقة الروايات المختلفة مع تحفيظهم بعض المتون للعلوم الفقهية والشرعية مثل ألفية ابن مالك وغيرها⁶.

¹ جيمس كاتكرات، المرجع السابق، ص 98.

² هاينريش فون مالتسان، المرجع السابق، ص 135.

³ Rozet, op.cit., p73.

⁴ Marcel Emerit, op.cit., p 205.

⁵ De Haydo, op.cit., p166.

⁶ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط3، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1988، ص 163.

وعن طرق حفظ السور القرآنية أشار بولار Beoulard أنّ الأطفال كانوا يكرّرون وهم يهزون بأجسادهم، كما ذكر روزيت Rozet أن عند الإنتهاء من كتابة السورة على الألواح تُرفع فيصحّ المعلّم الأخطاء ثم تحفظ السورة عن ظهر قلب وتردّد بشكل ملحون وبصوت مرتفع يكاد يخرم الأذان وهم يحرّكون أجسادهم من الأعلى إلى الأسفل مثل حركات الصلاة متسائلا عن سرّ حفظهم لها في مثل هذه الفوضى من الأصوات العالية¹.

وفي ذات السياق ذكر دو بارادي أنّ معظم ما كان يحفظ لا يفهم من طرف التلاميذ، وفي ذلك فصل الرحالة الألماني هاينريش أنّ مادة النحو كانت تلقن عند القبائل بطريقة بيغائية تحفظ بعد أن ينتهي التلميذ من حفظ سور القرآن الكريم، فمن لم يحفظ ليس جديرا بتعلّمه ولو كان ذكيا جدا، إذ أنّ القواعد النحوية لا تشرح وإنما تحفظ وعلى التلميذ التوصل إلى تفسيرها وإن كان له طموح فكري، وإذا استطاع التلميذ أن يفهم في النهاية رغم صعوبة هذا الدرس الآلي، فالفضل يعود إلى موهبته وحدها التي ساعدته على استيعاب ما سُرد عليه².

إنّ طريقة التلقين التي ميّزت أغلب مؤسّسات التعليم في هذه المرحلة قد تسببت في الأغلب في التخلف العلمي والثقافي الذي ساد هذه الفترة، ووصف عند بعض المصادر الأجنبية بأنها شبيهة بفترة العصور الوسطى³، وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض الدراسات الحديثة قد ألقت الضوء على بعض الطرق التعليميّة التي كانت مطبّقة في بعض المراكز التعليميّة مثل زوايا منطقة زواوة التي كانت تعتمد على نظام الحلقة، إذ يلتفّ الطلبة حول شيخهم الذي يأخذ مقطعا من المصحف فيقرأه ويشرحه ويحلّله وبعد إتمام ما كان مقرّرا في الحلقة يتولّى من عليه الدور من الطلبة لسرد الشرح وهذا السرد يتمّ بالتداول بين الطلبة أحد يقرأ والآخرون يستمعون ويتابعون، وهنا يقع نقاش بين المدرّس والطلبة ويختتم الشيخ الحلقة بطرح سؤال أو أكثر ويتطلّب هذا النوع من الدروس أربع ساعات في الصباح الباكر⁴، وعن سن الدراسة يذكر القنصل شالر أنّ المدارس والكتاتيب في هذه المرحلة كان يتردّد عليها عدد من الأطفال ابتداء من سن

¹ Rozet, op.cit., p74.

² هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص134.

³ ليسبور ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، تح تق تع وتر مُجد جيغلي، ط2، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2002، ص 82.

⁴ سي يوسف محمّد، نظام التعليم في بلاد زواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني، ج1، مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية، زغوان، تونس، 1990، ص201.

الخامسة أو السادسة* حيث تصل مدّة التعليم الابتدائي إلى حوالي أربع سنوات، وإن كان الفقراء يكتفون بهذا القدر من التعليم فإنّ أبناء الأغنياء يواصلون تعلّمهم فيدخلون المرحلة الثانوية¹، ويفتح الكتاب أبوابه طيلة أيّام الأسبوع من صبيحة يوم السبت إلى يوم الخميس، يتردّد الأطفال عليها مرتان في اليوم، الفترة الصباحيّة من الثامنة إلى الحادية عشر وعادة ما تخصّص للاستظهار أو الكتابة على الألواح بينما تخصّص الفترة المسائيّة لقراءة وحفظ ما كتبه، وقد أشاد روزيت Rozet بمدى انضباط التلاميذ في ذلك، كما كانوا منضبطين في العناية بأدواتهم، حيث قبل الانتهاء من الدراسة يقوموا بمسح الألواح جيّدًا وتعليقها ولا يخرجون إلا بعد تقبيل يد المعلّم من جديد²، كانت العطلة الأسبوعيّة في يوم الجمعة وأضاف بعضهم عطلة يوم الثلاثاء وهو ما أورده دو بارادي في حديثه عن عطلة الديوان³، هذا ولم ترد إشارات واضحة عن عطلة نهاية العام الدراسي وعن نظام الامتحانات خلال هذه الفترة، أمّا طرق التأديب فيذكر دوطاسي (De Tassy) طريقة عقاب التلاميذ الذين لا يؤدّون واجباتهم وهي الضرب بالفلقة** حيث يجلس التلميذ على الحصيرة وتكون رجليه في حالة تقاطع حافيتين فيربط المعلّم الرجلين مع بعض ويتلقى التلميذ ضربات بواسطة مسطرة أو عصي على حسب الخطأ الذي ارتكبه⁴.

أمّا روزيت Rozet فقد أشار إلى أنّ المؤدّب عادة ما كان يصحّح أخطاء التلاميذ دون إهانتهم عكس ما كان يحدث في فرنسا فلا يستعمل العصي إلا في حالات نادرة⁵.

وعن أجرة المعلّم (المؤدّب) في هذه المرحلة ذكر هايدو أنّهم كانوا لا يتلقون راتبًا شهريًا أو سنويًا إنّما مجرد تبرعات وهدايا يحصلون عليها من أولياء التلاميذ وتمثّل عادة في أكلة جيّدة أو قطعة قماش حريريّة

* أمّا الأطفال من الإناث ففي حين نفى فاليار تعلّم الفتيات إذ عليهن البقاء في المنازل وتعلّم كل ما يتعلّق بأمر المنزل ويتزوّجن في سن مبكّرة، أنظر: Valiere, p26، وذكر شارل أنّ كان يتعلّم في مدارس خاصة يشرف عليها نساء وكان أصحاب البيوت الكبيرة يجلبن معلّمًا معروفًا بصلاحه وعلمه لتعليم البنات، أنظر وليام شارل، ص82.

¹ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص163.

² Rozet, op.cit., p74.

³ Venture Der Paradis, op.cit., p 165.

** أشار دوطاسي أنّ أسلوب العقاب الوحيد إذ لا يسمح بتاتا معاقبة التلميذ بالضرب في أماكن أخرى من الجسم ما عدا الرجلين.

De Tassy, op.cit., p121

⁴ De Tassy, op.cit., p121.

⁵ Rozet, op.cit., p74.

ويحصلون على بعض المال وقدره 15 أو 20 دويلا، وأحيانا يُقدّم له لباسا جاهزا يسمّى الفرجة تكريما له على تحفيظ التلاميذ للقرآن كاملا¹.

أما شاو show فأشار إلى أنّ أجره المعلّم تقدّر بفلسين أسبوعيا عن كل تلميذ²، وذكر روزيت Rozet أنّ ما يتلقاه المعلّم لم يكن كبيرا إذ يحصل عن كل تلميذ ثلاثة أو أربعة بوجو أي حوالي 27 إلى 36 فرنكا³.

وعموما فإنّ أجره المعلّم لم تكن ثابتة فهي تختلف حسب حالة أولياء التلاميذ حيث كانت تدفع على قدر حالهم، فعندما يحفظ التلميذ القرآن كاملا يأخذ المؤدّب أجرا إضافيا، كما أنّه يخضع لما تخصّص لذلك من أوقاف، فكثيرا ما يجمع بين وظيفة تحفيظ القرآن ووظيفة أخرى كالإمامة والآذان⁴، وهو ما ذكره القنصل الفليار في قوله أنّ كل منطقة، بل كل مدرسة لها نظامها الخاص، وأنّ العمليّة تخضع إلى الظروف المحيطة والاتفاق بين المعلّم وأولياء التلاميذ⁵.

أما سعد الله فيرى أنّ المعلّم خلال هذه الفترة سواء في الريف أو المدينة كان يعيش عيشة طيبة وفي ذلك أعطى مثلا بأخذ مؤدّب قسنطينة الذي كان يتلقى الواحد منهم ثلاثين فرنكا سنويا على الطفل الواحد إضافة إلى هدايا، وقد كان لديه 25 طفلا⁶.

على ضوء ما سبق يمكن القول أنّ التعليم في الكتاب أو الزاوية أو حتى في الشريعة في القرى الصغيرة لم يكن يشمل الجانب التعليمي فقط بل أيضا الجانب الأخلاقي والسلوكي، فالجزائريون كانوا يحرصون على ارتياد ابناهم للكتاب أو الزاوية للحفاظ على حسن الخلق والتمسك بالدين والفضيلة⁷، كما أنّ نهاية هذه المرحلة بالنسبة لمعظم التلاميذ هو التوجه للعمل وهو ما ذكره شو Show في قوله أنّ معظم

¹ De Haydo, op.cit., p115.

² Show, op.cit., p78.

³ Rozet, op.cit., p75.

⁴ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ص162.

⁵ Ch. Vallière, op.cit., p27.

⁶ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ص162.

⁷ عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900)، تصدير أبو القاسم سعد الله، موفم للطباعة والنشر، الجزائر، ص217.

الأطفال كانوا يقطنون في المدرسة ثلاث وأربع سنوات ليتعلّم بعدها حرفة أو يجنّد في فرقة من الجيش¹، ولعلّ الأسباب تعود إما لحالة الفقر التي كان يعيشها الجزائريين وتدهور مؤسّسة الأوقاف خاصة أواخر العهد العثماني، وإمّا للنمط الفكري الذي كان سائدا والذي يذهب إلى الاقتصار بتعليم الطفل القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والأخلاق لإعداده للتوجّه للعمل، لاسيما أن العثمانيين قد جعلوا من الجانب الاقتصادي بشيئ أنواعه عصب الحياة العامة في تلك الفترة ويخلص سعد الله إلى أن ذلك يعود إلى عدم وجود سياسة تعليميّة تهتم بشؤون التعليم ومجالاته².

ب- التعليم الثانوي والعالي:

تغفل أغلب المصادر الأجنبية عن الحديث عن وجود التعليم الثانوي والعالي، فالحديث في هذا الشأن كان عاما وأقتصر في مجمله على إحصاء لبعض مراكز التعليم وإشارات مختصرة لبعض مظاهرها، ولعلّ السبب في ذلك حسب الدكتور سعد الله يعود إلى أنّ التعليم في هذه المرحلة لم يكن يتم بطريقة منظمّة ولا يخضع لسياسة تعليميّة واضحة³.

وهو ما يؤكده زوزو مقدّم إحصائيّة عن مدينة قسنطينة التي أحصى عدد المدارس الابتدائية فيها سنة 1837م، حوالي ستون مدرسة يتردّد عليها 1350 تلميذا، لم يبق منهم إلاّ ستون طالبا يتابعون تعليمهم الثانوي، ولذلك خلص إلى أنّ التعليم يريد به الآباء جعل أبناءهم يعرفون القراءة والكتابة وبعض الحساب ويفضّلون بعده التوجّه للأعمال الاقتصادية ذات الفائدة⁴، وما ورد في هذا الشأن كان في إشارة دوبارادي عندما ذكر وجود ثلاث مدارس عليا (Collèges) حيث يتعلّم الأطفال القرآن وبعض الثقافة الأدبيّة وهو حسبه نفس النمط الشائع في البلاد الإسلاميّة⁵، وفي ذلك يضيف وولف أنّ أغلبية الجزائريين بلديين أو أتراكا أو ثغريين (أندلسيين) يشتركون في العجب مع أحد مواطنهم الريفين الذي

¹ Thomas Show, op.cit., p79.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص347.

³ نفسه.

⁴ عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص217.

⁵ Venture De Paradis, op.cit., p254.

كان مندهشا عندما سمع أنّ الأوروبيين أواخر القرن 17م كانوا يضيعون وقتهم في محاولة تعلّم حركة النجوم (الفلك) والحساب الذي لا فائدة فيه والفلسفة الطبيعية وغيرها...¹.

وعموما فقد كان هذا النوع من التعليم يتم في المدارس والمساجد الكبرى والزوايا وأغلب المؤسسات كانت مجهزة بشكل جيّد، فقد كانت مليئة بالكتب والمخطوطات ويدرس فيها مدرّسون لامعون يجذب إليهم طلبة العلم من كل مكان، ولإيواء الطلبة أقيمت الكثير من الزوايا منها مثلا ثلاثة في مدينة الجزائر لطلبة الغرب واثان لطلبة الشرق أمّا الثالثة فكانت في سوق الجمعة لطلبة الجزائر، ترعاها كلّها مؤسّسة الأوقاف²، وقد أشرف بعض البايات على هذا النوع من التعليم -مثلا سيأتي لاحقا- من خلال الإشراف على تعيين المدرّس الذي يتلقّى أجرته من مؤسّسة الأوقاف والتي قد تصل حسب بعض التقديرات لحوالي مائة إلى مائتين فرنكا سنويا، ويخصّص له مسكن مجّانا وغالبا أيضا ما يجمع بين التدريس ووظائف أخرى كالإفتاء والقضاء³، وحسب ما تشير بعض المعطيات كان يتلقّى التعليم في المرحلة الثانوية حوالي ثلاثة آلاف تلميذ في كل إقليم، ينال كل طالب في النهاية إجازة تشهد له بأنه قد درس جميع العلوم التي تدخل في نطاق تخصّصه، وهي شهادة شفوية من المدرّس للطلاب، ومتى حصل عليها هذا الأخير يستطيع حينها تولي وظيفة المؤدّب⁴.

وعن تقرير لقائد الفرقة العسكريّة لقسنطينة الجنرال بيدو Bidoue يتحدّث فيه عن التعليم العمومي عند الاستيلاء على المدينة سنة 1837 أنّه كان يوجد بها 35 مسجدا وسبع مدارس تتّسع لعدد من التلاميذ يتراوح عددهم بين 600 و700 تلميذ، يتلقّون تعليما يعرف بالتعليم الثانوي إضافة إلى دروس كان يلقيها أشخاص ذوي سمعة واسعة يحضرها جمع غفير من الطلاب تمتلئ المساجد بهم⁵، وعن ذلك يقول أبو راس التّاصري أنّ مجلسه قد بلغ عدد الطلبة أثناء إلقاء دروس الفقه شفويا حوالي

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص 154.

² عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص 214.

³ صليحة بردي، الممارسات التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني، دراسة في الواقع والمعطيات، مجلة الذاكرة، عن مخبر التراث اللغوي والأدبي الشرقي، الجزائر، ع 11، جوان 2018، ص 133.

⁴ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ص 163.

⁵ عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص 217.

سبعمئة وثمانون طالبا، وأنه كان يجتم المصنّف في العام ثماني مرّات، ولما اتّسعت حلقتة جعل له كرسيًا لإعانتته على التدريس¹.

ويغلب الظن أنّ أطفال المدن كانت لهم فرص مواصلة الدراسة أمامهم أحسن، إذ تفتح أمامهم مدارس التعليم الثانوي ويتم ذلك عادة في سن الرابعة عشر، وقد يتأخّر سبب توقف الطفل ثم يعاود الالتحاق في سن متأخرة، أمّا الانتقال إلى التعليم العالي فلا يجد سن معيّن وإنما يتعلّق بالمستوى والإجازات ونوع الكتب التي أخذها الطالب وعليه فمن الصعب التفريق بين المرحلتين إلّا من خلال شهرة الشيخ والمؤسسة العلميّة ومع ذلك فقد اشتهرت كتب بعضها تشبه المقررات الجامعية، ولقد غطت هذه المقررات المواد الدينيّة والعلوم الشرعيّة، إضافة إلى بعض العلوم المساعدة كاللغة والكلام والنحو والبلاغة² مع تراجع كبير للمواد العقلية كالطب، الحساب والفلك وبدرجة أقلّ التاريخ والآداب، والملاحظ أنّ التعليم في هذه المرحلة على مستوى الزوايا كان يخضع لبرنامج مسطّر يشرف عليه مسؤولي الزاوية، وكانت حلقات العلم تقام من العصر إلى العشاء³، أمّا حلقات العلم في المساجد ذات المستوى العالي فقد كانت غير منتظمة ومن ثم فالطالب حر في ارتياد الحلقة التي يرتاح إليها فمثلا لكثرة الطلبة الذين كانوا يحضرون دروس الفقه لأبو راس الناصري يقول مفتخرا بنفسه "المورد العذب كثير الزحام"⁴.

كما أشار ابن حمادوش أنّ دروس التفسير التي كان يلقيها العالم المغربي الشيخ الورززي بجامع الجزائر كان يحضرها جمع غفير من طلبة العلم⁵.

وفي هذا المستوى من التعليم طُبّق أسلوب التلقين القائم على القراءة، فالشرح ثم الإملاء، وفي ذات السياق ذكر ابن حمادوش كيفية سرد صحيح البخاري بالجامع الكبير بمدينة الجزائر، حيث يقول في يوم السبت ثاني عشر موافق للثامن سبتمبر حضرت سرده صباحا فقرأ عليه سيدي محمّد ابن سيدي الهادي فضائل الصحابة... ومن الغد قرأ المملي المذكور "فئة إلى باب سعت النبيّ صلى الله عليه وسلّم..."⁶.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص335.

² هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص135.

³ صليحة بردي، المرجع السابق، ص23.

⁴ أبو راس الناصري، فتح الإله، المصدر السابق، ص23.

⁵ ابن حمادوش، لسان المقال، ص263.

⁶ نفسه، ص122، 123.

وفي ذلك يفصل سعد الله أنه ما دامت الطريقة هي القراءة فالشرح والإملاء فكان لكل مدرس مسمع يقرأ له النص أو جزء من الكتاب المدروس ثم يأخذ الشيخ في شرح المسائل والاستشهاد لها من المنقول والمعقول ومن بحر معارفه ما كثر منها وما قلّ ويختتم درسه في العادة بإملاء الخلاصات على الطلاب فيسمعونها بعناية¹، ثم يفتح باب المناقشة والتساؤل والتعقيب².

وقد استخدم في هذه المرحلة من التعليم العالي طريقة الإجازة من خلال ملازمة الطلبة لشيخوهم لعدة أشهر وسنوات مع انقياد تام لتلقي مختلف العلوم الشرعية وبعدها يحصل الطالب على إجازة تسمح له القيام بالتدريس، الإمامة الإفتاء، وحتى القضاء³.

واهتم الرحالة المغاربة بالحديث عن الإجازات العلمية التي حصلوا عليها من علماء الجزائر، وفي ذلك نجد ابن زكور الذي خصّص جلّ رحلته للحديث عن الجزائر وعلمائها، قد أسهب في الحديث عن الإجازة العلمية التي حصل عليها من الشيخ المانجلاتي بعد إكماله لصحيح البخاري فقال: "إني أرويه سمعاً... وإجازة عن سمع كثير"⁴، كما توجد إشارة عند الرحالة المغربي الدرعي عندما تحدّث عن عدد من الإجازات العلمية التي وجدها في منطقة فجيح⁵، وقد منحت أغلب هذه الإجازات في العلوم الدينية لما تقتضيه الضرورة نظراً لكثرة الكتايب التي لا تكاد يخلو منها حي من الأحياء في المدن وفي قرى الأرياف، بل كانت منتشرة بين أهل البادية والجلال النائية، وقد كتب لامبير Lambert عن إجازة الزوايا الريفية وكيفية صياغتها⁶.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص350.

² محفوظ رموم، المرجع السابق، ص113.

³ إجازة التدريس: هي وثيقة يحزرها الأستاذ الشيخ أو العالم المشهود له بالبراعة والتطلع للطالب فيشهد له فيها بتحصيله لعلم معين واستحقاقه لتدريس هذا العلم، وهذه الوثيقة عادة ما لا تتطلب امتحان مسبق، بل يكتبها الشيخ بما يعرفه عن المجاز له، وقد قدّم لنا ابن زكور نموذج الإجازة التي حصل عليها من الشيخ المانجلاتي. (للمزيد أنظر: لزغم فوزية، الإجازات العلمية، ص46).

⁴ ابن زكور، المصدر السابق، ص64.

⁵ الدرعي، الرحلة الناصرية، ص126.

⁶ Lambert, L'état intellectuel, op.cit., p 101.

وعلى ضوء كل ما سبق يمكن القول أنّ الحديث عن المعاهد العليا خلال هذه الفترة يبدو صعبا نظرا لتدني مستوى التعليم، لذلك أحصى إمريت وجود مدرستين بتلمسان، إحداها مدرسة الجامع الأعظم والأخرى مدرسة وادي الإمام ضمّتا 800 طالبا¹.

وفي قسنطينة نجد مدرسة آل الفكون إلى جانب مدرسة الخنقة التي يبدو أنّها كانت للتعليم الثانوي ومع مرور الوقت أصبحت مقصدا للطلاب من مناطق بعيدة، وفي الغرب كادت المدرسة المحمدية أن تتحوّل إلى معهد عالي لولا نقل العاصمة إلى وهران، أمّا مدرسة مازونة فكانت تستقبل الطلبة من كل مكان وقد داع صيتها في علم الحديث وعلم الكلام والفقه.

وفي مدينة الجزائر كانت حلقات العلم المقامة في المسجد الأعظم يتداول عليها ولمدة ثلاثة قرون كبار العلماء، ومثلما أشرنا سابقا لا نجانب الصواب إذا قلنا أنّها جامعة حقيقية من الناحية الوظيفية لو وجد نظام تعليمي ثابت².

4- دور مؤسّسة الأوقاف في تمويل التعليم:

إن الحديث عن الوقف (الحبس) كمورد كان له دور محوري في تمويل الحركة التعليمية خلال العهد العثماني، وبعدّ من الجوانب التي لم تحملها الكتابات الأجنبية فقد أوردت إشارات ضمنية عن غياب السلطة العثمانية وانشغالها عن الحياة الثقافية وعن تكفّل الجزائريين بتعليم أبنائهم سواء بشكل فردي أو من خلال الانطواء تحت هذه المؤسّسة من خلال التبرّعات التي كانوا يخصّصونها لتفعيل دورها³.

إذا كانت التسهيلات التي أقرها المذهب الحنفي الذي جاء به العثمانيون إلى الجزائر دفعت غالبية هؤلاء ليقوموا بتحسيس أملاكهم حسب أحكام المذهب الحنفي حتى يتمكنوا من الانتفاع بها هم وعقبهم من بعدهم بالرغم من أن أغلب السكان كانوا على المذهب المالكي عمل بالمذهب الحنفي⁴، وفي ذلك

¹ M. Emerit, op.cit., p 328.

² عبد الرحمان الجيلالي، الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريا وتاريخيا، مجلّة الأصالة، ع8، سنة 1972، ص121.

³ الوقف هو عقد لعمل خيري ذو صيغة دينية يقوم على توفر الواقف الذي له أهلية التبرّع بما يملك من ذات أو منفعة، وعلى وجود الموقوف وهو المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس، فضلا عن توفر الموقوف عليه وهو المستحق لصرف تلك المنفعة للمصلحة العامة كبناء المساجد....، للمزيد أنظر: Mercier, le hobous ou oukaf, Jordan, Alger, 1895, p51.

⁴ نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص143.

يقول حمدان خوجة أنّ الفقهاء بالجزائر قد أجمعوا على العمل بمقتضى المذهب الحنفي الذي يجيز حبس الهبات المشروطة وذلك ليكثر من موارد الهدايا لصالح الفقراء¹.

ونشير هنا أنّ الوقف هو ظاهرة اجتماعية إسلامية عرفت الجزائر قبل مجيء العثمانيين وهو ما ورد في وثائق الأرشيف، ثم عرفت تطوّراً كبيراً خلال الفترة العثمانية، إذ انتشر نظام الوقف وتوسّع وتكاثر عبر مختلف أنحاء البلاد ليصبح مؤسسة قائمة بذاتها لها أبعادها الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية*، فقد شهدت المدن الجزائرية انتشاراً واسعاً للمدارس، الزوايا والمساجد، ثم ساهمت في دفع الحركة الثقافية في الأرياف حيث اشتهرت عدّة مراكز في مناطق زواوة، مازونة، وامتدت إلى المناطق الصحراوية².

وبفضل الدور الذي قامت به هذه المؤسسة قال ابن ميمون أنّ المراكز الثقافية كانت تشمل كتابات القرآن، الزوايا والمساجد، المدارس والدكاكين التجارية والأندية المنزلية والمكتبات العامة والخاصة، تنوعت الثقافة في هذا العهد على سبقة مراكز كل منها يقوم بوظيفته التي أسندت إليه حسب ما تتطلبه ظروف العصر وتقتضيه قوانين كل إقليم وعوائد سكانه³.

فمؤسسة الجامع الأعظم وهو أقدم الجوامع في مدينة الجزائر، قد جمعت أوقاف تقدر بقرابة 550 وقفاً، وكانت تشمل: المنازل، الحوانيت، الضيعات وغيرها...، موزعة كما يلي: 125 منزلاً و39 حانوتاً، 3 أفران، 19 بستاناً و107 إيراداً، وكان المفتي المالكي هو الموكل بتسيير شؤونه، حيث تصرف عوائده على الأئمة والمدرّسين والمؤدّنين والمقيمين⁴.

ونظراً لكثرة موارد هذه المؤسسة من أملاك عقارية، أراضي زراعية، العديد من الدكاكين، الفنادق، الأفران، العيون، السواقي، الصهاريج، إضافة إلى الكثير من الضيعات، المزارع، البساتين والحدائق، ذكر

¹ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 237.

* أوجه البر المتعددة على رأس المجالات التي توجه إليها ريع الأوقاف، وهو ما يؤكد حجم التكافل الاجتماعي الذي مس مختلف شرائح المجتمع كالفقراء، الأيتام والأطفال، ومن مظاهرها: حفر الآبار، السبلات، بناء المساجد، الزوايا وغيرها. (أنظر دفتر أوقاف صالح باي وفيه عقد تجيبس على دار للرضى أسسها صالح باي سنة (1194هـ/1780م)، مركز أرشيف قسنطينة، ص 33-38)

² بلقاسم عياشي، الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري، مجلة حوليات، م4، ع7، 2011، ص42.

³ محمد إبن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص58.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص150.

القنصل الفرنسي فاليار (Vallier) سنة 1871 أنّ مؤسّسة أوقاف الحرمين الشريفين كانت تملك جل مساكن مدينة الجزائر وأغلب البساتين المجاورة لها¹.

وقد كلف المجلس العلمي المنعقد كل يوم خميس من كل أسبوع في الجامع الكبير بحضور المفتيان والقاضيان الحنفي والمالكي للتصّرف في شؤون الأوقاف ومراقبة الموظفين القائمين عليها².

وبذلك يمكن القول بأنّه بفضل مداخليل هذه المؤسّسات تمكّن الحكّام العثمانيون من إيجاد وسيلة ملائمة لتسيير المصالح الثقافية والتعليمية خاصة والتي لم ترى الدولة داعيا ولا ضرورة لرعايتها والإنفاق عليها من الخزينة بإستثناء المناطق الجبلية النائية والصحراوية التي كانت القبائل (أي السكان) تتكفّل بالإنفاق على التعليم ومؤسّساته، فقد كانت مؤسّسة الأوقاف تشكّل المصدر الرئيسي الوحيد لرعاية هذه المؤسّسات والإنفاق عليها في الحواضر والأرياف الجزائرية³، ثم إن الفائض من مردود الأوقاف عادة ما كان يشغل في بناء مؤسّسات جديدة وهو ما ذكره بعض ضبّاط الحملة الفرنسية، حيث يعترف روزيت Rozet بأنّه كان يوجد بمدينة الجزائر عدد كبير من المدارس التي تستخدم طرق تعليمية تتشابه كثيرا مع ما يوجد في فرنسا، مضيفا أنّ التعليم الابتدائي كان أكثر إنتشارا في الجزائر من فرنسا مضيفا أن الاختلاف كان في المناهج فقط⁴.

كما أشار دوهايدو أنّ للمساجد عائدات تقل وتكثر، ومنها يستطيع الأئمّة والقائمون عليها العيش بها ويحصلون منها على راتبهم الشهري⁵.

وفي ذات السياق يذكر حمدان خوجة أنّ تكاثر الأوقاف وانتشارها يعود لعدّة عوامل منها الوازع الديني والرغبة في السعي لفعل الخير، أمّا بالنسبة للعثمانيين فيعتبر وسيلة لتأكيد نفوذهم وتحسين سمعتهم وتخليدها في الذكر الحسن في الحياة أو بعد الموت، كما يدعم أيضا مكانتهم لتقوية الرابطة الروحية مع السكّان⁶.

¹ Ch.Vallier, op.cit., p31.

² Venture de Paradis, op.cit., p275.

³ Devoulx, Les édifices, p377.

⁴ Rozet, op.cit., p78.

⁵ De Haydo, op.cit., p114.

⁶ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص270.

وقد تولّت مؤسسة سبل الخيرات الإنفاق أيضا على الزوايا والمدارس إذ قدّر عدد أوقافها 331 وقفا في مجملها تخصّص لدفع رواتب الطلبة والعلماء وصيانة المساجد والزوايا ومختلف الموظفين¹.

أما فئات الواقفين من الأفراد فقد تعدّدت لتشمل جميع الطبقات: عثمانيين، حضر، أحناف، مالكيّة، كراغلة، وكذلك قرويين ومن فئة الأغنياء وحتى متوسطو الحال، بل وحتى بعض الفقراء من الرجال والنساء مما جعل أملاك الوقف أعظم الأملاك وأكثرها، وذلك بدافع الحماس الديني وحب الخير والرغبة في إصلاح المجتمع، حيث كان أغلب هؤلاء يلجؤون إلى الوقف الأهلي لمنع الدولة من الاستيلاء على الأملاك الوقفية في حالة انقراض نسلهم²، وقد حرصت هذه الفئات الاجتماعية على تحمّل مسؤولية التعليم ومؤسّساته.

والجدير بالذكر أنّ الكثير من الحكام العثمانيين قد ساهموا مساهمة كبيرة في هذه المؤسسة فلا يكاد يوجد باشا أو داي أو باي مكث في الحكم مدّة طويلة إلا وبنى مسجدا ورثب له أوقاف خاصة، وبذلك أنفقت أموال باهظة على هذه المؤسّسات الدينيّة³، حيث قام سعيد قدورة (1066هـ/1656م)، أمين أوقاف مدينة الجزائر وشيخ إفتائها تمكن من بناء زاوية ومدرسة من فائض أوقاف الجامع الكبير⁴.

وعموما ما يمكن القول أنّه وبالرغم من تداخل مهامها السياسية، الاجتماعية، الثقافية، تمكنت مؤسّسة الأوقاف من تمتين روابط الانسجام الثقافي والاجتماعي والحفاظة على الهوية ومقومات هذا المجتمع طيلة العهد العثماني.

5- نماذج من كبار المدرسين (المعلمين):

أشاد الرخّالة المغربي "الجامعي" في رحلته بعلماء الجزائر بقوله: "إنّ مدينة الجزائر دار الجوهر الفرد في الأدب وعلم النقل والعقل، وأتمّ تبنت العلماء والصالحين كما تبنت السماء البقل، كما لا تخلو

¹ نصر الدين سعيدوني، الوقف ومكانته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، العدد 89-90، الجزائر، 1981، ص 67.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 233.

³ أنظر سجلّات الأوقاف التي خصّصها صالح باي لهذا الغرض التي بقت.

⁴ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 425.

من قراء نجباء وعلماء أدباء وأعلام خطباء، مساجدهم بالتدريس معمورة ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة... كما أنني على صفات علماء المدينة الذين هم في الأصل أساتذة وشيوخ ومعلمون"، وذكر أيضا تطلّعهم في علوم النحو والفقه والحديث¹.

وعلى ضوء ذلك يمكن القول أنه إذا كانت الكتابات الأجنبية (الغربية) قد أهملت في الجمل الحديث عن حركة التعليم في الجزائر في العهد العثماني، فلم ترد إشارات عن أسماء من كانوا يشرفون عليها من شيوخ وعلماء ومدّرسين، تكاد تجمع المصادر المحليّة والمغربيّة على أنّ الجزائر في هذه الفترة كانت حافلة بعدد كبير من العلماء الذين ذاع صيتهم في كل مكان، فقد أهتمت أغلب رحلات الجزائريين بذكر شيوخهم والثناء عليهم في صفحات مطوّلة من الإطراء والتمجيد التي عادة ما تكون بأسلوب أدبي فيه الكثير من البلاغة وتناسق الألفاظ²، وفي ذلك ألف أبو راس الناصري عن شيوخه ومن أجازته منهم كتاب أسماء "لبّ أفيأخي في عدّة أشياخي"، كما تحدّث عن شيوخه في مؤلّفه "فتح الإله" ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، الذي قال فيه: "في الباب الثاني في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة"³.

كما اهتمت المصادر المغربية بالإشادة بعلماء الجزائر فقد ذكر ابن زاكور عددا من علماء مدينة الجزائر الذين حضر مجالسهم وتلقّى العلم عليهم، منهم أبي حفص ثم المنجلاتي وسعيد بن إبراهيم قدورة* ومحمد بن عبد المؤمن الحسيني وغيرهم الكثير، ثم أشاد الزباني بعلماء قسنطينة أمثال العلامة الفقيه أبي الحسن علي بن مسعود الونيسي والمفتي أحمد بن مبارك⁴ وغيرهم.

¹ نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص202.

² ذهبية بوشية، العلم والعلماء، في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلّة الحوار المتوسّطي، ع3، 4، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2011-2012، ص124.

³ أبو راس الناصري، فتح الإله، ص24.

* سعيد قدورة: ت 1066 / 1665: هو العالم الزاهد المدرّس المتشكّف، إذ كان يدرّس لطلّابه كتب ابن عطاء الله، صحيح البخاري، رسالة القيرواني وسلّم الأخصري، صغرى البنوسي، إنفرد بالإفتاء أواسط سنة 1028هـ، وظل في هذا المنصب إلى وفاته، درس في الجامع الكبير ثم عيّن وكيل أوقافه، ولشدة إحترامه عند باشوات الجزائر كانوا يقفون له إجلالا، ذكر بالتفصيل في رحلته ابن زاكور الذي أخذ عليه العلم وفي ذكره لأشياخه قال الإمام العلامة المفتي أبو عبد الله سيدي محمد ابن الإمام الأكبر ذي الفضائل المشهورة ابن عثمان سيدي سعد بن إبراهيم عرف بقدوره شيخ الفقر والحديث بحمله من الجزائر محل السودان من الناظر... فإليه يهرع عند اشتباه النوازل ويهزج عند اشتداد الزلازل... فلا يميّزه في أنه يطاول أهل المشرق والمغرب... ابن زاكور، نشر أزهري، ص69، 70.

⁴ ابن زاكور، نشر أزهري...، ص130-132.

وذكر الدرعي أيضا مجموعة من علماء وفقهاء الصحراء ففي عين ماضي تحدّث عن فضائل العالم أبو حفص محمّد بن عيسى، ومن فقهاء الأغواط ذكر محمّد بن كسيمة وأحمد بن إدريس وعبد الرحمان الفجيجي وغيرهم الكثير¹.

وقد ذكر ابن زاكور في رحلته متحدثا عن شيخه أبي حفص مُحمّد المنجلاقي* قائلا: "فيمن أقبلني بكتلتا يديه وأجاز لي رواية ما لديه العلم الأشهر والخبر الأكبر وحائز الشرفين العرضي والذات أبو حفص عمر بن محمّد بن عبد الرحمان المنجلاقي أبقاها الله ونصر مرآه وهو بقية السلف وبركة الخلق التي حمى به الله ذلك الفطر من التلف..."².

وقد تكرّرت مثل هذه الإشادات شعرا ونثرا في الرحلات المغربية التي أشارت كلّها إلى كثرة مجالس العلم بمدينة الجزائر وباقي الحواضر الكبرى على غرار باقي البلدان الإسلاميّة، حيث عادة ما يلتقي العلماء في المساجد الكبرى وتداول بينهم مناظرات ومذاكرات علميّة لاسيما أنّ مدينة الجزائر قد استقبلت خلال هذه الفترة عددا كبيرا من العلماء من تونس، المغرب الأقصى، مصر... وغيرها، وتحدّث الزباني أيضا عن عدد من علماء الجزائر في قوله: "فلما أراد الله وحلّت قدرته وتقدّست أسماؤه وصفاته رجعنا من الحرم الشريف ودخولنا لثغر الجزائر الغني عن التعريف، وإقامتنا به... كنت أجتمع مع أفراد من الأخيار وجماعة من العلماء الأبرار وأتفاوض معهم"³.

وتحدّث العياشي عن أحد مناظراته العلمية التي جرت بينه وبين أحد الشيوخ الإباضية في مسائل فقهية وعن محاورات علميّة دارت بين الركب المغربي وبعض فقهاء الأغواط منهم الفقيه أبو زيد عبد الرحمان الفجيجي⁴.

¹ الدرعي، الرحلة الناصريّة، ص130-132.

* عمر المنجلاقي أو المنقلاقي: وهو عمر بن محمّد بن عبد الرحمان بن يوسف المنجلاقي، ولد بمدينة الجزائر بعدها نزلت عائلته من بجاية بعد احتلال الإسبان لها، يكتّى بأبي حفص تلقى تعليمه على يد علماء كبار أمثال أبو الحسن الأنصاري السجلماسي، تفرّغ للتدريس بالمدينة أين أفاد من علمه الرحالة المغربي ابن زاكور عدّة علوم من بينها كتاب جمع الجوامع. (أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، ص67 + مولاي بلخميّسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص122.

² ابن زاكور، المصدر السابق، ص49.

³ الزباني، المصدر السابق، ص141-375.

⁴ العياشي، الرحلة العياشيّة، ج1، ص117.

ويشير العياشي أيضا إلى فضل الشيخ عبد الرحمان الفكون الذي كان من أشهر علماء الدين الذين الذين اشتهروا بعلمهم الواسع وإمتلاء حلقات دروسهم بالطلبة، وقد لخص أبي سالم العياشي أهم ما درس عليه من مؤلفات منها، (محدد السنن في نحو إخوان الدخان)، وقرأ عليه بعضا من كتاب موطأ الإمام مالك والصحيحين والسنن الأربعة ثم أخذ عليه التصوف فقال فيه "كانت له صلة إنتساب بالخدمة والولاء والإعتقاد الصالح..."¹.

وقد أدى الكثير من هؤلاء العلماء الذين عرف بعضهم "بمربط اللوح" وهم المنتسبون للعلم الذين تفرغوا لتعليم الأطفال ثم ساهموا أيضا بتأسيس العديد من المؤسسات التعليمية التي زاد عددها في القرى والأرياف والمناطق النائية، وهو الدور أيضا الذي قام به علماء القرنين 13 و14، أمثال الشيخ أحمد بن إدريس البجائي وعبد الرحمان الوغليسي وغيرهم الذين انكبوا على التعليم وعملوا على نقل التراث الفكري إلى الطلبة ونفس الدور قام به الوافدون إلى الزوايا والمدارس من الأندلسيين وغيرهم.²

ويذكر أبو راس الناصري المعسكري* بعض العلوم التي كان يكثر من تدريسها في مجلسه مثل ألفية ابن مالك، شرح البهجة المرضية والمقامات، الشرح الأصغر والشرح الأكبر.³

ومن حلقات العلم التي كانت تنظم في الجامع الأعظم بوهران، وأهم ما كان يدرس فيه يقول أبو حامد المشرفي "وترددنا على مجلسه الشريف"، ويقصد الشيخ أحمد بن تلامي بجامع وهران الأعظم ومجلسه عامر بأهل العلم، وما يزيد في بعض الأوقات على الخمسمائة طالب ويقرب الألف وبينهم من يحضر مجلسه للتبرك ويملي من حفظه "مسودة الحرشي" على الطلبة من غير أن ينقص منها حرفا أو يزيد وكانت تشد الرحال إلى فتواه.⁴

¹ العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص390.

² المهدي البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير علماء زواوة، ص267.

* أبو راس الناصري المعسكري: (1150-1757هـ / 1238-1823م): هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس، نشأ في بيئة فقيرة، تنقل من مسقط رأسه (جبل كريبوط قرب معسكر) إلى مدينة تنس ثم المغرب الأقصى، حفظ القرآن الكريم والعلوم الدينية عن فقهاء عصره.

³ أبو راس الناصري، فتح الإله، ص24.

⁴ عبد الكريم المشرفي، نافذة على علماء معسكر، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد 02 و03، (2004-2005)، ص ص 85-

ومن أشهر هؤلاء أيضا في شرق البلاد الشيخ عبد الكريم الفكون*، الذي أشرف على التدريس في مسجد مدينة قسنطينة وزاوية آل الفكون التي كانت تستقبل طلبة العلم¹، فالزاوية هي إقامة للطلبة ولم يكن يأخذ عن ذلك أجرا، بل كان هو الذي يتكفل بالتفقة على الطلبة في إتمامهم وفي الإيواء، وتخرج على يده العديد من العلماء ولعل أشهرهم أبي مهدي عيسى الثعالبي وأبي سالم العياشي، ثم تولى الفكون زعامة ركب الحج واستحق لقب شيخ الإسلام².

ولعل من الضروري في سياق الحديث عن علماء ورجال التعليم الوقوف عند منطقة زاوية التي عُدّت بحق نموذج واضح لحركة للتعليم في الجزائر خلال هذه الفترة بالرغم من كونها منطقة جبلية بعيدة ونائية والطبيعة القبلية لسكانها ألا أنها تحولت إلى قبلة للعلم والعلماء رغم الخلفية القبلية التي كان يغلب عليها اهتمامهم بالفلاحة لكنهم اهتموا بتعليم أبنائهم وقدسوا العلم والعلماء³، ففي قوانينهم العرفية وردت عقوبات وغرامات مالية لكل من تجرأ على المؤسسات التعليمية أو رجالها القائمين عليها⁴، فتمتع العلماء الذين استقروا بالمنطقة بمكانة هامة بين السكان وقاموا بدور كبير في تعليم سكان المنطقة القرآن الكريم الذين واطبوا على حفظه وفهمه ثم تعلموا العلوم الدينية واللغوية⁵، وإذا عدنا إلى كتب التراجم لعلماء المنطقة نستخلص الدور الذي قاموا به في نشر العلم مغربا ومشرقا، فيذكر المغاربة الذين زاروا الجزائر عددا كبيرا من العلماء الذين تزودوا من بحر علمهم أمثال بلقاسم بن محمد الزواوي (ت 931هـ -

* الشيخ عبد الكريم الفكون: (988-1075هـ/1580-1663م): هو عبد الكريم محمد بن عبد الكريم بن يحيى الفكون التميمي من عائلة عريقة من البيوتات العلمية بقسنطينة، نشأ عصاميا فحفظ القرآن الكريم ثم توجه إلى المشرق، كان مواظبا على القراءة في مختلف العلوم، علوم الفقه، التصوف، كما كان كثير الإحتكاك بعلماء عصره خاصة وأن زاوية ابن الفكون كانت مركز إشعاع علمي في شرق البلاد والبلاد التونسية، الفكون، منشور الهداية، ص 10 فما بعدها. مارس التدريس في مسجد المدينة وزاوية ابن الفكون التي كانت تستقبل الطلبة وقد كانت بها إقامته، لم يكن يأخذ اجرا على التعليم، بل كان هو الذي يتكفل بالتفقة على الطلبة، الفكون، ص 204. وقد تخرج على يديه الكثير من العلماء أمثال أبي مهدي عيسى الثعالبي (ت 1060هـ) وأبي سالم العياشي.

¹ الفكون، منشور الهداية، ص 97.

² نفسه، ص 204.

³ Isabel Grangond, La ville imprenable, une histoire sociale de Constantine au 18 -ème siècle : ed média plus, Constantine, 2004, p249.

⁴ Ibid, p 251.

⁵ Eugene Daumas, mœurs et coutumes de l'Algérie, op.cit., p138.

1516م) الذي درس على يد محمد بن عمر الملاي وموسى بن سعيد الزواوي (931هـ / 1524م) الذي درس عليه الشيخ عيسى بن أحمد الماوسي بفاس¹ وغيرهم الكثير.

6- أشهر العلوم المدرسة:

ذكر الطبيب Show أنه بالرغم من أن العرب المسلمين كانوا سباقين في دراسة الفلسفة، الرياضيات والطب إلا أن هذا التقدم والاهتمام ولى أيام العثمانيين وصار الاهتمام بالعلوم النقلية فقط وعلوم الدين²، وقد أعاب على الجزائريين عدم اهتمامهم بعلوم العصر بجهودهم الفردية وعزوفهم عن الاهتمام بعلم الفلك، الكيمياء، الطب، الحساب والجبر³، وفي ذلك قال الأسير كاتكارت أنه على طول المدة التي قضاها في الجزائر لم يكن يوجد في الإيالة كلها من يستطيع استخراج وقت خسوف القمر وكسوف الشمس (علم الفلك) فالكل كان يجهل حساب الأطوال بغرض استخدامها في الملاحة، ولضعف هذه العلوم كانوا يستخدمون أدوات بسيطة وأشار أن أغلب ما كان يدرس في المدارس هو القرآن والتفسير⁴.

واعتبر معظم الكتاب الفرنسيين إن لم نقل كلهم أن الجزائر في العهد العثماني كانت تعيش نوعا من الظلام في الجانب الثقافي والعلمي وخاصة في العلوم العقلية، إذ يُبدي وليام شالر استيائه عن وضعية هذه العلوم وخاصة الطب في قوله: "أما حالة العلوم فإنّ مما لا جدوى فيه الحديث عنها حيث أنّها غير موجودة أو هي متى كانت موجودة محتقرة بل أنّ علم الطب لا يوجد من يدعيه هذا إذا استثنينا المشعوذين وكتاب الحروز"⁵.

لذلك تخصّصت جل المدارس والمراكز الثقافية بتعليم العلوم الشرعية المتمثلة بصفة خاصة في الفقه المالكي وعلم التوحيد إلى جانب علوم اللغة، ثمّ اشتهرت كتب الحواشي التي كان أبرزها شرح الشيخين الزرقاني والخرشي، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي إلى جانب المختصرات، مختصر الشيخ خليل في

¹ أحمد المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص 362، 347.

² Thomas Show, op.cit., p77.

³ Ibid, p81.

⁴ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص98.

⁵ وليام شالر، المصدر السابق، ص81.

الفقه¹، ويشير أغلب الباحثين إلى أنّ الاهتمام بالعلوم الشرعية ليست خاصة بالجزائر فحسب بل هي عامة سادت في كثير من دول العالم الإسلامي وهو ما أدى إلى إنحطاط العلوم العقلية وقلة المنشغلين بعلوم الطب والكيمياء والفلك والحساب وغيرها...²

فيبدو أنّ علاقات التوتّر والحروب بين العالم الإسلامي وأوروبا ساعدت في قطع جسور التواصل مع أوروبا المسيحيّة التي قطعت شوطا هاما في مجالات العلوم، حيث انغلق العالم الإسلامي المنطوي تحت لواء الدولة العثمانية في دائرة الجهاد وحماية الإسلام من الخطر الصليبي وهو ما ساهم بعدها في حالة الجمود الفكري الذي ميّز هذه الفترة³.

وفي ذلك يقول Show خلال زيارته للعديد من البلاد العربيّة في القرن 18م، مشيرا إلى وضع العلوم العقلية في الجزائر بأنّ أي علم لم يأخذ بدرجة من الكمال مؤكّدا على أنّ هذه الوضعية ليست ناجمة عن قلة الأشخاص الذين يمارسون الطبّ أو أي تخصص في مجال العلوم الدقيقة إلا أنّ كلّ ما فعلوه هو من قبيل العادة والشعوذة معتمدين في ذلك على ذاكرتهم القويّة وليس ذكائهم الفذ⁴، وأضاف "وكانوا يسألوني غالبا كيف يجد المسيحيون لذّة أو يضيعون وقتهم ونقودهم في مثل هذه الممارسات الفارغة مثل الدراسة والتفكير"⁵.

ويفسّر أيضا اهتمام علماء الجزائر بالعلوم الشرعيّة دون سواها بالدرجة الأولى إلى الطبيعة الصوفيّة والتشبع بالثقافة الدينيّة التي كانت سائدة خلال هذا العصر، حيث أثر انتشار ظاهرة التصوّف على توجيه مسار الحياة الاجتماعية، الثقافيّة والدينيّة بشكل لم يسبق له مثيل، وكان تشجيع من الحكّام العثمانيين الذين اعتقدوا أشدّ الاعتقاد بالتصوّف وهو ما يفسّر كثرة الإنتاج في هذا المجال⁶ لذلك لا توجد إشارات واضحة عن تدريس العلوم العقلية في مجمل مدارس ومعاهد الجزائر.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص71.

² Braudel Fernand, op.cit., pp 191- 195.

³ أرزقي شوينام، المجتمع الجزائري وفعاليته خلال العهد العثماني (1830-1519)، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص417.

⁴ Thomas Show, op.cit., p48.

⁵ Ibid.

⁶ ذهبية بوشية، المرجع السابق، ص128.

وهو ما أدى حسب الدكتور سعد الله إلى إنتاج فكري قليل إذ أن أغلب ما وجد منه هو استمرار لإنتاج الفترات السابقة إذ ساد التقليد بما في ذلك عند كبار فقهاء تلك الفترة كالونشريسي، المسبّح والأخضري، حيث ظلّ مختصر ابن الحاجب ومختصر خليل عمدة الدراسات الفقهيّة وعصب البرامج الدراسيّة في كل مساجد وزوايا الجزائر طيلة هذا العهد¹، وهو دليل على الجمود الفقهي الذي أصاب هذا العلم الذي كان من المفروض أن يواكب العصر وحاجياته الفقهيّة في وقت آثر فيه العلماء إعادة إنتاج آراء من سبقهم شرحا ونظما ثمّ اعتمدوا على الرواية، الحفظ والنقل وعرض المسائل كما وردت دون تمحيصها أو نقدها أو ابتكار الجديد، فطغى التكرار وهو ما تعود أسبابه إلى التشبث الفكري والمعرفي للعلماء وانعدام حلقات التبادل المعرفي بين العلماء وغياب مراكز جامعة للبحث في شتّى العلوم².

كما يعود هذا التراجع للهجرة الجماعية للعلماء خلال هذه الفترة، وإلى جانب العلوم الشرعيّة برع علماء الجزائر في دراسة وتدريس العلوم اللغويّة كالنحو والاعتماد على ألفيّة ابن مالك والأجروميّة، وكذلك بعض المصادر اللغويّة كالقاموس المحيط للفيروز أبادي وجوهرة الأخضريّ وسلّمه، وقد استمر تدريس هذه العلوم إلى غاية الفترة الاستعماريّة³.

إذ يبدو أنّ أغلب العلوم المدرجة على مستوى المدارس والزوايا كانت مرتبطة بالتربيّة الروحيّة التي تكسب الأخلاق الرفيعة من صبر وقهر للغرائز والترقّع عن ماديّات الدنيا والتضحية والمحافضة على الانتماء التاريخي والحضاري وأضحت الثقافة حينها تدور في حلقة مفرغة حول نفسها قد خلت من روح الابتكار والإبداع الفكري والعلمي⁴.

وحسب الطبيب الفرنسي Show يعود هذا التدهور في الوضع الثقافي إلى طبيعة النظام الحاكم والفوضى السياسيّة المنتشرة في البلاد التي لم تكن تسمح بانتشار العلوم الحديثة، مضيفا أنّ الأتراك لم يكونوا يسمحوا للجزائريين بدراسة هذه العلوم وأنّ اهتمامهم كان منصبًا فقط حول التجارة وتوسيع

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص9.

² نفسه، ص71.

³ قُدّور بوجلال، الدور الثقافي والحضاري لمدرسة مازونة الفقهيّة خلال العهد العثماني، مقال صادر عن جامعة وهران، د.ت، ص51.

⁴ عبد المجيد مزبان، المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار، مجلة الثقافة، العدد 02، الجزائر، 1986، ص45.

ثرواتهم¹، ثم لاحظ أنّ دراسة هذا المجتمع قد اقتضت على قليل من كتب الجغرافيا وبعض الكتب العلميّة السهلة جدًّا حول التاريخ الحديث وكلّ ما يقوله له مؤلّفوهم في هذا الجانب خصوصا ما قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلّم، ما هو إلا قصص روائية².

وقد أشارت الرحلات المغربيّة إلى الكتب التي كانت تدرّس في الجزائر والتي شملت في مجملها علوم الشريعة والسلوك وبعض الكتب اللّغويّة والأدبيّة حيث ذكر ابن زاكور أنّ من الكتب التي كانت تدرّس في أحكام القرآن "نظم ابن عاجم" وفي علم الحديث صحيح البخاري والذي كان متداولًا بكثرة عند الجزائريين³، كما أشار إلى تدريس صحيح البخاري في علم الحديث وسيطرة مختصر خليل على مختلف الدراسات الفقهيّة المالكيّة في الجزائر إضافة إلى جمع جوامع في الأصول ومختصر ابن حاجب⁴.

ثم ذكر الدرعي في عين ماضي كلّهم كانوا يقرأون خليلا⁵، ثم ارتكزت جهود المدرّسين في علم السلوك والعقائد بتدريس العقيدة الصغرى المسماة "أم البراهين"، أو صغرى السنوسي التي قال عنها ابن حمادوش أنه أخذ عقائد السنوسيّة وشروحها على خلق كثير من المدرّسين منهم الفيومي وسعيد قدورة⁶.

كما درس علماء الجزائر حسب ابن زاكور التصوّف وعلم المنطق فكان أشهر كتاب في هذا الشأن هو "السلم المرونق" للأخضري، فقد اشتغل عليه علماء الجزائر بالشرح، التعليق والتدريس.

كما كانت ألفيّة ابن مالك محفوظة عند الجزائريين والخزرجيّة بشرحها للعالم الغرناطي، وفي البيان أشار إلى تدريس تلخيص "المفتاح"⁷... كما كانت تدرس منظومة الأخضري المسماة بالجواهر المكنون التي استشهد بأبيات منها في رحلته⁸.

¹ Thomas Show, op.cit., p76.

² Thomas Show, op.cit., p79.

³ ابن زاكور، المصدر السابق، ص 47.

⁴ ابن حمادوش، لسان المقال، ص 216.

⁵ الدرعي، الرحلة الناصريّة، ص 130.

⁶ ابن حمادوش، لسان المقال، ص 273.

⁷ ابن زاكور، المصدر السابق، ص 48.

⁸ أبو راس الناصري، فتح الإله، ص 144.

وفي حديثه عن الطب يقول الدكتور سعد الله أنّ ما يميّز هذه الفترة في هذا العلم الشيخ عبد الرزاق حمادوش الذي قامت دراسة له على جهوده الفردية الخاصة نتيجة لكثرة المطالعة لكتب الطب العربية والأجنبية، ثمّ اعتمد على ملاحظاته وتجاربه الخاصة، ولنقص معهد علمي مختصّ لم يتمكن ابن حمادوش من الوصول إلى مبتغاه إلاّ عندما بلغ الثمان وثلاثين حيث وصف نفسه سنة 1145هـ، وفي قوله "فاليوم والحمد لله أنا عشّاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض"¹، وقال عنه أبو القاسم سعد الله بأنّه جاء بعد ظلام دامس أصاب الحضارة الإسلامية لذلك اعتبره بعض الباحثين من أواخر الممثلين للطب العربي لأنّه كان معاصرا لعهد التنوير في أوروبا، فقد كان أقرب في تفكيره للعلماء الأوروبيين أكثر من العلماء المسلمين الذين عرفوا بالخاملين².

وقد أُلّف في ذلك كتابا بعنوان "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب"، وقد أثار هذا الكتاب فضول الأوروبيين فقام الطبيب لوسيان لوكليرك (Lucien luclerc) بترجمته ثمّ أنجز عليه غابريال كولان (Gabriel colin) دراسة لنيل شهادة الدكتوراه عام 1905م³.

وما يؤكّد تراجع وضعف هذا المجال الهام من العلوم إجماع الكتابات المحلية والأجنبية على عدم وجود مستشفى في إيالة الجزائر باستثناء المستشفى الذي أقامته الحكومة الإسبانية للاعتناء والتخفيف من معاناة الأسرى المسيحيين والذي كان مسيّرا من طرف رجال الدين وكان يضمّ بعض الاطباء والجراحين الأوروبيين، وحسب فاليار فإنّ بعض السكّان كانوا يتردّدون عليه لأنهم لا يعرفون شيئا عن الطب والجراحة⁴.

وعلى ضوء ما سبق لاحظنا نوع من الاختلاف بين الكتابات الأجنبية في تفسير تدهور المستوى العلمي في الجزائر، ففي الوقت الذي نجد فيه الدكتور show الذي كان يحسن اللغات الشرقية، واحتك مع عدد من الجزائريين من فئات اجتماعية مختلفة المستوى وترك لنا انطبعا سنة 1720م، يقول فيه "إنّ الفلسفة والحساب ومعرفة الفيزياء والطب التي كانت منذ بضعة قرون فقط تكاد تكون حكرا عليهم (يعني العرب المسلمين) أصبحت غير معروفة ومدروسة إلاّ قليلا في الجزائر في الوقت

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 35.

² أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش، حياته وآثاره، عالم المعرفة للنشر، الجزائر، 2015، ص 69-86.

³ كمال صحراوي، المرجع السابق، ص 238.

⁴ Ch.Vallière, op.cit., p63.

الحاضر، وأن حياة العرب البدوية وغير المستقرة والمظالم التي لا نهاية لها التي يرتكبها الأتراك ضد الحضر (السكان) لن تسمح لهم بالتمتع بالحريّة والهدوء والأمن التي أنجبت في كل الأزمنة وشجعت عليه، ففيما يتعلّق بالأتراك هم عموماً ذو طبيعة مضطربة وغير مستقرة وأنهم غارقون في التجارة وإصلاح أحوالهم المادية لدرجة أنّهم لا يجدون وقتاً للمعرفة¹.

نجد من جهة أخرى عدداً من الكتّاب الأجانب ومن بينهم دولاكروا يلقي اللوم كاملاً على السكان في عدم طلب المعرفة العلوم فيقول: "أنّ شعب المغرب العربي جهلة وليس لهم ذوق في العلم والفن، وهم بخلاء وغلاظ ومزدرون وشكّاكون وليس لهم سوى مقدرة محدودة على التجارة رغم أنّهم يقومون بأعمال تجارية عديدة ... إنّهم لا يعيشون إلاّ بالقرصنة"².

وفي ذلك كتب الورثيلايني واصفاً الوضع الثقافي في الجزائر في أواخر القرن 18م بالضعف والركود، إذ غلب على المجتمع الجزائري الجهل والتخلّف في معظم الأوساط، وهو ما أرجعه إلى عدم اهتمام الحكام الأتراك بالتعليم وتشجيعه واهتمامهم بالأمر العسكري³، وعليه يمكن القول أنّه لا أحد يشكّ أنّ وبالرغم من وجود حركات تجديدية فكرية وانتفاضات علمية مثلما كانت تحدث في أوروبا التي بدأت بالدخول في عصر النهضة على رأي أبو القاسم سعد الله⁴، فإنّ ذلك لا يعني أنّ التعليم كان متوقف في الجزائر وأنّ الجزائريين كانوا يرفضون مسايرة الحداثة إلاّ أنّهم كانوا بمثابة الوعاء الذي وضع فيه بعضاً من الطعام الذي لا يسد الجوع دون الشبع والانتشاء وذلك بسبب تأثير الظروف السياسية الداخلية في الحركة الفكرية في البلاد الإسلامية عامة والجزائر بصفة خاصة⁵.

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص 154.

² نفسه، ص 155.

³ الورثيلايني، الرحلة الورثيلاينية، ج 1، ص 144.

⁴ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ص 159.

⁵ شونينام، المرجع السابق، ص 417.

7- نماذج من جهود العثمانيين في الحركة التعليمية (جهود رسمية):

أ- جهود الباي محمد الكبير* ببايلك الغرب:

لم تحمل المصادر المحليّة والأجنبيّة جهود بعض بايات ودورهم في تشجيع الحركة الثقافية عامة والتعليم بصفة خاصة باعتبارها عصبها ومحورها الرئيسي، وذلك من خلال دورهم في بناء المؤسسات التعليميّة كالمساجد والزوايا وتخصيص نفقات ماليّة من خلال تفعيل دور مؤسّسة الأوقاف إضافة إلى إلزام العلماء الأمر الذي أضفى على هذا المجال نوع من التحسّن والانتعاش، ومن أبرز المصادر التاريخيّة الأجنبيّة التي تناولت حياة الباي محمد الكبير وإنجازاته من مذكّرات الأسير الفرنسي تيدنيا (Thedinat) التي صدرت سنة (1200هـ/1855م)، والتي تحدث فيها عن يومياته في قصر الباي محمد الكبير بمعسكر، وهو ما يعطيه صبغة تاريخيّة هامة، كما يعتبر فريدا من نوعه في هذا الشأن¹، وقد تحدّث العديد من المصادر المحليّة أيضا التي عاصرت فترة الباي وكان بعضهم من المقربين الذين حظوا بمكانة خاصة في مجلسه أمثال ابن سحنون الراشدي²، الذي يحمل في طيّاته الكثير من المعلومات الهامة عن حياة الباي وأعماله، وبالرغم من أنّ المصدر قد اهتم بشكل كبير بالفتح وأخبار مدينة وهران³.

إضافة إلى ما كتبه ابن الهطال التلمساني الذي قدّم جزءا هامًا مما قدّمه هذا الباي ولاسيما الجانب العسكري⁴، ولعلّ من أبرز المصادر التي خصّصت جانبا هامًا للحدّث عن جهود الباي في الجانب الثقافي ما كتبه ابن زرفة الدحاوي خاصة في حديثه عن دور الباي في بعث الرباطات الطلّابيّة وتنظيمها، إذ حكم فترة تميّزت بالجمود الفكري والثقافي الذي ميّز القرنين 16 و17م، لذلك أجمعت المصادر

* هو محمد بن عثمان الكبير ابن إسحاق الحاج عثمان ابن إبراهيم، تولّى شؤون بايلك الغرب سنة 1192هـ/1773م، اشتهر بأعماله الحربيّة ومآثره العمرانيّة وقد تمّ على يده استرجاع وهران للمرة الأخيرة سنة 1206هـ/1791م، فنقل مقر بايلك الغرب إليها، توفي سنة 1213هـ/1798م، أنظر: أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط، ص72، أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي أخ محمد بن عبد الكرم، ط1، القاهرة، عالم الكتاب، 1969، صص15-19.

¹أحميدة عميراي، الجزائر في أدبيات الرحلة، ص34.

²ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013.

³نفسه، ص15.

⁴أحمد بن الهطال، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي، تحقيق محمد بن عبد الكرم، عالم النشر، الجزائر، 1988.

الأجنبيّة والمحليّة عن فضله في ذلك وعدّدت صفاته وخصائله فيقول تيدنيا "كان شديد الإنسانيّة ذو سلوك طيّب بالإضافة إلى ثقافته الواسعة على خلاف الأتراك الآخرين يجب كثيرا الأجانب"¹.

أمّا الرخالة المغربي الزياني فقد وصفه بأوصاف الملوك في الشجاعة والنبيل والكرم فيقول عنه: "كان كثير الغزو والترحال... قوي العزم والحزم محبّا للعلم والعلماء والصلحاء... الفضلاء والأدباء... شديد الأوامر..."².

ولعلّ إلى جانب الإنجازات العظيمة التي قام بها وعلى رأسها دوره في استرجاع وهران وتحريرها من يد الإسبان عام 1206هـ/ 1792م، والتي كانت له آثار إيجابية في استقرار الوضع في بايلك الغرب والجزائر عامة دوره في تعمير المدينة من جديد واستعادة مكائنها الثقافيّة والعلميّة³، بعدما كانت تعيش في عزلة وفراغ ثقافي إسلامي طيلة الاحتلال الإسباني، وقد تركت الحادثة وقعا كبيرا في نفوس الجزائريين ممّا أدّى إلى ظهور حركة ثقافيّة آلف عنها العلماء عدّة تأليف وصنّفوا فيها النثر والنظم جملة من التصانيف⁴.

ولعلّ أيضا من العوامل التي ساهمت في دفع الحركة الثقافيّة في المدينة وغيرها من مدن بايلك الغرب المهجرة الأندلسيّة ودورها في إحداث نهضة علميّة، عمرايّة وفنيّة كبيرة ساهمت في دعم جهود الباي وإنجاحها⁵.

والأمر لم يكن أقلّ سوءا في حاضرة معسكر، حيث تحدّث أبو راس الناصري عن ذلك بقوله "زمن عطلت فيه مشاهير العلم ومعاهدده وفسدت مصادره وموارده وحلّت دياره ومواسمه وعفت أطلاله ومعالمه لاسيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب قد طرقت في زوايا المهجران ونسجت عليها عناكب النسيان"⁶، فلم يكن مجال العلم مفتوحا أمام عامّة الناس، بل كان يقتصر فقط على

¹أحميدة عمراوي، المصدر السابق، ص4.

²الزياني، دليل الخيران، ص261.

³صالح فركوس، الباي محمّد الكبير وبعث الحركة الثقافيّة ببائلك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، ع 71، الجزائر، ش.و.ن.ت، سبتمبر، أكتوبر، 1982، ص264.

⁴الزياني، دليل الخيران، ص264.

⁵أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص223.

⁶أبو راس الناصري، فتح الإله، ص37.

الخاصة لأنه يتطلّب نفقات باهظة¹، وفي ذلك يشير الأسير الفرنسي تيدنيا إلى انتشار الأميّة خصوصا في حاضرة معسكر، وهو ما أثر بشكل كبير على مناطق أخرى².

ويمكن تلخيص جوانب اهتمام الباي بالتعليم فيما يلي:

1- الاهتمام بالعلماء:

حيث عمل على تقريب العلماء إلى مجلسه بشكل فاق نشاطه في ذلك ما كان في الناحية الشرقية فكان نصيب علماء معسكر من هذا الإصلاح التشجيع المادي والمعنوي، وفي ذلك ذكر ابن سحنون الراشدي "... والأعياد فإنه كان يقيم فيها أهل الوظائف كالمخطباء والأئمة والمؤذنين والمدرسين..."³، ثم خصّص الباي مرتبات لقارئ العلماء والمدرسين، حيث كانت تتراوح ما بين 40 و60 ريالا، ثم خصّص رواتب لطلبة العلم الذي كانوا يحضرون درس البخاري فيتلقون أربعة سلطانية في كل سنة، ويمنح لوكيل خزانة الكتب خمسة عشرة ريالا، ثم يصرف نصف ريالا على بيوت الطلبة العامرة لشراء زيت الإنارة⁴، كانوا يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون بشيء إلا من كان مستعملا في خدمته فاتّسع بذلك حال العلماء وانشرحت صدور القراء وكثر طلبة العلم⁵.

وإلى جانب ذلك أولى الباي اهتماما بالغا بتشجيع حركة تأليف الكتب ونسخها بالخط الأندلسي وشراءها، حيث كان ينفق بسخاء على ذلك، فأمر كاتبه ابن زرفة بتقييد حوادث الجهاد التي كانت تجرى بين الجزائريين والإسبان⁶، وكثيرا ما كان يشتري كتبه بالثمن البالغ⁷.

ثم أمر أحمد ابن سحنون الراشدي باختصار كتاب الأغاني وجمع قاموس للطب وتأليف كتاب في الأدب واشتهر له مؤلفه "الثغر الجماني"، بعد أن أغدق عليه الباي محمد الكبير بمائة سلطاني وخمسين دينارا ذهبيا¹.

¹ صالح فرّكوس، المرجع السابق، ص 16.

² Marcel Enerit, les aventure de thèdèn, année 1881, p 282.

³ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 143.

⁴ ميلود حجاج، محمد بن عثمان محور مدينة وهران، المتحف الوطني زبانة، ع 3، وهران، ص 25.

⁵ ابن سحنون، المصدر السابق، ص 135.

⁶ دري فاطمة، العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي ورحلته القمرية، الحوار المتوسطي، العدد 13-14، ديسمبر، 2016، ص 108.

⁷ ابن الهطّال، المصدر السابق، ص 16.

2- بناء المدرسة المحمدية (1160هـ / 1747م):

قام بتشبيد هذه المدرسة بجانب المسجد الأعظم والتي ضمت أساتذة أكفاء متفرغين للتعليم وعجت بألاف الطلبة حتى وصفت بالمدرسة التي كاد العلم ينفجر من جوانبها²، ومن أبرز علمائها الشيخ محمد بن حواء، مصطفى بن زرفة، الشيخ أبو راس الناصري الذي تولى التدريس فيها لسنتين³، فيقول هذا الأخير أنه اتبع طريقة الجاحظية في التدريس فيها، فكان يذكر أثناء درسه لطائف مهمات وترتيبات عجيبات وحكايات نوارد لتنشيط القلوب الفواتر على حدّ تعبيره، ولما رأى الباي كثرة الطلبة وإزدحامهم عنده عملوا له كرسيًا فاستعان به على الدرس غاية الإستعانة⁴.

ثم شيد العديد من المساجد أهمها مسجد سيدي حسن أو ما يعرف بمسجد المبايعه والذي فرغ من بنائه سنة 1781م، وخصّص له خطيبا وإماما وأربعة مدرّسين، وخصّص له كل ما يكفيه من لوازم وجعل لمعظم الطلبة راتبا معلوما⁵.

اهتم الباي بتعميم التعليم في المدن والأرياف وحرص على تخصيص أوقاف كبيرة عليها، حيث تتبع أوقاف مدرسة تلمسان التي استولت عليها الأيدي ونسي الناس أنّها أوقاف وأعاد للمدرّسين الأراضي التابعة لها⁶، كما ساهم الباي أيضا بحبه اهتمامه بالتعليم بإدخال بعض الإصلاحات في هذا المجال، فنظّم المدارس وربّتها على درجات ومراحل ووضع لها المناهج وحدّد العلوم والمواد التي تدرّس في كل مرحلة، فأبرز ما كان يدرّس في المدرسة المحمدية مختلف العلوم النقلية التي ميّزت ذلك العصر كالفقه والتفسير، السيرة، اللّغة والتاريخ⁷.

وبالرغم من أهميّة ما كتبه الأسير تيدينا عن الباي محمد الكبير التي لم يكن مدير قصره والخزناجي فحسب، بل كانت تربطه به صداقة حقيقية، إذ كان يلازمه في كلّ رحلاته ويشرف على كل ما يتعلّق

¹ ابن سحنون، المصدر السابق، ص 16.

² نفسه، ص 127.

³ المهدي البوعبدلي، المراكز الثقافية، خزائن الكتب بالجزائر عبر العصور، مجلة الأصالة، العدد 11، الجزائر، 1972، ص 41.

⁴ أبو راس الناصري، فتح الإله، ص 23.

⁵ Le Cherc, inscription arabe, R A, p44.

⁶ سليم بابا عمر، مخطوط تاريخي لم ينشر، مجلة تاريخ وحضارة، ص 132.

⁷ ميلود حجاج، المرجع السابق، ص 25.

بشؤونهم وبالرغم أيضا من ثقافة تدينا وإتقانه لعدّة لغات وتعلّمه للغة العربيّة إلا أنّه لم يكتب إلاّ النزر القليل عن إنجازات الباي الثقافيّة، وهو ما يوحي بحالة من الجمود والتخلّف عكس ما أشادت به المصادر المحليّة في هذا الشأن وهو ما دفع الدكتور عميراوي يدعو إلى إعادة قراءة هذه المصادر لما حملته من معلومات حول هذه الفترة¹، وفي ذلك يقول تدينا "لقد عملت لنفسي مكتبة صغيرة بمعسكر فكانت غريبة في بلاد مثل هذه، وكان الأهالي المحيطون بي يندهشون لرؤية كتب كثيرة فإنّهم لم يروا من قبل مثلها... إنّهم شعب جاهل إلى حدّ أنّه لا يوجد في معسكر وهي مدينة كبيرة نوعا ما أكثر من 100 شخص يحسنون القراءة وهذا الجهل يعطي احتراما بسيطا إلى كل من يعرف ولو حرفا واحدا من القرآن وينظر إليهم من بسطاء الشعب كقديسين... ولم يفتنوا أن اعتقدوا أنّي يمكنني تعويضهم في خرافاتهم، بشكل أهم كانوا يقدمون إليّ ويتوسلون لي في كلّ وقت حتّى أقدم لهم بعض الكتابات تجعلهم محبوبين من امرأة أو من سيدهم أو تجعلهم قادرين على تحديّ طلاقات البنّادق... والتي حيرتني أكثر مثلا من نفس هؤلاء الجاهلين يوجد في بعض الأحيان أناس مستقيمون ولهم مناصب عالية يأتون ويطلبون مني نفس الشيء"².

وهو ما يوحي عند تدينا أنّ جهود الباي كانت محدودة في هذا المجال فلم تخرج عن مستوى ما كان سائدا في الجزائر في تلك الفترة، بالرغم من الإشادة التي وردت لدى كلّ من تدينا وديفونتين عن ذكاهه والرفقة التي كان يعامل بها المسيحيّين الأسرى وانعدام التعصّب لديه، فقد سبق وزار ليفورنا ومرسيليا فتعلّم بعض اللغات الأوروبيّة مثل الإيطاليّة، ثمّ تدلّ تصرفاته مع المسيحيّين إلى شدّة تقديرهم والاعتراف بقدراتهم وعلمهم وخيرتهم، ذلك كلّه لم يدفع إلى نقل هذه التجارب والخبرات وإدراج علومهم في مناهج التدريس في المدارس التي أقامها التي ظلّت تسير بنمط ذلك العصر، وهو ما يؤكّد بشكل لا يدعو للشكّ خصوصيّة العلاقة التي كانت تربط بين الأتراك والجزائريّين³.

ب- جهود صالح باي في دفع الحركة التعليميّة:

¹أحميدة عميراوي، ص133.

²نفسه، ص82، 83.

³أحميدة عمراوي، الجزائر في أدبيات، ص134.

تظهر الجهود التي خصّصها صالح باي* في قسنطينة في الجانب الثقافي من خلال ما تمّ تدوينه في سجلّات عقود الملكية والأوقاف التي جاءت في طيّاتها جلّ موافقه وأوامره لضبط أملاك المساجد والمدارس في وضعية أوقاف خيريّة وبعضها أهليّة وذرية¹.

إضافة إلى المشاريع العمرانيّة التي نفّذها صالح باي في قسنطينة والتي تظهر بصماته في مختلف الأحياء، خاصة بين سوق الجمعة وسوق العصر²، وعلى رأسها اهتمامه الكبير في بناء الجامع الأعظم والمدرسة سنة (1188هـ / 1774م)، حيث تتابعت مجموعة من عمليات الوقف على المؤسّستين، وكان صالح باي أول المبادرين لذلك وسرعان ما حذا حذوه بعض أعيان المدينة من كبار الموظفين أمثال رضوان خوجة وكيل بيت المال، والسيد مصطفى قيسارلي وغيرهما...، إلا أنّ أملاك صالح باي الموقوفة على المسجد تمثّل القسط الأكبر، كما توالى الوقفيات على طول عشر سنوات ممّا زاد من ثروة المدرسة والجامع³.

وقد أحصت الدكتورة فاطمة الزهراء قشي أكثر من ثلاثين وقفا على الجامع والمدرسة منها تسعة عشرة خيرية، كما وردت في سجلّات الأوقاف خمسة وستون عقداً منها كانت خدمات خيرية مثل (السبالة الحنفية) التي أحدثها السيد قيسارلي وحبس عليها بعض الأملاك لضمان تموينها بالماء الشروب⁴.

وتظهر صورة وإنجازات صالح باي في الكتابات المحلية عند العنترى وابن العطار والتي صدرت في منتصف القرن 19م وشكلت مصدر لكل الدارسين لحكم الأتراك في قسنطينة⁵.

* قيل أنّ مولده حوالي 1725، وجاء إلى الجزائر سنة 1741م، أصله من بلد أزميز، كان رجلاً عاقلاً عارفاً بالسياسة وأمور الحكم لأنّه كان من الأوجاق ثم ترقى من المراتب حتى ارتقى إلى منصب الباي (1771-1992م)، عرف بصرامته وإنجازاته الكثيرة في قسنطينة (أنظر: مؤلف مجهول، تاريخ بابات قسنطينة، تح مختار حساني، منشورات دحلب، الجزائر، 1999، ص 42).

¹ أنظر سجل الأوقاف صالح باي، العقد 03، لعام 1189هـ والخاص بأملاكه في سوق الجمعة، ص 05، أرشيف قسنطينة.

² فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة أيام صالح باي باي البايات، منشورات ميديا بولس، قسنطينة، 2005، ص 61.

³ سجل الأوقاف، صالح باي، العقد رقم 11 لعام (1189هـ-1203هـ) الخاص بعائلة مصطفى قيسارلي وعائلة كوجك، أرشيف قسنطينة، ص ص 70-88.

⁴ فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص 85-86.

⁵ فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص 121.

فقد عرض العنتري أعمال صالح باي في صيغة المدح بقوله: "...أتقن بنائها فكان فيها منفعة للعباد ومصلحة وحصناً للبلاد وأسس المساجد للديانات وأجرى للضعفاء والقليلين الصدقات، فبذلك كانت أحواله في غاية الاستقامة والرعية طائعة ومنقادة.."¹.

ووصف أحمد بن مبارك العطار حكم صالح باي أيضاً، حيث وصف إنجازاته بقوله "...مات أحمد باي عام 1185هـ 1771م، وتولى خليفته صالح باي وحسنت أيامه وبلغ مالم يبلغه من هو في سنه من ولاة الجزائر وولاة تونس وجمع مالم يجمعه غيره، وبني جامع سيدي الكتاني ودياره بالشارع وغرس البساتين المعتبرة... وبني القنطرة وجلب لها المهندسين من بلد النصارى وأنفق أموالاً عظيمة وعمّر الوطن وسعدت الناس في دولته ودام نحو اثنين وعشرين سنة وأخباره مشهورة وصدقاته ماثورة..."².

وهناك إشارات حقيقية لا تفي بفضول الباحث عن علاقة الباي بالزوايا فيكتفي البعض بالتلميح إلى المنافسة التي أحدثتها المؤسسات الزوايا المجاورة بعد تشييده للمدرسة الكتانية التي عرفت بإتباعها نظاماً داخلياً محكماً للطلبة، حيث كانت نفقات الطلبة والمدّرسين على عاتق الأوقاف التي خصّصها لها الباي ... وتبعه في ذلك أعيان المدينة وأثريائها وكان التنافس في ذلك كبيراً كما اعتمد على علماء وفقهاء بعينين عن التصوف والطرفية.³

وانطلاقاً من كل ما سبق يمكن القول أنّ المصادر المحلية لم تقدم إلا النزر القليل عن أعمال صالح باي وإنجازاته ولم تتحدث عن فترة حكمه إلا في صفحات قليلة⁴، مما فتح المجال أمام بعض الكتابات الفرنسية المبكرة التي تزامنت مع الحملة الفرنسية على مدينة قسنطينة سنة 1837، ذلك فيما قدّمه Vaysette فايسات⁵، ومن إنجازات صالح باي في الجانب الثقافي:

¹ مُجّد الصالح العنتري، المصدر السابق، ص 64.

² الحاج أحمد بن مبارك العطار، تاريخ قسنطينة، تحقيق نورالدين عبد القادر، الجزائر، 1956، ص 70.

³ فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص 130.

⁴ لعله يعود السبب في ذلك إلى إتلاف كل ما كتب عنه بعد نهايته المأسوية أو لعدم اهتمام الباي بمنح التأليف وتقريب العلماء من مجلسه كما فعل الباي مُجّد الكبير في الغرب. (أنظر فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص 134)

⁵ كان عضو بارز في جمعية قسنطينة للأثار، جاء مبكراً إلى الجزائر وتعلم اللغة العربية وتعمق في معرفتها، كان أستاذاً بالمدرسة الفرنسية الإسلامية بقسنطينة ثم أصبح مديره بفضل مركز إيقاع التواصل مع الأهالي وحصل على عدد كبير من الوثائق فنقلها إلى اللغة الفرنسية

1- تشييد المدرسة الكتانية:

أو مدرسة سيدي الكتاني التي تقع بالجانب الشرقي من الجامع المعروف بنفس الاسم، أسّسها سنة 1787م إضافة إلى مدرستين ثانويتين، مدرسة بوصقيعة ومدرسة سيدي بن خلوف وعدد كبير من المدارس الابتدائية¹.

وحتى تؤدي هذه المدارس وظائفها استحدث صالح باي نظاما دقيقا يتقيد به المدرسون والطلبة، عين على رأسه وكيفا سهر على نظام الدراسة، وفي ذلك يقول فايسات أن هذا النظام لم يكن أقل مستوى من نظام ثانويات فرنسا، حيث تشمل المدرسة فيه غرفة للمدرس وأخرى للصلاة وخمس غرف أخرى تخصص واحدة للمدرس وأربعة غرف للطلبة الداخليين الذين كان عددهم ثمانية، اثنان في كل غرفة، حيث سهر الوكيل على الإشراف على المداخل والمصاريف وحفظ النظام².

وقد خصصت مؤسسة الأوقاف لكل هؤلاء مرتبات تصل للمدرس حوالي ثلاثين ريالاً ومنح للطلبة قدرها 6 ريالات، كما تم تحديد برنامج دراسي محدد وقوانين دقيقة تخضع لها إلا المدارس، والتي تلقى فيها ثلاث دروس في اليوم منذ مطلع الشمس إلى غروبها³.

وقد أشاد فايسات بصرامة النظام الداخلي للمدارس، فمن شروطه عدم التغيب والخروج من المدرسة دون عذر، وضرورة المثابرة في أداء الدروس، والحفاظ على النظام والنظافة داخلها، وكل تلميذ لا يلتزم بذلك يكون مصيره الطرد، حيث تقدر المدة التي تقضيها داخل المدرسة عشر سنوات⁴.

وفي شوال 1194هـ / 1780م أصدر صالح باي قانونا خاصا بالمدارس، جاء فيه أنّ الأستاذ يعين مباشرة من طرف الباي نفسه كما كلف كبار علماء المدينة كالشيخ عبد القادر راشدي مفتي

ونشرها في مدونة الجمعية، وقد اعتمد على بعض المخطوطات ولكنه اعتمد على الرواية الشفهية في كثير من الوقائع التي ذكرها في كتابه " تاريخ قسنطينة تحت الاحتلال التركي من 1517-1837"، نشر هذا الكتاب في شكل مقالات من سنة 1867 إلى سنة 1869 في هذه المجلة (صالح نور، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873، أوجين فايسات، تقديم عبد الرحمان شيبان، دار قرطبة، الجزائر، 2013، ص15-16).

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص275.

² فاطمة الزهراء قشبي، المرجع السابق، ص130.

³ R. Bourouba, Constantine, collection art et culture, Alger, 1978, p 119.

⁴ Eugène Vaysset, Histoire de Constantine sous la domination Turque (517-1837), R.N.M.S.A, Constantine, 1867, p 354-355.

الحنفية وشعبان بن جلّول قاضي الحنفية والعبّاسي قاضي المالكية الإشراف على تطبيق هذه القوانين، كما كلفهم بتوحيد جهودهم لتزويد الناس بالفتاوى¹، ويبدو أن سياسة صالح باي التعليمية الغرض منها نشر التعليم لتمكين الناس من أمور دينهم وإعداد رجال يتولون الإفتاء، القضاء، الإمامة والتدريس².

فقد جعل التعليم الثانوي مجانا حيث يتقاضى الطلبة منح سنوية إضافة إلى نفقات الإيواء، وقد ساهم في تنشيط الحركة الثقافية في عهده إنشاء المكتبات بقسنطينة عامة وخاصة حيث كانت أسرة ابن الفكّون تملك مكتبة تحتوي ما يزيد عن أربعة آلاف مجلد³.

وعلى ضوء كل ذلك نجد فإيسات في وصفه لجهود صالح باي في مجال التعليم قد وقع في شيء من التناقض، فتارة نجده يشيد بهذا النظام وصرامة الباي في تطبيقه والسهر عليه، فقد علّق بقوله "إنّها تتمّ عن روح متفتحة وعقل واعٍ فهي لا تقبل في شيء عما جار به العمل في مدارس فرنسا..."⁴، وتارة أخرى ينتقده بشدة عندما يعتبره إنتهاكاً لقوانين التوازن الطبيعي للتطور الآلي للقدرات الجسدية والعقلية للطفل تفقد العقل نشاطه فيصبح كسولا، وهي صفة خاصة بالمدارس الإسلامية لذلك لم تقدم هذه المدارس إلا نماذج للكسل والجهل في وقت كان عليها أن تمثل المعرفة والعمل الثقافي لانعدام الراحة ووسائل الترفيه لديهم⁵.

ويبدو من خلال دراستنا الوقوف على نفس المقاربة التاريخية التي لمسناها عند الحديث عن جهود الباي مُجّد الكبير من خلال ما ذكره الرحالة الفرنسي ديفونتين Desfontaines الذي زار قسنطينة في 18 سبتمبر 1785م، وهذا ما قاله عن صالح باي الذي لم يذكره بالاسم، وعن حال المدينة "أسكنني الباي في إحدى دياره وأعطى أمراً بأن يحضر إليّ كل ما احتجت إليه ولقد أدت له الزيارة واستقبلني بكل مودّة وأجلسني على كرسي وكان يتكلم الإيطالية بسهولة.. وكان للباي عبيد من

¹ Ibid, p 355.

² نصر الدين سعيدوني، أبحاث وآراء، ص235.

³ عبد العزيز فيلاي، مدينة قسنطينة، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، ص165.

⁴ نصر الدين سعيدوني، أبحاث وآراء، ص295.

⁵ نفسه، ص2.

الإيطاليين وكان طبيبه الجراح من أصل نابوليتاني قد تودّد إلي.. وقد طلبت إلى الباي بأن يعطيني جنودا يصطحبوني في سفري إلى عنابة ففعل بكل فرح وعن طيب خاطر...¹.

وفيما يخص الطبيب الجراح النابوليتاني يقول أنّ "الإيالة القديمة في كل من تونس والجزائر سقط فيهما علم الطب إلى الحضيض والإهمال واستُبدل بالشعوذة والتدجيل والإيمان بالحجاب غير أن هذا العلم كان يتمتع لدى الأغنياء وذوي الشأن بأهمية كبيرة فكان الباشوات والبايات الذين يهتمون كثيرا بصحتهم يحرصون على أن يكون لهم طبيب أوروبي"².

ومن ذلك نستنتج أن صالح باي كان أيضا يكن الاحترام والتقدير للمسيحيين الأوروبيين مطالعا على اللغات الأوروبية معجبا بما كان يحدث في أوروبا من نهضة، إلا أن سياسته التعليمية لم تختلف أيضا عما كان سائدا في عصره من الاهتمام بالعلوم النقلية والدينية، فلم يبذل جهدا في إدراج العلوم العقلية في هذه المدارس على غرار ما كان يحدث في مدارس أوروبا، لذلك لم تخرج جهوده في مجال التعليم عن سبقه ولا تعدّ نهضة ثقافية أو حقبة من عصر التنوير.³

والغريب في الأمر أنه لم يعثر لهذا الباي عن مصدر يترجم له ويؤرخ لفترة حكمه وهو ما حظي به معاصره محمد الكبير باي الغرب الجزائري (1780-1798) فهل أُرّخ لهذا الباي في عهده وضاع ما كتب عنه إثر غضب السلطة المركزية عليه وإعدامه سنة 1792م، أم أن الباي نفسه لم يكن يهتم بتاريخ حكمه وإنجازاته ولم يكلف أحدا على غرار ما فعله معاصره⁴، وقد بذلت د. معاشي جهدا من خلال مخطوط عثرت عليه في المكتبة الوطنية بتونس يؤرّخ لصالح باي تُسخ على يد محمد الطاهر بن أحمد النقاد، أشار فيه إلى إسهامات الباي في إنشاء المدرسة الكتانية فيقول في ذلك: "إستقام له الأمر، وصف له المشرب والتفت في تعمير البلد وشد بورقه لتعظيم ويذكر اسمه في الأمصار ويعلو ذكره في الأقطار وأقام به دورا وبنى جامع المشهور المسمى سيدي الكتاني بناءً عجيباً له سوارى من رخام.. وفي عام واحد وتسعين 1191هـ / 1771م بنى مدرسة مشتملة على بيوت ومبضأة وجعل فيها

¹ Pysonnel et Desfontaines, op.cit., p 216.

² Ibid.

³ جميلة معاشي، مخطوط عن صالح باي حاكم بايلك قسنطينة (1773-1792)، المجلة التاريخية المغاربية، عدد جويلية، 2010، ص32.

⁴ المرجع نفسه، ص33.

أربعة وعشرين طالبا يقرؤون القرآن صباحا مساء ويحتمونه مرتين في الشهر وقرؤون دلائل الخيرات.. وجعل لكل طالب مرتبا في كل سنة أشهر مستعة أربلة ويأخذ الزيت في كل شهر، وكل من يتولى من العلماء شيوخه المدرسة يأخذ في العام مائة ريال ويأخذ الزيت، ومن غاب من الطلبة شهرا رجع مكانه آخر.. ويقراء الفقه، النحو وعلم الكلام وغير ذلك من العلوم..¹.

ويبدو أن ما جاء في هذا المخطوط لم يتعد كثيرا عما ذكره فايسات في حديثه عن جهود صالح

الباي التعليمية في قسنطينة.

¹ جميلة معاشي، مخطوط عن صالح باي...، ص 38، 39.

الفصل الرابع: عادات وتقاليد المجتمع الجزائري

1- اللباس

- لباس الرجل

- لباس المرأة

- لباس اليهود

2- الأكل

- أنماط غذاء المجتمع الجزائري

- أنواع المأكولات وطرق إعدادها

- عادة شرب القهوة

3- الطقوس والاحتفالات

- الاحتفالات الدينية

- الاحتفالات الشعبية

- الزواج

- الاحتفال بركب الحج

- ممارسات وطقوس الجنائز ودفن الموتى

4- ممارسات يومية

- أداء الصلاة

- ارتياد الحمامات

- زيارة الأضرحة والاعتقاد بالأولياء

5- من عادات الجزائريين

- الكرم وحسن الضيافة

- التسامح الديني وآداب المعاملة

- عادات أخرى

6- ممارسة بعض الطقوس الدخيلة على الإسلام

- ممارسة السحر والشعوذة

- ظاهرة البغاء

حظي جانب الحديث عن العادات والتقاليد وطرق حياة ومعيشة الجزائريين برصيد هائل من المعلومات التاريخية التي قدمتها المصادر الأوروبية والأجنبية عامة، حيث قام أصحابها بتدوين ملاحظات وانطباعات على كل ما كانوا يشاهدونه خلال فترة تواجدهم في الجزائر، وبالرغم من أن دوافع الكتابة في ذلك كان عادة ما يطغى عليه الذاتية في بعض الكتابات خاصة في الفترات الأولى من العهد العثماني، فإن الكتابات المتأخرة قدمت لنا الكثير من المعلومات حول هذا المجتمع.

وإذا كانت هذه الفترة قد حافظت منذ بدايتها على بعض معالم الثقافة والهوية المتأصلة في المجتمع إلا أن طول الفترة (أكثر من ثلاث قرون)، إضافة إلى التأثيرات الخارجية، قد قدمت لنا مشاهد متنوعة ومختلفة أحيانا، وفي ذلك يقول بروديل Braudel أن التاريخ طويل المدى فيه الكثير من التغيرات، منها تغيرت أيضا نظرة الرحالة إلى الجزائر خلال الفترة تماشيا مع التحولات الاجتماعية، التي تحدث بين فترة زمنية وأخرى، ومن بين ملامح طرق ومظاهر حياة الجزائريين خلال الفترة نجد:

1- اللباس:

من المتعارف عليه أن الزي يعد شكلا ثقافيا يجسد رؤية الفرد والجماعة لمجموعة من القيم والمعايير الاجتماعية والدينية تخضع درجة الأناقة فيها إلى الحالة الاجتماعية لكل فرد أو أسرة، فقد يتميز سكان المدن بصفة عامة بالألبسة الأنيقة الرفيعة والمتناسقة، بينما يلبس أهل البادية الألبسة الخشنة والبسيطة عادة تكون من الصوف والكتان وذلك يعكس طبيعتهم، ذوقهم ودرجة تحضرهم¹.

وصف حسن الوزان اللباس قائلا لباس الملك جميل ولائق²، فكان يرتدي قميصا فوقه صدرتان ومعطف قصير يدي يدعى جابادولي وسروال كبير ويضع فوق ذلك برنسا أبيض اللون وعلى رأسه عمامة مستديرة من الحرير الرقيق الأبيض يضعه فوق طاقية حمراء (Tortora)، وينتعل بشماقا من الجلد الأصفر ولم يكن في أثوابه شيئا من الذهب والفضة، أما في أيام العيدين فإنه يرتدي الخلعة التي أرسلها إليه السلطان العثماني عند توليه على رأس الإيالة³، كما وصف لباس الجند من الأوجاق حسب درجة رتبتهم ي الجيش فالجند الأقل رتبة يرتدون قميصا واسعا له كمين عريضتين يضعون فوقه كساءا

¹ فيلالى عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج1، مؤسسة موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 266.

² حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 22.

³ De Haydo, Topographie, op.cit., p 111.

كبيراً من القطن يلتفون فيه شتاءً وصيفاً فما يرتدون في فصل الشتاء سترة من الجلد مصنوعة على نمط القميص ويضع الضابط الأعلى رتبة فوق القميص كساء من الجوخ (الحرير)¹، وفي ذات السياق يذكر دوهايدو أن الجنود المتطوعين الجدد عند وصولهم إلى الجزائر قادمين من القسطنطينية كانوا يرتدون لباساً عثمانياً يجلبونه معهم، يتكون من سروال يهبط حتى أسفل القدمين، وهو عريض وذو ألوان زاهية، وكانوا يضعون قميصاً ذا أكمام طويلة وعلى رؤوسهم قبعة مصنوعة من الصوف ويلبسون نعلاً من الجلد عالية أسفلها مصفح بأربع صفائح من الحديد²، وعند تسجيل الجندي الإنكشاري في دفتر الأجور تلتزم الدولة بتقديم بدلة عسكرية له تتكون من قميص خشن وصدريّة وعمامة خضراء وسروال من القطن ومعطف من نوع المليف الخشن، شاشية وحزام أحمر وزوج من الأحذية وغطاء من الصوف ضيق وقصير³، يوزع هذا اللباس مجاناً على الجنود، مما يكلف الخزينة أموالاً طائلة وقد شبه وولف مثلما فعل الوزان بأن شبه هذه البدلة بلباس الأسرى والعبيد فقد أعطى هؤلاء ملابس لا تختلف في نوعها عن تلك التي أعطيت للعبيد.⁴

والملاحظ بإجماع عدد من المصادر الأجنبية على أن الجندي الإنكشاري ومع مرور الوقت قد تأثر باللباس المحلي الجزائري فارتدى البرنوس الأسود المصنوع من الصوف الطبيعي، الذي عوض القفطان وأصبح اللباس الرسمي للجنود أثناء قيامهم بالحملات وخاصة في فصل الشتاء.⁵

غير أن شلوصر وفي فترة متأخرة من العهد العثماني قد ذكر في ذات الشأن أن لباس الأسرى كان يختلف حسب الوظيفة والعمل المؤدى من طرف الأسير، فلباس الأسرى المشتغلين في الأعمال الشاقة يختلف عن لباس المجدفين والمنشغلين لدى الحاكم وأثرياء المدينة، من كانوا يعيشون في ظروف أفضل من الأسرى في السجون⁶، وفي ذلك يمكن أن نعتبر ما ذكره بفايفر أن أسرى كبار مسؤولي الدولة كانوا يعتبرونهم في نفس مرتبة الجندي الإنكشاري فاللباس المقدم لهم مكون من قلنسوة حمراء وقميص وصدريّة

¹ حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 21.

² De Haydo, topographie, p 59.

³ Ibid, p 111.

⁴ جون وولف، المرجع السابق، ص 123.

⁵ De Tassy, op.cit., p . Venture De Paradis, op.cit., p 142.

⁶ E.L. Plaifai, Scarage of christiandom, anales of British relations with Algiers, Smith eldes, 1840, London, p 11.

من الصوف وسروالين ينتهيان عند الركبة ونعلين من النوع الرخيص تستبدل هذه الألبسة كل سنة¹، كما كتب الأسير الأمريكي جون فوس أواخر القرن 18م، أن الأسير عند وصوله كانت تمنح له حزمة صغيرة تحتوي على معطف وصدرية التي تلبس عبر الرأس أو قميص دون أكمام وبنظالا يشبه إلى حد ما تنورة المرأة.²

أ- لباس الرجل:

لباس الرجل من غير الأتراك فهو لباس بسيط يتكون من قميص مصنوع من القطن او الصوف الخام متمثل في البرنوس وهو معطف صوفي ضيق في الأعلى عريض جدا في الأسفل يصل طوله إلى العقبين، وهذا اللباس يحمي من أشعة الشمس وبرودة ورطوبة الليل، أما اللباس الداخلي فهو عبارة عن سروال قصير من القماش، في طول الركبة، كما يلبس السترة وهي جبة طويلة من القماش الرفيع.³

أما فئة التجار من سكان المدن الحضر فيتميزون بالأناقة يلبسون معطف (الكبوت) بدون أكمام أحمر عريض تحيط به قطعة من القماش في هيئة شاش (Turban)، ويتعل الأريحيات المزركشة بكعب حديدي مرتفع.⁴

أما لباس البدوي في المناطق الريفية والجبلية النائية ويتمثل في قندورة صوفية وبرنوس أبيض عادة ما يكون متسخ، حدائه عبارة عن خف من الجلد الخام، كما يلف ساقه عند الركبة بخزقة يربط بها خفه، ويضع فوق رأسه قلنسوة بيضاء تظهر منها جوصات.

وقد ميز شلوصر بين الرجل البربري والرجل العربي، من حيث الشكل واللباس، فيقول إن العربي في هذه المناطق كانت ثيابه أنظف لقلّة ممارسته أي نشاط، إذ يرتدي عادة قميصا قطنيا فوقه قندورة من الصوف تحيط بجواشيه شريط أحمر، ويلف حوله حائك يرتدي فوقه برنوس أو برنسين الأول خفيف أبيض والثاني خشن ذو لون أسود أو رمادي ينتعل حذاء من جلد المعز الأسود أو الأحمر، فوق رأسه

¹ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 19.

² Robert Davis, Christian slave Musulman master's white slavery in the Mediterranean, Palgrave Macmillan, 2002, p 181.

³ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 104.

⁴ نفسه، ص 105.

يضع قنسوة حمراء تحتها عدة طبقات من القلنسوات البيضاء يدير حولها خيطا أبيضاً بنياً أو أسوداً من شعر الجمل.¹

أما رجل الصحراء فحسب العوامل الطبيعية يرتدي لباساً أبيضاً فضفاضاً وهو غاية في التواضع والبساطة أي ما أطلق عليه ابن خلدون بلباس الاكتمال²، فرجل منطقة توات مثلاً كان يرتدي القندورة والسروال (الحفاظ) والقميص والشاشية، وكذلك البرنوس الذي يطلق عليه (المام) وهو عندهم المعطف الدافئ الطويل الذي يحتوي على قنسوة، ويختلف ألوان حسب المكانة الاجتماعية فالبرنوس الأبيض يرتديه لفقهاء والعلماء والأسود يرتديه العريس يوم زفافه، كما ترتديه العامة وهو الأكثر شيوعاً³.

وعن الرجل العربي عموماً وصف روزيت Rozet لباسه بأنه لا يختلف كثيراً عن لباس البربري يتكون من الحايك والبرنوس، وسروال عريض ما يفضل بعضهم ارتداء سترة مطرزة بالذهب، يلفون الحايك فوق رؤوسهم ويربطونه بجبل بني من الصوف، كما يرتدون أحذية مصنوعة من جلد البقر يلفون سيقانهم بخيوط تتصل بهذه القطعة الجلدية.⁴

أما الدرعي فقد تحدث عن أشهر تجارة يمارسها سكان فجيج هي بيع البرنس للحجاج المارين على المنطقة.⁵

أما الزياني فقد وصف لباس باي قسنطينة الذي كان يرتدي الكركا (أو الكراكو) وهو لباس شتوي يأتي هدية من المشرق للدايات والبايات.⁶

¹ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 99.

² أي لم يفصل أو يخاط فصناعة الخياطة عند ابن خلدون مختصة بالعمران الحضري وتفصيل الثياب، وتقديرها وإلمامها بالخياطة للباس هي من مذاهب الحضارة وفنونها. (للمزيد انظر الجعفري، أطلس العادات والتقاليد بمنطقة، أطروحة دكتوراه في التراث، جامعة تلمسان، 2017-2018، ص 341).

³ الجعفري، أطلس العادات والتقاليد، ص 343.

⁴ Rozet, op.cit., p 166.

⁵ الدرعي، الرحلة الناصرية، ص 125.

⁶ الزياني، الترجمانة، ص 157.

ب- لباس المرأة:

مثل الحديث عن المرأة في إيالة الجزائر رصيد هام في أدبيات الرحالة الأجانب، التي قدمت لنا صور مختلفة ومتنوعة عن جوانب من حياة المرأة الجزائرية الحضرية والريفية وحتى الصحراوية، وفي ذلك يقول خليفة حمّاش أن الأوضاع الاجتماعية السائدة في الإيالة والحرف والصناعات المنتشرة بها كان لها تأثير قوي على لباس المرأة في إيالة الجزائر العثمانية، كما أن للمؤثرات الخارجية الناتجة عن التقاليد الأندلسية والتركية انعكاسا مباشرا على نوعية لباس المرأة بالمدينة خاصة، فقد عرفت الجزائر طيلة هذه الفترة تأثير مباشر على نوعية لباس المرأة بالمدينة خاصة، فقد عرفت الجزائر طيلة هذه الفترة تغيرات اجتماعية واقتصادية أثرت على معيشة السكان وأسلوب حياتهم عن طريق حدوث تمازج واحتكاك عناصر سكانية جديدة واحدة كانت لها أثرها الواضح في المشهد العام غير أنه تبقى لكل طائفة ملابسها الخاصة التي تميزها عن غيرها.¹

وبالرغم من إجماع العديد من المصادر المتقدمة لهذه الفترة عن جهلها للكثير عن المرأة في الإيالة، حيث ذكر الرحالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاوي بأن نساء الترك والموريسكيين لا يستطيع أحد رؤيتهن لعدم خروجهن ولارتدائهن ملابس تخفي ملامهن²، كما ذكر شوفاليه درفيو أيضا أنهن كن يخرجن من منازلهن وهن يغطين رؤوسهن إلى أرجلهن حتى لا تستطيع أن ترى إلا أعينهن³، بالرغم من ذلك فقد قدم دارفيو ملامح عن لباس المرأة، حيث تحدث عن القمصان الطويلة والتنورة المطرزة والمزينة بعدة ألوان، كما تحدث على قطعة القماش الطويلة التي تلف بها جسدها، كما تضع قطعة من قماش مخملي على رأسها تكون مزينة بقطع نقدية ذهبية أو فضية، وتزين بشيء من الحلبي من الأقراط الذهبية أو الفضية ما عدا العروس التي أسهب في وصف لباسها ومختلف الحلبي من أساور وخواتيم وقلائد التي كانت تلبسها.⁴

¹ خليفة حمّاش، الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 2006، ص 111.

² Nicolas De Nikolay, op.cit., p 285.

³ Chevalier d'Arvieux, op.cit., p 285.

⁴ Ibid, p p 286-288.

ومن الصور الواضحة التي قدمها هؤلاء حول لباس المرأة في إيالة الجزائر العثمانية بما كتبه لوجي دوطاسي بأنهن يلبسن مثل الرجل تقريبا فلباسهن مكون من سترات وقفاطين من حرير مطرزة ومزينة بالذهب أو الفضة وسراويل طويلة¹، إضافة إلى قطعة قماش بيضاء رقيقة شفافة تغطي أجسادهن من رؤوسهن إلى أرجلهن، كما تنتعلن أحذية جلدية وتحرص المرأة على لبس الحلي الذهبية والفضية، كما تحرص على ظفر شعورهن ووضع بعض الزينة، كما خصص القنصل الفرنسي فونتور دوبارادي وصفا مدققا لعله يعتبر الأكثر قيمة من حيث استخدام المصطلحات الأصلية لهذا اللباس، الذي يتكون من قمصان حريرية أو قطنية طويلة وذات أكمام عريضة، يليها القفطان المصنوع من الحرير وهو مطرز ينزل إلى غاية الساق ويعرف بالغليلة (Ghalilé) وهو مفتوح من الأمام²، كما تضع المرأة على رأسها الصارمة وهي قطعة ذهبية أو فضية توضع على الرأس، إضافة إلى العصبة وهي شريط ذهبي مزين بالجواهر، توضع على الجبهة، كما أشار بأنهن يرتدين قفاطين مذهبة مزينة ومزركشة عند ذهابهن إلى حفلات الزواج أو الختان كما ترتدي البابوش من الجلد أو المخمل مطرز بالذهب وسروال طويل يصل إلى أسفل القدم أما الحلي فقد ذكر دوبارادي عدة أنواع من الحلي مثل الخللخال الخواتم، والأساور (مسايس)، المقياس، وهو مصنوع من قرن الجاموس، الدرر وهي أقراط توضع على الأذن أي المناقش أيضا، إضافة إلى العنبرة التي ترتديها المرأة الغنية وهي سلاسل من الذهب والعنبر تنزل إلى الصدر.³

وعموما فإن المرأة كما ذكرنا سابقا ترتدي لباس يعكس أصلها ومكانتها الاجتماعية، فالمرأة الأندلسية عادة ما تفضل ملابس الترف والأكثر أناقة من غيرها، ففي فصل الشتاء ترتدي الجوخ والقטיפفة وفي فصل الصيف تلبس الحرير، وهي عادة قميص غير يغطي أعلى حجمها أكمامه قصيرة، ويكون قماشه من الكتان، كما تلبس سروال قصير مثبت بحزام على مستوى النطاق يدعى التكة وتضع فوق السروال الفوطة ملونة تغطي خلف المرأة وتبقى مفتوحة في الأمام.⁴

¹ تلبسه المرأة المتزوجة ذو لون أبيض، بينما تلبسه الفتاة متعدد الألوان لدى المرأة الحضرية. Laugier De Tassy, op.cit., pp. 59-60.

² ومن الألبسة التي ترتديها المرأة ولا يرتديها الرجل الفرملة (نوع من المشد) وهي صدرية تغطي نصف الظهر ولا تصل إلى الصدر لها من الأمام رباطين معقودين، تكون عادة من القماش المذهب. (أنظر هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 62).

³ Venture De Paradis, op.cit., p p 139-141.

⁴ شريفة طيان، ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1991/1990، ص 145-146.

وقد أشار وليام سبنسر أن سروال المرأة كان مزينا بحاشيات من حرير وشرائط متعددة الألوان وتحيط بالأكمام، أي دانتيل من الذهب والفضة، وأضاف أنها تلبس في المناسبات القفطان أو الكراكو والفرملة¹.

كما تلبس جبة تكون مغطاة بأحجار كريمة تختلف ألوانها غالبا تكون صفراء أو زرقاء، فوقها وشاح أو وشاحين تزينها بصفائح ذهبية أو فضية تسقط على الكتفين كما تضع قبعة مخروطية الشكل وعالية تسمى الصرمة (Syrma)²، والتي يقول Show بأنها تعبر عن المستوى الاجتماعي الراقى، أي تضعها المرأة الثرية وهي عادة مزينة بصفائح من الفضة والذهب ومنقوشة³، أما لباس الطبقة البسيطة فيلبس لباس من قماش أقل جودة من الحرير أو الصوف، كما تلبس الحايك عندما تغادر بيتها⁴، ويكون أبيض اللون، حيث تحمل جزئه الأعلى وتشكل منه كيسا وذلك قصد حمل الأولاد الصغار، كما تغطي رأسها بقطعة قماش أي منديل منسوج بطريقة جيدة تتخلله خيوط ذهبية أو فضية⁵، وحليها عبارة عن أقراط وأساور وقلادة وخلاخل، وخواتيم من الفضة أو النحاس، وقد تصنع قلادة من نوايا التمور.⁶

كما تحدث دوطاسي عن لباس المرأة الريفية التي كانت ترتدي قميص شفاف ورقيق، سروال يشبه سروال الرجل، إضافة إلى جبة أو سترة من الحرير تضع فوقها جبة طويلة ذات ألوان مختلفة تصل إلى منتصف الساقين ذات أكمام عريضة⁷، وفي الاحتفالات ترتدي معطف طويل فوق الجبة يسمى الملحفة مختلف الألوان وفي معظم الأحيان تكون أزرق أو أحمر يربط طرف الملحفة على الكتفين بواسطة دبابيس فضية⁸، كما كتب لامبير Lambert في ذات السياق أن المرأة القبائلية كانت تظهر أمام الرجال في الاحتفالات وتشاركهم الغناء والرقص مستعينة بالمكحلة (أي البندقية) أو السيف ولباسها العادي هو

¹ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 107.

² عائشة حنفي، الحلي الجزائرية بمدينة الجزائر في العهد العثماني في القرنين 18-19م، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 171.

³ Thomas Show, op.cit., p 37.

⁴ حمدان خوجة، المصدر السابق ص 61.

⁵ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 106.

⁶ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 94.

⁷ De Tassy, op.cit., p 71.

⁸ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 61.

الحايك الذي يربط بحزام من الصوف يصل إلى اسفل الركبتين كما تزين بأقراط كبيرة الحجم من الفضة غالبا أو نحاسية، أساور وسلاسل من المرجان¹، وهو ما أشار إليه شلوصر عن المرأة في إقليم سيباو، حيث تحدث أيضا عن تزيين شعرها بصفيرتين مصنوعتين من خيوط صدفية زرقاء تتدليان من الجانبين وحلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر معلقتين على الأذنين* وهي لا تحجب وجهها².

غير أن دوطاسي وبعض الكتاب الأجانب قد تحدثوا عن مظهر الاحتشام لدى المرأة الحضرية والريفية، فقد ذكر بأنها تخرج من المنزل وهي ترتدي قناعا** على وجهها حياء من الرجال، كما ترتديه الفتاة الصحراوية بمختلف الألوان³.

وعن ربط الشعر تحدثت ماريا مارتن عن ربط النساء لشعرها في شكل عقدة وأخريات يطلقنه على ظهورهن⁴.

فكن يلبسن في أقدامهن الجوارب والأخفاف أو النعال الصرارة التي يسمع لها صرير، فإن النساء تنتعلها أحيانا عامدات لذلك يمشين بها في الأسواق ومجامع الناس وربما كان الرجل غافلا فيسمع صرير ذلك الخف فيرفع رأسه، كما كن أكثر حرصا على جمال مظهرهن وحسن هندامهن وأناقتهن⁵.

وقد أسهب الضابط الفرنسي Rozet في حديثه عن لباس المرأة في مختلف الفئات الاجتماعية، فقد تحدث عن السروال العريض والسترة القصيرة وحزام وضمائر تلف عادة حول الرأس ويحملن قطعة قماش تغطي وجوههن، تربط من الخلف (يقصد بها الحجاب) وتلف أجسامهن بقطعة قماش من القطن الأبيض وهن ذات أجسام غير متناسقة وممتلئة في العادة، كما تحدث Rozet عن الوشم لدى المرأة الريفية، وهي رسومات ترسم على الصدر واليدين بمختلف الألوان وبأشكال متناسقة، كما تضعن الحناء

¹ Lambert, op.cit., p 339.

* ذكر بفايفر بأن أقراط النساء لكبر حجمها لدرجة أن آذان النساء كانت تتدلى من شدة ثقلها عليها. (بفايفر، المصدر السابق، ص 198).

² فنديلين شلوصر، المصدر السابق، ص 100.

** وهو ما ذكره الوزان أن النساء كن يحجن الوجه بقطعة قماش لا تظهر منهن إلا عيونهن. (الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 252).

³ De Tassy, op.cit., p 81.

⁴ Marie Martin, op.cit., p 49.

⁵ شريفة طيان، المرجع السابق، ص 172.

على أطرافها، وداخل اليد* وأسفل القدمين¹، كما أشار إلى عدم خروج المرأة التركية إلى الشارع، كما كانت المرأة العربية تغطي وجهها بقطعة قماش من الصوف، بينما تخرج المرأة الريفية والبربرية خاصة بوجه مكشوف.²

فيما توجد إشارات قليلة في المصادر المحلية عن اللباس في العهد العثماني، مثلما ذكره الناصري المعسكري الذي تحدث عن البرنوس، الشاشية³، أوردت الكتابات المغربية جانب منها، حيث تحدث حسن الوزان عن الألبسة التي تصنع في قسنطينة من الصوف وأن فيها عدد كبير من التجار الذين يمارسون تجارة الأقمشة الصوفية، كما يبيعون الحرير في المناطق الداخلية⁴، كما تحدث عن عادات النساء في بعض مناطق الصحراء، فكن يرتدين قميص أسود واسع الأكمام يضعن فوقه خمار أسود أو أزرق يلتحفن به بمسك بمشبك، فضي مصنوع بطريقة فنية ويضعن أقراط من الفضة وخواتيم وأساور وخلاخل على عادة الأفرقة⁵، وأشار أنهن يضعن لثام على وجوههن أمام الغريب.

ج- لباس اليهود:

تكاد المصادر الأوروبية تتفق حول لباس اليهود في مدن الإيالة وخاصة مدينة الجزائر، فحسب الأب دان لقد فرض على اليهود لباس محدد** مكون من شاشية سوداء وباقي لباسهم أيضا أسود⁶.

وفي وصفه للباس اليهود أشار دارفيو، أيضا إلى أنهم كانوا يرتدون الثوب الأسود تمييزا لهم عن باقي الفئات وهو سترة قصيرة تنزل إلى غاية الخصر وفوقها يضعون برنوسا، يضعون فوق رؤوسهم شاشية

* من مظاهر الزينة عند المرأة الحضرية والتي تسعى إليها أيضا عيون الغزال التي تتميز بالاتساع والصفاء وإذا كانت عيوس السيدة لا تفي بالغرض يغلى الجوز ويجفف ثم يهرس ليصير دقيقا ثم يمزج بالماء يشكل معجوننا سائلا نوعا ما يوضع على جوانب العين والأشفاق، كما تضع الحرة أي أحمر الشفاه. (أنظر سبنسر، المصدر السابق، ص ص 89-90).

¹ Rozet, op.cit., p 166.

² Ibid, p 167.

³ أبو راس الناصري، فتح الإله، ص 211.

⁴ حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 56.

⁵ نفسه، ج2، ص 52.

** هذا التقيد في اللباس الأسود يعود إلى زمن طويل قبل مجيء العثمانيين، حيث يعود على زمن الخليفة العباسي أبو يوسف المنصور الذي فرض على اليهود تمييزا لهم عن المسلمين ارتداء ثوب أسود بأكمام طويلة. (أنظر: عائشة شتوف، يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص 38).

⁶ P. Dan, op.cit., p 89. Payssonell, op.cit., p 458.

صوفية سوداء تختلف عن اليهود الوافدين من الخارج الذين كانت شواشيهم لها ذيل يتدلى بطول القدم، عادة ما تكون أرجلهم عارية، أما يهود ليفورن والإسكندرية كانوا يحملون قبعات ويلبس أغلبهم مثل الأوروبيين¹، ونفس الوصف قدمه دوطاسي بأن اليهودي كان يرتدي عباءة طويلة تصل إلى منتصف الساقين وعمامة سوداء تلفها عصا بلون قاتم ذات خيوط²، ويضيف سبنسر أن اليهودي كان يرتدي أيضا معطفا ذا أكمام عريضة وخنجر كبير وجميل يضعه في جرابه الأيسر وفي الشتاء يلبسون سراويل تضيق عند أدنى الركبة كما يفعل الإسبان³.

أما المرأة اليهودية في البادية فتلبس حايك تحته قميص وسروال وقد تحول الجزء الأعلى من الحايك إلى شكل كيس بغرض حمل الأطفال الصغار، وتغطي رأسها بقطعة قماش تتخللها خيوط ذهبية وفضية، كما تلبس قطعة مثلثة من الصوف قد زركشت بألوان جميلة ومتقنة تدلت على ظهرها⁴.

ويقول الونشريسي أن اليهود كانوا مجبرين على الالتزام بزيتهم وهو لبس الرقاع على الأكتاف، وشد الزنار في الوسط وكل من تحاول التشبه بأزياء المسلمين يعرض للعقوبة، حيث كان القاضي يأمر بسجنه وضربه والطواف به في أماكن سكن أهل الذمة ردعا لأمثاله⁵.

وقد وصف الضابط الفرنسي Rozet روزت في القرن 19م لباس اليهود بأنه مكون من سروال عريض يصل إلى الركبة، ومن سترتين إحداهما ذات أكمام طويلة مزينة بالحرير وأحيانا بالذهب وهي دائما تكون باللون الأسود، وخلال فصل الشتاء أو عند السفر يرتدي اليهودي برنوسا أو معطفا باللون الأزرق الداكن، يختلف عن البرنوس المحلي بكونه خالي من أي مظاهر الزينة والتطريز، يلفون الخصر بحزام باللون الأزرق الداكن، كما يطلب منهم عادة حلق شعورهم وترك لحاهم، ولم يسمح لهم أيضا إلا بارتداء قبعة أو شاشية من الصوف، أيضا بلون داكن يلفونها بقطعة قماش سوداء من الحرير أو القماش⁶.

¹ Chevalier d'Arvieux, op.cit., p 288.

² De Tassy, op.cit., p 57.

³ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 84.

⁴ Thomas Show, op.cit., p 193.

⁵ أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج6، تح وإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية، 1981، ص 69.

⁶ Rozet, op.cit., p 217-218.

أما المرأة اليهودية فكان لباسها بسيط مكون من عباءة من الصوف الأسود أو الأزرق الداكن عريضة بأكمام قصيرة تلبس فوق قميص أبيض وسروال ينزل إلى الركبة، تلف شعورهن بشكل بسيط بقطعة قماش تضع على رأسها أحيانا الصرمة فوق قطعة قماش بيضاء وتخرج إلى الشارع مكشوفة الوجه.¹

2- الأكل:

يعتبر الأكل والمشرب إحدى العادات والتقاليد التي تعبر عن أسلوب وطريقة حياة ومعيشة أي مجتمع، وقد أولت الكتابات الأجنبية واقع المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني بهدف فهم هذا المجتمع والتعامل معه، وكان نمط غذاء الجزائريين بمختلف فئاتهم الاجتماعية من المواضيع التي أثارت انتباه هذه الكتابات التي أسهب أصحابها أحيانا في الحديث عن هذا الموضوع.

أ- أنماط غذاء المجتمع الجزائري:

فقد أبدى دستيري إعجابه الكبير بخصوبة الأراضي لاسيما في إنتاجها للقمح والشعير فقال "يبدو أن هذه الأرض خصبة للغاية... وقمح الجزائر مشهور، دقيقه يشبه حبيبات الرمل وهو صعب العجن إلا أنه ينتج أجود أنواع الخبز والمعكرونة اللذيذة، كما أن الايطاليين يطلبونه كثيرا"²، كما أشاد الرحالة الفرنسي بيصونيل بسهولة منتجة، وقال أن ينتج سنويا محصولا كبيرا من الشعير والقمح والذرة، وإضافة إلى زراعة الحبوب كان لبعض سكان مدينة الجزائر منازل ريفية بنواحي متيجة تضم بساتين غنية بأشجار البرتقال والرمان.³

زيادة إلى إنتاج القمح والشعير والذرة قام السكان بزراعة الأرز بالقرب من الأنهار والأماكن العمورة بالمياه⁴، حيث ذكر تيدينا أن مدينة مليانة كانت تنتج كميات كبيرة منه.⁵

¹ Rozet, op.cit., p 219.

² Stephen D'Estry, Histoire d'Alger de son territoire et de ses habitants de ses pirateries de son commerce, et de ses guerres de ses mœurs et de ses usages depuis les temps reculés jusqu'à nos jours, 3 ème ed imprimerie librairie, 1846, p 93.

³ Pyssonnel et Desfontaines, op.cit., p 139.

⁴ Ibid, p 146.

⁵ أميدة عميراي، الجزائر في أدبيات الرحلة، ص 52.

كما تحدث دي فونتين أنه كان يزرع في واد مينا وفي أماكن كثيرة في الإيالة إلى أنه كان مختلفا عن الأرز المصري في صغر حجمه¹، ومن الزراعات الغذائية التي كانت رائجة أيضا واشتهر بها أهل الأندلس زراعة الكروم بضواحي مدينة الجزائر، والتي كانت تدر كميات كبيرة منه.²

ولقد أجمعت المصادر الأوروبية على إنتاج الجزائر لكميات كبيرة من زيت الزيتون، إلا أن نوعيته رديئة³، وقد كان سكان القبائل يضعونه في جلود الماعز وينقلونه إلى مدينة الجزائر أين يتم بيعه في أسواق خاصة.⁴

وعلى ضوء كل ذلك يمكن أن نلخص نمط غذاء الجزائريين في تلك الفترة والذي كان أساسه من النشويات، حيث يذكر الدكتور شو Show أنه من بين أربعة أشخاص هناك ثلاثة يقتاتون على الخبز والعجائن⁵، وأشار حمدان خوجة إلى أن الخبز الذي كان يستهلكه سكان السهول أو العرب وهو مصنوع من خليط من القمح والشعير في أحيان كثيرة يصنع من الشعير فقط، حيث يفضل هؤلاء الشعير عن القمح⁶، باعتباره كان يمددهم بالطاقة التي تحتاجها أجسادهم لأداء مهامهم اليومية.⁷

ب- أنواع المأكولات وطرق إعدادها:

أما طريقة عجن الخبز فكانت بسيطة جدا، فقد كان السكان لا يعملون الخميرة ويكتفون بعجن الدقيق بالماء ثم يشكلوا منه كرات صغيرة، يطهونها تحت الجمر، وأشاد الكثير من الأوروبيين بذوقه اللذيذ، كما يستهلك سكان الإيالة طعام الكسكسي هو منتشر في المدن والأرياف وهو الأكلة الرئيسية للجزائريين وأساسه دقيق القمح يفتل حبات صغيرة عادة في قصعة مصنوعة من الخشب ثم يوضع في الكسكاس ويطهى على النار⁸، ويقدم على شكل كومة به سمن وزبدة وحساء بصل، فلفل وخضر

¹ Pyssonel et Desfontaines, op.cit., p 138.

² L'Abbé De Marcy, Histoire moderne, Tome 06, nouvelle édition, la veuve des saint librairie, Paris, p 439.

³ Pannanti, op.cit., p 168.

⁴ Daumes, op.cit., p 170.

⁵ Thomas Show, op.cit., p 121.

⁶ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 70.

⁷ De Tassty, op.cit., p 56.

⁸ وليام شارل، المصدر السابق، ص 87.

ويسقى بالمرق ولا يخلو عادة من اللحم، وقد يصب عليه اللبن أو الحليب أما الأغنياء فيضيفون له الزبيب أو التين وشرائح البطيخ.¹

أما الفقراء، فيطهونه بدون لحم ويكتفون بدهنه بزيت الزيتون أو الزبدة²، وقد قدم شلوصر الطريقة المفصلة لإعداد الكسكسي*، وأضاف أن العرب يحضرون أيضا القرنينة هو نبات ذو ساق طويل وزهور كثيفة وشوك طويل تطبخ بالزبدة، كما يستخدمون البصل وأعشاب مختلفة تجعل طعامهم لذيذ³.

ونظرا لملائمة المناخ يتوفر محصول الفاكهة بكثرة حيث يقوم السكان بتخزينه ليستهلك في فصل الشتاء، فيذكر حمدان خوجة أن سكان مليانة يعرفون بتجفيف الفاكهة وصناعة نوع من المعجون بعصير العنب واللوز يمكن الاحتفاظ به طوال أيام السنة.⁴

وبشأن استهلاك اللحوم عامة يذكر شالر أنها تستهلك بشكل محدود، يكاد يقتصر على الأغنياء وهو ما أكدته حمدان خوجة في قوله أن العرب رغم امتلاكهم لقطعان الماشية فإنهم لا يذبحون منها إلا نادرا عندما يأتيهم الضيوف لأنهم يعيشون عيشة معتدلة ومنتظمة ويفضلون عنها الكسكسي بالحليب⁵، غير أن وحسب التقديرات كان يعرض بكثرة في الأسواق وبأسعار منخفضة لمدة قصيرة.

حيث ذكر شوفاليه دارفيو خلال القرن السابع عشر أنه وجد عند باب عزون عدد من دكاكين الجزارة والمواد الغذائية التي كان يحضرها أهل الريف إلى المدينة⁶، وذكرت المصادر الأوروبية طرق الاحتفاظ بهذه اللحوم حيث كانت تقطع إلى قطع صغيرة ويملح ويجفف في الشمس وبعد ذلك تطهى

¹ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 227.

² فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 90.

* يقول الضابط الفرنسي Rozet "يوضع السميد وشيء من الدقيق الناعم التي قاموا بفصلها بالغبزال يتحصلون على حبيبات يقومون بفتلها باليد في وعاء كبير من البرنز وفي ربع ساعة يتحصلون على حبيبات يفورونها في أوشحة ويتركونها لتجفف بالشمس ويضعون بالقرب منها دمية لمنع أكلها من طرف العصافير، يقمن بها نساء المدينة أما الأثرياء فيكلفن لزواج بذلك يحضرونها بكميات هائلة، فعندما دخلنا إلى قصر داي الجزائر وجدنا غرف كثيرة معبئة لكميات هائلة من الكسكس". (Rozet, op.cit., p 63)

³ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 90.

⁴ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 96.

⁵ نفسه، ص 71.

⁶ Chevalier D'Arvieux, op.cit., p 86.

في الزيت لمدة قليلة وتوضع في آنية ثم يوضع فوقها الزيت والسمن¹، ويطلق عليها المؤونة والتي عادة ما تخبئ في المظفور*.

وحسب سبنسر من الأكلات التي كانت رائجة عند الأتراك وأخذها عنهم سكان مدينة الجزائر، الدولما أي الحشوة والتي كانت تطبخ على أنواع منها "سوبان دولماسي"، وهي بصل مملوء بلحم الخروف المرحي مع الأرز وباراك دولماسي عبارة عن لحم مغلف بورق العنب، هذا إضافة إلى الكباب من لحم العجول والغنم والكفتة هي كرات من اللحم المفروم تطبخ بطرق متنوعة.²

لم يقتصر غذاء الجزائريين على اللحم، الخضر والفواكه، بل أيضا تتكون من الحلويات، فيذكر الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان عن الكعك هو قطع صغيرة من الطحين يخلط وتقلي في الزيت وتغمس في العسل ثم يذرذر فوقه السكر، والزلاية وهي حلوة دسمة وطرية تعوم في حساء من العسل³، أما البقلاوة فهي من الحلويات التي جلبها العثمانيون وهي حلوة دسمة جدا مخلوطة باللوز والزبيب ومشربة بالعسل⁴، وقد تحدث بفايفر عن الفطائر التي تحضر بالحليب، الطحين الأبيض، البيض، الزبدة والسكر، وهي لذيذة جدا.⁵

أما سكان الصحراء فجل طعامهم هو التمر واللبن والحليب وبعض الفواكه، حيث ورد عند الدرعي بعض الأطعمة، التي كان يقدمها سكان هذه المناطق للركب المغربي منها الكسكس، اللحم والعنب والخوخ⁶، كما ذكر العياشي أن سكان واد سوف يعتمدون في معيشتهم على صيد الحيوانات والتمر.⁷

¹ Venture de Paradis, op.cit., p 131.

* يحضر في شكل حفرة عمقها ثمانون قدما طولا وعرضا توضع في الأسفل بالأغصان والسعف ويملأ بجرار الزيت، واللحم والزبدة، يملأ أحيانا بكميات من القمح. (أنظر: Dumant Histoire de l'esclavage en Afrique, p 78)

² سبنسر، المصدر السابق، ص 152.

³ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص 59.

⁴ نفسه، ج3، ص 59.

⁵ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 145.

⁶ الدرعي، الرحلة الناصرية، ص 124.

⁷ العياشي، الرحلة، ج1، ص 123.

وقد لخص Rozet روزيت في حديثه عن طعام الجزائريين أن مؤونة الشتاء تتكون من الخضر الجافة الفول والعدس، الحمص والكسكسي، معجون الفواكه الجافة الذي يصنعونه بعصير العنب ومختلف الفواكه، كما يصنعون معجون البرقوق والمشمش وهو لذيذ ويذيون الزبدة يحتفظون بها في جرار كبيرة، سيئة الغلق فتصبح ذات رائحة زنخة في بضعة أيام.¹

أما فيما يخص طرق تناول الطعام بين مختلف فئات المجتمع ومن عادات أهل الخضر غسل أيديهم قبل الأكل ثم يلتفون حول المائدة ويتناولون الطعام بأيديهم، أما عادات العثمانيين فكانوا يتناولون الطعام في غرف جميلة على منضدة ذات ثمانية أرجل مصنوعة من أرفع أنواع الخشب توضع عليها السفرة، وهي صينية كبيرة مصنوعة من النحاس المقصود ويوضع عليها الطعام، يجلسون مربعي الأرجل على السجاد، وقد كان الداوي وكبار موظفي الدولة توضع أمامهم شتى أنواع الطعام وتشمل عادة الحبوب الخرفان، الحمام، الخضر والفواكه، والتي كان يشرف عليها رئيس كبار الطباخين الأمشجي باشي.²

وقد ذكر بفايفر أنه من الأطعمة المقدمة الخروف المشوي إذ تحفر حفرة في الأرض عمقها أربعة أقدام توضع فيها الحجارة وتملأ بالحطب وسعف النخيل ويضعون فيها الخروف ثم تغلق بالحجارة والتراب ويترك عدة ساعات وهو ذو لحم لذيذ، كما يقدم أيضا في قصر الداوي التمر، البيض، الزبدة.³

أما الطبقة الفقيرة من الجزائريين في المدن كما في الأرياف فيذكر كاتكارت أنه كثيرا ما يشاهدهم جالسين في الشارع يأكلون الكسكسي بأيديهم في سلطانية لا يستعملون الملعقة، هم في حالة يرثى لها من الوساخة، كما وصف اليهود بالبخل والشراهة في الأكل.⁴

أما عن سكان البادية فيقول حمدان خوجة أن طرق معيشتهم بسيطة فهم يعتمدون على التين المجفف ويكثرون من استهلاك الزبدة حتى أن الواحد منهم لا يخرج في الصباح، إلا بعد أن يفطر بخبز الشعير والزبدة.¹

¹ Rozet, op.cit., p 67.

² جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 72-74.

³ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 146.

⁴ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 74.

أما اللحوم فلا يستهلكونها إلا نادرا فهم يفضلون مفايضتها بسلع أخرى ومعظم طعامهم مكون من الخبز، الأرز، الحليب والعسل ويفضلون عن كل ذلك غمس خبز الشعير بزيت الزيتون والخل.²

وعن ذلك يقول شلوصر أن العرب يتناولون فطورهم على العاشرة ويتكون من كسرة تطبخ في الطاجين، والأغنياء منهم يعدونها من دقيق القمح ويأكلونها مع الزبدة أما الفقراء فيطبخون كسرة الشعير ويأكلونها بزيت الزيتون ويشربون معه اللبن ويأكلون أيضا التمر والتين الجاف.³

وعن فئة الأسرى أسهب الكثير من المصادر عن نوعية الطعام الذين كانوا يتناولونه، حيث كان غذاء الأسرى الذين يشتغلون في الأعمال الشاقة في الميناء أو في بناء الأرصفة وتحصينات المدينة مكون من خبز أسود قاسي مع بعض الزيت والحساء أما أسرى البايك والجنود الإنكشارية فكانوا يتناولون ثلاث وجبات تتكون من خبز أسود وحساء كما يسمح لهم بشراء الغذاء بأموالهم الخاصة التي تمنح لهم من التبرعات أو الأجور.⁴

ج- عادة شرب القهوة:

أجمعت معظم المصادر الأجنبية أن الجزائريين لم يستهلكوا الخمر* فالذي لا يجد القهوة أو الحليب يكتفي بالماء فقط⁵، وعن عادة شرب القهوة تعد شهادة الأب دان عن وجود العديد من المقاهي في مدينة الجزائر من أقدم الشهادات والتي تعود إلى سنة 1633.⁶

وقد أعجب الكثير من الأجانب بوجود هذه المقاهي* باعتبارها أماكن تسهل عليهم الاحتكاك بالجزائريين والتواصل معهم والتعرف بعمق على هذا المجتمع، فكانوا ينصحون كل من يأتي إلى الجزائر

¹ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 66-70.

² Venture de Paradis, op.cit. p 226.

³ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 91.

⁴ Playfair, op.cit., p 11.

* كان العثمانيون يستهلكونها بكثرة، وقد ورد ذلك عند الكثير من المصادر الأجنبية وخاصة بين الجنود الإنكشارية، وقد ذكر بفايفر أن أستاذه الذي درسه اللغة العربية رغم تدينه إلا أنه كان لا يمانع من شربها بين الحين والآخر، كما كان اليهود يستهلكون نوعا من الخمر أطلق عليها ماء الحياة والتي كانت تصنع من التين غير صالح للأكل. (بفايفر، المصدر السابق، ص 148).

⁵ Venture De Paradis, p 132.

⁶ P. Dan, op.cit., p 331.

بالذهاب إليها والمكوث فيها مطولاً¹، حيث كان يرتادها كل فئات المجتمع، حضر أترك، زنوج، برانية سكان الريف... وتقدم القهوة من طرف القهوجي في فناجين مزخرفة فوق صحون من صفيح، حيث كانت تحضر في أواني مثل الجزوة أو الغلاية مثلما كانت في مختلف مناطق الإمبراطورية من مسحوق السكر والبن، الذي كان يستورد من اليمن التي كانت تبعد عن الجزائر بثمانية أيام ولرواجها عادة ما كان يجلب منها بكميات كثيرة.²

وقد تحدث وليام شالر عن حي المقاهي نظراً لوجود عدد كبير منها في وسط مدينة الجزائر من باب عزون إلى باب الواد، وقد كانت هذه المقاهي الشعبية تقبل عليها كل فئات المجتمع³، وإضافة إلى شرب القهوة كانوا يدخنون الغليون المحشوة بالشيخ أو الحشيش، وأغلبها كان يديرها أترك، كما تميزت بعض المقاهي بوجود موسيقى أندلسية، أو عرض مسرحي لعرائس القراقوز، وكان الأترك يجلسون على المقاعد بينما الجزائريين والأجانب، فكانوا يجلسون على الحصير المفروش على الأرض، وشيئا فشيئا تطور عددها لتملئ الطريق المؤدي إلى الميناء، وأصبحت مكان تعقد فيه مختلف الصفقات التجارية وتبادل البضائع.⁴

ويذكر شلوصر أن في قسنطينة كان الناس يجلسون في شكل حلقة يشربون القهوة ويدخنون الغليون.⁵

وقد أشار روزيت Rozet إلى حب العرب الكبير لشرب القهوة خاصة عندما يزورون الحواضر تجدهم يترددون على المقاهي يرتشفون القهوة ويدخنون، وعادة كانوا يتناولونها بدون سكر وهو مشروب

* يقول بيار دان أن الجزائر كانوا في القرن 16م يشربون القهوة في الساحات والطرق العامة قبل ظهور ما يسمى بالمقاهي المور Café Maure والتي انتشرت في الحواضر والأماكن الريفية ويسجل غياب هذا المشروب في المناطق الصحراوية والناحية. (Ibid)

¹ أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالة، ص 112-113.

² المازري بديرة، حياة اللهو وخدمات الحمامات، المقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن 18، مجلة الحياة الاجتماعية في الولايات العثمانية أثناء العهد العثماني، منشورات رغوون فوكس، عدد 1221، ص 100.

³ وليام شالر، المصدر السابق، ص 87.

⁴ سلطاني أحمد، الحوانيت والمرافق العامة في مدينة الجزائر العثمانية، مجلة الحوار المتوسطي، ع 7، جامعة جيلالي اليابس، الجزائر، ص 318.

⁵ فنديلين شلوصر، المصدر السابق، ص 102.

يغلي في الماء، وكانت العديد من الدكاكين تقدم هذا المشروب¹، وبذلك يمكن القول أن القهوة هي المشروب المفضل في إيالة الجزائر في تلك الفترة.²

3- الطقوس والاحتفالات:

المجتمع الجزائري في هذه الفترة كان زاخرا بالعديد من المناسبات والاحتفالات الدينية والشعبية المتوارثة من أجيال مع وجود عناصر تأثير جديدة من الوافدين العثمانيين والأندلسيين، ويمكن أن يقسم الطقوس الاحتفالية إلى نوعين:

أ- الاحتفالات الدينية:

حظي هذا الموضوع برصيد لا بأس به من المعلومات التاريخية التي أوردتها المصادر الأجنبية، حيث قدم أصحابها وصفا لعدة مظاهر متعلقة بالحياة الدينية للجزائريين الذين كانوا حريصين جدا على الالتزام بشعائهم الدينية باعتبار أن الدين في تلك الفترة هو المحرك الأساسي لحياتهم ومعيشتهم، والجدير بالملاحظة أن نظرة هؤلاء لهذه الشعائر الدينية كانت متفاوتة فهناك من كان ينظر إليها بازدراء وتعصب ويصفها بالطقوس الغربية والدجل مثل الأب دان الذي نعت الإسلام بالديانة البغيضة والعادات التافهة³، فإن البعض أبدى إعجابه بهذه الاحتفالات ووصفها بدقة وتفصيل.

– الاحتفال بشهر رمضان:

يعتبر من الأشهر المقدسة عند الجزائريين وله نكهة خاصة وعادات وتقاليد راسخة وكعادتها قامت العديد من المصادر الأجنبية بتدوين ملاحظات حول استقبال الجزائريين لهذا الشهر.

تحدث المبعوث الهولندي توماس هيز (Hees) الذي زار الجزائر سنة 1675م، وقد تصادفت زيارته مع بداية شهر رمضان عن مراسم استقبال الجزائريين لهذا الشهر من خلال ترقبهم للهِلال الجديد، حيث ذكر أنهم يصعدون إلى أسطح منازلهم لترقب الهلال ثم يخرج منادي في كامل المدينة يعلن عن بداية

¹ Rozet, op.cit., p 63.

² Ibid, op.cit., p 67.

³ P. Dan, op.cit., p 27.

رمضان والذي يدوم شهرا كاملا، إلى أن يرى هلالا جديدا وخلال هذا الشهر يمتنع المسلمون عن الأكل والشرب ما عدا في الليل، كما أنه أثناء هذه الفترة يمنع شرب الخمر والتبغ.¹

أما دوروكفيل فقد ذكر أواخر القرن 17م أن استقبال شهر رمضان يتم من خلال إطلاقا ضربات المدفعية كإعلان عن ثبوت رؤية الهلال، حيث يمتنع المسلم عن الأكل والشرب طوال اليوم إلى الغروب ويفطر إلا للضرورة القصوى مثل المرض الشديد، كما أشار إلى الإجراءات الصارمة التي تنفذ من طرف الدولة، على كل من يفطر خلال هذا الشهر دون مبرر فتتم معاقبته بصب الرصاص المنصهر في فمه.²

ويقول تيدينا في مذكراته "طيلة هذا الشهر إلا في الليل من طلوع الفجر إلى غروب الشمس لا أكل، ولا شرب ولا تدخين ولا يقرب من نسائهم، يلتزم المسلمون بهذه الأمور أنه يفضل الموت عن التخلي عنه"³.

ومن عادات السحور ذكر "هيز" ظاهرة قرع الطبل عدة مرات والطرق على أبواب المنازل لإعلام السكان بساعة السحور وخلال هذا الشهر لا يغلق باب المدينة، كما يسمح التجول في أزقتها بكل حرية⁴، وعن الاحتفالات المصاحبة لهذا الشهر تحدث دوطاسي بأنه إلى جانب الصوم، يحرص السكان على الاحتفال وإقامة مهرجانات فعادة ما تكون ليالي هذا الشهر حافلة بالموسيقى وإنشاد الأغاني ودق الطبول.⁵

ولم يهمل القنصل الفرنسي فاليار الحديث عن شهر رمضان، حيث بأنه شهر يصوم فيه المسلمون في فترة تتغير كل عام وبذلك فهو يأتي في كل الفصول لأن السنة القمرية أقصر من السنة العادية، فيقدم بـ 10 أو 12 يوم كل عام عن العام السابق، ويضيف أن الصيام يتم في ثلاثين أو تسع وعشرين يوما من ظهور الهلال الجديد، فيمتنع الناس عن الأكل والشرب، القهوة والتدخين وحتى شم رائحة الزهور.⁶

¹ Thomas Hees, op.cit., p 102.

² Le Sieur de Roqueville, op.cit., p 52.

³ أحميدة عميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة، المصدر السابق، ص 72.

⁴ Thomas Hees, op.cit., p 103.

⁵ De Tassy, op.cit., p 77.

⁶ Ch. Vallière, p 32.

أما عن عادات الجزائريين عند الإفطار ذكر أبو العبد دودو نقلا عن الرحالة الألماني موريس فاغنز أن طعام الصائمين عند الإفطار هو الكسكسي بالزيت يضاف إليه اللحم المقلي والفواكه ويضيف تكتمل السهرات بالرقص والعروض الهزلية المتنوعة لعروض القراقوز.¹

وفي ذات السياق يذكر الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان أن رمضان هو شهر الحلويات والضيافة، الأفراح، وأن الحفلات الصاخبة الوحيدة التي نقلها الأتراك إلى الجزائر والتي تقام خلال هذا الشهر هي حفلات القرقوز والتي تقدم بعد الإفطار.²

وعن الأجواء الاحتفالية التي تصاحب هذا الشهر تحدث دوروكفيل عن الألعاب والعروض العسكرية التي كانت تنظم في منطقة باب الوادي، وتكون بحضور الحاكم وكبار موظفي الدولة، حيث يقوم الفرسان بالاستعراض ويوزع عليهم قطع نقدية.³

وعن الاحتفال بليلة القدر ذكر دو هايديو أن فيها احتفالا كبيرا توزع فيه الصدقات على الفقراء بما فيها المأكولات في كل أنحاء المدينة.⁴

وقد تحدث روزيت Rozet عن إقامة الشموع خلال هذه الليلة وقراءة القرآن إلى غاية الفجر، كما يطوف المسلمون في الشوارع حاملين الشموع وهم يرددون آيات من القرآن الكريم ومن المسجد يتوجه هذا الجمع إلى قصر الداوي أين يتم قراءة الفاتحة ويختتم بزيارة قبر الولي الصالح سيدي عبد الرحمان أين يقومون بالدعاء، ثم تسلم هذه الشموع إلى حارس الضريح.⁵

– الاحتفال بالعيدين والمولد النبوي الشريف:

يقول جيمس ستيفنسون "في نهاية شهر رمضان يصعد الأتراك إلى ثكناتهم كل ليلة للترقب بشوق رؤية الهلال الجديد ويسمى شوال وينتهي الصوم حال إثبات ظهوره، ثم ينغمسوا في فرح مفرط"⁶، وينقل

¹ أبو العبد دودو، المرجع السابق، ص 66.

² هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص 63.

³ Lesieur de Roqueville, op.cit., p 53.

⁴ De Haydo, op.cit., p 160.

⁵ Rozet, op.cit., p 82.

⁶ جيمس ستيفنسون، المصدر السابق، ص 246.

الخبر بسرعة إلى الداى ليأمر بإطلاق المدافع إعلانا عن انتهاء شهر رمضان وحلول العيد الذي يعرف بـ "Bérem"¹، وقد جرت العادة في صبيحة اليوم الأول من عيد الفطر يرتدي الداى قفطانا كما يرسل قفطانا إلى الباب العالي والبايات ويتم أيضا تبادل الهدايا²، ويتوجه جمع كبير من القناصل السفراء وكبار الشخصيات، وكذلك العامة من الجزائريين لتنهئته³، فيجلس في حفل رسمي على جلد نمر تحيط به أعضاء الديوان، وقد وضعت أمامه مائدة وبعد تناوله لوجبة الغداء رفقة الموظفين الساميين وبعض ضباط الجيش الإنكشاري يستقبل العامة وتقدم القهوة والحلويات⁴، ويشير شالر أن لقنصل فرنسا الأسبقية على جميع الدول الأوروبية في معايدة الداى حيث يستقبلهم بوجه بشوش ويكون كلامه قليلا ويقدم لهم القهوة والشربات والعطر⁵، ويحرص كل قناصل الدول على تهئة الداى بالعيد بتقبيل يده تمجيذا وتعظيما له⁶.

أما الجزائريين فكانوا يستيقظون باكرا على أنغام الموسيقى ويرتدون أجمل الثياب وخاصة الأطفال الذين يرتدون ثياب مطرزة بالذهب والفضة، وسراويل مصنوعة من الصوف والقطن، وبعد صلاة العيد تبدأ الزيارات بين الأقارب التي تقدم الحلويات مثل الكعك، المقروط، الصامصة القريوش والغريبة مصحوبة بالقهوة أو الشاربات.⁷

وخلال أيام العيد تقام ألعاب التسلية والمصارعة التي عادة ما تكون مصحوبة بأنغام الموسيقى لفرقة الإنكشارية⁸، كما تقدم فرقة الزنوج رقصات متنوعة وهم يجولون شوارع المدينة، حيث يتوقفون أمام أبواب سادتهم ليقدموا عروضاً حافلة⁹، وأثار انتباه الأوروبيين خلال هذا اليوم أن الأطفال الذين كانوا يرتدون تلك الألبسة الجميلة، كانوا يجوبون الشوارع وهم يرشون هؤلاء بماء الورد¹⁰.

¹ Thomas Hees, op.cit., p 230.

² Venture de Paradis, op.cit., p 202.

³ ج. أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص 40.

⁴ نفسه، ص 49.

⁵ وليام شالر، المصدر السابق، ص 229.

⁶ Chevalier d'Arvieux, op.cit., p 154.

⁷ De Haydo, op.cit., p 212.

⁸ ج. أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص 49.

⁹ ليسورويد، المصدر السابق، ص 56.

¹⁰ أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان، ص 70.

ويذكر هايدو أن الاحتفالات بالعيد تدوم عدة أيام حافلة بعروض وألعاب بملوانية¹، كما يخصص اليوم الثاني من العيد للأسرى فيسمح لهم بزيارة القنصليات التابعة لهم أو القنصلية الفرنسية والإنجليزية للمشاركة في الاحتفال وتقاسم الأموال والهدايا التي وزعت عليهم.²

وعن الاحتفال بعيد الأضحى دون الأسير الإسباني هايدو تفاصيل عن الاحتفال بهذه المناسبة الدينية، حيث أشار أن الأغنياء كانوا يضحون بأكثر من خروف وأحيانا على عدد أفراد العائلة، وبعد أداء الصلاة يذبح الخروف بعد غسل وجهه بالماء والعطر³، أما الداي وكبار موظفين الدولة فبعد تلقي التهاني من أعضاء الحكومة وممثلي الدول الأجنبية يتوجه إلى ساحة المدينة أمام جامع الحواتين، حيث يتم ذبح الأضاحي ويكون ذلك مصحوبا بطلقات البنادق وموسيقى عسكرية.⁴

كما تحدث دو هايدو عن بعض عادات الجزائريين في العيد، حيث كان النساء يحتفظن ببعض دم الأضحية ويطلون جباههم بها، وبعد نحرها يطلونها بماء الزعفران ويتركونها تحف لمدة ثلاث أيام، ثم يتصدقون بجزء منها للفقراء، ويأكلون جزءها الآخر، حيث يحضرون من الباقي اللحم المقدد، بعد تحفيفه تحت أشعة الشمس.⁵

وعن احتفال الجزائريين بالمولد النبوي ذكر دو هايدو أن ميلاد محمد (ﷺ) يأتي بعد القمر الثالث وثلاثة عشر يوم، والذي يسمى المولود، هذا الاحتفال لا يكون بأداء الصلاة مثل العيدين، ولكن في تلك الليلة والثلاثة التالية، تضاء جميع مساجد المدينة لأن الجميع ينبرونها للصلاة، تنظف المنازل وتضاء الكثير من الأضواء⁶، كما تزين المدارس بالأعلام والأزهار ويقف التلاميذ أمامها بأيديهم مسدسات يسدونها نحو المارة فيدفع لهم النقود كهدية، وإذا كان المار يهوديا فعليه أن ينزع حذائه ويغني، ويقدم كل تلميذ شمعة لمعلمه وهم منشغلون طوال اليوم بترديد الأناشيد في الشناء على الرسول ﷺ.⁷

¹ De Haydo, op.cit., p 213.

² جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 32.

³ De Haydo, op.cit., p 144-145.

⁴ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 120.

⁵ De Haydo, op.cit., p 214.

⁶ Ibid, p 146.

⁷ فنديلين شلوصر، المصدر السابق، ص 86.

وفي نفس اليوم تحضر كميات كبيرة من الكسكس باللحم، وتوضع كميات كبيرة منه في المنازل والساحات، وينثر القليل منه مع بعض اللحم والخبز تشريفا لميلاد الرسول ﷺ.¹

وذكر ستيفنسون عن كيفية الاحتفال بالمولد النبوي بمدينة الجزائر من خلال تشكيل موكب من المدرسين والعلماء، ويسيرون في الشارع مرددين المدائح الدينية ويحمل اثنان على أكتافهم هرما رائعا مزين بأكاليل من الورد، كما تزين المنازل بالقماش وتشعل المصايح والشموع التي تبقى منارة طوال الليل ويستمر هذا الحفل مدة ثمانية أيام²، والملاحظ أن المصادر الأجنبية قد أضفت على هذه المناسبة الدينية طابعا شكليا، فواقع هذه المناسبة عند الجزائريين كان من خلال الاحتفالات التي كانت تنظم في المساجد، حيث يذكر الحسن الوزان أن الشعراء كانوا يتسابقون في تنظيم القصائد الدينية في مدح والثناء على الرسول ﷺ، حيث يكافئ الحاصل منهم على أحسن قصيدة بمبايعته بلقب أمير الشعراء في تلك السنة، كما تقاد الشموع المزينة بألوان مختلفة على مستوى الكتابات القرآنية وتنشد المدائح الدينية في احتفالية كبيرة بين الأطفال.³

وفي عمق المناسبة يذكر الرحالة ابن عمار أن أهل تلمسان كانوا يحتفلون بالمولد النبوي من خلال إقامة حكامها لحفلة كبيرة يحضرها العامة والخاصة وفي وصفه للمكان، يقول: "...فما شئت من النمارق المصفوفة، وزراي مبنوثة وبسط موشاة ووسائد من ذهب وشمع كالأسطوانات وموائد كاهالات ومباخر صفر منصوبة كالقباب... يأكل الجميع من أصناف الأطعمة الفاخرة وبعد ذلك يحتفل الناس بالسماع لأمداح المصطفى عليه السلام ومكفرات تجذب أسماع الناس إليها وترغب في ترك الآثام..."⁴.

ب- الاحتفالات الشعبية:

- الاحتفال بالزواج:

¹ De Haydo, op.cit., p 147.

² جون ستيفنسون، المصدر السابق، ص 247-248.

³ حسن الوزان، المصدر السابق، ص 260-262.

⁴ أحمد ابن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى المصطفى الحبيب، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1902، ص 129.

قد تناولت العديد من المصادر الأجنبية الطقوس الاحتفالية بهذا اليوم والتي تختلف باختلاف الفئات الاجتماعية والمناطق، غير أن إحياء هذه المناسبة كان يدون سبعة أيام، لكن المراسم الحقيقية كانت تتم يومي الأربعاء والخميس.¹

وقد أجمعت أغلب المصادر الأوروبية بأن نساء الترك والمورين لا يستطيع أحد رؤيتهن²، "فعندما يخرجن من منازلهن يغطين من رؤوسهن إلى أرجلهن حتى لا يستطيع أن نرى إلا أعينهن..."³، لذلك شاع في مجتمع المدينة العثمانية في الجزائر ظاهرة الوساطة التي عادة ما تقوم بها امرأة مسنة، فكان للنساء عموماً دوراً كبيراً في التخطيط للزواج ويتم ذلك خلال الزيارات المتبادلة في المنازل أو في الحمامات العمومية.⁴

وقد لخص لنا فاغنز عملية الخطبة فيما يلي: "أن الشبان يصلون إلى سن البلوغ في الثالثة عشر أو الرابعة عشر* إذا سمع شاب بفتاة ورغب في مصاهرة أهلها، فإنه يبحث عن خاطبة لها علاقة بأهلها... وتتم خطبة الفتاة الشكلىة على يد الخاطبة نفسها، فيجتمع الوالدان ويتفقان على الصداق الذي يجب أن يدفعه الشاب للفتاة، وبعدها يذهبان إلى القاضي... وتحدد موعد العرس ويقرآن الفاتحة معه..."⁵.

وفي دراستها لعينة من دفاتر عقود الزواج بمدينة قسنطينة تقول الدكتورة قشي أن أغلبها قد تم على المذهب المالكي المبني على التراضي، الولي، الشهود، المهر، كما دون بعضها على المذهب الحنفي الخاص بالأتراك العثمانيين ومن أركانه الأيجاب: القبول مع وجود التوكيل، التفويض وعقد النكاح للغائب وأكدت أن أغلب المبادلات الأسرية تميزت بالتنوع والتفتح.⁶

¹ أحمد مروش، الحياة الثقافية، ص 226.

² Nicolas De Nicolay, op.cit., p 19.

³ Chevalier d'Arvieux, op.cit., p 285.

⁴ وليام شالر، المصدر السابق، ص 87.

* ذكر شلوصر، الذي عاش في قسنطينة والتي كانت يعيش بها عدد كبير من اليهود بأن الوساطة عادة ما كانت تقوم بها اليهوديات. (فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 86).

⁵ أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص 121-122.

⁶ فاطمة الزهراء قشي، دوائر المصاهرات في قسنطينة نهاية القرن 18، مجلة إنسانيات، في مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، ع 4، وهران، 1998، ص 17.

ومن خلال إشارات قليلة عن هذا الموضوع ورد في رحلة ابن حمادوش صيغ من عقود الزواج لبنت بكر ثم لأخرى ثيب، حيث يظهر من العقدين أن الفرق بين المهرين لم يكن كبيرا، كما يلاحظ أيضا أن البكر كانت تشترط في هذا العقد* عدم الزواج عليها إلا بإذنها¹، ومن بين الصيغ المذكورة ما ذكره ابن حمادوش نصه هاما "أصدق به فلان الأصم الأبكم روحه فلان بنت فلان وتقول أنكحها إياه أخوها شقيقها فلان أو والدها فلان بإذنها ورضاها وتفويضها، ثيب مالكة أمرها خلو من الزواج والعدة، شهد على إشهد الناكح فلان الأصم الأبكم على نفسه من أشهده، وعليه بالإشارة منه المفهوم بما مراده المعلوم فيها اختياره وأشهدته المنكحة فلانة، وأبوها المذكوران بما فيه عنهما وعرفهما بحال صحة جوازه لأمر وذلك في تاريخ كذا"²، كما أورد ابن حمادوش قيمة صداق أخته "المقدر ما بين نقد محضر وحال منظر وكالي مؤخر أربعمائة دينار جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ، وقفطان واحد قذيفة، وفردان اثنان، وقنطاران اثنان صوفا، وأوقية واحدة جوهر، وآمة واحدة من رقيق السودان..."³، تشتري العروس بالثمن الخاص بمهرها لباسها والأثاث والأدوات التي تحملها إلى العريس يوم الزواج...⁴، عادة ما تقام حفلات موسيقية في بيت الزوج والتي يحضرها إلا الشبان، وفي بيت الزوجة أين تجمع النسوة حول العروس وهن يرتدين أحلى الحلي والزينة⁵، وتقوم أحد النسوة حول العروس بتخضيب الحنة في يدها وأرجلها، وفي اليوم الموالي تقام الولائم في كلا البيتين وتقدم عادة الكسكس بالعسل، إضافة إلى الشاي والقهوة والحلويات.⁶

وقد جاء في وصف سبنسر لهذا الاحتفال "أن الزوج بضعة أيام قبل الحفل يتجول في نواحي المدينة وفي يوم الزواج يقوم بجولة أخرى مرتديا جلبابا أحمرًا ويحمل في جنبه سيفا رفيعا، كما يضع

* عقود الزواج بمحاكم الحواضر كانت على نمط واحد لا يتغير فيها سوى أسماء أصحابها وقيمة المهور والشهود، لو أن بعضها عرف شهرة حتى أصبح ينسخ عليها، وتبدو عقود الأندلسيين أرق وأعذب في أسلوبها وألفاظها فقد حافظوا على هذا الموروث حتى في عقودهم المختلفة (عقود الاتجار، البيع، الهبات، العتق...). (أنظر نماذج من عقود الزواج في سجلات الأحوال الشخصية رقم 07 العلبة رقم 05، من 1241 إلى 1248 غير مرقم الصفحات، أرشيف قسنطينة).

¹ ابن حمادوش، لسان المقال...، ص 283.

² نفسه، ص 250-251.

³ نفسه، ص 244.

⁴ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 244.

⁵ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 64.

⁶ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 87.

خمار ملقى على وجهه للحيلولة دون تأثير عين الشيطان... وفي ذلك اليوم يجمع الأثرياء والأقرباء فيؤدون الصلاة جماعة ثم يلتحق الزوج إلى بيتها وهناك يعلن الإمام هذا الزواج¹، وقد حضر عرس تركي في عنابة وعرس كرغلي في مستغانم بين مختلف هذه الفئات، والتي تقوم في عمومها على إقامة الاحتفالات وانتقال الرجال إلى بيت العروس مساء تصاحبهم الموسيقى والفوانيس الكبيرة فتتبعهم العروس بلباسها الفخم إلى بيت العريس.²

يذكر شلوصر أن لعرب الريف أو البادية الحرية في اختيار زوجاتهم فهم يتزاورون في خيامهم ويتعرفون على نساءهم وبناتهم فإذا أعجب رجل بفتاة، يتفق مع أبيها فإن اتفق معه اشترى للعروس لباسا يتكون من قميص أبيض ولباسا عاديا بكمين طويلين (قندورة) وحائكا يتراوح طوله ما بين 6 و7 أذرع مزين بخيوط بيضاء أو حمراء وبعد أيام من حمل الكسوة يقود العريس بغلا فوقه مقعد يحيط به حائكا أحمر يجلسها فوقه ويغطي رأسها بإزار أبيض ويرافقها أهلها في الطريق كانت تطلق النيران من البنادق وفي خيمة كبيرة تقام مأدبة العشاء ثم تشعل النار حيث يقضين الليل في الرقص والغناء، وبعد ذلك يقود العريس عروسه إلى أمه ونساء أخريات ليعلمنها التداير المنزلية.³

ومن العادات التي تحدث عنها جيمس ستيفنسون أن العروس عندما تصل إلى بيت زوجها يقدم لها خليط من العسل والحليب واضعين قطعة من قماش الخيمة في هذا المشروب، كما يقدم لها عصي فتضربه على الأرض وتردد إذا كانت هذه العصي تغرس في الأرض فإنني سأرتبط بزوجي ولا يفرقنا إلا الموت، كما تفرض عليها العادة عدم الخروج من كوخها إلا بعد انقضاء شهر عن الزواج.⁴

ومن الطقوس التي تحدث عنها الضابط الفرنسي Rozet روزيت أن العروس كانت تذهب إلى بيت زوجها مشيا تحيط بها النسوة وهن يطلقن الزغاريد، حيث تدخل إلى غرفة مزينة ومضاءة بالشموع، وفي اليوم الموالي تأتي النسوة لزيارة العروس، التي تجلس في غرفتها فتقام حفلة أخرى، وهذه الحفلة يطلق عليها التصديرة Tesdora وتدوم ثلاث أيام حيث يسمح لكل النساء للذهاب لرؤية العروس.⁵

¹ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 117.

² أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص 122.

³ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 93.

⁴ جيمس ستيفنسون، المصدر السابق، ص 154. Laugier de Tassy, op.cit., p 60.

⁵ Rozet, op.cit., p 130-131. D'Alanzo Cono, op.cit., p 175.

وقد انفرد بيصونيل Pyssonel في سرده لأحد العادات التي وجدها عند بعض القبائل ليلة الزفاف، حيث يرافق العريس أربعة من أصدقائه عند الدخول بالعروس، وهو ما أثار تعجبه الشديد بحكم معارضتها للدين الإسلامي، ولطابع الغيرة الشديد، الذي لمسه لدى هؤلاء، ولكنه يؤكد على ذلك قد روي له من طرف أشخاص شاركوا بذلك فعلا.¹

أما بخصوص الطلاق في مجتمع إيالة الجزائر، فالحديث عنه كان في إشارات قليلة ذكرتها بعض المصادر الأجنبية، حيث ذكر شوفاليه كورين أن الطلاق ظاهرة مألوفة جدا في هذا المجتمع ومن الأسباب التي كانت تؤدي إلى حدوثه بكثرة من جانب المرأة هو السلوك غير اللائق للرجل، ومن جانب الرجل هي المعاملات السيئة للمرأة اتجاه زوجها، وقد يطلقها نظرا لضعفها وكثرة إعيائها وعدم قيامها بواجباتها، كما ذكر من العوامل عدم أدائها للصلاة²، ويضيف تيدينا بقوله أن الرجل إذا قصر في واجباته نحو زوجته فيكون باستطاعتها أن تذهب إلى القاضي لفسخ هذا الارتباط³، وإذا حدث الطلاق بين زوجين بينهما أطفال فإن الأب يأخذ الذكور والمرأة تأخذ الإناث ثم ينفصلان إلى الأبد.⁴

وعن الطلاق عند البربر ذكر روزيت Rozet أن من الحق الزوج تطليق زوجته لسببين إما لعدم حبه لها، أو لمعاملتها السيئة، وعندما يذهب إلى الإمام مقدما دوافعه للقيام بتطليقها فتعود المرأة إلى بيت أبيها دون أن تأخذ شيئا من أغراضها*، وإذا قررت الزواج مرة أخرى يفرض عليها إعادة المهر (الصداق) للزوج الأول.⁵

وفي ذات السياق ذكر العياشي في رحلته أنه سمع خلال مروره في إقليم توات عن أحد طلبته أن أهل البلد إذا أراد أحدهم تطليق امرأته بسبب نشوزها أتى بشهود ليشهدهم بأنه ما طلقها إلا ليكسر

¹ Pyssonel, op.cit., p 326.

² شوفاليه كورين، المصدر السابق، ص 70.

³ أمحيدة عميراوي، المصدر السابق، ص 62.

⁴ نفسه، ص 91.

* فصل خليفة حماش في هذا الموضوع بالعودة إلى عقود الطلاق التي تعود إلى الفترة العثمانية أن الزوجة المطلقة كانت تحصل على حقوقها نفقة العدة والأولاد، وكراء المسكن ودفع باقي صداقها، وفق ما تقره الشريعة الإسلامية والعرف السائد آنذاك وهو عكس ما أشارت إليه المصادر الأجنبية. (أنظر خليفة حماش، الأسرة، ص ص 201-223)

⁵ Rozet, op.cit., p 48.

شوكتها فإذا أرادت الزواج مرة أخرى أتى بالشهود فأظهروا ما أشهدتم عليه فلا يتزوجها أحد حتى ترجع إليه.¹

- الاحتفال بركب الحج:

تحسن تنظيم ركب الحج الجزائري في العهد العثماني بسبب ازدهار النشاط التجاري لإيالة الجزائر، حيث خصصت مراكب بحرية لنقل الحجاج نحو ميناء الإسكندرية²، ويكون هذا الركب مرفوقاً بأمير ركب الحج*، وهو بمثابة رئيس للحجاج يُضرب الطبل قبل موعد السفر بأسابيع حتى يتهيأ من ينوي الذهاب إليه، ويذكر جوزيف بيتس (أو الحاج يوسف) أنه عند اقتراب موعد الحج يقوم الحاج بتوفير وحمل مؤونة**، وكذلك ماله وفراشه، وعادة ما تجمع كل ثلاثة أو أربعة معا لتناول الطعام وإعانة بعضهم البعض في الرحلة الشاقة.³

ويصف لنا الرحالة المغربي طريقة استقبال ركب الحج لدى عودتهم من البقاع المقدسة في منطقة القنادسة، بقوله "وتلقانا جماعة القنادسة مع بعض أعراب سكنت معهم وأفراس وأهل كبير يتسابقون بأفراسهم ويعدون إظهار للفرح والسرور بنا..."⁴.

كما كانت تعد لهم الولائم والأفراح، ومن جهتهم لا يقصر الحجاج في إكرام أهاليهم ومستقبلهم بإعطائهم ماء زمزم الذي كانوا يجلبونه في قوارير من صفيح أو نحاس أصفر، فيرتشفون منه ويمسحون ببقية

¹ العياشي، الرحلة العياشية، ص 84.

* يبدو أيضا أن تعدد الزوجات كان موجود وبقوة في إيالة الجزائر العثمانية، يظهر ذلك في بعض العقود، توكيل الأخت لأخيها من الأم أو الاب، فتظهر أسماء لأفراد غير أشقاء وهي ظاهرة تبدو نتاج ثقافة المجتمع لتحقيق أهداف اجتماعية واقتصادية (المصاهرة- إنجاب عدد كبير من الأطفال)، عثرنا على وثائق ذات صلة بالموضوع في سجلات الأحوال الشخصية رقم 03 العلبة 02 من 1211 إلى 1218 مركز أرشيف قسنطينة.

² جوزيف بيتس (الحاج يوسف)، رحلة جوزيف بيتس إلى مصر، مكة والمدينة المنورة، ص 23.

* كان يعين من طرف السلطات العثمانية من بين العلماء ذوي المكانة العلمية المرموقة في المجتمع أو من البيوتات العلمية فمثلا نجد عائلة آل الفكون من تولت هذه الوظيفة مثلما تولت وظائف أخرى في الفتوى، والإمامة، والقضاء، والتعلم. (للمزيد أنظر أبو القاسم سعد الله، الفكون داعية السلفية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص ص 37-44).

** وتمثل في الخبز المجفف، الكسكس، الخليج، الخنطية والشعير، السمن أو الزبدة، زيت الزيتون، العسل، التمر، الزبيب، الصابون والشمع، البصل والملح. (للمزيد أنظر: الزهار، المصدر السابق، ص 86-89).

³ جوزيف بيتس، المصدر السابق، ص 70.

⁴ الدرعي، الرحلة الناصرية، ص 732.

وجوههم ورؤوسهم ويرفعون أيديهم بالدعاء طالبين من الله عز وجل أن يتيح لهم فرصة الحج¹، وقد تحدث جيمس ستيفنسون أن الحجاج يلبسون ملابس خاصة وتشمل اثنان من لفاف الصوف واحدة لتغطية الجزء السفلي والثانية توضع على أكتافهم وبهذا اللباس يدخلون الأراضي المقدسة، حيث لا يحق لهم الصيد ولا الكلام غير اللائق، فعلى المرء أن يحافظ على ما يصدر منه من أقوال وأفعال، ويتجنب الخصام والسب، والشتم وأن يوجه كل اهتمامه للعبادة والتقوى التي تعهد بها في حجته^{2*}، وفي ذات السياق أشار دوطاسي إلى المكانة والقدسية التي تحيط بكل من يقوم بزيارة قبر الرسول (ﷺ) وهذا بالنسبة لهم أمر مقدس يغمرهم بالفرحة والسعادة والفخر.³

- ممارسات وطقوس الجنائز ودفن الموتى:

المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات يتأثر كثيرا بالموت بفقد أحد الأقارب والأصدقاء، وقد كانت له ممارسات خاصة للتعبير عن الحزن الذي ألم به جراء ذلك، فالنساء كن يعبرن عن حزنهن بارتداء ملابس محتشمة، كما يتجردن من كل الحلي التي تزينهن ويجلسن في سقيفة المنزل لمدة ثلاث أيام متتالية لتلقي العزاء⁴، وقد تحدث الأب بوراي Poiret عن عادة النساء في البكاء على الميت، حيث تجمع بشكل دائري فيكشفون وجهه ويشرعون في النحيب والعيول بشكل يثير الشفقة ويؤثر في النفوس ومن عاداتهم أيضا خدش وجوههم حتى تختلط الدماء بالدموع وتمزيق شعورهن ويتخلل لحظات ألم تلك لحظات من الدردشة والضحك.⁵

¹ جوزيف بيتس، المصدر السابق، ص 47.

* حرصت السلطة العثمانية على تشجيع أداء هذه الفريضة فعندما يحين موعد الحج يستدعي الداوي المجلس العلمي لمدينة الجزائر، ويعقد مجلسا احتفاليا رسميا يشارك فيه وكيل الحرمين الشريفين، فيسلم للمفتي الصدقات المخصصة لفقراء مكة والمدينة مع هبات كبار موظفي الإيالة. (Pierre Boyer, L'administration française et la règlementation du pèlerinage à la Mecque (1830-1894), Revue d'histoire Maghrébin, 1997, p 275)

² جيمس ستيفنسون، المصدر السابق، ج2، ص 250.

³ De Tassy, op.cit., p 275.

⁴ Venture de Paradis, op.cit., p 261-262.

⁵ Abbé Poiret, op.cit., p 130.

وذكر غراماي أنه إذا مات الشخص تغسل جثته بالماء الساخن والصابون¹، مبتدئين بالرجلين وبعد الانتهاء يكفن في قماش أبيض جديد ذو جودة عالية، إذ من عادة العرب الاحتفاظ به، كما كانوا يحملونه معهم عند أداء فريضة الحج من أجل التبرك.²

ويذكر سبنسر أن الوفاة إذا كانت يوم الجمعة فإنه يصلى عليه أثناء وقت الصلاة في المسجد وبعدها يرافق معظم المصلين الجثمان إلى المقبرة وهم يرتلون سورا من القرآن ويمشون بسرعة.³

وفي ذات السياق ذكر شلوصر أن الجثمان لا يبقى في البيت أكثر من ليلة واحدة، حيث يغطى غطاء أبيض ويحمل إلى القبر وهو حفرة متوسطة العمق رشت بالماء يوضع فيها ثم يغطى بالتراب بعناية بالحجارة حتى لا تسقط عليه ذرة من التراب.⁴

ويضيف بوراي أن الميت يوضع على جنبه ويوجه رأسه نحو الشرق، وقد انفرد بذكر التفاصيل الغريبة حول عملية الدفن، حيث ذكر أن الإمام يضع في يد الميت ورقة وهي رسالة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، كما توضع بعض الأواني المنزلية، ويلق العلم الجنائزي فوق القبر وهو خرقة من لباس الميت مثبتة.⁵

أما سبنسر فقد تحدث عن وضع قطع من الحجارة فوق القبر واحدة عند الرأس والأخرى عند القدم، وكل منها تكون منقوشة بآيات قرآنية.⁶

وأشار جيمس ستيفنسون على ما سمعه من الجزائريين أن الميت بعد الدفن يأتيه اثنان من الملائكة ليوقفوه على ركبتيه فإن عاش حياة فاضلة يأتيه ملكين بلون الثلج يضيفونه بكل المتاع التي يشتهيها في الآخرة، وإن عاش حياة فاجرة يأتي ملكين بلون اسود لتسليط أقصى العقوبات عليه.⁷

¹ Grammaye, op.cit., p 137.

² Abbé Poiret, op.cit., p 130.

³ أمحمد عمراوي، المصدر السابق، ص 62. كما ذكر سبنسر في ذلك يتعارض مع تعاليم الشريعة الإسلامية فمن آداب الدفن الصلاة على الجثمان قبل دفنه، في سائر الأيام وليست يوم الجمعة فقط، وهي من المغالطات. سبنسر، ص 126.

⁴ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 110.

⁵ Abbé Poiret, op.cit., p 131.

⁶ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 126.

⁷ جيمس ستيفنسون، المصدر السابق، ص 158.

وقد أشار القنصل فاليار أن للموكب الجنائزي هيبة، كما أن مرافقته يعتبر عملا دينيا عظيما، حيث يتسابق الجميع على حمل النعش¹، وفي اليوم الموالي يعود أقرباء الميت لزيارته في القبر، حيث يقومون بإزالة بعض الحجارة قليلا ليأتوا من موته فيشرعون مرة أخرى بالبكاء والنحيب، ومن عاداتهم أيضا تزيين القبر بالورود وإلقاء أجسادهن على الأرض وتدنيس وجوههن بالتراب تعبيرا عن الحزن الشديد.

قدم القس بوراي الكثير من المغالطات، والأخبار الغريبة كتلك المتعلقة برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ووضع الأواني، والخرقة وكذلك نبش القبر للتأكد من الوفاة، وهي المعلومات التي انفرد بها دون أن تذكرها المصادر التي اطلعنا عليها، وبالتالي تبقى معلومات مشكوك في أمرها بالرغم من أنه ذكر في كلامه بعض الحقائق في هذا الشأن، وقد تستمر فترة العزاء مدة ثمانية أيام أو خمسة عشر يوما².

ويذكر دوبارادي أن من عادات الأتراك وبعض كبار الشخصيات شراء قطعة أرض وتحضيرها بغرس أشجار وورود كما يجعلون فيها عينا لإرواء المارة ليدفنوا فيها³.

وفي ذلك ذكر دوطاسي أن علي داي الذي توفي في 05 أفريل 1718، قد دفن في مقبرة صغيرة في وسط المدينة، وقد توافد الناس لتزيين قبره بالأشجار والورود لمدة أربعين يوما، كما كانوا يزورون قبره بأعداد كبيرة يدعون على روحه، وقد أحيط بالكثير من الاحترام والتقدير والقداسة أيضا لأنه مات موة طبيعية وهو لما يسبق حدوثه منذ تولي الدايات حكم البلاد، فكان أغلبهم يتعرض للاغتيال⁴.

وفي ذات السياق قدم الضابط الفرنسي روزيت Rozet الكثير من المعلومات حول هذا الموضوع، حيث ذكر أن الجزائريين كانوا يضعون القطن في فم الميت والأذنين وتحت الإبط ثم يلف في قماش أبيض ويعرض 24 ساعة في داره، حيث يدخل الأقارب تباعا لرؤيته، ثم يحمل على نعش مصنوع من الخشب مغلف بقماش من الحرير المذهب من عادات الجزائريين أنهم كانوا يأخذونه من ستار غرفة

¹ Ch. Vallière, op.cit., p

² L'Abbé Poiret, op.cit., p 131.

³ Venture de Paradis, op.cit., p 262.

⁴ De Tassy, op.cit., p 200.

المراة يكون أبيضاً إذا كانت امرأة مسنة يضاف له حزاماً من الحرير الأزرق مطرز بالذهب إذا كانت شابة.¹

ويضيف أنه إذا كان الميت ينتمي إلى أسرة غنية يقوم أهله بتحرير عدد من العبيد، حيث يعطى لهم وثائق تثبت ذلك يقدمونها للقاضي الذي يعلن أنهم أصبحوا أحراراً لهم كامل الحقوق والواجبات، وفي بيت المتوفي يحضر الكسكس بلحم الخروف، كما تقدم بعض الفواكه الجافة كالعنب المجفف والتين وكذلك البرتقال، وتوزع الصدقات على الفقراء والعبيد، ويقول إن ذلك غير موجود عند الفقراء الذين يكتفي أهلهم بالتصدق ببعض القطع النقدية من الموزون، وبعد دفن الميت يطلب من بعض الأئمة الذين يطلق عليهم بالطلبة بقراءة القرآن لمدة سبعة أيام مقابل مبلغ مالي، وعادة ما يتلزم أهل الميت بزيارة القبر في مناسبات عديدة فيقضون هناك أوقات طويلة للدعاء له تارة والبكاء تارة أخرى.

وأشار روزيت أيضاً إلى وجود مقابر خاصة للأغنياء وكبار الشخصيات محاطة بأسوار ذات أبواب وتعني بعناية واهتمام كبير، حيث تغرس فيها مختلف الأشجار والنخيل والموز وتزين بالرخام، كما تقام فيها عين جارية²، كما يذكر بيصونال أن قبور هؤلاء كانت مرتفعة بنحو قدم على الأرض، وعليها قبب مبيضة بالجير، ومنها لاحظ ستة قبور على شكل دائري لدايات اغتيلوا في اليوم الذي حكموا فيه³، وقد ميز أيضاً وطاسي من هذه القبور أن قبور الدايات كانت متميزة بكتلة عن الحجارة المنقوشة، أما الآغاوات وضباط الجيش الإنكشاري فيوضع عليها عمود أما رياس البحر فيوضع عليها علم فوق القبة المذهبة⁴، وأثناء زيارة هذه القبور تقام طقوس مثل رش القبر بالعطر ونثر الزهور عليه.⁵

4- ممارسات يومية:

أ- أداء الصلاة:

¹ Rozet, op.cit., p 93.

² Rozet, op.cit., pp 93-101.

³ Pysonnel, op.cit., p 255-256.

⁴ De Tassy, op.cit., p 123.

⁵ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 40.

* ويقول دومو Dumant في ذات السياق أن تأدية الصلاة كان من الأشياء الضرورية التي يحرصون عليها فيقول إنها تؤدي في الثانية صباحاً، ومنتصف النهار والرابعة مساءً، حيث يقوموا بغسل كل أجزاء الجسم بالماء، كما أن في غياب الماء يستخدمون الحجر أو التراب

كما سبق ذكره في حديثنا عن المساجد يظهر جليا حرص الجزائريين وكذلك العثمانيين على إقامة العديد من المساجد وأماكن العبادة ولم يقتصر الأمر في المدن فقط، بل حتى في الأرياف والمناطق الجبلية النائية، حيث تؤدي المساجد على هذه الوظائف إلى جانب تأدية الصلوات وإقامة الاحتفالات الدينية¹، ولحرص الجزائريين على أداء الصلوات في أوقاتها أشار العديد من الأوروبيين إلى إقامتها في أي مكان عند وجوبها، فيقول تيدينا أنه إذا أذن المؤذن للصلاة وهم جالسون للتحدث يقفون ويؤدون صلاتهم متوجهين نحو مشرق الشمس، هذا إذا كانوا متوضئين، حيث عليهم غسل أرجلهم وأيديهم ووجوههم قبل التوجه إلى الصلاة أو كامل الجسم إذا كانوا قد قاربوا النساء أو أنهم أحسوا أنهم قاموا بذلك ما بين الصلاتين.²

وقد فصل شلوصر في طريقة الوضوء، حيث قال: "يستيقظ عادة العربي على الثالثة صباحا، يغرف الماء وهو جالس على الأرض بيده اليمنى فاليسرى تعتبر غير طاهرة، فيغسل يديه أولا، يغرف ويمضمض فمه ثلاث مرات، ويستنشق ثلاث مرات، يغسل وجهه ثلاثا، ويغسل يديه ثانية ويدخل إبهامه في أذنيه ويمرر راحة يديه من أول جبينه إلى مؤخرة رأسه... ويغسل ذراعه اليمنى إلى المرفق واليسرى أيضا..."³.

وعن أداء الصلاة ذكر شلوصر أن الرجل يؤدي الصلاة واقفا ويدها متشابكتان فوق صدره ويركع ويسجد عدة مرات، وقد كان البدو يؤديونها في الهواء الطلق ويجرصون أن يكون المكان طاهرا، يصلونها في اتجاه القبلة، ولا يجوز للمتزوج أن يصلي إلا بعد أن يغتسل وعند انعدام الماء يجوز التيمم لأن ترك الصلاة بالنسبة لهم يسبب المرض.⁴

وفي ذات السياق تحد الضابط الفرنسي روزيت Rozet عن مواعيد الصلاة، وذكر أيضا طريقة الوضوء وتم حسبه بغسل اليدين والرجلين ومسح الأذنين، والتي بعدها تتم الصلاة، حيث يتوجه المصلون إلى المسجد ينتظمون في صفوف متوازية في اتجاه الإمام الذي يقرأ القرآن، وقد ذكر أيضا أن

ويضيف أن لا شيء في الدنيا يلهيهم عن أدائها، لذلك يشتغل العبيد فترة منتصف النهار ويقومون بسرقة الفواكه والخضر والقمح بينما يكون الحراس منشغلين بالصلاة. (Dumant, op.cit., p 54.)

¹ Pananti, op.cit., p 273.

² أميدة عميراي، أدبيات الرحلة، المصدر السابق، ص 92.

³ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 91.

⁴ نفسه، ص 92.

الكثير منهم كان يحمل مسبحة في يديه، يؤدون التحيات ويقبلون الأرض عدة مرات، وهذه الشعائر يؤدونها في نصف ساعة تقريبا، كما تحدث عن صلاة الجمعة والتي يعتبرها الجزائريون من الفرائض التي يحرصون على أدائها في المساجد.¹

- استعمال المسبحة:

فصل دوطاسي في استعمال الكثير من سكان الإيالة للمسبحة والتي تكون عادة من حبوب المرجان أو العنبر أو العقيق، يمررونها بأصابعهم وهم يتجادبون الحديث، كما تعتبر من العادات التي يتفانى فيها الرجل في ذكر الله، تستخدم عند البسطاء بتزديد "استغفر الله" أو "الله يحفظني"، أما الذين تلقوا تعليما فإنهم يمررون حبات المسبحة بعدة أذكار مثل قولهم "باسم الله الواحد الأحد باسم الله القادر، باسم الله الكريم، تبارك الله في كرمه، باسم الله العظيم، تبارك الله في عظمته، باسم الله الرحيم تبارك الله في رحمته..، وعند الانتهاء يرددون بقولهم "تبارك الله عظيم السماوات الذي يحكم بين الناس، أحبك بالله وأصبح كل ثقتي في كرمك وبذلك واعترف دائما أنك لم تلد ولو تولد ولم يكن لك كفوا أحد، إلهي بارك لسيدنا محمد ولكل المسلمين"، يؤدون كل ذلك وهم يقومون بأشغالهم اليومية.²

ب- ارتياد الحمامات:

اقترن مجتمع المدينة في الجزائر العثمانية، بهذه المرافق الهامة، حيث تكرر ذكرها في الكثير من الكتابات الأجنبية لأنها مثلت شهدا هاما من مشاهد الحياة اليومية للجزائريين واتخذت كذلك أبعادا سوسيوثقافية واجتماعية، وفي ذلك يقول شوفاليه كورين أنها من العادات التي أجهرت الأوروبيين فكتبوا عنها بدقة فائقة³، لما كان يوفره من مميزات تتعلق بالصحة والاسترخاء النفسي والروحي وهو بذات الوقت وقائي، علاجي وشفائي، إذ يعد بالنسبة لمختلف الفئات مكان للجسد المنهك وفضاء للترفيه وطهارة الجسد التي يحث عليها الدين الإسلامي وتتطابق مع المعايير الصارمة للمذهب المالكي.⁴

¹ Rozet, op.cit., p 80-81.

² De Tassy, op.cit., p 93.

³ شوفاليه كورين، المرجع السابق، ص 58.

⁴ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 89.

وهنا تشير الكتابات الأولى لهذه الفترة إلى أن مدينة الجزائر وغيرها من الحواضر كان يوجد بها عدد كبير من الحمامات من قبل مجيء العثمانيين، وهو ما ذكره الرحالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي سنة 1551م، وأكدته الحسن الوزان في نفس الفترة تقريباً.¹

أما دو هايديو فقد خصص حيزاً هاماً للحديث عن هذا المكان فأحصى عدد الحمامات في مدينة الجزائر بحوالي خمسون أو ستون حماماً، وهي تحظى بأهمية بالغة عند العامة أو كبار موظفي الدولة، حيث قام الباشوات ببناء العديد منها وهيئتها بشكل جيد ومن أمثلتها التي قدمها دو هايديو وبالوصف حمام حسن باشا ابن بربروس، وهو بناء مكون من قاعتين مربعتين واسعتين، تخصص القاعة الأولى لنزع الثياب ووضعتها في مكان آمن، أما القاعة الثانية فكانت مقسمة إلى غرف تتسع كل منها إلى 10 أو 12 شخصاً، جهزت بجنفيات جدارية يصل إليها الماء عن طريق أنابيب من البرونز، حيث يسخن الماء بكميات ضخمة في قاعة أخرى، تنتهي هذه الأنابيب عند جرن كبير من الرخام، حيث يأخذ المستحم حاجته من المياه الساخنة بواسطة إناء نحاسي، وعادة ما تكون هذه الغرف ذات حرارة مرتفعة جداً، تؤدي إلى التعرق الشديد.²

ومن الملاحظات الهامة تلك التي قدمها الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس الذي عاش في مدينة الجزائر أربع سنوات (1621-1625)، حيث أشار إلى وجود ستون حماماً، كان سكان المدينة يغتسلون فيها من المسلمين ومسموحة أيضاً للمسيحيين، بينما منع اليهود من دخولها وأشاد بمهندستها الجميلة وفائدتها الصحية، أما أوقات ارتيادها فهي تخصص الصباح إلى منتصف النهار للرجال، ومن منتصف النهار إلى السادسة مساءً تخصص للنساء، ويقول أن من يدخل خلال هذه الفترة من الرجال إلى الحمام يحرق حياً³، ومن الأوصاف الهامة التي قدمها الأجانب لهذه الحمامات ما قدمه لوجي دوطاسي، حيث تحدث عن تجربته الشخصية بعد زيارته لأحد الحمامات العمومية في مدينة الجزائر رفقة القنصل الفرنسي السيد بوم (Baume) ومسؤول نزل السفير إبراهيم خوجة، يقول: "تم إجلاسنا في غرفة واسعة أين تم نزع ثيابنا وستر المناطق السفلى بواسطة منشفتين كما وضعت أخرى على الأكتاف، ثم توجهنا نحو غرفة أخرى ذات حرارة معتدلة، ومنها توجهنا نحو الغرفة الكبرى أين توجد

¹ Nicolas De Nicolay, op.cit., p 17. .37. الحسن الوزان، المصدر السابق، ص

² De Haydo, op.cit., p 215.

³ Jao Mascarenhes, op.cit., p 77.

مياه الاستحمام، وقد كانت غرفة مزينة بالزليج الأبيض يوجد في زواياها رجال يقومون بالاستحمام، أجلسنا على مقاعد من الزليج تحيط بالعرفة بشكل دائري، أحسست حينها بحرارة فأصبح العرق يتصبب علي بشدة، ولما امتلأت المناشف بالعرق أخذ كل واحد منا إلى غرفة ذات حرارة معتدلة، أين تم إفراش قطعة قماش أبيض تمددنا وبدأ رجل أسود ذو بنية قوية بتدليكنا، وكانوا يستخدمون حجارة ملساء لإزالة الأوساخ بعد أن قاموا بتكيس الجسم كله، وفي النهاية تم صب الماء على كامل الجسم، تستخدم الحجارة الملساء أيضا بعد تسخينها لحرق كامل الزغب الموجود في الجسم، وفي النهاية يتم إطلاق العظم بشد الكتفين بقوة، ثم لفنا بمنشف بيضاء جيدة وتوجهنا إلى غرفة أخرى للإلباسنا... ودفعنا في ذلك ربع بياستر **Piastre**...¹.

وذكر دوطاسي أن للنساء حمامات خاصة بهن لا يجراً الرجال على دخولها وهي معزولة على عكس ما ذكره الأسير الإسباني ماسكارينهاس، تقوم بخدمتها نساء من الزنجيات* العبيد².

وقد أشاد القنصل الفرنسي فاليار أواخر القرن 18 (1781م) بحمامات مدينة الجزائر، بالإضافة إلى أنها توفر النظافة الجسدية للمسلمين نساء ورجالا فهي تستخدم أيضا كعلاج لعدة أمراض، حيث تلين الأجساد وتسترخي بفضل الحرارة، مما يسبب عرقا كبيرا، وأشار إلى عملية الكياسة والدلك التي يقوم بها أفراد أقوىاء يستخدمون قطع من القماش لإزالة الأوساخ من كامل الجسم³، أما حمامات النساء فهي ميدان للبهجة والسرور، حيث تتجاذبن الحديث بكل تواضع وحب، ويقول فاليار في ذلك أنها كانت لها أثر اجتماعي جيد على النساء فإنها أيضا تساهم في ارتخاء الجلد وذهاب صلابته مما يؤثر على شباب النساء وجمالهن.⁴

وعموما فإن النساء يحرصن دائما على نظافتهن ولهن حماماتهن الخاصة بهن، ولا يذهبن إليها عجالا دون تخطيط مثل الرجل وإنما يجهزون لها كل المستلزمات من مناشف أو (سيانق)، الطاسة،

¹ De Tassy, op.cit, pp 168-170.

* لقد احتكر المزابيون بمدينة الجزائر أعمال الإشراف على الحمام بالإضافة إلى عدد من الجزائريين من أصل إفريقي من مالي والنيجر والسنغال وحتى نيجيريا. (فوزي سعد الله، حمامات مدينة الجزائر الأندلسية والعثمانية، جريدة الوطن، عدد 2014).

² De Tassy, op.cit., p 188.

³ Ch. Vallière, op.cit., p 44.

⁴ Ch. Vallière, op.cit.

المشط، الليفة ولصابون، ويذهبن إليه مصحوبات بعبدهن الذين يحملون لهن أغراضهن وعطورهن¹، ويبدو أن طقوس النساء في الحمام أكثر تعقيدا من الرجال ووقت أطول، فبعد أن تجتاز مختلف مراحل البخار يقوم الخدم* بغسلهن من الرأس إلى القدم باستخدام ماء الزهر، كما يبخون عليهم بالمسك والعطور، ثم يصبغن حواجبهن، ثم يرتدين ملابسهن التي تكون في غرفة الملابس التي تكون قد علق في معلق تحته أريج العود (القمار) المشتعل وينتظرهن بعصير الليمون أو البرتقال (الشربات)، وأنواع مختلفة من الفاكهة، الجوز والحلويات منها الحلوة المفضلة لدى الترك الحلقوم (Lucum) وتسعى حمامات النساء أيضا على تهييء جو موسيقي وتحضير فتيات للرقص وفي هذا الجو تقضى النساء يوم من أيام الأسبوع.²

وقد قدم الأسير الأمريكي كاتكارت وصفا لحمام قصر الداوي، وتحدث عن جماله الهندسي والفني، حيث زينت بالرخام والمرمر وهي مواد تم جلبها من جنوة (إيطاليا) بما قبة ونوافذ صغيرة يتسرب إليها الضوء والهواء³، يستخدمه الداوي عادة كل يوم جمعة وكذلك الخزناسي، يحتوي على ثلاث غرف فبعد الاستراحة في الغرفة الأولى المهيئة بأريكة وأفرشة رقيقة، يتم المرور إلى الغرفة الأخرى بالتدريج، وعادة ما تكون غرفة الاستحمام ذات حرارة مرتفعة تسبب الاختناق، حيث بني الحمام على فرن يشرف عليه عمال مزايون ويرتدي الداوي عادة مناشف قطنية وقيقبا ثم يدخل إلى الحمام الرئيسي وفيه يدلك ويكيس وهو يجلس على مائدة مصنوعة من خشب الزان، ثم يغسل بالصابون ويصب فوقه الماء، بواسطة دلوين نحاسيين، يعود بالتدريج إلى غرفة الجلوس يغطي ويستريح لمدة نصف ساعة أو أكثر يقدم له فيها القهوة والنرجيلة وبعدها يكسى بثياب جديدة ويرتدي أيضا برنوسا ويضع القلنسوة على رأسه.⁴

وبدوره قدم الرحالة الألماني هاينريش فون مالتيان وصفا لما أسماه بالحمام العربي وعن فوائده العلاجية للسعال والنزلة وداء المفاصل، تحدث عن تجربته الشخصية في الاستحمام فيه وهي عموما لا

¹ شوفاليه كورين، المرجع السابق، ص 82.

* ذكر وليام سبنسر أن الرجال الخدم أطلق عليهم هزمستر Hez Metes يشرفن على حمام النساء وغسلهن وهذا أمر غير صحيح تماما، ولم تذكره المصادر الأجنبية، بل العكس أكدت كلها على عدم اقتراب الرجال من هذه الأماكن المخصصة للنساء فقط، فقد كانت تشرف على عملية التدليك والكياسة عبيد من الزنجيات يطلق عليها "الطباية". (أنظر عادل زيادة، من فنون العمارة الإسلامية، حمامات السوق ودورها الحضاري، دراسة أثرية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2003).

² وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 115.

³ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 94.

⁴ نفسه، ص 93.

تختلف عما قدمه سابقه، حيث ذكر أنه حظي بخدمة الاستحمام من طرف شبابان ميزابيان تحت إيقاع موسيقى صاخبة، ويقول أيضا انه بعد عملية عجن الجسد أي بلغة الحمام مسده، قام بتدليكه باستخدام قفاز مصنوع من شعر الحصان (الليفة)، ويقول أنهما أراني وهما فخوران بما نزعنا مني من أوساخ وبعدها جاءت مرحلة سحب الأعضاء وفرقة المفاصل ثم الغسل بالماء الغزير والصابون، بعد الانتهاء يلف الجسد بإزار أبيض والرأس بعمامة وأجبرت على النوم في القاعة الأولى لمدة ساعة يقول فاستسلمت لغفوة لذيذة.¹

وعموما لا بد من الإشارة إلى أن هذه المرافق لا يقتصر دورها على الاغتسال لأغراض صحية أو دينية فحسب، بل أكسب الحمام كما أشرنا وظائف سيوسيوثقافية، وأصبح جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية للجزائريين بمختلف فئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية، فقد قصدها بعض الجزائريين لقضاء ساعات من الراحة وتبادل الأحاديث والأخبار ومتعة الالتقاء بالأصدقاء، كما كانت بالنسبة للنساء فضاءا للتسلية والنزهة ونوع من التحرر من القيود الاجتماعية، في ارتداء ألبسة خفيفة والتمتع باللهو والغناء وسماع الموسيقى والتلذذ بمختلف الأشربة والحلويات اللذيذة، وهو بذلك بالنسبة لمن كانا ساحرا تتخلص فيه من كامل همومها وانشغالاتها اليومية.²

يقول وليام شالر في ذلك "إن النساء يلتقين في الحمامات العمومية والتي كانوا يترددون إليها بكثرة ويستغرقن ساعات متوالية من الحديث الممتع"³، كما استغل هذا الفضاء لعرض النساء أزيائهن الجديدة وحليهن الذهبية فاحتل المرتبة الثانية من حيث أهميته عند المرأة بعد الأعراس، فلا نغالي إذا قلنا إن أغلب الزيجات كانت تتم عن طريق الحمامات العامة.⁴

ج- زيارة الأضرحة* والاعتقاد في الأولياء:

¹ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 89-91.

² أبو العيد دودو، المصدر السابق، ص 14.

³ وليام شالر، المصدر السابق، ص 07.

⁴ بن الشيخ حكيم، مدينة الجزائر والأوضاع الاجتماعية والأنثروبولوجية، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 273.

* الضريح لغة الشق الذي يكون وسط القبر وقبل هو القبر كله أما اصطلاحا فيطلق على البناء المشيد على القبر، وعادة ما يميل إلى البساطة في الشكل والتصميم تعلقه في الغالب قبة تسمى على اسم صاحب المشروع الضريح تكون مفتوحة أو معلقة تختلف أشكالها وطريقة بنائها، وقد نجد ضريح لشخص واحد فيضم رفاة صاحبه ومنها أضرحة الرؤية وهي تلك التي تشيد بعد رؤية أحد الأولياء الصالحين في المنام في موقع معين. (أنظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 10)

تدخل هذه العادة في إطار التفاعل بين الإنسان والمكان، وتكون ذات دلالات رمزية لطقوس متوارثة¹، ونتيجة للتحويلات العميقة التي عرفتها الجزائر في العهد العثماني طغى على المجتمع الطابع الديني والروحي بقوة لا سيما في ظل توافق مذهبي بين المذهب الحنفي والمالكي، وهو ما يفسر تعلق فئة من بالأضرحة كنوع من الاحتفاظ بالمرور الثقافي المادي واللامادي الذي يعود إلى ما قبل العهد العثماني، كما أن الطابع القبلي وفي ظل ظروف سياسية وعسكرية صعبة** خلق نوع من الملاذ والخضوع واللجوء للسلطة الروحية بحثا عن الهدوء النفسي، الأمان والطمأنينة فيما يعرف بذهنية الاحتماء²، كما أن تقاعص الدولة العثمانية في الاهتمام بالجانب الصحي والذي بقي حكرا على الشخصيات الهامة، كما حظي به أيضا فئة الأسرى، ظل المجتمع الجزائري عرضة إلى الأمراض والأوبئة الفتاكة طيلة القرنين 17 و18م³، منها الطاعون، حيث تفيد المصادر إلى هلاك ما نسبته 10% من سكان الجزائر سنة 1648م، والتي عرفت بعام الشر نتيجة انتشار الطاعون⁴، وهو ما أدى إلى انتشار ذهنية الاستشفاء من أعراض الفقر بين أوساط الجزائريين بالاعتماد على قوى روحية من ذوي القدرة والبركة والكرامات من الأموات وحتى الأحياء منهم، وقد تطورت إلى ظاهرة عامة تقوم أيضا على الوفاء والالتزام والتي تفعل في وقت الشدة والرخاء كنوع من الشكر والسعي لدوام النعمة، لذلك تنقصها البركة، قد صنفت هذه الأضرحة حسب كرامات صاحبها والتي تمد المجتمع بطاقات إيجابية لمواجهة هذا الواقع⁵.

والجدير بالذكر أن هذا الحضور الصوفي والاعتقاد بالمرابطين كان سائدا بين أوساط العامة والسلطة الرسمية على حد سواء، حيث شجع العثمانيون على ذلك وخصصوا لهذه الأضرحة أوقافا تقوم عليها، بل وأدركوا أن علة بقائهم وتواصلهم في البلاد يقوم على إرضاء الأولياء والصالحين واستمالتهم

¹ Donté (E), Note sur l'islam Maghrébine, Ed Ernest, Le roux, Paris, p 32.

** رافق انتظار الجزائريين على العديد من الحملات الأوروبية بعض العوامل الطبيعية التي ساهمت في إلحاق خسائر فادحة لهذه الدول مثل حملة شارلوكان على مدينة الجزائر سنة 1541م، والتي تزامنت مع حدوث عاصفة قوية أدت إلى تحطيم عدد من سفن الاسطول الإسباني الذي انهم شر هزيمة، وهو ما عزز الاعتقاد لدى الجزائريين بوجود حماية إلهية للمدينة، جاءت بفضل الأولياء المدفونين بها على رأسهم عبد الرحمان الثعالبي. (مذكرات خير الدين بربوس، ترجمة محمد دراج، شركة الأصل للنشر، الجزائر، 2010، ص 201).

² Devoulx, Les édifices religieuse de l'ancien, Algerie, p 122.

³ Yacine Daddi Addam, L'Abolition de l'esclavage en Algerie 1816-1871, These de Doctorat, York université, Toronto, Canada, Avril 2010, pp 42-46.

⁴ جون وولف، المرجع السابق، ص 158.

⁵ خالد سراج، المقدس ودلالاته في المجتمع الجزائري، الضريح لمنطقة عين تيموشنت نموذجاً، ماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان، ص 16.

وبذلك وظفت الدولة العثمانية المؤسسة الدينية لخدمة مصالحها، والتاريخ العثماني في الجزائر حافل بتلك العلاقة الثنائية بين السلطتين لا يتسع المقام لتفصيلها¹.

وعلى ضوء كل ذلك مثل الأولياء حيزا كبيرا في الحياة اليومية للجزائريين على اختلاف فئاتهم فقير، غني، جاهل، أو متعلم، وفي ذلك يعبر مورغان Morgan عن هذه العلاقة بين الأفراد والمرابط "الوالي"، ومدى عمقها من خلال بعض السلوكيات التي يقوم بها الناس مع الأولياء، مثل تقبيل أيديهم عند التسليم عليهم والقيام بتصرفات تدل على حبه الشديد واحترامهم لهم²، إن الاعتقاد ببركة أولياء مدينة الجزائر لم يقتصر على أهلها، بل امتد إلى زوارها، حيث ذكر الرحالة المغربي التيمقوتي أنه زار ضريح الولي الصالح عبد الرحمان الثعالبي، وقبر الولي أبي العباس بسيدي أحمد، بن عبد الله، الجزيري وقبر الولي أبو النور الموجود في رأس الجبل حيث قال في ذلك: "...وكل هؤلاء خارج باب الوادي زرناهم وتبركنا بهم رحمهم الله..."³.

وقد طبع مشهد الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال تعدد الممارسات والطقوس، التي دأب الجزائريون على تأديتها عند زيارة الضريح والتي كانت في شكل زيارات دورية، وقد تكون أسبوعية شهرية أو سنوية على حسب الحاجة، وعدم إهمالهم لتقديم ما يتوجب عليهم من هدايا وأضاحي وغيرها⁴، ففي الاستشفاء من المرض اختصت بعض الأضرحة، بل واختص كل ضريح في علاج مرض معين فضرحة علي الزواوي يشفي من الحمى والعقم، كما أن زيارة ضريح عبد الرحمان الثعالبي*، تشفي من مختلف الأمراض العضوية إذ توجد شجرة خروب كبيرة يعتقد أنها تشفي من مختلف الأمراض المعقدة،

¹ خليفة حماش، العلاقة بين إيالة الجزائر والباب العالي 1798-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة الإسكندرية، مصر، ص 116.

² De Tassy, op.cit., p 96.

³ Ibid, p 63.

⁴ P. Dan, op.cit., p 131.

* سيدي عبد الرحمان الثعالبي هو أبو زيد عبد الرحمان مخلوف ينتهي نسبه إلى جعفر بن أبي طالب، ويكنى بالثعالبي نسبة لقبيلة الثعالبة التي استقرت بمدينة الجزائر قبل دخول العثمانيين، ولد سنة 1385 بمدينة يسر تلقى تعليمه متنقلا بين الحواضر العلمية، كما زار عدد من العواصم العربية، مكث فيها مدة عشرين عاما، وبعد عودته تولى التدريس، القضاء وكان مثالا للعالم الزاهد الذي انكب على إصلاح العباد، نسب له الكثير من الكرامات منها رؤيته للنبي صلى الله عليه وسلم عدة مرات أثناء تأليفه "للجواهر الحسان في تفسير القرآن"، وروى أنه قاسمه أكلة وزار بيت كتبه ودعى له بالخير، وفي هذا المؤلف الكثير عن البركة لأنه يحتوي على أسرار صوفية لا يدركها إلا أصحابها من أهل الذوق الصوفي توفي سنة 1473، ودفن في ضريحه الذي أقيمت عليه قبة وزاوية حظيت بالكثير من الأوقاف من طرف الجزائريين والسلطة العثمانية، وأصبح مقصدا للزوار. (للمزيد أنظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 122-123؛ ص 243).

والتي تأتي من العين والجن يقول دو هايدو أنها تتطلب وجود ما يعرف بالطالب أو المرابط والذي تعلم حرفة السحر والشعوذة¹، كما كان يعتقد أن زيارة هذه الأضرحة أيضا تحل الكثير من المشاكل الاجتماعية، فكن الفتيات يزرن ضريح سيدي فليح الموجودة في مقبرة عبد الرحمان الثعالبي لطلب الزواج، حيث يظن بقبزه وهن يرددن "سيدي فليح سيدي فليح أعطيني زوج وأعطيك عشرة صوردي..."²، ومن طقوس الاستشفاء الاغتسال بالماء من بئر أو بركة أو عين تابعة للضريح، مضغ الثمار وأوراق الأشجار المحيطة وشرب منقوعها، ثم يحضر خلطات، تائم، تعازيم وأحجبة.

وهناك طقوس تمارس بصفة فردية كإشعال الشموع ونشر البخور، البكاء، إطلاق الزغاريد، ترديد الدعاء، المدائح والأناشيد³، وعن الطقوس أيضا إحضار الذبائح التي يجب التضحية بها، قد تكون دجاج، أبقار، أغنام، ماعز، ويطبخ اللحم، ويوزع على زائري الضريح.

وتحدث دو هايدو على تحضير بعض الخلطات من الضفادع، أظفار الذئب، براز القروذ، أنياب الخنازير وغيرها⁴، وإلى جانب التبرك بالأضرحة والقباب وزيارتها ساد أيضا في المخيال الشعبي للجزائريين أيضا للاعتقاد بكرامات بعض المرابطين وقدراتهم الفائقة، وفي ذلك يقول دوطاسي، أن النساء خلال هذه الفترة كن يعشن في جهل تام للدين فعندما تلتقي بأخريات يقضين أوقاثن في الحديث عن المتعة وعلم الغيب⁵، فالإسلام الذي كانوا يمارسونه كان في الغالب مزيج من الخرافات والجهل⁶.

في هذا السياق تحدث دان Dan على أن أشهر مرابطي تلمسان من أوهم سكانها بأنه رأى الرسول ﷺ في المنام وأخبره بأنه غاضب لرؤية لمدينة تحت حكم الأتراك وطلب منه تكوين إمارة مستقلة ووعد بأنه من يشارك في المعركة ضد العثمانيين لن يصيبه مكروه لأن سلاح الأعداء لا يستطيع الوصول إليهم فجهزت السلطة العثمانية جيشا من الإنكشارية للقضاء على هذا التمرد⁷، حيث قتل الكثير من هؤلاء وألقى القبض على هذا المرابط وإثنان وثلاثون من رجاله الذين سلخوا أحياء وقاموا بحشو جلودهم

¹ Ibid.

² P. Dan, op.cit., p 30.

³ Pyssonel, op.cit., p 315.

⁴ Ibid, p 217.

⁵ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 75.

⁶ أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص 44-46.

⁷ L. Rinn, Marabouts et khouan, Alger, 1880, p 106.

بالقش وعادوا بهم إلى مدينة الجزائر ليكونوا عبرة للآخرين وكان ذلك سنة 1627¹، ويضيف أن المرابطين كان يعيش أغلبهم خارج المدن فكانت النساء يتوافدون لزيارتهم وطلب الدعاء والبركة خاصة عند خروج أزواجهن لمحاربة المسيحيين.²

من الروايات التي قدمتها المصادر الأجنبية حول هذا الموضوع ما ذكره الرحالة بيصونال Pyssonel عند مروره في إحدى القرى الواقعة بين القل وعنابة، حيث تحدث عن مكانة المرابط سيدي تراك، والذي عرف بكثرة كراماته، فلما مات أصبح سكان القرية يستخدمون القدر التي كان يطهوا فيها الطعام للطهي بها في احتفالاتهم ومناسباتهم، والتي بعد انقضائها توضع القدر في الخارج وتعود وحدها إلى المسجد التابع للمرابط وعندما حاول أحدهم الاحتفاظ بها مات بعدها بطريقة غريبة³، كما روي عن هذا المرابط أن كان يلف الحبل حول رقبته ثم يتركها فيقع مغشيا عليه، فيقوم الحضور بفك الحبل وترك المرابط في اجتماع مع الرسول ﷺ، وأحيانا يدور حوار بينهما فيخبر الحضور بالكثير من الأمور، وهو ما أكسبه تلك المكانة الهامة في المنطقة وذلك حوالي سنة 1680⁴، عن علاقة السلطة العثمانية بالأضرحة نرد ما سجله سيمون بفايفر في مذكراته عن حسين باشا، بأنه أمر سنة 1830، بزيارة قبور الأولياء على اختلافها والتصدق بالأموال على الفقراء، كما أمر بذبح عندها أبقار والأغنام للحيلولة دون دخول الفرنسيين إلى مدينة الجزائر، حيث قصدوا في ذلك أضرحة كل من الولي عبد الرحمان الثعالبي والولي سيدي دادة وسيدي عبد القادر ذات الكرامات والمعجزات لإنقاذ المدينة من الخراب والدمار.⁵

¹ J. Morgant, Histoire des états Barbaresques qui exercent la piraterie contenant l'origine des révolution et l'état présent des royaumes d'Alger de Tunis de tripoli et du Maroc, Traduit de l'Anglais, Tome 02, Paris, MDCCVII, p 93.

² التتمقروتي، المصدر السابق، ص 139.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 399.

⁴ De Haydo, Topographie, p 119.

⁵ Dermenghen E., Le culte des saints dans l'islam Maghrebin, Gallinard, 1954, p 109.

ومن جهته أيضا تحدث الضابط الألماني الذي رافقه الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830 "شونبرغ" عن حادثة وقعت أيام الداوي مصطفى سنة 1805م، حيث طلب منه التوجه إلى قبة المرابط القريبة للاحتماء بها لأن بعض الإنكشارية قد غرموا على قتله بسبب تعامله مع اليهود.¹

وفي تقييم لهذه الظواهر التي سادت في المجتمع الجزائري يقول لويس رين Rinn أن هذا المجتمع نتيجة لذلك قد أصيب بصدمة عقائدية عنيفة أذهبت العقول وحولت الأفراد إلى أشخاص مسلوب الإرادة غير قادرين على فهم ما يدور حولهم، حيث انتشرت بينهم فكرة إلغاء الذات عندما أصبحوا ينظرون إلى المرابطين أنهم نفوس محمية من الله تربطها علاقة خاصة ومباشرة بعوالم الغيب والأسرار وعلى الناس فقط الانصياع لهم دون جدال فاستغلت بذلك العقول والأموال ويكاد الدارس، لذلك القول أن هذه الظاهرة كانت السبب الرئيسي في الركود الثقافي والعلمي في تلك الفترة.²

يتحدث شلوصر عن نوع من المرابطين ويطلق عليهم الرجال الدراويش يطوفون في المدينة ليلا ونهارا، وكيفما كانت الأحوال الجوية لا يأخذون المال ولا الهدايا وتقدم لهم الدولة سنويا لباسا يتكون من بنوس وفندورة وإذا شعروا بالجوع، يطرقون أول باب تقابلهم دون أن يجراً أحد على ردهم في حالة كبيرة من الوساحة لأنهم لا يغتسلون، يعتقد الناس أن لهم صلة ما بالله وأنهم أصحاب كرامات فتزورهم النساء من أجل الحمل³، وفي ذلك سرد بعض القصص الغريبة التي شاهدها عن هؤلاء مثل قصة إيهام الناس أن وباء سنة 1834 ما هو إلا مسيحيين غير مرثيين جاءوا لتسميم المدينة وقد صدقهم الناس، وراحوا يلوحون بعصي في الهواء اتجاه الكفار غير المرثيين، ويقول شلوصر أنه بعد أيام خف فعلا الوباء فأصبح إيمان الناس بكرامات هؤلاء غير محدود، كما شاهد النساء يجلسن حولهم ويقومون بنزع القمل الكثير عنهم ويجدون في ذلك متعة كبيرة.⁴

ومن جهته فصل روزيت Rozet في هذا الموضوع مقدما بعض القصص الغريبة، التي يقول بعضها من مشاهداته في المدينة، وبعضها وجدها متداولة في العديد من المصادر، حيث ذكر أن للمرابطين مكانة هامة ومحظون بثقة لا حدود لها في نفوس الجزائريين، إذ لا يجد هؤلاء مانعا في رؤية

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 20.

² De Haydo, op.cit., p 121.

³ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 83.

⁴ نفسه، ص 84.

نسائهم والبقاء معهم لساعات طويلة، كما أن المرأة يغمرها فرحا كبيرا في ذلك¹، ويضيف أن في مدينة الجزائر كثيرا ما كان يشاهد أحد المرابطين يقوم بالاعتداء جنسيا على امرأة من المارة والتي تعتبر ذلك من حسن حظها، وفأل خير عليها، وفي ذات السياق يسرد قصة حدثت قبل سنوات من سقوط المدينة في يد الفرنسيين تمثلت في تعرض ابنة أحد القناصل الأوروبيين للاغتصاب على يد مرابطين، وكان ذلك في الشارع أمام مرأى عدد كبير من الناس والذين لم يبادر أحد لنجدها رغم توسلاتها، فاستنكر الأب هذا التصرف الهمجي وقدم شكوى إلى الداي الذي رد قائلا: "أن ذلك يعود إلى إرادة عليا وعليه أن يكون سعيدا لأن رجل ذو قداسة اقترب من ابنته"².

5- من عادات الجزائريين:

أ- الكرم وحسن الضيافة:

سجل الأوروبيون العديد من الملاحظات التي تؤكد الخصال الطيبة للجزائريين والتي طبعت بشكل عام المجتمع الجزائري، لعل أبرزها الكرم وحسن الضيافة، فيذكر بيصونال Pyssonel أثناء تنقله بين مختلف قرى وبوادي الجزائر، أن باي قسنطينة قد أحسن إليه وعبر له عن مشاعر الصداقة التي يكنها للمسيحيين وخصص له خيمة للإقامة وحامية من الجنود الإنكشارية³، ويبدو أن عادة الكرم كانت منتشرة بكثرة لدى القبائل وهو ما أسهب في وصفه بنانتي الذي ذكر أن من عادات استقبال الضيف يقدم له كوبا من الحليب وسلطة من العنب والتمر والتين المجفف، ثم يقوم صاحب الخيمة بإحضار خروف فيعد نصفه في اليوم الأول والنصف الآخر في اليوم الثاني فيعد له من الشواء والكباب ويقمى صاحب الخيمة واقفا لخدمته⁴.

¹ من الصعب جدا تأكيد مثل هذه القصص الغربية بالنظر إلى الانتماء الديني، الثقافي والاجتماعي للمجتمع الجزائري، إذ نلمس في كلام الضابط الفرنسي روزيت Rozet الكثير من المغالطات والأخبار الخاطئة والغريبة امام سكوت المصادر المحلية، مما يجعل هذه المعلومات مشكوك في أمرها لهذا حدثت تعبر قصص معزولة نادرة الحدوث قام هؤلاء بتسليط الضوء عليها. (Rozet, op.cit., p 36)

² Rozet, op.cit., p 37.

³ Pyssonel, op.cit., p

⁴ Pananti, p 275.

وأشار الأب بوارى Poiret أن من عادات العرب إكرام الضيف فيقدم له طبق من الكسكس ثم يعد له مكانا مريحا قضاء ليلة في خيمة خاصة، وفي أمن تام حتى ولو كان ألد أعدائهم.¹

ومن جهته تحدث دوطاسي أنه عندما يستقبل الجزائري ضيفه يجلسه في مكان مخصص لذلك عادة ما يكون عند مدخل المنزل فيقدم له القهوة ويطلب من النساء عدم الظهور والتواجد في المكان كما تحدث عن حسن استقبالهم الأوروبيين في منازلهم فيعاملونهم مثل أهل البلاد.²

ومن عادات سكان القرى في استقبال الصبايحية* تحدث بيصونال أنهم كانوا يستقبلونهم استقبالا حارا، فتذبح لهم الخرفان وتحضر لهم نساء القرية "الرفيس" وهو طبق من العجين يطهى ويوضع في إناء واسع (قصعة) ويخلط بالعسل والتمر، كما تحضر لهم الكسكس المطهو بلحم الخروف، ويقدمون أيضا الكثير من الشعير لأحسنيتهم وذلك بالرغم من العبارات التي يوجهونها لهؤلاء فينعتونهم عادة "بالديوث" وقد يتعرضون للضرب بالعصى.³

وقد تحدث الرحالة المغاربة عن طبع الكرم لدى القبائل وأهل الجزائر عامة، حيث تحدث العياشي عن كرم أهل الصحراء في عدة مواضع منها زيارته لطولقا أين أجزل أحد طلبتها في ضيافتهم بالرغم من أن مر بهذه المناطق في زمن القحط والجوع خاصة بعد انتشار الوباء ببعض البلاد، مثل بسكرة وضواحيها، ومع ذلك وجد الكرم من بعض أهلها وخاصة لدى الزوايا.⁴

أما الدرعي فقد مر بهذه المناطق على رأس الركب المغربي سنة (1096هـ/1683م)، ويبدو أنه زمن خير رخاء، وهذا ما يتضح من خلال العطايا التي قدمت لهم وكان السكان في ذلك يلتمسون من ذلك البركة، والصلاح، فيقول: "وتلقانا بعض أهل أم القرار القبلية واشتكوا الحمى، وذكروا أنها

¹ Abbé Poiret, pp 71-100.

² De Tassy, op.cit., p 113.

* الصبايحية أو السباهية مشتقة من كلمة سباه الفارسية بمعنى الجيش وتطلق على الجندي من الفرسان. (أنظر دائرة المعارف الإسلامية، مج11، ص 214. مادة سباهي).

³ Pyssonel, op.cit., p 65.

⁴ العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص 181-119.

أضرت بهم كثيرا ودعونا الله لهم بالعافية الدائمة..."، وأجزوا له بالكثير من المنح والعطايا، وتصدقوا بأجود ما لديهم بين طعام وشراب من دقيق، لحم وخضر وفواكه، سمن وماشية¹.

وأشار أصحاب الرحلات المغربية في العديد من المواقع إلى أن أهل القرى وإن كانت صحراوية كانوا أكثر كرما وجودا من أهل الحواضر والمدن، مشيرا إلى حسن الضيافة والترحيب، فعن بشار وقراها يقول: "تلقانا أهله أفواجا فرادى وأزواجا وشيوخا وكهولا شبانا ورجالا وأتوا غلينا بفواكه كثيرة"².

وهنا إشارة أخرى للورثاني في حسن الضيافة التي كانت منتشرة لدى البوادي والقرى، خلال رحلته من بني ورثان نحو الحجاز، فتحدث أنه: "عند عودته من الحج مروا ببرج زمورة، أين استقبلهم أهلها بضرب البارود والفرح والترحيب وخرجوا على بكرة أبيهم لاستقبال الركب وهم يتنافسون فيما بينهم فيمن يطعم الحجاج..."³.

ب- التسامح الديني وآداب المعاملة:

هناك تضارب بين المصادر الأجنبية حول ظاهرة معاملة العثمانيين والجزائريين للمسيحيين المقيمين في إيالة الجزائر، بين ما جاء به بنانتي والأب دان Dan، وكذلك إشارات عند دوهايدو والذين أكدوا أن المسلم قد وعد بدخول الجنة مباشرة بعد قتله المسيحي، ويشير الأب دان أنه بسبب ذلك تنكر الكثير منهم في زي موريسكي أو تركي⁴، كما رافق بعضهم عدد من الجنود الإنكشارية حتى يتمكنوا من التنقل في البلاد وهو ما أكده الطبيب بيصونال⁵.

كما أشار دان إلى ما أطلق عليه بطائفة الرافضة Raphidis الحاقدة على المسيحيين، حيث عادة ما يلاحظ في الشارع مشاهد لضرب أحد المسيحيين، كما يمتنع الكثير من لمسهم أو لمس كل ما يتعلقهم وينعتونهم بالخنازير احتقارا لهم⁶.

¹ الدرعي، الرحلة الناصرية، ص 124-127.

² نفسه، ص 127.

³ الورثاني، الرحلة الورثانية، ج 1، ص 193.

⁴ P. Dan, op.cit., p 28. Pananti, op.cit., pp 275-276.

⁵ Pyssonel, op.cit., p 290.

⁶ P. Dan, op.cit., p 29.

كما شاهد دوبارادي مشاهد دفع المسيحيين من الرصيف للسير في الطين موجهين لهم حملة من الشتائم¹، وقد وردت العديد من الروايات في ذات السياق غير أن العديد من المصادر الأجنبية قد اشارت إلى أن التسامح الديني كان موجود في الجزائر، إذ كان بإمكان أي شخص ممارسة شعائر ديانته بكل حرية دون خوف أو قلق²، وفي ذلك يخبرنا بلايك في بحثه حول العبودية يقول "أن أعظم تسامح هو ذلك الذي يسمح بتأدية الطقوس الدينية للأسرى في الجزائر أعظم أربع احتفالات للكنيسة الرومانية كان مالكي الأسرى النافذين يقومون باستئجار كاهن خصيصا لراحتهم الروحية، كما يأخذون أسراهم بانتظام مرة في الأسبوع، للاعتراف في الكنيسة، كما أن الجزائريين قد أظهروا اهتماما بالعبد المتدين من غيره من العبيد الأقل تدينا ولم يكونوا مهتمين من تحويل عبيدهم...³"، فبالرغم من الإغراءات التي تعرضوا لها من طرف المسلمين لكن لم يؤكد أي منهم تعرضه للتحويل باستخدام القوة والعنف فحسب الأسير هاميلتون (وهو أول أسير إنجليزي ينشر رواية أسره بالجزائر سنة 1595) "فإن أحد الشيوخ الجزائريين قام بمنحه الطعام والملجأ ثم عمل فيما بعد مدفعا عن طيب خاطر مع راتب محترم وعرض عليه الدخول في الإسلام فالجزائريون كانوا يتوقون رؤيته مسلما لكنهم لم يستعملوا التعذيب عكس ما يفعله الكاثوليك في إسبانيا"⁴.

وقد أكد قنصل أمريكا بالجزائر شالر الذي مكث في الجزائر حوالي عشر سنوات، حيث تحدث عن تفتح الجزائريين واحترامهم لحرية ممارسة الدين فيقول: "...لم أكتشف فيهم أعراض التعصب الديني أو الكره للأشخاص الذين يدينون بدين آخر غير دينهم... ولا يمرون عداوة للأشخاص الذين يملكون طريقا آخر للحصول على رضا الله..."⁵، وبالمقابل كان على المسيحيين وغيرهم من أهل الذمة احترام الإسلام والمسلمين وعدم إظهار أي احتقار أو إهانة لمقوماته، فقد كانت الحكومة العثمانية صارمة في تطبيق العقاب على كل ما يخالف ذلك، وفي ذلك ذكر بلايفير سنة 1667 عن حادثة دخول قسيس إسباني إلى أحد المساجد البارزة بمدينة الجزائر وهاجم الديانة الإسلامية بعنف ما جعله

¹ Venture De Paradis, op.cit., p 98.

² Ch. Vallière, op.cit., p 30. De Tassy, op.cit., p 106.

³ Blake William, The history of slavery and the slave, trad ohio, Miller, 1890, p 79.

⁴ Nabil Matter, English accounts, p 558.

⁵ وليام شالر، المصدر السابق، ص 78.

يُحرق حياً¹، وهو ما أكده الأسير الأمريكي جون فوس في مغامرات أسره بالجزائر أواخر القرن 18م عن عقوبة الموت حرقاً أو خنقاً، لكل من يتناول على الإسلام²، وبالرغم من وظيفته في القصر "طبيب جراح" تحدث بفايفر عن حادثة تعرضه من طرف أحد أحفاد الداوي المدعو "عبد الله" للإساءة والشتائم، كما فرض عليه الدخول إلى الإسلام وعندما رفض اتهمه بالتناول على القرآن فعاقبه الداوي بالجلد بمائة وخمسين جلدة.³

ويبدو أن فئة العبيد قد اختلف مصيرها حسب الأوضاع التي وجدت فيها، حيث تحدث بلايك أن العبيد المسيحيين من ذوي السيرة الحسنة كانوا عادة ما يستقبلون في المجتمع الإسلامي ولا يواجهون للأعمال الشاقة⁴، وفي ذلك تحدث الأسير تيدينا قائلاً "كل ما حكاه لي العبيد آثار دهشتي فقلت في نفسي أين هي تلك البربرية واللاإنسانية التي تنسبها كل أوروبا لهذا الشعب؟... فالوكيل الذي كنت عنده لم يعاملني كعبد، بل غمرني بالفضائل وهو رجل جميل ومحسن... وكان من أكبر الإنسانيين المخلصين الذين وجدوا في هذا القرن..."⁵.

ومن آداب المعاملة تحدث الأب Dan عن التحية، حيث أورد زيارته للداوي برفقة فنصل فرنسا السيد لوباج الذي جلس بالقرب منه رافعا يده اليمنى فوق صدره وهي طريقة التحية التي تعود عليها الأتراك وسكان البلاد⁶.

فيما تحدثت المصادر الأجنبية عن عادة تقبيل اليد التي فرضها دايات الجزائر على القناصل، المسيحيين، الأجانب، حيث تحدث بيصونال عن زيارته للداوي بقوله: "وجدت الداوي جالسا فوق مقعد ساحة القصر اقتربت منه وقبلت يده"⁷.

¹ Playfair, op.cit., p 90.

² John Foss, A journal of captivity, p 32.

³ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 31.

⁴ Blake, op.cit., p 79.

⁵ أحمد عميرو، مذكرات، المصدر السابق، ص 50-56.

⁶ P. Dan, op.cit., p 44.

⁷ Pyssonel, op.cit., p 463.

ومن جهته أشاد الأب بوراي بعادات التحية لدى الجزائريين فقال إنهم عادة ما يضعون اليد اليمنى على الصدر ويخفضون رؤوسهم أو يتبادلون القبل على الوجه وعلى الكتف بالتناوب ويسألون عن أحوالهم بكل شغف ولهفة وهي من عادات المسلمين.¹

ج- عادات أخرى:

أشادت أغلب المصادر الأجنبية بنظافة بيوت مدينة الجزائر والظاهرة ذاتها في الكثير من مدن وحواضر الإيالة، حيث أكدوا أن سكانها كانوا على درجة عالية من النظافة لدرجة أنهم كانوا يغسلون البيت عدة مرات بالماء، ويدهنون بيوتهم في اليوم الخامس عشر من الشهر بالجير الأبيض، وذلك وقاية من الأمراض والأوبئة، كما تسود بينهم عادة خلع أحذيتهم في مدخل المنزل والمشي داخله بأرجل حافية.²

وعند زيارته لمدينة الجزائر ق 16م ذكر الرحالة العربي التمقروتي ما يلي: "هي أفضل من جميع بلاد إفريقيا وأمر وأكثر جارا وفضلا من جميع بلاد إفريقيا، وأوسع أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا، حتى أنهم سموها إسطنبول الصغرى، فبيتها كان نظيفا يضرب به المثل، حتى أن المرء ينتقل فيه حافيا من غرفة لأخرى، فلا يمس قدميه أي وسخ، فكان الطفل الحضري مضرب المثل في النظافة والدوق والجمال".³

ومن مظاهر التضامن يقول حمدان خوجة أن سكان مدينة الجزائر شجعان اجتماعيون أوفياء للعهود وكرماء تسود بينهم مظاهر التضامن بين العائلات، وخاصة في الأفراح والأقراح، فكانوا يستلفون من بعضهم البعض حليا وجواهر ثمينة وغالية وهم كلهم ثقة، كما كانت بعض الأسر الغنية تشتري حليا للأيتام والفقراء عند زواجهم.⁴

وفي ذات السياق وصفت صوفيا برنارد التي زارت مدينة الجزائر سنة 1811، فكتبت عن أخلاق الجزائريين "أنهم يمتنعون عن شرب الخمر، فليت جميع الأمم تحذوا حدودهم، لباسهم جميل جدا،

¹ L'Abbé Poiret, op.cit., p 126.

² Rozet, op.cit., p 28.

³ التمقروتي، المصدر السابق، ص 139.

⁴ حمدان خوجة، المرأة، المصدر السابق، ص 64.

وسلوكلهم مع الأجانب يتسم بطيبة القلب وروح الجمالة، كرماء الضيافة"، لذلك وصفت إقامتها القصيرة بالجزائر بأنها مليئة بالمتعة فتقول إنه "من الصعب أن تجد الإنسان مكان آخر في العالم لباقة وأدبا ورعاية مما تجده في الجزائر"¹.

ونظرا لأن الحضريات قد منعن للخروج للشارع إلا للضرورة أصبحت أسطح المنازل بمثابة متنفس لهن وأماكن للتسلية وفرصة للاجتماعات بينهن فيتجادبن أطراف الحديث بكل حرية وهن مرتديات لباسهن المنزلي المكون عادة من قمصان من الشاش وفوطات قطنية مربوطة عند الخصر، فمن عادات المرأة الحضرية عندما تنتهي من أشغالها المنزلية تتزين فتضع الكحل في أعينها، وتحضب يديها وشعرها بالحناء للحصول على اللون الأحمر، حيث عادة ما تضعنها قبل ذهابهن إلى الحمام في اليوم الموالي لذلك، كما تحدث سبنسر أن التطريز كان من النشاطات اليومية التي تقوم بها المرأة الحضرية وخاصة نساء مدينة الجزائر فقد اختصت تطريز القطع الخاصة بالنوافذ وألبسة الرأس والمحارم اليدوية وكذلك تطريز القفطانات والأدوات الأخرى الخاصة بالنساء والرجال، والأطفال، وكانت هذه الأعمال تشغل وقت عملها الكثير من الساعات.²

أما المرأة الريفية فبالرغم من تحررها إلا أن حياتها كانت في غاية الصعوبة نظرا للأعمال الشاقة المفروضة عليها في اليوم، حيث كانت مجبرة على تسلق الجبال لجمع الحطب لإعداد الطعام وهي تحمل رضيعها على ظهرها، كما وصفت في حالة متدهورة وهي تمشي حافية القدمين شبه عارية ومتسخة تظهر على جسمها رموز غريبة "الوشم" التي وجهها وأجزاء جسمها³، وقد تحدث شلوصر أن كم أعمالها اليومية طحن ما يلزم يوميا من الدقيق باستخدام المطحنة الحجرية ثم تقوم بغربلته لإعداد الخبز ثم تقوم بعدها بمحض اللبن، حيث تعلق القرية في عمود خشبي ذو ثلاث سيقان تحتوي على لبن جديد، ثم تجلس المرأة أمام العمود وتمسك بعنف القرية وتحركها هنا وهناك بدون انقطاع وبعد مدة قصيرة تنشأ الزبدة⁴، وعادة أيضا ما تجلس المرأة في الوقت المتبقي خلف المنسج لنسج ألبسة مختلفة للرجل والعائلة، حيث ينتصب المنسج بصورة مستقيمة ويربط به جزء من الخيوط وتمرر البقية بواسطة الأصابع وتثبت

¹ Sophia Bernard, op.cit., p 302.

² Ch. Vallière, op.cit., p 36.

³ Pananti, op.cit., pp 257-258. L'Abbé Poiret, op.cit., pp 152-153.

⁴ فنديلين شلوصر، المصدر السابق، ص

بقطعة خشب، ما تقوم بغزل الصوف بمغزل ذا قرص خشبي يدار بواسطة، وتمسك حول ذراعها عصي لفت حولها الصوف فيسحب منها خيط وتضعه حول المغزل وتديرها فوق فخذها ثم تبعده عنها إلى تحت وأثناء سحبها للخيط ينشأ خيط ميك، وتبقى في عملها هذا لساعات متأخرة من الليل.¹

- عادة جني الزيتون:

هي بمثابة احتفال سنوي لدى قبائل جبال الأطلس، التي تعتمد ثروتها على الزراعة وجني الزيتون فبمجرد أن يأتي موسمها وينضج ينفض من الأشجار ويجمع من طرف سكان القرى، إذ توجد أمام كل قرية أو دشرة ميدان واسع به معصرتان أو ثلاث يعمل فيها الشباب الأقوياء، ذكور وإناث، وهي بمثابة أعياد بالنسبة لهم عادة، ما تتم بالرقص والموسيقى والبهجة، الزيت الجديد يكون خائرا جدا ولونه أخضر غامق وله طعم لذيذ يوضع مصفى أو غير مصفى في جلود الماعز وينقل فوق البغال إلى القرى البعيدة لبيع فيها، كما تجمع القبائل الزيتون الأخضر بكميات كبيرة ويشق طولاً وعرضاً بسكين ويوضع لفترة وجيزة في ماء ساخن ومالح ثم يأكل طعمه مر ولكنه مقبول²، من عادات القبائل الريفية أيضا صناعة بيوت من الطين أو سلال من الخيزران لتربية النحل، حيث تتجمع فيها النحل وتنتج كميات كبيرة من العسل.³

ومن جهته تحدث دوطاسي عن القبائل العربية بأنها تفتخر بتحدثها اللغة العربية، ونقاء وفصاحة الكلام، حيث يقوم مشايخ هذه القبائل عادة بتربية الأحصنة، كما يهتمون بكتابة قصائد من الشعر، لدى هذه القبائل شعف كبير للخيل العربية، خيول برية نقلها العرب بأعداد كبيرة لإفريقيا، وهي الأحسن التي يمكن إيجادها بسبب رشاقته وخفتها، كما تنتشر بينهم هواية ترويض المهرة وهي عادة عود عليها الأطفال منذ الصغر، وقد مكن هذا القبائل الهروب من الصابجية الأتراك، وذلك بسبب خفة خيولهم.⁴

¹ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 139-140.

² فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 5.

³ نفسه، ص 96.

⁴ De Tassy, op.cit., p 115.

وفي ذات السياق أشار تيدينا أن باي معسكر كان ينظم عادة سباق الخيول مع أفراد بلاطه، حيث يمكن من ركوب هذه الخيول العربية والمهولة بها، وييده البندقية التي كان يطلق لبارود منها بكل سهولة ويضيف تيدينا أن سكان هذه المناطق كانوا يتمتعون باستقامة كبيرة في هذه الأنواع من السباقات.¹

وفي سياق آخر أشار دوطاسي أن من عادات الرجال الجلوس أمام الخيمة طوال اليوم لأن العمل أمر محجل لدى الكثيرين، فيمتنعون عادة عن الكثير من الألعاب التي كانت بالنسبة لهم محرمة وممنوعة لكنهم كانوا يشغلون أوقاتهم بلعب الشطرنج والدامة ويلعبونها وهم يتناولون رشقات من القهوة أو الشربات ويدخنون الغليون.²

وقد أشار وولف إلى انتشار بعض العادات التي تهدف إلى المتعة والترفيه في مجتمع تقليدي محافظ منها ظاهرة لعب الورق التي انتشرت بين الأتراك الأعلاج هؤلاء، يقول وولف قد مروا بمرحلة انتقالية أثناء تحولهم من المسيحية إلى الإسلام مما يسبب نوع من الفوضى لأنهم لم يتخلوا كلياً عن بعض السلوكات والعادات التي كانوا يقومون بها مثل شرب الخمر مثلاً كما كانوا لا يجدون مانعاً في لعب النرد والورق وحضور الحفلات والسهرات، مما شكل خطراً على مجتمع المدينة لأنهم كانوا يصنفون أنهم مسلمين.³

6- ممارسة بعض الطقوس الدخيلة على الإسلام:

أ- ممارسة طقوس السحر والشعوذة:

تحدثت بعض المصادر الأجنبية عن هذا الجانب وربطته في كثير من الأحيان بالمرأة، فهناك ما رأى أن عدم اهتمام المجتمع الجزائري بتعليم المرأة دفعها إلى الإيمان بعالم الغيب وبشدة الاعتقاد به إذ وجدته مجالا سهلا للتخلص من مشاكلها اليومية وعبئ المسؤوليات الملقاة عليها من طرف العائلة ثم من طرف الزوج⁴، إذ لوحظ غيابها عن الحياة العامة وخضوعها لأعراف وتقاليد محصورة في حدود جدران بيتها وفي

¹ أميدة عميراي، الجزائر في أدب الرحلة، ص 233.

² De Tassy, op.cit., p 115.

³ جون وولف، المرجع السابق، ص 164.

⁴ Daumas, op.cit., p 168.

ذلك أشار غراماي Gramaye أن المرأة تقضي وقتها في الجلوس في المنزل ولا تخرج إلا لزيارة الحمامات أو الذهاب إلى السحرة والمدافن¹، كما اعتبر بفايفر أن مهمة المرأة في هذا المجتمع هو المكوث في البيت وإنجاب الأطفال²، والقيام ببعض الأشغال مثل التطريز على الحرير والجلد أما التعلم لدى عامة الأهالي يرون من العيب أن تتعلم البنت³، وقد فسر سبنسر كثرة ذهاب النساء في هذا المجتمع إلى السحرة والمرابطين لمنعها الذهاب إلى أداء الصلوات في المساجد بذلك كن بدل ذلك يقمن بزيارة القبب والأضرحة بانتظام ويقدسن القرابين وتشعل الشموع طلب في أبعاد المصاعب الاجتماعية والعائلية⁴.

وقد أكد شالر أيضا أن المجتمع الجزائري في هذه الفترة كان يؤمن بالسحر وتدخل القوى غير الطبيعية في تغيير الأحداث*، وبذلك كان المرابط بمثابة الوسيط الذي وجب اللجوء إليه للتخلص من الأرواح الشريرة.

وأشار فاليار أن سكان مدينة الجزائر من أكثر الشعوب اعتقادا بالعين الشريرة، كما أنهم يؤمنون بقوة الأرواح والقوى العينية، كما كانوا يعتقدون بعالم الجن ويمارسون معتقدات سخيفة، فإذا وصفت فلان بأنه جميل يتهمونك بإصابته بالعين الحاسدة، لذلك يضعون على قبعات الأطفال اليد الممدودة (أي الخمسة)⁵، حيث ذكر الأب دان أن صورة اليد الممدودة عندهم علاج جيد للسحر، لذلك كانت توضع فوق أبواب منازلهم وعادة ما تكون مصنوعة من الفضة أو النحاس⁶.

كما استخدم السكان العديد من الوسائل والممارسات والطقوس الخرافية للقضاء على العين والحسد، وحماية أنفسهم وحيواناتهم من الأمراض، حيث كانوا يحملون التعويذات والطلاسم حول أعناقهم

¹ Grammaye, op.cit., p

² سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 47.

³ Thom Foss, op.cit., p 65.

⁴ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 125.

* ومن هنا حسب شالر كان الاعتقاد الشائع بينهما أن جيشا مسيحيا يرتدي زيا أحمر سوف يستولي على المدينة في جمعة، وهذا هو السبب الذي من أجله تغلق المدينة أبوابها يوم الجمعة، الساعة الحادية عشر صباحا حتى الواحدة زوالا. (أنظر شالر، ص 98)، وهي فكرة نعتبرها من المغالطات لأن الجمعة بالنسبة للمسلمين هو يوم عيد التزاما بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الجمعة، الآية 9-10.

⁵ Ch. Vallière, op.cit., p 29.

⁶ P. Dan, op.cit., p 71.

وكذلك حول أعناق حيواناتهم¹، حيث تحدث روزيت عن رؤيته لها، وقد لفت حول أعناق بعض الحيوانات من البغال²، والجدير بالذكر أن هذه الطقوس، قد انتشرت بين مختلف طبقات وفئات المجتمع الجزائري بما فيهم الطبقة المرموقة، حيث لاحظ هاينريش فون مالتسان، ذهاب الكثير من النساء الحضريات إلى عين يمضي إليها كل صباح أربعاء شيخ زنجي لتقديم قربان، فيذبح دجاجة ويطلب من هؤلاء النساء القيام ببعض الطقوس، الغربية منعا للطاقات السلبية والأمراض.³

وقد فصل الضابط الفرنسي روزيت في هذا الموضوع، حيث تحدث عن نوعية الحروز والطلاسم التي كانوا يحملونها والتي كانت قطعة قماش مطرزة بيضاء تخاط من كل الجوانب توضع فيها قطعة ورق كتب عليها بعض الصور الغربية وأحيانا سور قرآنية مشيرا أن قيام المرابطين بتقديم مثل هذه الحروز كان يذر عليهم أموالا طائلة باعتبار أن أغلب الجزائريين كانوا يعلقونها حول رقبتهم⁴، وقد حاول روزيت معرفة محتوى هذه الكتابات والتي وجدها في إحدى المنازل بالقصبة، مثيرا لتلك الجزائريين بالرقم (78) والذي يمثل عندهم (لفظ) ح ك ي م، ويعني $H=8, K=20, I=10, M=40$ ⁵، دون أن يستطيع تفسير معنى ذلك.

وفي سياق آخر أشار إلى سعي الجزائريين لتجنب الأرواح الشريرة وتسخير الشياطين لمعرفة الغيب، حيث كانوا ينظمون ما يعرف بالحظرة وهي ممارسات وطقوس بربرية سخيفة التي يؤديها غالبا فئة الزوج فيما يعرف بالجلب، وكان يطلق على هؤلاء "بالوصفان" وعادة ما يحضر النساء إلى مثل هذه الطقوس: للزواج، و جلب الحبيب⁶، وقد وصلت الخرافة والاعتقاد بالسحر إلى درجة كبيرة عند بعض القبائل التي كانت تتلقى زيارات دورية من بعض الساحرات* التي كان يعتقد أن لها القدرة على إحضار الشياطين وتسخيرها لمعرفة الغيب، وكشف المجهول وتخليص الناس من الأمراض والفقر ويذكر دوبارادي أن هناك

¹ Daumas, op.cit., p 168.

² Rozet, op.cit., p 107.

³ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 64.

⁴ Rozet, op.cit., p 107.

⁵ Ibid, p 111.

⁶ Rozet, op.cit., p 146. هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 64.

* عرفها Rozet باسم Xsen أي بالمفهوم المتداول القزانات.

من قبائل البربر التي كان لهم تقديرا كبير لنوع من الضفادع الذين أطلقوا عليهم بالمرابطين وكانوا يقصدونهم لطلب الحمل والإنجاب.¹

ب- ظاهرة البغاء عند المرأة:

طرح العديد من المصادر الأجنبية ظاهرة احتشام المرأة في مجتمع الإيالة الذي وصف في العادة بأنه مجتمع إسلامي محافظ لا مجال فيه لحرية المرأة التي تخضع في العادة إلى سلطة العائلة، ثم مباشرة وفي سن مبكرة جدا يخضع إلى سلطة الزوج²، كما أشارت هذه المصادر أيضا إلى شدة تمسك هذا المجتمع بتعاليم الدين الإسلامي والتي تمنع بشكل صارم إقامة علاقة بين الرجل والمرأة خارج إطار الزواج الشرعي، كما تحرم مختلف الممارسات غير الأخلاقية الأخرى³، وهو ما ذكره سبنسر مؤكدا أن السلوك الجنسي أو المضاجعة نادرا ما تحدث، ففي رسالة وجهها قنصل الولايات المتحدة بارلو Barlow لزوجته سنة 1796 يقول فيها "إن المرأة إذا ارتكبت الزنا فإن القانون يدينها فتوضع في كيس ومعها حجر ثم ترمى في البحر وأحيانا يطلب من الزوج تنفيذ الإجراء القانوني بيده".⁴

ونظرا لتناول بعض المصادر العربية ظاهرة بغاء المرأة بإسهاب قامت بعض الدراسات الحديثة على دراسة هذه الظاهرة بالرجوع إلى الوثائق الأرشيفية التي تخص ما عرف بعقود التوبة بالمحاكم الشرعية للتعرف على حجمها وأبعادها.⁵

وما يلاحظه الباحث في هذا الموضوع أن أغلب هذه المصادر قد أجمعت على أن هذه الظاهرة كانت مرخصة من طرف العثمانيين وخصصوا لها هيئة تشرف على تنظيمها، حيث ورد مصطلح المزوار (Mezzouar) في هذه المصادر على أنه المنظم (بمثابة الشرطي) المخول له ذلك، فمن صلاحياته يحجر النساء الباغيات في منازل خاصة ولا يسمح لهن الخروج منه إلا بإذنه، كما يحضر الصفقات التي تتم مع الرجل الذي يرغب في ذلك وعادة ما تستفيد هذه الهيئة من جزء من المال الذي تحصل عليه

¹ Venture De Paradis, op.cit., p 227.

² Updike Underhill, op.cit., p 183.

³ ج، أوهاينسترايت، المصدر السابق، ص 47.

⁴ وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 119.

⁵ وهو ما قامت به ليلي خيراني، المرأة في مجتمع الجزائر خلال العهد العثماني 1818-1830، دراسة أرشيفية، مؤسسة كوكب العلوم للنشر، الجزائر، 2017، ص 101.

الباغية¹، ومن الإجراءات أيضا تسجيل هؤلاء في سجلات خاصة، ويدفعن الضرائب عن ممارسة هذه المهنة²، والتي ترفض دفع ما عليها من أموال توضع في سجن خاص أو تعاقب بالضرب بالفلقة حتى الموت، وقد قدم الضابط الفرنسي روزيت Rozet إحصاء عن هؤلاء مؤكدا أن عددهم كان يقارب 6 آلاف امرأة مضييفا أنهن كن من مختلف الفئات، حضر، عرب، زنجيات...³، كما أشارت مصادر أخرى أن جزء من عائدات هذه الظاهرة كان يدخل لخزينة الدولة بشكل سنوي وقدر بحوالي ألفين ريال سنويا، كما قدر المبلغ الذي يحصل عليه المزوار بخمسة آلاف ريال.⁴

وفي ذات السياق ذكر بيصونال Pyssonel أن حكومة الداى حسين سنة 1818 قد شجعت على فتح بيوت أخرى خاصة بالمومسات، وقد منع على هؤلاء ممارسة البغاء مع المسيحيين أو اليهود ومن تخالف ذلك ترمى من أعلى مرتفع في البحر أما المسيحي فكان يفرض عليه الدخول في الإسلام⁵، وإلا يحرق حيا وقد تحدث عن ذلك الأسير تيدينا والذي أسرد قصة تعليق أحد المسيحيين من رجليه على باب السجن بسبب مخالفته لهذا القانون.⁶

وقد وصف لنا بفايفر إحدى بيوت البغاء التي دخل إليها بصفته طبيب جاء لإنقاذ الجرحى بعد القصف الفرنسي على مدينة الجزائر، فأشار "أنهن نساء سافرات عديمي الحياء تملأهن تعابير القبح وكثرة الآثام...فراحت الأكبر فيهن سنا تحدثني عن جمالها وحسن ملاحظتها وتعدد لي أسماء عشاقها القدامى...وأنها أصيبت في ساقها كاشفة عن وجهها وكل جسمها..."، فيقول أنه سرعان ما طمأنها عن حالتها وخرج مسرعا⁷، ويضيف بفايفر أن هناك نساء كن يعشن حياة فاسقة، فأردن التكفير عن

¹ Venture de Paradis, op.cit., p 219.

² Genty De Bussy, De l'établissement de Français dans l'Algérie et des moyens d'en assurer la propriété, Vol 1, imprimerie du gouvernement d'Alger, 1833, Tableau N° 101.

³ Rozet, op.cit., p 113.

⁴ Le Roy, Etat général et particulier du royaume et de la ville d'Alger, Hugo Groteux, p 64.

⁵ Pyssonel, op.cit., p 239.

⁶ أحمدية عميراي، مذكرات، المصدر السابق، ص 49.

⁷ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 93.

ذنوبهم عندما مضين إلى أرض المعركة وعلى ظهورهن قرب مملوءة بالمياه لمساعدة المقاومة مشيرا أن عددهن كان كبيرا جدا¹.

ولعل المتتبع لهذه الظاهرة يرجع انتشارها في هذه الفترة إلى الظروف الاجتماعية الصعبة كالفقر المتفشى في المدينة وحالات الإهمال والطلاق وطرد الأزواج لزوجاتهم أو هروبهم من سوء المعاملة، كما أن تشجيع الدولة العثمانية وترخيصها لفتح العديد من بيوت البغاء التي كانت تستقبل الجنود الأتراك من جهة واستفادتها من خلال الضرائب التي تدخل إلى خزينة الدولة كان من عوامل انتشارها كما يعتبر أحد الجوانب السلبية لحكومة العثمانيين بالجزائر.²

ومن الظواهر اللاأخلاقية التي أشارت إليها المصادر الأجنبية وأبدى الكثير منهم استنكاره لها ظاهرة تفضيل بعض العثمانيين للرجال والتي كانت حسب دوطاسي تتم على نطاق واسع، أمام سكوت الدولة عن ذلك، وسرد في ذلك حادثة الشاب البرتغالي سنة 1710 والذي كان عبدا لأحد الأتراك، الذي حاول الاعتداء عليه عدة مرات فقام الشاب بقتل سيده، فحكم عليه بربطه إلى حصان وسحبه في المدينة إلى ان مات بعد أن رفض تغيير دينه والدخول في الإسلام³، وللحد من هذه الظاهرة التي كانت منتشرة بين جنود الحامية الإنكشارية الذين كانوا يعيشون حياة العزوبية والذين قدر عددهم بحوالي 12 ألف جندي، رخصت الحكومة العثمانية لفتح عدد من بيوت البغاء في مدينة الجزائر وبعض مدن الإيالة.⁴

وفي ذات السياق أشار Rozet روزيت أن هذه الظاهرة القبيحة كانت منتشرة بقوة في قصر الداى الذي لم يجد حرجا في اتخاذ بعض الفتية (الغلمان) واعتبارهم من خاصته وقد قلده في ذلك الكثير

¹ نفسه، ص 131.

² Ea. Duchesne, De la prostitution de la ville d'Alger depuis la conquête, librairie de l'académie, imprime de Médecine, Paris, 1853, p p 20-21.

³ De Tassy, op.cit., p 80.

⁴ Renaudot. M, Tableau du Royaume de la ville 'Alger et des environs, Paris, 1830, p p 68-71.

من البايات¹، كما كانت هذه الظاهرة منتشرة أيضا في بعض حمامات المدينة، حيث كان الفتية المكلفين بالتدليك يقدموا خدمات مرفقة من هذا النوع على حد تعبير روزيت Rozet.²

ويفسر دوبارادي انتشار هذه الظاهرة إلى انشغال العثمانيين بالسياسة والحكم وجمع الأموال مما قلص لديهم الرغبة في الزواج والبحث عن النساء والالتزام بتكوين أسرة، فيجدون من الضروري بالنسبة لهم تفضيل أحد الغلمان، ويضيف دوبارادي أنها كانت عادة منتشرة في مدينة الجزائر بين الأتراك خاصة لكنها قليلة الانتشار بين الجزائريين واليهود فهي بالنسبة لهم من العادات القبيحة والمنبوذة.³

¹ Rozet, op.cit., p 114.

² Ibid, p 115.

³ Venture de Paradis, op.cit., p 157.

الفصل الخامس: بعض المظاهر الثقافية في الجزائر العثمانية (العمارة والفنون)

I- العمارة :

1- التأثير العمراني الأندلسي

2- التأثير العمراني العثماني

3- جانب من المظاهر العمرانية

أ- المدينة (مدينة الجزائر أنموذجا)

ب- الجانب العمراني في الريف

II- الفنون

1- الموروث الأدبي

أ- النثر الأدبي

ب- الشعر

2- الموسيقى

3- نماذج من الحواضر الثقافية في الجزائر العثمانية

أ- قسنطينة

ب- معسكر

ج- بلاد الزاب

I- العمران:

يعتبر العمران في الجزائر في الفترة العثمانية نمط من الأنماط الثقافية التي تعد من شواهد التراث المادي الذي اكتملت ملامحه نتيجة وجود روافد حضارية عرفها المجتمع الجزائري منذ نهاية القرن 15م.¹

1- التأثير العمراني الأندلسي:

ترسخت ملامح لنهضة عمرانية ذات تأثير أندلسي منذ التواجد الموريسكي في الجزائر خلال هذه الفترة، فساهم هؤلاء في إدخال نمط العمارة الأندلسية في المناطق التي استقروا بها مثل تنس -دلس، القليعة، شرشال، وهو نمط مستوحى من العمارة التي تركوها في أوطانهم الأصلية في غرناطة، قرطبة وغيرها²، وقد انتشر هذا النمط العمراني في تشييد البيوت المتكونة من الطابق الأرضي ذو الشكل المستطيل فاحتوى على فناء صغير تحيط به أفواس من كل الجوانب تتوسطه عين أو بئر وبعض أشجار الليمون والبرتقال، بينما يشتمل الطابق العلوي على غرف تخصص للراحة والضيافة، استخدم الموريسكيين في البناء الأجر، الطين والحجارة، كما زينوا بيوتهم بالزليج المختلف الألوان.³

ونتيجة للنهضة العمرانية التي أحدثوها في الجزائر ظهرت مدن كانت قليلة السكان* مثل شرشال، القليعة وغيرها، التي بنوا فيها أكثر من 500 دار خاصة بهم⁴، كما كان تأثيرهم في فن العمارة في الجزائر عندما أدخلوا استخدام القرميد لتغطية أسقف المنازل بدل السطوح، كما اعتنوا بالمظهر الخارجي، حيث غطوا واجهاتها بالجير الأبيض فأصبح النمط العمراني السائد في أغلب جهات البلاد⁵، كما ساهموا مساهمة كبيرة في تزويد الأحياء والمنازل بالعيون، حيث يعود لهم الفضل في اكتشاف العيوم بضواحي مدينة الجزائر مثل عين الحامة التي أنشأت من طرف المهندس الأندلسي "أوسطى موسى" الذي قام بإيصال مياهها إلى المدينة على مسافة 48 كلم⁶، ويظهر الطابع الأندلسي أيضا في شكل الأعمدة

¹ علي خلاصي، قبة مدينة الجزائر، ج1، ط1، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص 27.

² فريدة شقرون، قراءات تقييمية لأثر الفن المعماري الأندلسي على الفن المعماري للمغرب الأوسط، مجلة الإمارات للبحوث الأندلسية، عدد 23، 2018، ص 38.

³ ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، المرجع السابق، ص 65.

* كان لهم الفضل في تأسيس مدينة البلدة، حيث اقتطعوا جزء من سهل المتيجة وشيدوا به مسجد جامعاً سنة 1535، ومن ثم انطلق الناس في بناء منازل على النمط الأندلسي. (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 245-246).

⁴ مرمول كرمحال، المصدر السابق، ج2، ص 356.

⁵ ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، المرجع السابق، ص 65.

⁶ نفسه، ص 67.

المتوية التي زينت أغلب منازل القصبة¹، كما أبدعوا في فن بناء وزخرفة المساجد بصورة مماثلة لتلك التي تركوها في الأندلس، فكان مسجد سيدي مدين يشبه في زخارفه الهندسية تلك الموجودة في قصر الحمراء بغرناطة، كما تشابهت المآذن التي شيدت بتلمسان بتلك الموجودة في إشبيلية.²

وفي وصفه لمدينة بجاية ذكر مرمول كرجحال "يوجد بها حصن حصين على النمط المورسكي ذو رونق وجمال وبها عدد من المساجد وعدد من المدارس العتيقة تدرس بها العلوم وتحيط بها البساتين"³.

كما أشار الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان إلى تشابه أغلب منازل مدينة شرشال، لأن أكثرها كان مغطى بالبلاط الملون، وأشاد بنظافتها وحسن مظهرها مقارنة بتلك الموجودة بأوروبا، وقد سعى الموريسكيون إلى بناء نسيج متكامل في المدينة عندما أقاموا تجمعات سكنية منفصلة عن بعضها البعض أغلبها ذات طابع واحد، يتوسطها صحن مكشوف تحيط به حجرات عديدة⁴، والواضح أن الفن الأندلسي الذي ساد في الجزائر خلال هذه الفترة قد اتخذ طابعا جماليا رفيعا تأثر في الأصل بفن القوطيين، حيث استخدمت الزخرفة في القصور، المساجد وحتى المنازل، بأشكال هندسية متناسقة كالنجمة المتداخلة وأشكال مستوحاة من النباتات والأزهار، وقد استخدموا في ذلك مواد متنوعة كالفخار، الخزف، الزجاج، الجص* الجلد.⁵

وقد ساعد امتزاج الفن المحلي بالأندلسي وجود جالية أندلسية ذات مهارات فنية عالية وراقية استقرت في الجزائر منذ القرن 15م، واستمرت عملية التمازج نحو ثلاث قرون، اتخذ في النهاية هذا الفن الجديد إطاره النهائي منذ أواخر العهد الزياني في تلمسان، على عهد أبي حمو موسى الثاني التي أصبحت

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 246.

² محمود طمار، الروابط الثقافية، المرجع السابق، ص 241.

³ مرمول كرجحال، المصدر السابق، ج2، ص 377.

⁴ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 247.

* الجص هو نوع من أنواع الصخور يوجد في الطبيعة بصورة نقية ويسمى أيضا بالجبس الرملي، لا يمكن استعماله إلا بعد رقه حتى يسهل سحقه، يخلط بعدها بالماء ليكتسب صلابة يستخدم في عملية التبليط، فيما عرف بالمجصات. (أنظر العياشي هوراي، المسكن بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التراث، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة 2011، ص 136).

⁵ عبد الجليل التميمي، دراسة جديدة في التاريخ المورسكي، ط1، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2000، ص

بناياتها وحدائقها أشبه بأجمل مدن الأندلس¹، ولعل أحسن صورة لرقى هذا الفن على يد الأندلسيين نجدها بمساجد تلمسان مثل الجامع الكبير وجامع سيدي لحسن، التي تختص بمآثر هندسية جميلة في مجال الزخرفة، النقوش والكتابة²، ومن بين الشخصيات التي اشتهرت في هندسة البناء والنقش في تلمسان أسرة "ابن صارمشق" التلمسانية التي يرجح أنها عائلة أندلسية استقرت بالمدينة، برع منها أحمد بن محمد بن صارمشق الذي بنى جامع العين البيضاء بمعسكر، كما وجدت نقوشه على عدة آثار عمرانية، ومن النقاشين أيضا برع إبراهيم الحركلي الذي نقش الآيات المحفورة في جامع كتشاوة، والمعلم "البلاشي" الذي نقش على باب جامع علي بتشين.³

وفي وصفه لتلمسان ذكر حسن الوزان "توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية... وبها حمامات وفنادق على النمط الأندلسي، الاسواري غاية الارتفاع، تضم قصورا ببساتينها وسقاياتها وكلها مبنية بكامل العناية وبأسلوب فني رائع..."⁴.

وتظهر مساهمة الأندلسيين أيضا في الدور الذي قام سيد حمد لكبير وهو أحد الأندلسيين من ذوي الصلاح والتقوى والذي أقطعه خير الدين بربروس أراضي في سهل متيجة، استقر بها وارتبط بالمصاهرة مع قبيلة أولاد سلطان المقيمة فيها، فأسس مدينة جديدة أطلق عليها البليدة بعد بنائه لمسجد، فرن وحمام كانت بمثابة النواة الأولى للمدينة، كما اعتنى بالزراعة وأجرى المياه في القنوات، كما أحدث نهضة عمرانية فريدة، فبنى المنازل وسط الحدائق والحقول بها نوافذ تطل على الخارج وهي غالبا ما تكون صغيرة ومحمية بالشبابيك، وتفنن في الزخارف والمجصات والنقوش التي تغطي الجدران، كما بلطت أرضية المنازل بالزليج ذو الأشكال الهندسية والألوان المبهجة.⁵

¹ محمد طمار، المرجع السابق، ص 239.

² حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 71.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 449.

⁴ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 19-20.

⁵ مراد لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1518-1830)، مجلة الرواق، ع 3، جوان 2016، ص 56-58.

2- التأثير العمراني العثماني:

ذكر ابن ميمون أن النهضة العمرانية، التي ميزت القرنين 16م/17م تعود إلى إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، وتسهيل توافد عدد كبير من الأندلسيين إليها¹، إذ يبدو أن هؤلاء قد وجدوا دعماً ومساعدة من طرف الحكام العثمانيين مكنهم من تعويض ما ضاع منهم وما تركوه في الأندلس من بيوت، أملاك، أراضي... لذلك ساهموا مساهمة فعالة في مختلف الجوانب ولا سيما الجانب العمراني للمدن التي استقروا فيها²، ومن جهتهم اهتم العثمانيون منذ استقرارهم بمدينة الجزائر وبعض الحواضر بتشييد قصور فخمة ومباني مدنية وعسكرية مستوحاة من النمط الإسلامي، لا سيما منذ القرن 17م نظراً لازدهار التجارة البحرية مع المدن الأوروبية خاصة مع إيطاليا وإسبانيا، وتجلي ذلك بوضوح على حياة البذخ والترف في القصور التي شيدها³.

خصت الكتابات الأجنبية عامة جوانب هامة لوصف المظاهر العمرانية وحالة الترف والبذخ لحكام الجزائر خلال هذه الفترة، ولا سيما فئة الجواسيس الذين كتبوا تقارير وصفية دقيقة، باعتبار أن المظاهر العمرانية تقدم صورة واضحة عن الحالة السياسية، العسكرية والاقتصادية للإيالة، كما أنهم أشاروا بشكل مفصل إلى الكثير من النقاط الاستراتيجية ووصف للعمارة العسكرية التي شيدها العثمانيون، كما فصلوا في وصف مختلف مظاهر الحياة داخل قصور العثمانيين، فنجد الرحالة المغربي ابن زاكور قد عبر عن انبهاره بمدينة الجزائر وعمارتها بقوله "وأنة لما منّ عليّ الولي الكريم ذو الفضل السابع العظيم بدخول مدينة الجزائر ذات الجمال الباهر... ما شئت من حدائق كالنمارق وقصور نوع من المحاسن عليها مقصور والتي أعارها كل ذلك المرآى الجميل وأصرها فضية الصباح..."⁴.

3- جانب من المظاهر العمرانية:

أ- المدينة (مدينة الجزائر أنموذجاً):

من أبرز المعالم العمرانية التي تناولتها الكتابات الأجنبية:

¹ ابن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 85.

² عبد الجليل التميمي، دراسة جديدة في التاريخ المورسكي، المرجع السابق، ص 84.

³ عبد العزيز محمد الأعرج، الزليخ في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1990، ص 17.

⁴ ابن زاكور الفاسي، المصدر السابق، ص 40.

القصة:

ورد الحديث عنها بشكل دقيق لدى أغلب هذه المصادر باعتبارها النواة السياسية والعسكرية بمدينة الجزائر، يذكر مورغان بأن قصة مدينة الجزائر قد تم بنائها من طرف ملوك تلمسان لكي يقيموا فيها، وعندما عين سالم التومي حاكما للمدينة بني قصره بداخلها لكنه لم يتمتع به طويلا.¹

ومن جهته تحدث دوهايدو عن شكل القصة في القرن 16م بأنها قلعة ذات برجين يتكونان من ثلاث طوابق، كان الأول على مدخل القلعة والثاني على المساحة التي أنشئ عليها مصنع البارود، أما المحيط العام فهو بطارية تظهر بها فتحتين للمدفعية تشرف على الفحص من الناحية الشرقية.²

وأكدت أغلب المصادر أن القصة قد بنيت على مراحل وأحيط بها سور يفصل بينها وبين المدينة يمتد م الشمال على الشرق بحوالي مئة قدم ينتهي بقلعة مهيبة بشكل غير متناسق وفتحات صغيرة تظهر فيها حوالي ثمان قطع من المدافع الصغيرة³، توجد بداخل القصة أكبر المباني التي تظهر في شكل كتلة بيضاء موحدة تظهر عليها مجموعة من الشرفات وفتحات المدفعية، وهي بوصف العديد من المصادر الأجنبية بمثابة مظهرا عمرانيا شديدا يشبه بمدينة صغيرة داخل مدينة كبرى⁴، تضم قصر الحاكم ومرافقه، قصور البايات ومرافقها، قصر الأغا، أجنحة خاصة، متنزهات، مساجد، عيون، حمامات، وخزانات للمياه، كما تضم عدد كبير من موظفي الدولة، الخدم والحراس، حيث خصصت ثكنة خاصة مكلفة بحراسة القصة ومراقبة ممرات وشوارع المدينة التي تتكون من مجموعتين تتكلف كل مجموعة المكونة من 32 جنديا بالمدامومة على الأسوار لمدة ستة ساعات، فتلجأ عادة لغرف علوية للاستراحة.⁵

* حسب التعاريف المتفق عليها فالقصة هي جوف القصر وقيل القصر، وقصة البلد مدينته وقيل بمعظمه والقصة أيضا هي جوف الحصن بني فيه ناء هو أوسطه، القصة أيضا القرية وقصة القرية وسطها، كما تعرف بأنها أعلى نقطة محصنة من المدينة وبها قصر الحاكم. (للمزيد أنظر علي خلاصي، المرجع السابق، ج، ص 47).

¹ Joseph Morgan, op.cit, p 261.

² De Haydo, topographie, op.cit, p 58.

³ De Haydo, topographie, op.cit, p 509.

⁴ علي خلاصي، المرجع السابق، ص 57.

⁵ Venture De Paradis, op.cit., p 63-64.

- قصر الحكم:

يطلق عليه أيضا منزل الداى أو قصر "الجنيئة"، وقد تنوعت المشاهد التي قدمها الرحالة الأجانب في وصفه كل حسب مكانته وذوقه، المؤكد أن هذا القصر يقع في وسط الشارع الرئيسي*، وهو من أكبر مباني القصبية حظوة أين كان الداى يستقبل الوفود الأوروبية ويدير الشؤون السياسية، العسكرية، والإدارية للبلاد، كما كان الرياس يعرضون فيه غنائمهم البحرية، ويستقبل فيه الدنوش، وهو أيضا من أقدم المباني في مدينة الجزائر بعد الجامع الأعظم¹، وصفه الأب دان بأنه أجمل مباني المدينة، يوجد على طابقين، طابق سفلي توجد ساحتين الأولى أوسع من الثانية محاطة بأروقة وممرات تتم في إحدى قاعاته جلسات الديوان².

ومن جهته أطلق عليه هايدو القصر الملكي، وقدم وصفا دقيقا للحديقة الجميلة التي كانت تتوسط القصر، كما أشار إلى وجود رواقين صغيرين، الواحد فوق الآخر مدعومين بأعمدة كثيرة رخامية وبصفتين مزدوجين مزخرفين بفسيفساء جميلة³، تتوسط الحديقة نافورة من الماء، يذكر روزيت بأن الماء الذي كان ينبعث منها يرتفع مجتمعا ثم ينزل في حوض من الرخام الأبيض وتتكون الحديقة (الجنيئة) من أشجار الليمون، البرتقال، الرمان، العنب⁴، وبها أقفاص لبعض الحوينات المتوحشة مثل الأسود، النمر، والظباء، كما توجد بالحديقة مخازن بها ملابس الجنود، ملابس العبيد وأسلحة⁵.

ومن أبرز الأوصاف التي تناولت قصر الداى وأدقها ما قدمه أسير الداى الأمريكي كاتكارت، حيث قدم معلومات غزيرة، عندما أشار أن القصر قد مر في بنائه بعدة مراحل، حيث تم تشييده على فترات، بني على مساحة تقدر بأربعة آلاف متر مربع، تقع البوابة الرئيسية للقصر على الطريق الكبير وعلى جانبي البوابة مقاعد الحراس (النوباجية) وعددهم حوالي إثنان وثلاثون حارسا وتعلو البوابة شرفة سياج من القضبان لمذهبة في وسطها أعمدة بها رايات، وهناك تجلس الفرقة الموسيقية لتعزف الموسيقى

* في ملتقى الشارعين الرئيسيين وهما شارع باب عزون وشارع باب الواد، وبذلك مركز الجذب الحيوي، إذ يحيط به معظم الدور الحكومية مثل دار السكة ومقر بيت المال، المحكمة الشرعية، بالإضافة إلى ثكنة للجيش الإنكشاري.

¹ علي خلاصي، المرجع السابق، ص 167.

² P. Dan, op.cit, p 88.

³ De Haydo, Topographie, op.cit., p 220.

⁴ Rozet et Corette, op.cit., p 28.

⁵ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 95.

أيام بجمعة والأعياد¹، والباب مصنوع من الخشب مغطى بصفائح من الحديد مدعمة بزخارف بمسامير ذات أشكال هندسية يصل ارتفاعه حوالي أربع أمتار يعلوه لوحا من الحجر كتبت عليه أبيات شعرية باللغة العثمانية، كتبت بخط نسخي شرقي في خمسة أسطر، مفادها أن علي باشا قد قام بتجديد باب القصر على يد المعلم مُجد أحمد سنة 1227 هـ (1812-1813م)²، وعند تجاوز مدخل القصر إلى اليسار توجد المداخل التي تؤدي إلى داخل القصر أين توجد ساحة في الجهة الجنوبية تحيط بها ثلاثة أروقة مرتبة بالزليج، ذات اقواس مدعمة بأعمدة من الرخام الأبيض.³

كما أشار القنصل فاليار وهو من الشخصيات التي كانت تزور القصر بشكل دائم أن مدخل القصر كان مزينا بالفؤوس والرماح الصغيرة والبنادق وعلى جوانب الساحة توجد أروقة مدعمة بركائز وهناك آرائك للجلوس، كما توجد ساعات حائطية على الجدران⁴، وإلى اليسار يوجد جناح الداى يصعد إليه بواسطة سلالم ضيقة جدا، وفي نهاية الساحة توجد قاعة الاستقبال التي تزين بعدد من الأعمدة المرمرية وبها مرايا كثيرة جلبت من البندقية، يوجد بها مقعد الداى، بني من الحجر ومغطى بجلد لأسد ووسادة يتكى عليها⁵، وهناك مقاعد حجرية يجلس عليها كبار الشخصيات مغطاة بقماش طرز ومزخرف باللون الأحمر، القرمزي، ويضيف مورغان قائلا "يحتل الداى مكانا مرتفعا من القاعة الكبرى، وهو مشغول طيلة اليوم بالاستماع والحكم في الدعاوي والعرش الذي يعتليه مبني من الآجر، وجزء منه من الحجارة، وهو مغطى بزربية، وبعد تناول وجبة الغداء يعود ثانية إلى منصبه حتى العصر بالقرب منه يجلس أربعة كتاب (خوجات) لكل منهم دفتر خاص، تسجل فيه القرارات..."⁶، وإلى يمين الساحة توجد خزينة المال، التي يجرسها 32 حارسا كما يوجد في الدور الأرضي زريبة للغنم ومخزن للحطب⁷، أما الطابق العلوي فإذا استثنينا المطابخ وجناح الحریم، نجد هذا الطابق يتكون من تسع غرف كان بعضها يستخدم كمطعم للداى والوزراء، حيث ذكر دوبارادي أن الأكل يقدم لزوار القصر من

¹ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 90.

² بدرالي بلقاضي، مصطفى بن حموش، تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولوكس، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 236-235.

³ D'Alonzo Cannon, op.cit., p 91.

⁴ CH. Vallière, op.cit., p 101.

⁵ D'Alonzo Cannon, op.cit., p 93.

⁶ J. Morgan, op.cit., p 332-334.

⁷ Thomas Hees, op.cit., p 93.

الفجر إلى العصر، كما تقدم القهوة ثلاث مرات في اليوم ويشرف على ذلك عدد من العبيد من الأسرى المسيحيين قدر عددهم بـ 40 أسيرا.¹

وفي وصفه لجناح الداوي يذكر روزيت أن الغرفة كانت تحتوي على أسرة كبيرة جدا ألصق بأعمدتها قطع من القماش الشفاف تحيط بالسرير كله، تزين الغرفة بساعات دقاقة، وعدد من المزهريات صنعت من الخرف، إضافة إلى وسائل وآرائك، صناديق وساعات إنجليزية ومرابا، وأسلحة فرنسية الصنع²، كما زينت جدران الغرفة بزخارف ملونة على الطرازين الموريسكي والعثماني في أشكال مختلفة من الأزهار والنباتات³، كما يوجد في هذا الطابق حمام الداوي وهو بحسب وصف روزيه مكون من أربع قاعات تصل إليها عبر ممر وهي متصلة ببعضها البعض مغطاة يقطع من الرخام ومكسوة بمربعات الزليج، نجد في كل قاعة حنفية يسيل منها الماء داخل حوض من الرخام الأبيض، أكبرها قاعة الاستراحة (المحرس) ومن أهم أجزاء الحمام (الفرناق) الذي يتكون من الفرن والخزانين.⁴

وعموما فإنه وبحسب ما ذكره هايدو فإن القصر لم يكن أحسن من قصور أمراء وملوك أوروبا لخلوه من مظاهر الفخامة، إذ أنه في كثير من تفاصيله يشبه الدور العادية في المدينة، كما لم تكن للواجهة الرئيسية للقصر أي زخرفة أو عناصر فنية مميزة.⁵

- القصور والمنازل:

تبدو منازل مدينة الجزائر بحسب الوصف الذي قدمه الأجانب بأنها بنايات متشابهة، لا يمكن تمييزها عن بعضها البعض، تبدأ من ساحل البحر وتندرج إلى سفح الجبل في شكل هندسي فريد من نوعه تقابل البحر بأسقف ونوافذ⁶، يمكن أن نميز من بينها بعض القصور ذات الهندسة الأوروبية التي شيّدت من طرف بعض الأعيان والرياس، ويضيف الأب دان بأن هذه الأبنية تظهر من بعيد مطلية

¹ Venture De Paradis, op.cit., p 274.

² Rozet, op.cit., p 28.

³ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 95.

⁴ Rozet, op.cit., p 31.

⁵ De Haydo, Topographie, op.cit., p 221.

⁶ مرمول كرينال، المصدر السابق، ص 363.

بالجير من الداخل والخارج، في شكل مربع يبدو جزئها العلوي أقل من جزئها السفلي في شكل يكاد يكون هرمياً¹، فشبها دو هايدو نظراً لتلاصقها ببعضها البعض بحجة الصنوبر².

وعن مواد البناء أشار دو هايدو (القرن 18م) إلى استخدام الحجارة والآجر، تتوسط المنزل ساحة مربعة كبيرة تحيط بها أربعة أروقة مدعمة بأعمدة وبها غرف ذات أبواب تعلو بعلو الرواق لتلامس الألواح لها نافذتين تطلان على الرواق تساعد في دخول الضوء إلى الغرفة³، تعلو هذه المنازل سطوح تستخدم كمتنزه للرجال والنساء توجد بها حديقة صغيرة وشرفة مقابلة للبحر، يمثل المتنفس الوحيد للنساء المدينة وهن يشاهدن رياس البحر هم يذهبون ويعودون بالغنائم إلى الميناء، وقد نفى دوطاسي جود نوافذ تطل على الطريق ما عدا بعض النوافذ الصغيرة والمشبكة توجد في أعلى المبنى لتعطي بعض الإضاءة⁴.

وقد سجل الرحالة الألماني هابنسترايت عن زيارته للمدينة سنة 1732 وصفا للكثير من منازلها، وهندستها العمرانية، حيث تحدث عن الرواق الذي يتصل بمدخل المنزل (السقيفة)، والغرف المستطيلة التي تزين جدرانها بصور لأوراق الأشجار وأشكال المنمنمات المحفورة على الجص⁵، وفي حديثه عن منازل المدينة ذكر شالر أنها أجمل ما رأى على شواطئ البحر المتوسط، مقدما وصفا للمنزل الذي كان يقيم فيه وهو لا يختلف في مخططه عن باقي منازل المدينة⁶.

ومن جهته أضاف دوبارادي أن أسفل المنزل كان يبني بالحجارة وأعلاه بالآجر ويغطي كله بالكلس، والخشب مشيراً إلى وجود حوالي 500 منزل في المدينة مبنية بنفس النمط الهندسي، بحيث عندما ترى واحدة منها كأنك تراها كلها⁷.

أما الأسير دراندا فوصف مدخل باب المنازل بأنه كان في شكل قوس قليل الارتفاع تحتم على الداخل إليها بالأنحاء ويعود ذلك في رأيه لمنع دخول الخيالة الأتراك، ووصف السقيفة بأنها ردهة صغيرة

¹ P. Dan, p.cit., p 88.

² De Haydo, op.cit., p 47.

³ Ibid, p 104-105.

⁴ Ibid.

⁵ هابنسترايت، المصدر السابق، ص 37.

⁶ وليام شالر، المصدر السابق، ص 92.

⁷ Venture De Paradis, op.cit., p 110.

تؤدي إلى ساحة المنزل، مضيفاً أن من عادة الجزائريين وضع كرسي أمام باب كل غرفة في شكل وسادة أو فراش للجلوس عليه، كما تعلق في بعض المنازل أسلحة لتزيين المكان.¹

وفي وصفه لمنزل المدينة تحدث الأسير كاتكارت عن بعض منازل الأثرياء (أو القصور)، فأشار بأنها كانت تشيد بمواد، تجلب من إيطاليا وإسبانيا وهولندا مما يعطيها مظهر غاية في الجمال والفخامة، فالبلات كان من المرمر والأعمدة من الرخام²، ويزخرف السقف بنقوش الزهور وبعض النباتات والفواكه، كما استخدموا الزجاج الملون في النوافذ، أما الأبواب فتزين بنقوش وتطلى حواشيها بالذهب.³

وعلى ضوء ما سبق يمكن القول إن التصميم العمراني لمنزل وقصور الإيالة خلال هذه الفترة كان في عمومها بسيط وخالي من التعقيد يبدأ بمدخل المنزل أي السقيفة، تليه الساحة الداخلية التي تعتبر مصدر الإضاءة في السكن وتضمن تحرك أفرادها بحرية⁴، تتزود هذه المنازل أيضا بمصدر للمياه متمثل في بئر أو صهريج مصنوع من الطين، إذ يحرس سكانه على نظافة المكان، حيث يطلى المسكن من الداخل والخارج بشكل دائم⁵، والملاحظ أيضا أن غرف هذه المساكن ضيقة وذات أبواب طويلة ونوافذ صغيرة مسيجة عادة بالحديد ووسط هذه البناءات تظهر قصور بعض كبار شخصيات المدينة وهي مزينة ومزخرفة بالمرمر والخزف المختلف الألوان، وبأعمدة، وأقواس متناسقة، وجميلة.⁶

- الشوارع والأحياء:

سجل القنصل الفرنسي فاليار في مذكراته أن المشاهد لمدينة الجزائر من بعيد يترك انطبعا جيدا من خلال مظهرها الخلاب، الفريد من نوعه، غير أنه يصطدم بغير ذلك حينما يدخل إلى المدينة، حيث يصطدم بوجود شوارع ضيقة نتنة ومظلمة، حتى أن الفارس عند مروره فيها يلامس الجدران بركبته.⁷

¹ E.D Aranda, op.cit., p 97.

² جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 97.

³ نفسه، ص 96.

⁴ D'Alanzo Cannon, op.cit., p 59.

⁵ De Haydo, op.cit., p 8.

⁶ جيمس كاتكارت، المصدر السابق، ص 96.

⁷ CH. Valière, op.cit., p 101.

بالرجوع إلى كتابات القرن 16م نلمس نفس الملاحظة لدى دو هايديو ونيكولاس دي نيكولاي اللذان وصفا شوارع مدينة الجزائر وممراتها بأنها كلها ضيقة جدا¹، باستثناء الشارع الكبير الذي توجد به السوق والعديد من الدكاكين ويمتد من باب الواد إلى باب عزون وفي وصفه لهذا الشارع ذكر نيكولاي أنه شديد الاكتظاظ بالمارة تكثر فيه الحيوانات.²

ومن جهته عبر دوطاسي عن صعوبة التجول والمرور عبر هذه الطرق والأحياء نظرا لضيقها وكثرة الجمال والخيول والبغال المحملة، وهي مصطفة وملتصقة بالجدران ويزداد الأمر سوءا عند مرور الجنود الأتراك، حيث يتوقف الجميع والانتظار بسبب طباعهم الخشنة ومعاملتهم السيئة³، ويضيف أن الطريق الرئيسي للمدينة يمتد من الشرق إلى الغرب وتوجد به دكاكين وسوق للحبوب والمواد الغذائية.⁴

ويرجح دوبارادي حالة الوساخة التي تسود هذه الأحياء إلى أن المنازل كانت تضع فضلاتها وقماماتها بجانب باب المسكن، كما أن التصاق المنازل ببعضها البعض يجعلها مظلمة، حتى أن السير بين ممراتها يأمن التعرض للأمطار هذا إضافة إلى فضلات الحيوانات التي تملأ هذه الممرات.⁵

وقد فسر الطبيب بايصونال ضيق الشوارع إلى طبيعة النمط العمراني العثماني الذي يسود أغلب المدن العثمانية الذي يقوم على استغلال أغلب المساحة في الداخل أكثر من الخارج⁶، بينما يرجح البعض الشكل الجغرافي للمدينة والتي عبارة عن تل مرتفع تحيط بها الأسوار من كل الجهات تجعلها مغلقة ضمن مساحة محدودة لذلك استغلت أغلب المساحة في تهيئة المنازل من الداخل أكثر من الخارج⁷، كما أن عدم وجود وسائل مواصلات (عربات وغيرها) واستعمال السكان للدواب جعل الأمر لا يستدعي

¹ De Haydo, op.cit., p 47.

² Nicolas de Nicolay, op.cit., p 17.

³ De Tassy, op.cit., p 102.

⁴ D'Alanzo Cannon, op.cit., p 64.

⁵ De Paradis, op.cit., p 108.

⁶ Payssonel, op.cit., p 108.

⁷ Pasquali Egenéne, Evolution de la rue musulmane d'El-djezair, documents Algériens, série culturelle, N° 75, 1955, p 08.

توسعة الشوارع، وهناك من رجح أيضا الضغط السكاني والجانب الأمني إذ عادة ما تتعرض المدينة لاعتداءات خارجية، وزلازل متكررة.¹

ومن جهته تحدث شالر عن أحياء المدينة بأنها كانت منفصلة عن بعضها البعض يغلق أغلبها بعد صلاة المغرب، يشرف على حراستها ليلا إلى جانب الجنود الإنكشارية فئة البساكرة، إذ يمنع التجول ليلا في هذه الأحياء إلا للضرورة ويكون يحمل مصباحا مشعلا خاصة بالنسبة للمسلمين والمسيحيين.²

وعموما فإن الملاحظ لتخطيط مدينة الجزائر وأغلب الحواضر خلال هذه الفترة يلاحظ أنه كان مقسما إلى مناطق عمرانية تتوسط المدينة وهي تقسم بدورها إلى أحياء متداخلة مع بعضها البعض، بحيث يصعب تمييزها، يوجد في كل حي عدد مختلف من المنازل والأزقة، كما أن لكل حي مرافق خاصة به من مساجد، حمامات، أفران، طاحونات، عيون، تنتهي كل الطرق والأزقة الضيقة لهذه الأحياء إلى الطريق الرئيسي الذي يعتبر مركزا للنشاط الاقتصادي والإداري، كما توجد أيضا ساحات عامة تسمى بالرحبات التي تعج عادة بحركة الناس³، والملاحظ أيضا أن أغلب الممرات كانت تستمد أسمائها من منشآت دينية أو مرافق عامة (حمامات، مقاهي)، أو أسواق، لم تكن طرق هذه الأحياء كلها مبلطة، بل أن الكثير منها مغطى بالتراب فتصبح سيئة جدا ويصعب المرور فيها بعد سقوط الأمطار⁴، وعلى ضوء كل ذلك وصفت أغلب المصادر الأجنبية المدينة بالفوضى العمرانية.

ب- الجانب العمراني في الريف:

ينقسم الريف خلال الفترة العثمانية والتي يضم معظم سكان الإيالة إلى فحوص المدن، القرى والأوطان، وهي تجمعات سكانية منتشرة في المناطق التلية، الهضاب، المناطق الجبلية، وكذا الصحراء.⁵

¹ Kaddour M'HAMSADJI, EL Qaçba , zemân (la Casbah d'Alger, autrefois) Tome 1, office des publications universitaire, Alger 2007, p 177.

² وليام شالر، المصدر السابق، ص 97.

³ Kaddour M'HAMSADJI, op.cit., p 96-98.

⁴ Albert Devoulx, Les édifices, op.cit., p 241.

⁵ L'Abbé Edmond Lambert, op.cit., p 225-233.

- الفحوص:

الفحص هو ضاحية المدينة أو المكان الموجود خارج أسوارها¹، ويضم مجموعات سكنية موزعة في شكل أحياء يسيرها قائد الفحص بالتعاون مع وكلاء الأحياء، وكل حي مكون من عدد من الأحواش وهي ملكيات زراعية تشمل في الغالب منازل راقية تابعة لبعض أثرياء المدينة، إضافة إلى قرى ومداشر صغيرة يسكنها الفقراء.²

وقد أشار الطبيب شو Show أن الهضاب والأودية بمدينة الجزائر كانت مغطاة بمنازل ريفية وحدائق، حيث يمض أثرياء المدينة فصل الصيف، وهي منازل مطلية بالجير تحيط بها الأشجار المثمرة ويضيف "أن هذه المنازل كانت تعكس المستوى الاجتماعي لمالكها وخاصة الأثرياء الذين كانت تتوفر لهم كل وسائل الراحة والفخامة كما والحال في قصور أوروبا تماما..."³، كما هيئت بيوت الفحص في شكلها العمراني لتكون مصدر للطمأنينة، الهدوء، والمنظر الجميل فهي بنايات تتوسط الحدائق والجنان فلا تقابلها أو تواجهها بيوت أخرى مثلما هو الحال في المدينة، لذلك تكثر فيها النوافذ التي تطل على الخارج مسيجة بالحديد لحماية المنزل من اللصوص، يوجد عند المدخل سقيفة مزودة بمصطبة من الزليج تؤدي إلى فناء كبير وحديقة بها مختلف الأزهار والأشجار المثمرة. وحوض من الماء العذب، يوجد بها رواق طويل به عدد من الغرف المضيفة، إذ يأتيها الضوء من النوافذ الخارجية، كما يزود المنزل بغرف للخدم ومطابخ للمؤونة، وكذلك قبو (دهليز)، شيدت أغلب هذه البنايات بالرخام والفسيفساء والزليج⁴، وزودت بتأثيث جيد من أفرشة حريرية، مرايا، ساعات حائطية، وزجاج بمختلف الألوان، قدرت أغلب المصادر عدد هذه الإقامات الريفية بحوالي ألفين حديقة في فحص مدينة الجزائر وحدها.⁵

¹ هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج1، ص 169.

² L. Rinn, le Roy d'Alger sous le dernier Day, Ed typographie Adolph Jourdan, Paris, 1900, p 32-35.

³ Thomas Show, op.cit., p 303.

⁴ علي خوجة، فحص مدينة الجزائر وجنانه، دراسة منشورة ضمن كتاب القصة الهندسة المعمارية وتعمير المدن، ديوان رياض الفتح، ط1، الجزائر، 1984، ص ص 41-46.

⁵ De Haydo, op.cit., p 231-232.

حيث أشار دوهايديو إلى كثرة المنازل الريفية، فالكثير من السكان كانوا يملكون ممتلكات ومزارع جميلة في سهول متيجة، كما أشاد الاب دان بجمال طبيعة فحص مدينة الجزائر في خصوبة أرضه وإنتاجه الوفير بمختلف أنواع الثمار والخضرة الدائمة للمنطقة طوال أيام السنة.¹

وقد قدمت السيدة بروغنتون "Broughton" وصفا لهذا الفحص نظرا لوجود إقامات خاصة بالقناصل الأجانب عرفت بوادي القناصل La vallée des consuls قائلة: "أن المتجول به يستمتع بعبق الأزهار والورود البرية التي تملأ المكان فتفوح رائحة الزعتر والريحان، يزيدا جمالا أشجار الليمون والبرتقال، الرمان فهي تشبه بجمالها الجنان..."²، فكانت حديقة القنصل الفرنسي على عهد دوطاسي كثيفة، الأشجار يتمتع بها وقت القيلولة على الأسرة الهزارة والأجمل في ذلك وجود بئر في الوسط ذات مياه باردة وعذبة، تتدلى فيها زجاجات الماء والخمر لتحافظ على برودتها.³

- المناطق الريفية:

تنتشر العديد من القرى في جبال منطقة القبائل والأوراس، تتسم هندسة منازلها بالبساطة، تبنى بالحجارة أو الطوب وتطل على بالطين، وقد أشار شلوصر إلى اختلافها من حيث إمكانيات، كل قرية وطرق أساليب العيش ففي حديثه عن منطقة سيباو يقول بأنها كانت قراها محصنة، هوائها نقي، بيوتها مبنية بالحجارة على الطريقة الأوروبية تحيط بها قرى وبساتين وغابات، الزيتون، والبيوت مؤثثة بشكل مريح ولها حوش مخصص للماشية⁴، إلا أن أغلب هذه المناطق (المداشر) كانت تتكون من أكواخ مبنية في معظمها بالطين وصفها لامبير بأنها بيوت ضيقة في وضعية متدهورة لا تتجاوز مساحتها ثلاثة أمتار، عرضا على أربعة أمتار طولا، داخل هذه المساحة الصغيرة تتجمع العائلة كلها يعيشون إلى جانب ماشيتهم من الأغنام والماعز ودجاج، يرتفع البيت بأعمدة خشبية قليلة الارتفاع قد يلامس السقف قامة الرجل، باب المنزل عريض وغير محكم الإغلاق مفتوح على مساحة داخلية ضيقة منخفضة ومفتوحا طوال اليوم⁵، ومن ملحقات البيت الريفي غرفة خاصة أو ما يعرف بالمطمور تخصص لتخزين المواد

¹ P. Dan, op.cit., p 87.

² Zakia Zahra, op.cit., p 176.

³ De Tassy, op.cit., p 125.

⁴ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 99.

⁵ L'Abbé Lambert, op.cit., p 43.

الغذائية مثل الشعير، الزيت، الزبدة... في قلل أو جرار فخارية، وقد عرف روزيه المظموور بأنه حفرة مبنية بالحجارة تجمع فيها مؤونة العام، كما وصف هذه المنازل بأنها ضيقة، تنبعث منها روائح كريهة¹، وعلى عكس الاكتظاظ الذي تعرفه المدن فإن هذه التجمعات الريفية تكون متفرقة ومتباعدة، وعادة ما يكون داخل الدشرة الواحدة عدد قليل من المنازل يظهر فيها المسجد غالباً مهندسة متميزة عن باقي بنايات القرية.²

- القرى الصحراوية:

تجمع القرية الصحراوية بين الاستقرار والترحال فالمستقرة منها يطلق عليها "الواحة"، ففي وصفه لواحة تقرت ذكر الرحالة الألماني هاينريش بأها ذات بيوت تشيد عادة من الطين أو الطوب يحيط بها عدد من أشجار النخيل، وآبار من المياه، وهي بمثابة مدن صغيرة، تنسب كل قرية إلى قبيلة من القبائل ويضيف أن واحات واد ريغ كانت كثيرة³، فقريه عين ماضي كانت محاطة بأسوار لها بابان يشرف عليها مقدم الزاوية التيجانية، كما توجد بها مكتبة كبيرة وحمام يقع وسط البلدة⁴، وفي رحلته الحجية سنة 1152هـ/1739 ذكر الرحالة المغربي الدرعي أمثلة عن هذه القرى فقال "وصلنا بشار وبها واد عذب المياه فيه نخيل وقرى متقاربة... ونزلنا بالقنادسة وهي بلاد ذات نخيل وأشجار... وذات قرى كثيرة وفواكه ترخص فيها الثياب وفيها قباب شيوخ وزرهم تحط بركاتهم... وأخلى الركب كالعادة سباقه ديارهم ووجدنا جماعة وافرة منهم..."⁵.

ومن جهته ذكر لا مبير نماذج من القرى الصحراوية لبعض القبائل العربية التي تكون من مجموعة من الخيام، تتوسطها خيمة زعيم القبيلة⁶، وهي منطوية بشكل جعلها ترتفع عن باقي الخيام الأخرى، حصة تميزها كل خيمة خاصة بعائلة تتميز عادة بساطة العيش والترحال المستمر بحث عن الماء.⁷

¹ Rozet, op.cit., p 17.

² هاينريش فون مالتسان، ج2، المصدر السابق، ص 102.

³ نفسه، ص 131.

⁴ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص 252.

⁵ الدرعي، الرحلة الحجازية، ص 58-61.

⁶ L'Abbée Lambert, op.cit., p 333.

⁷ Laugin De Tassy, op.cit., pp 39-45.

II- الفنون:

1- الموروث الأدبي:

يقول أبو القاسم سعد الله واصفا حال الحياة الأدبية في الجزائر خلال الفترة العثمانية "إن عهد الأتراك في الجزائر لم ينجب أدبيا بارزا يغشى بأدبه بلاطات السلاطين ومجالس الطرب واللهو... كما أن الأدب اختلط بالتاريخ كما هو عند ابن القنفذ واختلط بالتصوف والمدائح النبوية، كما هو الحال عند الحوض"، ويسهب قائلاً "...ومن الغريب أن نتحدث عن التأثير الأندلسي في الحياة الاجتماعية والثقافية ولا نجد طريقة أندلسية جزائرية في الأدب تميز بها القرن التاسع الهجري، القرن الخامس عشر ميلادي، لقحت فيها قرائح الأندلسيين ومواهب الجزائريين"¹.

فيبدو أن هذا الفن لم يكن بنفس الروح التي كان عليها أيام بني زيان الذين أولوا الفنون عامة أهمية، حيث احتضنتها بلاطاتهم وأجاد أدباءهم في ذلك نبيل الحظوة والجوائز.²

وفي ذات السياق يشير سعد الله أن الكتابات الأدبية والشعرية التي وجدت خلال هذه الفترة لم تجمع أو تنشر أو تحقق فأعمال كل من المنداسي، ابن عمار والمقري، المنجلاتي وابن سحنون وابن الشاهد وغيرهم مازالت أغلبها غير معروفة، وما عرف منها سوى بعض الأبيات والقصائد ورد ذكرها في بعض المصادر التاريخية أو الفقهية أو تفرقت بين الوثائق والمخطوطات³، إذ توجد إشارات أيضا في منشور الهداية لعبد الكريم الفكون وكتاب البستان لابن مريم أخبار عن شعراء تلمسان وقسنطينة الذين عرفوا بجودة شعرهم وكثرته⁴، ويذكر العياشي أن الفكون قد فرغ من تأليف ديوانه في الثالث والعشرين من جمادى الآخر من 1031 هـ أورد منها أبياتا في رحلته والتي كانت على قافية همزة اللام والياء⁵، وفي العموم رجح العديد من الأسباب لحالة الركود التي عرفتتها الحياة الأدبية لعل أبرزها معرقات اللغة أو ما وصفه سعد الله التشردم اللغوي فالحكام الأتراك لم يكونوا يفقهون العربية ولا يتدقون آدابها، إضافة إلى ضعف مستواهم الثقافي، حيث سيطرت اللغة العثمانية في الدواوين والمجالس الرسمية، كما ساهمت المركزية

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 69.

² محفوظ روم، المرجع السابق، ص 147.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 239.

⁴ نفسه، ج2، ص 240.

⁵ العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص 51.

السياسية العثمانية على الفوضى اللغوية بعامياتها البربرية والعربية، ترك التعليم لمبادرات فردية محدودة الكم والنوع¹، وهو ما أكده الورتلاني بقوله "لكون غالبيتهم ممن لا يفهمون العربية أو لكونهم من العسكر، وبالتالي فهم لا يقدرّون قيمة الكتابة الأدبية والتاريخية، فقد انصب اهتمامهم على الحياة السياسية والعسكرية"، وهو ما انعكس على الواقع الثقافي والأدبي²، وعلى ضوء كل ذلك ولعوامل أخرى ذات صلة باللغة والمستوى الثقافي والاجتماعي لأغلب من زاروا الجزائر خلال هذه الفترة ودونوا ملاحظاتهم عنها، فإن ما كتبه هؤلاء عن الفنون الأدبية كان مجرد إشارات بسيطة لم تقدم إلا النزر القليل لموضوع بحثنا، ويبدو أن الرحالة المغاربة بدورهم لم يستهويهم الحديث والاستفاضة في هذا الموضوع باستثناء إشارات قليلة أوردتها كل من العياشي، ابن زاكور والزياني، وفي ذلك علق الطبيب الإنجليزي توماس شو أن دراية هذا المجتمع اقتصرت خلال هذه الفترة على قليل من كتب الجغرافية وبعض الكتب العلمية المملة والكثير من كتب القصص والروايات³، كما أشار بانتي في هذا الصدد أن الجزائريين ليس لهم فكرة عن فن النحت والرسم، فدينهم يحرم عليهم رسم ونحت التماثيل فقد كانت تستهويهم الألوان أكثر من المواضيع ذاتها⁴.

ومن الفنون الأدبية نذكر:

أ- النثر الأدبي:

- المقامات* والشروح:

ومن ذلك برز عمل أبي راس الناصري المعروف "الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية" والذي ورد فيه إشادة بالعلم والأدب وميادينه، غير أنه طغى عليه روح الشكوى والتشكي من العصر وأهله، كما غلب عليه مدحه لذاته وعلمه⁵، ويمكن الإشارة أيضا إلى عمل ابن حمادوش "المقامة الهركلية"، والتي

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 178-179.

² نفسه، ج2، ص 239.

³ Thomas Show, op.cit., p 192.

⁴ Pananti, op.cit., p 371-372.

* المقامة: هي فن كتابي سردي عبارة عن أحاديث خيالية أدبية بليغة تلقي في جماعة من الناس، وهي صيغ زينت بألوان البديع والسجع، والكثير من المحسنات اللفظية والمقابلات الصوتية. (للمزيد ينظر شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن القصصي-المقامة، دار المعارف، مصر، د.ت، ص 05).

⁵ محفوظ رميم، المرجع السابق، ص 145.

كانت في ثلاث مقامات تضمنت وصفا قصصيا لرحلته في المغرب الأقصى وما شاهده من المهرج والمرج هناك، كما تضمنت قصص عن تجاربه وخبراته الحياتية مع الناس وخص زوجته بأجود المقامات¹، وبالرغم من القيمة الأدبية الواردة في هذه الأعمال إلا أنها تفتقد إلى الإبداع والخيال وتعتمد على الحفظ والنقل والانحدار إلى مستوى ما كان سائدا بتلك الفترة، فالذوق العام كان يميل أكثر إلى القصص الشعبي المستمد من التراث التاريخي ذي الغرض الترفيهي الذي ساد بكثرة في المجالس العامة مثل قصة "جنّي الهيدور" المستوحاة من قصة ألف وليلة، قصة غرام "عروج وزفيرة" زوجة سالم التومي، وقصة الأميرة والغولة وغيرها...².

كما انتشر فن الرسائل الإخوانية حتى بين علماء الجزائر حسب مكانتهم ودرجة علمهم، فبعد الكرمي الفكون مثلا كانت له علاقات كثيرة ومراسلات تبعا لذلك، وكذلك الأمر بالنسبة لأحمد المقرّي، السعيد قدورة، أحمد بن عمار، وغيرهم³، وبرزها المراسلات التي كانت بين أحمد المقرّي ومُحمّد بن عبد الكرمي الفكون، والتي توحى من محتواها ببلاغة الفكون في بساطة التعابير وجمال في المعنى والمبنى في قوله مثلا: "وقد اتصل بيديّ جوابكم أطال الله في العلم نفاءكم وأصلح عشيرتكم وأقربائكم فرأيت من البلاغة والعدوبة ما يذهل من العلماء فحولها..."⁴، أما النوع الثاني من الرسائل فهي الرسائل الديوانية والتي تميزت بالبساطة وصلنا منها ما كتبها الأدباء الذين وصلوا إلى بلاط الحكم والإمارة كابن ميمون وطاهر بن حوا وأحمد الراشدي وبالرغم أنها يطغى عليها المبالغة والتصنع إلا أنها كانت ذات قيمة أدبية هامة⁵.

كما جاء الحديث عن فن النثر في الخطابة التي تستخدم عادة في المناسبات الدينية وخطب الجمعة، وقد أشار الرحالة المغربي العياشي أن ما كان يسمعه في خطب مساجد الجزائر، كان يطغى عليه التقليد أي تكرار المعاني وأفكار السابقين، وفي ذلك تحدث عن حضوره لخطبة الجمعة ألقاها إمام بجامع المالكية بورقلة، فقال: "...وصلنا بجامع يسمى المالكية وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن،

¹ أبو القاسم سعد الله، أشعار ومقامات ابن حمادوش الجزائري، مجلة الثقافة، ع 49، 1979، ص 41.

² Laugier De Tassy, op.cit., p 170.

³ الفكون، منشور الهداية، ص 07.

⁴ مُحمّد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 309-310.

⁵ محفوظ ررم، المرجع السابق، ص 145.

الخطأ التحريف والتأخير... فلم فرغ الصلاة بعثت أصحابنا يسألونه... فإذا هو لا يفقه شيئا فعلمت أنه إنما وجد الخطبة مكتوبة في صحيفة فحفظها كما وجدها...¹.

أما ابن زاكور فقد أشاد بعلماءه ومدرسه الذين برعوا في تأليف الإجازات العلمية لطلبتهم، فأسهب في الحديث عن بعضها مذكرا ببعض نصوصها، ومن بينها إجازة العالم مُحَمَّد بن سعيد بن إبراهيم قدورة التي قدمها له والتي جاء في نصها "الحمد لله وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم تسليمًا، وقد أجتب الفقيه النبيل الأصيل المخصل بخصال الكمالات كل التحصيل حائز قصبات السبق في ميادين البلاغة على الإجمال والتفصيل، العلامة السيد أبا عبد الله مُحَمَّد بن قاسم بن مُحَمَّد بن عبد الواحد الفاسي المعروف بابن زاكور، كان الله لنا وله دنياه وآخرته إجازة تامة عامة على شروطها المتعارفة عند العلماء القائلين بها في جميع مقروءاتي معقولا ومنقولا توحيدا ونوحوا..."².

كما اشتهر الوصف الأدبي كأحد ألوان النثر وخاصة وصف الطبيعة والمنشآت العمرانية من خلال الرحلات، إضافة إلى الوصف المعنوي الذي تفيض فيه المشاعر الإنسانية، وقد برع في ذلك أحمد المقرئ (ت1041هـ/1631م)، الذي تأثر بالمدرسة المشرقية من حيث تنميق العبارات وتسجيعها وعذوبة الألفاظ والتسلسل السلس للأحداث فيقول مثلا في وصف نزهة "فمضت لنا أيام أنس ما مضت للغمان بالشقيقة ولا قضتها غسان بروضة شامهم الأنيقة ولا نادم حسان في مثلها عصابتها يحلف ولا جال في وصفها لسانه المتذلق..."³.

ب- الشعر:

أجمعت الكثير من المصادر أن قول الشعر في الجزائر في القرن 9هـ/15م، كام وفيه غير أنه طغى عليه روح التصوف، الرثاء، هذا إلى جانب أغراض أخرى ثل المقامات، الغزل، المديح، وقد كان أغلبه وليد المناسبات⁴، وهو ما ساهم في تعدد مواضيع الشعر وأغراضه وحتى شعر المجون والغزل كان له مكانا، بالرغم من عدم اختلاط النساء بالشعراء، هذا لم يمنع من إطلاق العنان للخيال واستعمال الرموز في كتابة

¹ العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص 114-115.

² ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص 71.

³ دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب واللغة العربية، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة، 2015/2014، ص 259.

⁴ ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 62.

هذا النوع من القصائد¹، والجدير بالذكر أن العثمانيين لم يعرفوا ثقافة شعراء البلاط فلم يشجعوا أو يهتموا بالشعر والشعراء، وذلك يعود لعدة عوامل منها جهلهم بلغة أهل البلد، وإلى مستواهم الثقافي الضعيف فأغلبهم كانوا ذوي طابع عسكري محض.²

ومن أبرز ما كان سائدا في تلك الفترة:

- الشعر الديني:

تميز بإنتاج وفير إذ تكاد جزم أن كل علماء هذه الفترة قد تركوا أبيات شعرية أو قصائد في هذا الغرض لكون هذا النمط تأثر كثيرا بالمدرسة الأندلسية فقد طغى عليه صدق العاطفة وعدوبة الألفاظ لاسيما تلك القصائد التي قيلت في مدح الرسول "ﷺ"، والتشوق لزيارة قبره، وإحياء مولده والتضرع إلى الله في الشدائد والأزمات أو في رثاء الأولياء³ الصالحين، وقد أورد العياشي في رحلته أبياتا من ديوان المديح الذي تركه العالم عبد الكريم الفكون في 625 بيتا فرغ من تأليفه في الثالث من جمادى الآخر سنة 1031هـ.⁴

وقد انتشر شعر "المولدويات"، وعرف ازدهارا كبيرا نظرا لعمق هذه المناسبة في نفوس الجزائريين وحرصهم للاحتفال بإحيائها فتح المجال لتنافس الأدباء والشعراء في نظم القصائد والموشحات وتلحينها بأصوات مطربة وتنظم لها محافل ومجامع يحضرها العلماء والفضلاء⁵، وقد برع في هذا النمط من الشعر كل من الشاعر ابن عمار، محمد بن علي، ابن حمادوش، وأقدمهم ما كتبه أحمد المانجلاتي، الذي نضم ديوان في المدائح النبوية بعنوان "تروى بالأزهار الندية"، حيث قال فيه ابن عمار عن براعته في الموشحات، "محلي هذه الجلسة، مقدم الجماعة، كائل الجعبة، إمام الصنعة وركاب صعبا ومدللها، ومسيل شعابها ومسهلها عاشق الجناب الحمدي ومادحه بلا معارض..."⁶.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 250.

² الورثاني، المصدر السابق، ص 331.

³ دخية فاطمة، المرجع السابق، ص 251.

⁴ العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص 51.

⁵ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 247.

⁶ ابن عمار، الرحلة، ص 35.

ومن المواضيع التي عرفت انتشارا كبيرا في الشعر الديني، الشعر الصوفي ومن أشهر شعرائه، ورد ذكره في منشور الهداية للفكون، الشاعر مُجَّد ساسي البوني، الذي كان ينشد الكثير من الأشعار والأزجل في الحضرة الصوفية والمواكب الدينية.¹

- الشعر السياسي:

ارتبط هذا النوع من الشعر، بالجهاد واستثارة العواطف الدينية والنفسية للجزائريين، لنصرة وهران وفكها من قبضة الإسبان، استنهاضا لهمم الحكام، وقد عرف أيضا بشعر الاستنجاد، الذي عدّ فن من فنون الشعر التي استحدثتها شعراء الأندلس، كما هو الحال بالنسبة لفن الموشحات والأزجال، وهو غرض يقوم على استنهاض العزائم وشحذ، الهمم لنجدة ديار المسلمين ونجدة إخوانهم من الأعداء، بعد أن أدرك هؤلاء الشعراء الأخطار المحدقة الآتية من أوروبا²، ومن أبرز شعرائه مُجَّد بن مُجَّد بن علي المعروف بابن قوجيل، وله في ذلك قصيدة مؤثرة خاطب بها أحمد باشا (1695-1698) يدعو فيها إلى جهاد الكفار وطردهم من ديار المسلمين كما كان لفتح وهران حدثا عظيما وسعيدا أطلق العنان للسان الشعراء في المدح والثناء لما قام به الباي مُجَّد الكبير، فسجلوا عظمة الحدث وتعنو بأعمال الباي وخصاله، ومن جهته عرف الباي مُجَّد الكبير بتقريبه من الأدباء بالهدايا والأموال، مما ساهم في نشاط الحركة الأدبية في عهده لا سيما الشعر فقد سجل ابن سحنون في الثغر الجماني نماذج من الشعر البطولي وشعر الفخر والإعجاب بالباي وجهاده وكرمه ووقاره.³

ويبدو أن شعر المدح السياسي قد قبل معظمه في مجالس الباي مُجَّد الكبير، إذ برز في عهده شعراء البلاط الذين كانوا سابقون في قول الشعر زلفى وتقربا من الباي مقابل الأموال والهدايا التي كان يغدقها عليهم أمثال أحمد الراشدي، مُجَّد الحفناوي، مُجَّد بن الطيب المازري، أحمد القرومي وغيرهم...⁴، وفي سياق آخر ظهر في الشعر السياسي شعر الهجاء فقد كان لبعض الشعراء الجرأة والشجاعة لوصف الحكام الأتراك العثمانيين بالفساد، الرشوة، والجري وراء الأموال والتخلي عن دورهم في تسيير شؤون البلاد والعباد، ومن أبرز هؤلاء الشاعر سعيد المنداسي وهو من شعراء القرن 16م، الذي عبر من خلال

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 252.

² عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، ط2، بيروت، 1976، ص 413.

³ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 445-472.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 259.

شعره من رفضه لحكم العثمانيين وعن حالة الركود والجمود الفكري والثقافي الذي عرفته تلمسان في عهدهم، ففر بشعره إلى المغرب الأقصى أين وجد ملاذا لدى السلطان المغربي مولاي إسماعيل بعد توليه الحكم سنة 1022هـ، وأبرز ما قال في العثمانيين، فما دب فوق الأرض كالترك مجرم ولا ولدت حواء كالترك إنسانا¹.

ومن جهته هجى ابن حمادوش حكم العثمانيين الذين في نظره ابتعدوا عن وظيفتهم الدينية وعاثوا في البلاد فسادا وظلما على الرعية، في قوله "فلا يدرك المجد المؤكل غيرنا، وإن أدرك الدنيا وحازها في الأيدي حذار حذار إنا رحمة الورى، وعصته القالين في الحشر واللحد"².

- الشعر الاجتماعي:

وهو شعر يعكس الأوضاع العامة للمجتمع في هذه الفترة والتي ميزها الهوة التي كانت قائمة بين السلطة العثمانية، الحاكمة والمجتمع واستبداد الأتراك بالحكم وإهمالهم لشؤون البلاد والعباد، والذي كانت له آثار وخيمة على المجتمع وهو ما حرك أقلام الشعراء للكتابة حول مختلف المشاكل والهموم التي كان يعاني منها المجتمع برمته³.

فكان شعر الحنين والرتاء الذي عرف بـ"فن البكائيات" على أيام خوالي أو وطن ضائع، وهو ما عبر عنه أحمد المقرري الذي اکتوى بنار الغربة في قوله:

أَحْنُ إِلَى تَلِكِ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا رَاقِي وَرُوْحٌ وَرِيْحَانِي

وَأَقْفُو مَعَ الْأَشْوَاقِ لِلْوَطَنِ الَّذِي بِهِ صَحَّ لِي أَنْسُ الْهَيْئِ وَسَلْوَانِي⁴.

كما كانت لظاهرة تقديس الأولياء انتشارا واسعا من خلال مدحهم بين الشعراء، تعبيرا عن المكانة التي كان يحتلها الولي في الذهنية العامة للجزائريين فقد ترك الورثاني الكثير من القصائد التي جمعها على أطلال قبور الأولياء¹.

¹ أبو العباس، أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج7، تح، تع جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت، ص 31 وما بعدها.

² ابن حمادوش، لسان المقال، ص 185.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج، ص 270.

⁴ أحمد المقرري، نفح الطيب، ج5، ص 23.

وتقليدا لمدرسة الأندلس أيضا انتشر شعر الوصف الذي يقوم على التغني بالرياض، والأزهار والطبيعة عامة، ومنه ما كتبه الشاعر "ابن علي" في قصيدة شهيرة يصف فيها نزهة خلال فصل الربيع والطبيعة الخضراء، في قوله:

بَسَطَ الرَّبِيعُ بِسَاطَهُ وَالْمِسْكُ يَنْفُحُ مِنْ نَوَافِهِ بِانِهِ

وَمِنْ الشَّقَائِقِ رَوْضَةٍ مَطْلُوبَةٍ مِنْ كُلِّ سَاقٍ رَاقٍ فِي مَيْلَانِهِ²

وعن هذا النوع من الشعر علق دوماس "Daumas" أن ما كان يقال من شعر خلال هذه الفترة هو شعر نابع من الطبيعة، والشمس المشرقة والجمال ومشاهد الحياة اليومية المتنوعة³، وبدوره أبدى بانتي Pananti إعجابه بقول الشعر، حيث حملت القصائد في طياتها حكما وعبرا وإشادة بالشجاعة والبطولة، وقد أعجب أيضا شعر الغزل، فكان الرجل البدوي يرسل إلى خطيبته أبيات من الشعر ليعبر لها عن اهتمامه بها، ويبدو أن ذلك كان شائعا في البادية على عادة القبائل العربية.⁴

- الشعر الملحون:

أو ما يعرف بالشعر الشعبي (العامي)، عرف هذا النوع انتشارا واسعا بين الجزائريين، واختلف حسب اختلاف المناطق والأقاليم بين شعر الشمال وشعر الجنوب، من حيث طبيعة المواضيع، الانطباعات، الأفكار وحتى الألفاظ المستعملة.⁵

ويقول سعد الله أن رواج هذا النوع من الشعر لدلالة واضحة على ضعف الثقافة الأدبية بعد أن أبعدت اللغة العربية عن الحكم والإدارة إضافة إلى عدم وجود معهد عالي في البلاد⁶، ولأن أغلبه كان يتداول شفويا لم يصل منه إلا القليل إلا أنه وبالرغم من كل ذلك كان الأقرب إلى الواقع في توثيقه للأحداث المختلفة التي عرفت بها البلاد وسادت في المجتمع، ومن ميزاته أيضا أنه كان يخلو من المحسنات

¹ محفوظ ررم، المرجع السابق، ص 143.

² نفسه، ص 152.

³ Daumas, op.cit., p 106.

⁴ Pananti, op.cit., p 266.

⁵ Alexander Joli, Remarque sur la poésie moderne, chez les nomades Algériens, R.A, N° 348, Alger, 1904, p 263.

⁶ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 240.

البدعية والبيان، يستقي ألفاظه وعباراته من عمق المجتمع بفئاته لمختلفة، لذلك كان بالغ الأثر مقارنة بالشعر الفصيح.¹

من أبرز شعرائه "الأكحل بن خلوف" المعروف بسيدي لخضر بن خلوف من شعراء القرن 16م، عايش فترة الهجومات الإسبانية المتكررة، على السواحل الجزائرية ولأنه كان إماما صوفيا قوي الحجّة والشخصية، تملك صفات الفارس المغوار كلفته السلطة العثمانية وتوحيد القبائل تحت لواء الجهاد ضد الكفار، فوثق هذه الأحداث بصورة دقيقة، وصادقة دون نفاق أو مبالغة واصفا إحدى المعارك الشهيرة التي شارك فيها وهي "معركة مزغران" في قصيدة بعنوان "يا الله سلكننا ليلة الهجوم" جاء في مطلعها:

يَا فَارَسَ مَنْ تَمَّ حَيْثُ الْيَوْمِ	عَزْوَةٌ مَرْغَرَانِ مَعْلُومَةٌ
يَا عَجَلَانَ رَيْضِ الْمَلْجُومِ	رَيْتُ جَنَابِ الشُّلُو مَوْشُومَةٌ
يَا سَائِلِي عَنِ طَرَادِ الرُّومِ	قِصَّةَ مَرْغَرَانِ مَعْلُومَةٌ ²

كما وثق "الشيخ عبد القادر" حدث دخول الفرنسيين إلى الجزائر سنة 1830 في قصيدة بعنوان "دخول الفرنسيين للجزائر من كلام" الشيخ عبد القادر"، عدت بمثابة وثيقة تاريخية هامة، كتبت من طرف أحد سكان مدينة الجزائر وصف فيها الأحداث التي شاهدها معبرا بعاطفة صادقة عن تأثره الشديد لما آلت إليه المدينة من دمار وخراب، وقد وصفت هذه القصيدة في المجلة الإفريقية بأنها تعد بحق قصيدة وطنية مؤثرة.

¹ Alexandre Joli, op.cit., p 283.

² مولاي بلحميسي، قصة مزغران، مجلة الآمال، عدد 68، الجزائر، 1968، ص 65.

قال في أحد أبياتها:

تُوبُوا وَاسْتَغْفِرُوا لِلْمَوْلَا هَذَا آخِرُ الزَّمَانِ أَدْرَكَنَا

فِيهِ الْحَايِنِ وَكُلِّ بَلَا مِنَّا لِفُوقِ مَكَانِ هُنَا¹

- الشعر العثماني في الجزائر:

أردنا في هذا البحث أن نلقي الضوء على جانب بسيط من المبادرة التي قدمها أستاذ اللغة التركية واللغات الشرقية بجامعة الجزائر جون ديني Jean Deny سنة 1920، من خلال مساهمته في جمع ثروة نادرة ومجهولة عن الشعر العثماني في الجزائر خلال الفترة العثمانية، والذي كان في شكله ومضمونه قريبا جدا من الشعر الشعبي الجزائري، وذلك على ضوء ما قدمه الدكتور "قدور محمصاجي" في مؤلفه²، وقد كانت هذه القصائد الغنائية قريبة جدا من الحقيقة لأنها تعبر بصدق عما كانت تشعر به هذه الفئة التي تعيش بعيدة عن أوطانها، داخل مجتمع غريب عنها من حيث اللغة، العادات والتقاليد فكانوا يعبرون من خلال هذه القصائد عن حزنهم من فقدانهم لحريتهم والخوف من الوقوع في يد الأعداء (الإسبان)، وهناك فيهم من يحن ويفتخر بانتمائه وأصوله.³

كما عايشوا الأحداث بأشعارهم، حيث وثقوا بهذه القصائد الغنائية انتصارهم على الإسبان معبرين عن مدى افتخارهم بقوتهم كمحاربين أقوياء استطاعوا كسر شوكة الإسبان وطردهم من الجزائر.⁴

وقد ذكر ديني deny أن هذه القصائد التي أطلق عليها "أغاني الإنكشارية" " les chants des janissaires"، ليست أغاني تقليدية كان يرددتها هؤلاء عن الموروث الثقافي لبلداتهم الأصلية، وإنما نظمت من طرف البعض لتعبر عن مختلف جوانب الحياة التي كانت تعيشها هذه الفئة في الجزائر، كما أنها لم تنقل مشافهة، وإنما دون الكثير منها في كراسات شخصية حررت باللغة التركية، كما

¹ J. Despagnet, L'entrée des Français à Alger par le cheikh Abdelkader, R.A, 3^{ème} et 4^{ème} trimestre, 1930, p 229.

² Kaddour M'Homsadji, « Sultan Dzair » suivi de chansons des jannissaires turcs d'Alger, fui 18-ème siècle par Jean Deny, office des publications universitaire, Alger, 2005, p 14.

³ Ibid, p 19.

⁴ Ibid, p 22.

استخدمت بعض ألفاظ اللغة العربية ولغة الفرانكا، التي كانت سائدة في الجزائر، وقد طغى على هذه الأغاني أيضا طابع الغزل أو ما ورد بلفظ العشق "Asik" في التعبير عن الأحلام الجامحة باللعب بالألفاظ ذات الوقع العميق النابعة من نفوس متألمة على ما حل بها من أوضاع، غالبا ما كانوا يتغنون بها باستخدام آلات موسيقية مثل العود¹، ويقول ديني Deny أنه عثر على العديد من هذه الأغاني وبعض الخواطر والوصفات في كراسات لشخصية، لشخص يدعى "إبراهيم خوجة" عاش خلال فترة الهجوم الإسباني سنة 1784.²

* فكتب:

كفارين كلجكين خبر ألدیلر

جزاير وطنه كاغد صونديلر

الله دديلر خبكه دور ديلر

ديز مين أوغرينه قليج صلديلر³

2- الموسيقى:

انتشرت في الجزائر خلال هذه الفترة ثلاث أنواع من الموسيقى، وهي موسيقى الحضر أو ما يعرف بالموسيقى الأندلسية، موسيقى البدو، وموسيقى العثمانيين، يتميز كل نوع بخصائصه وآلاته الموسيقية⁴، ويعتبر الفن الأندلسي الأكثر انتشارا خاصة في المدن والحوضر الكبرى التي استقر فيها لذلك شبهها الحسن الوزان بمدينة إشبيلية في شغفها للموسيقى، وانصراف أهلها للطرب، فقال "أهل بجاية أناس

¹ Kaddour M'Homsadji, op.cit., p 23.

² Ibid, p 24.

* ويودر معناها العربي حول انبهاره بالسلطة وأرض الوطن وما أعظمها، وقوتها في قهر وهزيمة الكفار.

³ Ibid, p 177.

⁴ Thomas Show, op.cit., p 368.

طرفاء وهم يجبون صرف أوقاتهم في الطرب فكل منهم يتعاطى الموسيقى وقيم حفلات الرقص خاصة الأعيان الذين لم يشهروا الحرب على أحد...¹.

كما خالف أهل تلمسان فتاوى وأراء علماء المالكية في تحريم الموسيقى وأصبحوا من أكبر هواة الأغاني، إذ أن إلهام الطبيعة الجميلة التي كانوا يعيشون في حضانها واندماجهم مع مهاجري الأندلس المولعين بهذا الفن وتشجيع ملوك بني زيان له، كلها عوامل أدت إلى سرعة انتشاره، فأشهر في تلمسان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب الأندلسي (1798م) الذي عرف بنظم الموشحات وتلحينها، وقد نسب إليه نظم حوالي 3034 قطعة شعرية من فن المؤلف أغلبها في المدائح الدينية²، كما شاع هذا النمط الغنائي في مدينة الجزائر التي ولع أهلها بالموشحات أو المدائح الدينية التي عرفت "بالمولدات"، حيث نظر الكثير في مدح وذكر صفات ومآثر الرسول ﷺ، واشتهر في ذلك أبو العباس أحمد بن عمار "صاحب لواء العصر في فلائل العصر"، حيث نظم قصيدة احتفالاً بالمولد النبوي لسنة 1166هـ/1753م كان مطلعها: أشرفت أنوار محمد واختفت منه البذور يا محمد أنت نور على نور³، وكانت هذه الموشحات تنشد برفقة آلات الموسيقى في السهرات والحفلات الدينية عامة.⁴

وقد أبدى سبنسر إعجابه بالموسيقى الحضرية الأندلسية لما كانت تتميز به من التنوع والتنغيم مقارنة بالأنواع الأخرى لكونها موسيقى حية تلامس القلوب، وتعزف بعدد من الآلات، كما كانت تؤدي من طرف فرق كبيرة تتكون من حوالي 20 إلى 30 عازف، وانتشر سماعها في المقاهي ولعذوبة ألحانها يبقى المستمع إليها يتذوقها بحدوء تام مستمتعاً بتنوع نوباتها بشكل يريح المزاج والقلب على وقع الرباب والقيتارا⁵، وأشار بانتي أن عازف الموسيقى في الجزائر في هذه الفترة كان يتقاضى مقابل عزفه أكثر مما يتقاضاه عشر أدياء وكان العزف في المناسبات الدينية أو الرسمية تذر على هؤلاء مبالغ كبير تصل أحيانا إلى مائة دورو فضية أو 50 سلطانية ومكافآت سخية من الباشوات⁶، وقد كانت الفرق الموسيقية تنتقل إلى الأقاليم لإحياء المناسبات المختلفة، حيث يذكر الرحالة المغربي الزياني أنه عندما حل

¹ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 363.

² محمد طمار، تلمسان عبر العصور ودورها في السياسي والحضاري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 360-261.

³ محمد زكرياء عنابي، الموشحات الأندلسية، دار الثقافة، الفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 16.

⁴ سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 156.

⁵ سبنسر، المصدر السابق، ص 121-122.

⁶ Pananti, op.cit., p

بقسنطينة دعاه الباي حسين هناك إلى حفلة سمر وموسيقى حيث استدعى لها العازفين من مدينة الجزائر، ولاحظ أن الباي كان يخرج من وقت لآخر من الحفلة ثم يعود إليها، وكانت في كل مرة تقوى عنده رائحة الخمر، حتى عرف بذلك الحاضرون جميعا،¹ كما كان من الأهالي من كان شديد الحرص على سماع الموسيقى والتمتع بالإنشاد على وقعها، ولا سيما من أهل حضر الذين يحتفظون بالآلات موسيقية، يعزف عليها عندما ينفرد بنفسه كنوع من أنواع التسلية والهواية وكان بعضهم يصطحب الموسيقيين معه إلى الريف حيث منازل الأغنياء وكان الركب يتوقف من حين إلى آخر فيعزف الموسيقيين أحيانهم بينما الآخرين جالسين على مصطبة عالية غارقين تحت تأثير الموسيقى اللذيذ²، وكان العزف يطول والمستمعين يظلون طوال الليل دون حدوث ضجة أو هرج إذ مع الفن الأندلسي لم تبق الموسيقى تؤدي في بلاط الملوك والأمراء، بل خرجت إلى العامة وأخذت تردد بأحانها ونوباتها بين التأليف الموسيقي والتأليف الغنائي والتأليف الآلي، وهو ابتكار أندلسي³ في الأصل يعتمد على الرباب ذو الوترين والذي يلامس بقوس العود، لذي يحتوي على أكثر من عدد أوتار الرباب وهناك أيضا أحجام مختلفة من القيتار عطي كل حجم منه نغم أعلى من الآخر، كما استخدم الصنج على الطار الذي تتنوع نغماته بتنوع ضرباته.⁴

والجدير بالذكر أن قسنطينة قد عرفت انتشارا لموسيقى المالوف التونسي الأندلسي على جانب انتشار واسع لموسيقى محلية يعود تاريخها إلى ما قبل الفتح الإسلامي، المعروف بالحوزي وهو فن موسيقي قريب من العامة ظهر في الضواحي (الأحواز).⁵

وفي سياق آخر أشار شو show إلى وجود الموسيقى البدوية، فالببدو في الريف كانوا يستخدمون آلات موسيقية تناسب عقليتهم وطرق معيشتهم البسيطة مثل البندير والقصة، وهي في رأيه كانت تتميز بالرتابة والتكرار، يشارك في تأديتها المداحين وبعض الدراويش الذين كانوا يجتمعون في شكل حلقات بالقرب من الأسواق ويشرعون في الغناء والعزف، ومعظم أناشيدهم كان مدائح دينية،

¹ أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص 156.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 442.

³ Thomas show, op.cit., p 368.

⁴ نصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، ص 58.

⁵ محمود بوعباد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط القرن 9هـ-15م، ط2، دار شالة، الجزائر، 2011، ص 86.

سيرة الصحابة، أو مستوحاة من القصص البطولية، كما ينتشر هذا النوع من الموسيقى في الحفلات الخاصة كحفلات الزواج.¹

وقد انتشرت موسيقى الأتراك في حدود ضيقة في الجزائر وهي لا ترقى إلى الموسيقى الأندلسية، إذ تتميز بحزن نغمها، كما تعزف بألات خاصة مثل آلة طويلة العبق تشبه الربابة، كما استخدموا آلات محلية كالقصة، المزمار، والطمبور، وهي تدل على تأثر العثمانيين بالبيئة الجديدة التي وجدوا أنفسهم يتعايشون معها تاركين أوطانهم الأصلية²، هذا إضافة إلى الموسيقى العسكرية (النوبة) التي تعزف في المناسبات السياسية، والحربية وحتى الاجتماعية، ويسمى هذا النوع عند العثمانيين بـ "مهتر هانة" يعتمد على الضرب على الطمبور، حيث تجوب الفرقة المدينة في يوم المولد النبوي وفي موكب تجوب الشوارع، ويشارك فيه الأطفال وهم حاملين للشموع والورد ويرددون المدائح الدينية.³

وقد تحدث دان أن هذا النوع من الموسيقى العسكرية كان يعزف أيضا عند استقبال باشا جديد فعند نزوله في الميناء يتوجه إلى قصره مرفوقا بالضرب على الطبول، وأنغام المزامير والعزف على الصلج على الطريقة التركية وقد وصفها بأنها لشدها وقوتها تثير الضجيج الغريب الذي يثير الخوف أكثر من المتعة.⁴

أما الرقص فكان شائعا عند أهل البادية خلال حفلات الزواج أين يجتمع الرجال والنساء في ساحة كبيرة ويرقصن بشكل أكثر احتشاما لساعات متأخرة من الليل، كما ترقص نساء الحضر رقصا ترفيهيا في الحفلات الخاصة أو اللقاءات الأسبوعية، وفي الحمامات على وقع بعض الآلات الموسيقية التي تجيد بعض النساء العزف عليها.⁵

وقد أشار باننتي إلى نوع آخر من الرقص كان شائعا في بعض مدن الجزائر وكانت تبيحه السلطة العثمانية من باب الترفيه العام تمارسه فتيات من غير الحرائر والوصيفات اللواتي كن يستدعين للحفلات

¹ Thomas show, op.cit., p 368.

² Thomas Show, op.cit., p 370.

³ جيمس ولسون ستفنسون، المصدر السابق، ص 247.

⁴ P. Dan, op.cit., p 45.

⁵ Thomas Show, op.cit., p 374.

مقابل حصولهم على أجور عالية، يحضرها عدد من الرجال يقوموا أثناءها بتدخين أوراق الورد شرب القهوة اليمينية القوية.¹

وقد وصف هاينريش فون مالتسان إحدى سهرات السمر التي حضرها، حيث تقوم فيها بعض الفتيات بحركات راقصة رشيقة بين الترنج والاهتزاز، وفجأة يخرج أحد الحضور وهو يركض كالجنون ويلصق قطعة من النقود على جبين الراقصات ويعلق عليه بقوله وإن كان فن من الفنون فإنه يعتبر ذو طبيعة لا أخلاقية.²

3- نماذج من الحواضر الثقافية في الجزائر العثمانية:

أجمعت بعض المصادر المحلية والدراسات الحديثة أن الحواضر الجزائرية خلال الفترة العثمانية كانت متوسطة الأهمية باستثناء مدينة الجزائر التي كانت تحظى بمكانة ووزن عالمي³، ويبدو ذلك من خلال عدة مؤشرات أهمها الوزن الديمغرافي فلم تكن تضم إلا 5 إلى 6% من سكان البلاد، كما أنها تتأثر بالتطورات السياسية والاقتصادية العامة الأمر الذي كان يؤثر على الحياة الثقافية في هذه المدن⁴، وبالتالي قسمت إلى نوعين مدن مزدهرة مثل مدينة الجزائر، قسنطينة، ومدن تراجع ازدهارها وفقدت مكانتها نتيجة عوامل خارجية مثل وهران، تلمسان، بجاية، فقد أشار القنصل الأمريكي شالر أن هذه المدن لم تتمكن من الاحتفاظ بمزاياها السابقة بعد أن فقدت كل نفوذها السياسي الذي كان لها في الماضي، فاستثناء مدينة الجزائر ووصف المدن الأخرى بالمدن الصناعية والتجارية الصغيرة ذات الأهمية الثقافية المحدودة التي لا تقدم شيئاً للتحضر والتقدم مقارنة بما كان يحدث في أوروبا⁵، وهي الفكرة التي أشار إليها حمدان خوجة في وصفه لمدن بايلك الغرب وال تييطري، بقوله "أما المدن والقرى الأخرى فلا يبدو لي من المفيد أن أتكلم عنها، وأعفي نفسها عن وصفها لأنني لا أعرف عنها ما يمكن أن يكون عجيباً أو مفيداً..."⁶.

¹ Pananti, op.cit., p 222.

² هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 69.

³ بلبروات بن عتو، المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني، ص 36.

⁴ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دمشق، 1969، ص 100.

⁵ وليام شالر، المصدر السابق، ص 37.

⁶ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 97-100.

ولعل من العوامل أيضا التي أدت إلى تراجع دور الكثير من مدن الجزائر، هو اعتماد الجزائر العثمانية على مداخيل مؤسسة الأوقاف في تطوير الجوانب الثقافية والاجتماعية أمام غياب السلطة العثمانية الشبه الكلي في هذا الامر، وهو ما يفسره عدم ظهور مدن وحواضر جديدة، عندما عجز الوقف على تحويل عديد من القرى في المناطق الداخلية والصحراوية إلى مدن وحواضر ثقافية رائجة، فغلب لطابع الريفي البسيط على المشهد العام.¹

ونظرا لكثرة الدراسات التي تناولت بالوصف مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية كحاضرة سياسية اقتصادية عسكرية وثقافية ذات وزن دولي، وردت عنها معلومات مفصلة لدى أغلب الأجانب الذين استقروا بالمدينة وعاشوا فيها لسنوات طويلة فخصصوا لها مؤلفات ذات معلومات غزيرة ومتنوعة، وجدنا من الضروري الإشارة في خطوة أولى لدراسات معمقة حول هذا الموضوع إلى بعض المدن (الحواضر) التي وردت في كتابات بعض الأجانب أبرزها.

أ- مدينة قسنطينة:

يعود الحديث عن هذه المحاضرة التاريخية العريقة إلى ما قبل الفترة العثمانية، حيث ورد وصف المدينة في كتب الرحالة والجغرافيين العرب أمثال البكري والإدرسي القرن 12م، الذي وصفها هذا الأخير بقوله "مدينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها ذوي أموال وأحوال واسعة..."²، وجاء الحديث عنها في كتب القرن 16م، التي تحدثت أغلبها عن مكائنها السياسي والاقتصادية بوصفها عاصمة لأكبر بايلكات البلاد، حيث وصفها الحسن الوزان "بأنها مدينة ذات أسوار عديدة وحسن تنسيق، بما جميع الحرف، قد فصلت عن بعضها البعض، بالإضافة إلى عدد من التجار الكبار الذين يمارسون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا"³، وهو ما أشار إليه مرمول كربخال في وصف المدينة بقوله "هي مدينة غنية بما عدد من التجار الصناع، لكن موردها الأعظم وتجارها الأكثر ربحا في إرسال القوافل إلى نوميديا، وإلى ليبيا محملة بالبضائع والمنتجات الصوفية الكتانية والحريرية والزيت وتعود منها

¹ محمد الأرنؤوط، دور الوقف في نشوء وتطور المدن خلال العصر العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 9-10، تونس، 1994، ص ص 45-47.

² الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 121.

³ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 56.

بالتبغ، التمر، العبيد، وهي أكثر بلاد البربر تجارة في هذه الأشياء...¹، وهو ما أشار إليه دافيتي في القرن 17م، حيث قدر عدد سكان المدينة بحوالي 10 آلاف نسمة منهم العديد من العائلات كلهم أغنياء.²

وفي رحلته العلمية إلى إيالته الجزائر فصل ديفونتين في وصف الموقع الجغرافي الخاص للمدينة، بأنها تقع على جبال صخرية مرتفعة يفصل بينها من الناحية الشرقية والشمالية وادي الرمال الذي يطلق عليه عرب المدينة "لهوى"، يشكل خندقا عرضه ما بين 40 و50 متر تتجمع في هذا الوادي روافد بعض الينابيع التي تنحدر من نواحي المدينة وتسمى سبع عيون³، كما تحدث عن مناخها الصحي وهوائها المنعش النقي الذي ينعش الصدر ويدفق الدم في الجسم، وما يصيب الناس من أمراض مرده إلى المبالغة في تناول الفواكه قبل نضجها.⁴

كما جاء وصف المدينة لدى الرحالة المغربي المكناسي⁵ (القرن 18م) بقوله: "قصمطينة مؤسسة على ربوة، وهي مدينة متوسطة يسقفون أسطح بيوتها بالقرميد، ولعله من أجل الثلج فهي شديدة البرودة وعليها وارد كثير وعمارة زائدة فلا يكاد الإنسان أن يمشي في داخلها إلا بمشقة من كثرة الازدحام... ما رأيت بلده أكثر وارد منها... فلو ترى ما يدخل منها إلى السوق في كل يوم لتقضي العجب... بها رخاء كثير من الأشياء موجودة إلا أنها إلى البادية أقرب... أقمنا بها سبعة أيام تقضينا فيها ضرورياتنا..."⁶، وقد شمل وصف المكناسي للمدينة شكل عمرانها وسكانها وما يميز أحيائها وشوارعها مشيرا أن أشهر أسواقها سوق الجمعة هو أشهر سوق بالمدينة وبه أسعار رخيصة، تتوافد إليه

¹ مرمول كرجخال، المصدر السابق، ص 11.

² Davity (P), Description général de la l'Afrique, Paris, 1660, p 210.

³ Desfontaine, op.cit., p 332-334.

⁴ Ibid, pp 336-339.

⁵ هو أبو عبد الله بن عثمان المكناسي ولد في مدينة مكناس أواخر الثلث الأول من القرن (12هـ/18م) نشأ في بيت علم في حاضرة من أهم حواضر الدولة العلوية، ولعلمه وفطنته عين كاتباً للسلطان المغربي محمد بن عبد الله العلوي، قام بعدة رحلات أهمها رحلته إلى إسطنبول والتي ألفت حولها رحلته الموسومة بإحراز المعلى والرتيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، قدم المكناسي في رحلته وصفا هاما لبعض المدن الجزائرية التي زارها مقدما معلومات قيمة عنها. (عبد الرحمان ابن زيدان، إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج4، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 129).

⁶ محمد عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي، إحراز المعلى والرتيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تحقيق محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، بيروت، 2003، ص 51.

القوافل التجارية من جميع المناطق، وبالرغم من أن زيارة المكناس للمدينة تزامنت بفترة حكم صالح باي وما عرفته من نهضة ثقافية، وعلمية إلا أنه لم ترد إشارات عن هذا الجانب، فيبدو أن مكوثه بالمدينة كان يهدف التزود بما يلزم القافلة من زاد لإكمال رحلة العودة إلى المغرب الأقصى وعلى قلة هذه المعلومات إلا أنها عدت المدينة لدى المكناسي حاضرة سياسية واقتصادية هامة ومزدهرة.¹

وفي زيارته للعديد من مدن الجزائر، قدم الطبيب الإنجليزي شو وصفا لحاضرة قسنطينة مشيرا إلى طبيعتها الجغرافية الفريدة، وكثافتها السكانية العالية، حيث قدر عدد سكانها بحوالي خمسة وعشرون ألف نسمة، وهي مدينة تحظى بجميع المزايا يوجد بها ساحات عمومية أهمها ساحة باب القنطرة أما شوارعها فهي ضيقة ومتعرجة مساجدها، جميلة ومزينة بالرخام الجيد، الأسواق رحبة والمخازن بها ضخمة، يتوسط المدينة قصر الباي الذي يتميز بقرميده الأخضر وبيوته الكبيرة المتصلة ببعضها البعض.²

ولعل أبرز من كتب عن المدينة خلال هذه الفترة ما قدمه الأسير الألماني فندلين شلوصر والذي قدم معلومات غزيرة ومتنوعة عن المدينة تناولت في معظمها الجوانب الثقافية والاجتماعية، فأشار أن المدينة يطلق عليها الأتراك اسم قسطنطينة يمكن دخولها من أربعة أبواب، باب القنطرة، باب الرحبة، باب الجابية، باب الوادي، يكثر فيها عدد كبير من الأسواق والدكاكين وعدد من حوانيت القماش والذهب التي يملكها بعض اليهود، وكذلك عدد من الحمامات العامة والمقاهي، سكانها خليط بين الأتراك، العرب، القبائل، واليهود من بنينهم أناس أثرياء جدا لكنهم يتظاهرون بالفقر خوفا من جشع السلطة العثمانية المتمثلة في الباي، فسكان المدينة بالرغم من الرخاء الاقتصادي وازدهار أسواقها كانوا يعانون من ظلم وجشع الأتراك.³

كما أشار شلوصر إلى المدينة كانت تسيير وفق قوانين صارمة في المعاملات العامة، لذلك يسودها الكثير من النظام والالتزام كغيرها من الحواضر، عرفت حركة ثقافية تمثلت في نشاط العديد من المساجد

¹ نفسه، ص 329.

² وهذا الوصف ذاته الذي قدمه الضابط الفرنسي سانت هيبوليت Saint Hypolyt الذي كان من العسكريين الفرنسيين المتحمسين لشن هجوم على المدينة، فقد قدم وصفا يحمل إمضاءه بتاريخ مارس 1832، بالرغم من أنه غلب عليه الجانب العسكري إلا أنه اعتمد على رحلة شو، في تقديم معلومات حول المدينة.

³ فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص 73.

والمدراس، التي كانت تهتم بتعليم القرآن الكريم القراءة والكتابة...¹، إلا أنه بالرغم من ذلك لفت انتباه شلوصر اعتقاد القسنطينيين الملفت بالمرابطين والسلطة الروحية والخوارق والتي كانت من أكثر العادات الشائعة جيدا بين سكان المدينة.²

¹ نفسه، ص 75-76.

² نفسه، ص 83-84.

ب- مدينة معسكر:

مدينة بناها البربر قديما على بقايا آثار رومانية تسمى "فكتوريا"، ورد ذكرها لدى الإدريسي في القرن 12م بقوله "مدينة جد مسقية ويساتينها خصبة..."¹، كما وصفها الطبيب الإنجليزي شو Show "بأنها مدينة تقع في الشمال ليست بعيدة عن البحر المتوسط...أغلب بيوتها مبنية من الحجارة تتوسط أحد أجمل السهول، توجد بالمنطقة العديد من القرى تحيط بها منابع المياه...أما في جنوبها فتوجد العديد من القبائل العربية مثل قبيلة فرندة..."²، وتعود عوامل ازدهار المدينة وظهورها كمركز سياسي، اقتصادي وثقافي هام في بايلك الغرب والبلاد عامة إلى تراجع الدور الريادي الذي لعبته تلمسان* طيلة قرون طويلة قبل مجيء العثمانيين، إذ أن رفض سكان المدينة للحكم العثماني ومعاداتهم لهم أدى إلى تعرضها لحمالات عسكرية متكررة، أدت إلى تدمير أجزاء كبيرة من المدينة، مثل الحملة التي شنها الداوي حسن سنة 1670³، فزادت أهمية مدينة معسكر، بعد أن وضع العثمانيين فيها حامية عسكرية، لتأمين المواصلات بين قلعة بني راشد وتلمسان، إلى أن تحولت شيئا فشيئا إلى مركز اقتصادي وتجاري وسوقا للبضائع، وملتقى لتجار الغرب الجزائري، لا سيما أن المنطقة كانت غنية بالإنتاج الزراعي والصناعي أين كانت تصنع الأسلحة النارية، الصابون، السروج، البرانس، الزراي، التي كانت تصدر إلى الدول المجاورة⁴، فكان سهل غريس وهو أهم سهول الجزائر، ينتج منتوجات زراعية متنوعة لذلك قرر العثمانيون تحويل مقر البايك من مازونة إلى معسكر سنة 1708م فتحولت المدينة إلى عاصمة لبايك الغرب أيام الباي محمد بوشلاغم.⁵

¹ الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص 111.

² Thomas Show, op.cit., p 216.

* إلى جانب الحملات العثمانية على مدينة تلمسان أدى تحرش الإسبان بسواحل البلاد بداية القرن 16م إلى هجرة العائلات العلمية الغنية من تلمسان إلى المغرب الأقصى، وعلى إثر ذلك فقدت المدينة عددا كبيرا من سكانها ذوي النفوذ الاجتماعي والتأثير العلمي وتأرجحت إلى المراتب الثانوية من حيث الأهمية الاقتصادية والفكرية. (أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 172)

³ Thomas Show, op.cit., p 244.

⁴ نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المرجع السابق، ص 147.

⁵ يصفها تيدينا بأنها مدينة كبيرة نوعا ما، تنظم فيها عادة سباق الخيول العربية، حيث يقود الفارس بالهرولة وإطلاق الرصاص بالبندقية، وهي غنية بثروة حيوانية هامة من رؤوس الماشية الجمال والأبقار، يوجد بها أجمل السهول، التي لم يسبق أن رآها من قبل. (حميدة عميراي، المرجع السابق، ص 68).

كما تحولت المدينة منذ القرن 18م إلى حاضرة هامة من حواضر الجزائر في الفترة العثمانية خاصة بعد مجيء مُجدد الباي مُجدد بن عثمان المعروف بمحمد الكبير الذي حول المدينة إلى مركز سياسي، اقتصادي، وثقافي، وعاشت المدينة أزهى عصورها في عهده، بما شهدته من نهضة علمية، فكرية وحضارية كبرى، وقد ساعد في ازدهارها بهذا الزخم الحضاري الدور الذي قام به أيضا الأندلسيين بعد استقرارهم في المنطقة منذ بداية القرن 16م، فكان تأثيرهم في مختلف جوانب الحياة، كما أن تواجد العنصر التركي بالمدينة قد حمل عادات وتقاليد شرقية أثرت على الجانب الثقافي للمنطقة.¹

والجدير بالذكر أن جهود الباي مُجدد الكبير لم تقتصر على مدينة معسكر فحسب، بل امتدت إلى مدن أخرى بلبايك، مثل تلمسان، وهران، مستغانم، لذلك تحولت الحاضرة في عهده إلى مركز إشعاع علمي وثقافي، وخصصت أوقاف هامة لإنشاء العديد من المؤسسات الثقافية كالمساجد، والمدارس، إضافة إلى الدور الذي قامت به المدرسة المحمدية التي استقطبت عدد كبير من الطلبة والعلماء.²

يعتبر تيدينا من أبرز الشخصيات الأجنبية التي زارت المدينة واستقرت بها لمدة طويلة، إلا أنه ورغم اعترافه بتكوين صداقات كثيرة مع سكانها من الشباب المرموقين وحضوره لحفلاتهم وأعراسهم، إلا أن وصفه لها قد غلب عليه الطابع السياسي والشخصي، دون الحديث عن جهود الباي الضخمة في الجانب الثقافي، فقد نفى كل ذلك عندما أشار أنه لا يوجد بالمدينة أكثر من 100 شخص من يعرفون القراءة والكتابة، كما تحدث عن حالة التخلف الفكري السائدة في المنطقة.³

ويبدو أن ذلك راجع إلى النظرة الاستعلائية لتيدينا في محاولاته لإنقاص من كل ما بشأنه يرفع من قيمة المدينة والمنطقة عامة، وشأن سكانها باعتبارهم مسلمين فعلاقاته كانت جيدة بالعنصر التركي والمسيحيين الأسرى هناك.

ج- بلاد الزاب:

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 143.

² ابن سحنون الراشدي، المرجع السابق، ص 146-147.

³ أحمد عميراي، المرجع السابق، ص 86.

أورد الحسن الوزان وصفا للمنطقة بقوله: "منطقة واسعة تجمع مدن كثيرة مجاورة للصحراء، تشتهر بالأثمار والعيون من مدنها بسكرة، طولقة، مقرة..."¹.

ففي حديثه عن بسكرة قدم الورثاني نصا مطولا نقلا عن الرحالة المغربي الدرعي الذي بدوره نقله عن العياشي جاء فيه أن بسكرة "بلدة كثيرة المياه التي تمر بين وخلال البيوت، فكل باب عنده ساقية من ماء تجري من ماء حلو كالعسل، نخلها عظيم وغلتها كثيرة... وكذا الفواكه خصوصا الزيتون فإنها كثيرة جدا، هذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان، فالجامع الأعظم يدل على ذلك فإنه لا نظير له وصومعته ما أحسنها وما أوسعها... فيها برجان للترك عامران أحدهما في البلد والآخر خارجها..."².

ولم يختلف الطبيب الإنجليزي شو في وصف المدينة بأنها: "مدينة بها ينابيع مياه كثيرة، كما أشار أن الأتراك قد نصبوا بداخلها حامية وبنوا بها قلعة محصنة بقطع من المدفعية، يحيط بها سور، وهي معروفة بسوق لتجارة العبيد، سكانها معروفون بالثقة والتحضر... وهي مدينة بنيت على أنقاض مدينة رومانية"³.

وقد أعجب الرحالة المغربي العياشي بالمدينة فقدم فيها أوصافا كثيرة، حيث قال إن المدينة "من أعجب المدن وأجمعها بمنافع كثيرة مع توافر أسباب العمران فيها، فقد جمعت بين التل والصحراء... ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جاري في نواحيها وأرجاء متعددة... ومزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحم والسمن في أسواقها..."⁴.

ومن مدن الزاب التي ورد ذكرها في أغلب الرحلات المغربية مدينة ورقلة⁵، ورد ذكرها لدى الحسن الوزان بأنها "مدينة قديمة يوجد بها قصر وبساتين واسعة، وحوها نخل كثير وفي ضواحيها عدة قصور

¹ الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 138.

² الورثاني، الرحلة الورثانية، ج1، ص 200.

³ Tomas Show, op.cit., p 395.

⁴ أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج2، ص 540.

⁵ وردت أسماء كثيرة للمدينة في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب، مثل الإدريسي الذي ذكرها باسم وركلة أو وركلا. (أنظر الإدريسي، المصدر السابق، ص 222).

وعدد لا تحصى من القرى"¹، وعن وفرة مياهها يقول العياشي "من غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الآبار، يحفرون بئرا نحو خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر صفح فينقرونه، فإن نقبوه فاض منه الماء فياضانا قويا ويطلع بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا...وقد بلغت هذه العيون حوالي ألف وواحد وخمسون عينا جارية، تستغل في نفس البساتين"²، يتكون سكان المدينة من البربر، فبنوا وركلان هم أحد بطون قبيلة زناتة البربرية، كما سكنها بعض القبائل العربية قبل قبائل بني المعقل الذين ملكوا الكثير من قصور الصحراء، إضافة إلى اليهود، والزنوج الأفارقة³، تواجد العثمانيين بالمدينة منذ القرن 16م، وذلك من خلال الحملات العسكرية التأديبية التي اعتاد حكام الجزائر العثمانية القيام بها لبسط نفوذهم على الأقاليم الصحراوية مثل حملة صالح ريس سنة 1552 الذي دخل إلى المدينة، وأخذ من تجارها 200 ألف ريال وفرض عليها ضريبة سنوية من الذهب وثلاثين عبدا تم إرسالهم إلى مدينة الجزائر⁴، إلا أنه وإلى جانب ذلك طغى على هذه العلاقات التبادل التجاري بحكم الموقع الجغرافي للمدينة، حيث كانت ملتقى القوافل التجارية لوقوعها على أحد أهم طرق المواصلات ومحطة للقوافل التي تعبر الصحراء وتربط أقاليم الجنوب بالشمال ويمتد إلى الحدود التونسية والليبية.⁵

ومنها طريق الذهب الذي كان يمر بورقلة وتقرت ويربط موانئ بلاد المغرب بالمدن الرئيسية لممالك السودان (مثل كانوا وتمبوكتو...) لذلك عرفت المدينة استقرار وازدهار اقتصادي إلا ان كثرة الصراعات الداخلية التي ميزت القرن 17م بين الأسر المحلية وشيوخ القبائل البدوية، وقد أثر على الوضع العام للمدينة⁶، هذا لم يمنع المدينة القيام بدور اقتصادي هام كحاضرة صحراوية رائجة اقتصاديا، فكانت تصدر العديد من السلع مثل صفائح النحاس، قطع الحديد، الفلفل الأسود، أنياب الفيلة، جلود الحمير

¹ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 136.

² أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 45.

³ Edmond sergent, Le peuplement humain du sahara institut pasteur, Alger, T 31, 1953, p 23.

⁴ استمرت الحملات التأديبية على المدينة، حملة يوسف باشا 1790، حملة صالح باي 1771، حملة أحمد المملوك باي قسنطينة سنة 1818، وقد تسببت هاتين الحملتين بتمرد سلطة بني جلاب على السلطة العثمانية ورفض التبعية لها. (أنظر Charle Feraud, Le Sahara de constantine, Alger, 1884, pp 80-81).

⁵ نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المرجع السابق، ص 83.

⁶ المرجع نفسه، ص 88.

الوحشي، كما كانت سوقا رائجة، لتجارة العبيد، حيث تتم المعاملات في أسواق ورقلة بالبوجو أو الفرنك شأنها شأن مدن الشمال.¹

وقد ساهم الرخاء التجاري والازدهار العمراني في توفير مناخ ملائم للحركة العلمية، كما أن التواصل المستمر مع بلاد المشرق كان عاملا مهما في إثراء الحياة الثقافية، هذا وقد شكل التلاحم العائلي والعشائري مع المسجد والزاوية مصدرا للثقافة الاجتماعية، حيث قامت هذه المؤسسات بدورها في تأديب الأطفال وتعليمهم القراءة والكتابة، وتحفيظ القرآن الكريم، فلم تكذب تحلو قرية من قرى المنطقة من مدرسة قرآنية تابعة للمسجد بنوعيه المالكي والإباضي، كما أن سكان ورقلة كانوا مهتمين بالمطالعة وجمع المخطوطات وخاصة أن بعض المساجد كانت لها مكتبات خاصة²، وهو ما أكدته العياشي بقوله: "لقيت إمام المسجد وأدخلني إلى منزله وأحضر لي ما عنده من الكتب فوجدت عنده أجزاء من الموطأ ومن البخاري... وبعض شروح المختصر والرسالة... وقد سألت الإمام عن وجود خزائن كتب فأخبرني أن عند الأمير خزانة من الكتب وأنه لا يمنع من أراد الدخول إليها، فأدخلني إلى كتبه فإذا عنده نحو أربعين سفرا من جملتها التوضيح والثاني..."³.

وعلى ضوء كل ذلك يمكن القول إن مدن بلاد الزاب كانت تمثل حواضر ثقافية صحراوية لا تختلف كثيرا عن باقي مدن وحواضر هذه الفترة، فقد أنجبت علماء ذائعي الصيت، واشتهرت بمحاضرها العلمية، وغنى خزائنها ومكتباتها بأمهات الكتب، هذا بشهادة الرحالة المغاربة الذين توقفوا في هذه الحواضر الصحراوية وأبدوا إعجابا كبيرا بالمظاهر الثقافية السائدة، وإلى جانب دورها في الإشعاع العلمي كانت تمثل محطة تجارية هامة بعبور القوافل الصحراوية الجملة بمختلف البضائع، التي تمول أسواق المناطق الشمالية.

¹ CH. Dumas, op.cit., p 86.

² أحمد مريوش، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 187.

³ أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 46-47.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة خرجنا بمجموعة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

- مثلت الجزائر رقعة جغرافية من شمال إفريقيا كانت ملتقى هجرات إثنية وثقافية، أصبحت أكثر حدة في الفترة العثمانية، حيث تحولت مدينة الجزائر إلى عاصمة كوسموبوليت Cosmopolite مما خلق مجتمعا متعددًا عرقيا ممتزج وله قابلية لاستقبال الآخر في حدود وأطر ثقافية عربية إسلامية، إلا أنه في الوقت ذاته قد حافظ على خصوصياته الثقافية الممتدة إلى أعماق التاريخ الإنساني، وهي حصيلة نتاج ثقافي تراكمي لهذا المجتمع.
- بينت الدراسة اختلال واضح بين الهوية الثقافية لبعض المدن والحوضر، التي تعد بمثابة مراكز ثقافية كبرى لم تمارس دورها وتأثيرها بشكل فعال على الريف، حيث ظلت الأرياف شبه منفصلة ثقافيا، كما كانت هذه المراكز ذات ثقافة تغلب عليها الفطرة والعادة وهي في عمومها محدودة مقارنة مع الأخرى.
- رغم الزخم الذي عرفته الدراسات التاريخية في الجزائر، من حيث تنوع المواضيع وغزارة الإنتاج، إلا أن التاريخ الثقافي لا زال منهجا جديدا لم يأخذ حقه الكافي في الدراسة التاريخية المقارنة، من حيث جرد وتوظيف المصادر المحلية والوثائق الأرشيفية، وهذا النوع في الحقيقة في حاجة إلى الاعتماد على الدراسة الأنثروبولوجية ومناهج علم الاجتماع وعلوم أخرى حديثة. وهنا لابد من الوقوف والاعتراف بالجهود التي بذلها الدكتور أبو القاسم سعد الله في إمطة اللثام عن جانب كبير من الحياة الثقافية في الجزائر خلال الفترة العثمانية، وعدت موسوعته الثقافية بحق المرجع الرئيسي والأساسي لانطلاق كل البحوث الخاصة بهذا المجال.
- فقد لاحظنا من خلال قيامنا بقراءات بسيطة لبعض المصادر المحلية ولنماذج مختارة أن ما قدمته في هذا الموضوع وخلال هذه الفترة كان بمثابة شذرات قليلة ومحدودة اعتمدت في عمومها تسليط الضوء على الحياة الدينية للمجتمع الجزائري، وتراجع لعدد كبير من العلماء في قطيعة شبه تامة عما كان يحدث في أوروبا من ثورة فكرية وعلمية.
- إن الدارس للمصادر الأجنبية عامة خلال الفترة العثمانية يقف على حقيقة أن الإيالة ظلت طيلة هذه الفترة قبله للأجانب بمختلف جنسياتهم، دوافعهم، ظروف مجيئهم مكانتهم الاجتماعية وأهدافهم، حيث توافد على مدينة الجزائر عدد لا يحصى من الأسرى، رجال

الدين، الرحالة المستكشفون، العلماء، الأطباء، القناصل، والجواسيس، كتبوا كمًا هائلًا من الكتب في شكل رحلات مذكرات، مقالات، وتقارير وقد تمكنت حصيلة ما كتبوا من رسم صورة للمجتمع الجزائري من زاوية ونظرة هؤلاء وهي بمثابة مواجهة تاريخية قيمة بين الشعوب في ثقافتها وحضارتها المختلفة، فمن النادر العثور على مصدر أجنبي كتب عن الجزائر خلال هذه الفترة خدمة لتدوين تاريخ هذا البلد، فالكثير من هذه الكتابات كان عبارة عن روايات خيالية مليئة بالمغامرة التراجيديا والتشويق، خاصة تلك الخاصة بما عرف بأدبيات الأسر والافتداء، التي وجهت لأغراض تجارية ودينية، استغلت من طرف الكنيسة المسيحية لتلفيق الأكاذيب ضد الإسلام والمسلمين، وكانت بمثابة الوقود الذي دفع المجتمعات الأوروبية لنصرة المسيحية وتخليص إخوانهم المعذبين في بلاد البرابرة.

- ما يلاحظ ابتعاد جل المصادر الأوروبية التي تطرقت للحياة الثقافية في الجزائر العثمانية عن الموضوعية، من خلال إطلاق كما هائلًا من الأحكام والأوصاف على الفرد الجزائري والمجتمع بصفة عامة، الذي وصف في عمومها بالكسل والخمول والانحراف الأخلاقي لدرجة أن بعضها كان يستخف بعقول الجزائريين في وصفه لبعض العادات والتقاليد، مثل طرق التشافي من الأمراض زيارة القباب والتبرك بالقبور...، كما صنف أغلبها المجتمع الجزائري، ضمن المجتمعات المتوحشة والمنغلقة، تعاني من كل مظاهر الجهل والتخلف التشدد الديني، باعتبار الإسلام دين عنف وتطرف، لذلك تخللت أغلب المصادر ألفاظ قوية وقاسية، كما لا تخلو من رسائل تحريض للحكومات الأوروبية للقيام بحملات عسكرية لاحتلال الجزائر التي وصفت في العادة بوكر اللصوص، وقطاع الطرق فاستغل الكثير من هذه المصادر ظاهرة الأسر، حيث حيكت قصص وروايات عن معاناتهم في الأسر من أجل استعطاف الرأي العام الأوروبي والحكومات الأوروبية لكسر شوكة الجزائر ومحاولة القضاء عليها.

- عند اطلاعنا على عدد لا بأس به من هذه المصادر لاحظنا الكم الهائل للكتابات الفرنسية حول الجزائر لا سيما منذ بداية القرن 17، وهذا ما يفسر الأغراض والدوافع الفرنسية الحقيقية منها هذه الكتابات، والواضح أن السياسة العثمانية على الصعيدين الداخلي والخارجي في الجزائر، قد جعلت الطريق معبدا أمام هؤلاء، حيث فتحت المجال أمام توافد أعداد هائلة من الأوروبيين إلى الجزائر في إطار النشاط البحري الذي عرف بالقرصنة، والآثار

المرتبة عنها، ضف إلى ذلك الفراغ الثقافي، وعدم اهتمام العثمانيون بهذا المجال شجع هؤلاء على الكتابة ووصف المجتمع الجزائري وفق نظرتهم الخاصة التي تخضع إلى العوامل ذاتية شخصية أو عامة.

- أهملت أغلب المصادر الحديث عن وجود حركة ثقافية تعليمية، حيث وصف أغلبها الجو الثقافي العام في الجزائر بأنه جو تملأه الروح التقليدية في ظل غياب أي نوع من الاحتكاك والتواصل، بين العالم الإسلامي وأوروبا التي تعيش أزهى عصورها، فأصبح كل تجديد مرفوض، فالعلم فيها ينحصر في كتاب دين أو بعض طرق الحساب البسيط الذي يستعان به لمعرفة الموارث ويستدل به على مواقيت الصلاة.

- لكن بالمقابل لا بد من الإشارة أن معظم هذه الكتابات تعتبر مصادر هامة في تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية فالأكيد أنها غطت النقص الذي تركته المصادر المحلية في وصف الحياة العامة للمجتمع الجزائري، بتفاصيلها الدقيقة والعميقة، وقدمت معلومات غزيرة ومتنوعة عن مختلف جوانب حياة هذا المجتمع لا سيما الحياة الثقافية التي غطت جانبا كبيرا من معالمها فوصفت المعالم العمرانية لمدينة الجزائر وبعض حواضر الإيالة بعناية كبيرة وخاصة لدى أغلب هذه الكتابات، فقدموا مادة أولية فائقة الأهمية للتعريف بالمدينة، نقاط الضعف والقوة، وهو ما استغل فيما بعد في مشروع الحملة الفرنسية العسكرية على الجزائر سنة 1830م.

- من جهة أخرى لا بد من الإشارة أيضا أن المدقق في هذه الكتابات يدرك أهمية ما كتبه المدرسة الأمريكية والألمانية والتي بالرغم من قلتها مقارنة بالكتابات الفرنسية إلا أنها قدمت معلومات قيمة وأكثر دقة وموضوعية في طرح وتقديم الأحداث بالرغم من اعتماد الكثير منها على المصادر الأوروبية وعليه يمكن القول أن مجال البحث في التاريخ الثقافي للجزائر خلال الفترة العثمانية ما زال يتطلب الكثير من الجهود والدراسات المكثفة لإمطة الغموض والتزييف الذي طال العديد من جوانبه ويبقى من الضروري وبشكل كبير الاعتماد على كل الكتابات الأجنبية التي يستدعي التعامل معها بحذر واستخدام كل وسائل التمحيص والتدقيق فيما ورد فيها من معلومات بهدف الوصول إلى مقارنة تاريخية صحيحة، وهو ما يفتح مجالا واسعا أمام الباحثين.

الملاحق

الملاحق

ملحق رقم 01: مصطلحات العمارة والوظائف الدينية¹

الصفحة	المصطلح ودلالته
215	مسجد Mesdjid
216	الجامع الكبير Djamï el-kebir
	القبّة Koubbé
220	الزّاوية Zavié
216	مفتي Muftis
	المجلس الشّريف Medjlis el-cherïf
	المؤذن Muzzin
220	الولي Wali
81	مسيحيّ يعتنق الإسلام un Chrétien qui se fait turc Aaldj
	يهوديّ يعتنق الديانة المحمّديّة un juif qui se fait mohamétan Salami

¹ خشمون حفيظة، المرجع السابق، ص 190.

الملحق رقم 02: ساكنة المدينة حسب إحصائيات Venture De Paradis¹

الصفحة	ملاحظات	العدد (نسمة)	الفئة
20	-	6000	الكراغلة
	بما فيهم الأتراك الموزعين في خدمة المحلات والمعسكرات والصبايحية والذي قدر عددهم ب: 7000-8000.	3000	الأتراك الشرقيون
	-	7000	اليهود
	بالإضافة إلى الأسرى، هناك التجار، القناصل ورجال البعثات الدنيية (مفتدي الأسرى).	2000	الأسرى وغيرهم من العناصر المسيحية
	منهم زواوة والمزابيون ...	32000	المور (المغاربة)
	-	50000	المجموع

¹ خشمون حفيظة، المرجع السابق، ص 192.

الملحق رقم 03: قائمة بأهم مصطلحات اللباس وأدوات الزينة¹

المصطلح	معناه	الصفحة
Chachiet	الشَّاشِيَّة قنسوة.	37
Abrouk	الخفاف تضعه المرأة على رأسها يكون أبيضاً أو ملوناً.	64
Haik	نوع من الملاحف الصَّوْفِيَّة، تلبسه النساء، يغطي كامل الجسم ويثبت على الأكتاف بواسطة دبابيس.	64-39-38
Borka	الخفاف تضعه المرأة عند الخروج يغطي كلَّ الوجه ما عدا العينين.	64
Sarwal	يرتديه الرجل ويكون من النسيج والكتان.	64
Bernus	كساء أبيض أو أسود اللون ينحدر إلى الأسفل يستر الجسم ويعجب للملابس التي يرتديها الرجل أسفل البنوس.	66-65-39
Sidrié	لباس يرتديه الرجل أسفل القميص، تعمل على شدِّ الجسم وتنحدر إلى الفخذين.	65
Bedaji	قميص داخلي يرتديه الرجل فوق الصدريَّة.	65
Hizam	يكون من الصَّوْف أو الحرير العادي أو المنقَّب، يوضع فوق البدعيَّة.	65
Caftan	رداء من الحرير أو القماش الأملس المطرَّز، ينحدر إلى الأسفل.	62
Juba	رداء من القماش يرتديه الرجل فوق البدعيَّة.	65
Sabat	حذاء الرجل.	66
Amamé	خفاف يغطي الرأس يرتديه الخوجة، البولكياشي والنَّاي وتكون دائريَّة من المسلمين الأبيض.	66
Ghella	قفطان بدون أكمام مفتوح كلياً من الأمام ترتديه المرأة.	62
Sarma	قنسوات مطرزة بالذهب أو الفضة تضعها النساء.	62-37
Khakhal	أساور ذهبيَّة أو فضيَّة ثقيلة تلبسها المرأة في الأرجل.	63
Souar	أداة للزينة ترتديها المرأة في يديها.	63
Msäis	أساور تزيّن بها المرأة في يديها وتكون بدون أحجار.	63
Mekyäs	سوار من قرون الجاموس.	63
Menäkich	الأقراط التي تزيّن أذن المرأة.	64
Schibirlé	الحذاء الذي ترتديه المرأة عند الخروج.	66
Assabé	ربطة حريريَّة رقيقة مزينة بالجواهر والماس والزمرد.	63
Henné	حناء أحمر من أصل نباتي تُحضَّب به المرأة يديها ورجليها.	64

الملحق رقم 05: ترجمة فونتينر لأنشودة نشرها فانيان سنة 1895م¹

¹ حفيظة خشمون، المرجع السابق، ص 197-198.

الملاحق

بسم الله نبدا على وفا *** هذه القصة تعيانا
 قصة البومبا الملتفا *** كيف جابوها اعدانا
 واضحا على البعد واقفا *** ما قربوا لحدانا
 يا رب يا عالم الخفا *** اهزم جيش اعدانا

رقم البيت	العبارة أو الكلمة	شرحها
1	ذا القصة تعيانا	هذه القصة التي رأيناها
6	اسمع يا قوم ما طرا	اسمعوا يا ناس ما جرى
7	دين المرك	Danois أي الدانماركيين
7	اخزبو جدّه	Que Dieu confonde son aïeul
12	معرش	Excité
16	أحنايا	نُحن
17	يفرّصوا	يتمشون بعجلة se dépêcher
18	زُصوا	امشي بشوية aller doucement
35	التيهجي	La briante من الأسماء التي أطلقها العرب على مدينة الجزائر
39	خبّانة	les cimetières القبور
43	يُزُصم بسيوف الخشمانه	يهجم بسيف عريض خشين
47	حيطان راية	حيطان هابطة
62	أهل العفا	أهل العفو والرضوان
63	رجال العيان	les saints personnages الأولياء
81	زانة	baton عكاز
85	أهل الجوان	les chrétiens النصارى
92	حاشا تلقا الحانا	محال أن يصلها سوء
99	لطراد الكفار هاويا	Désireux de combattre les رغبين لقتال الكفار infidèles

الملحق رقم 06: دخول بايصونال من تونس إلى الجزائر وجولاته الأولى في المناطق الشرقية²

¹ حفيظة خشمون، المرجع السابق، ص ص 223-224.

² حفيظة خشمون، المرجع السابق، ص 257.



المرحلة السادسة: الرسالة الحادية عشر

الملحق رقم 07: مسارات بايصونال والمناطق التي زارها في إطار مهمته العلمية بالجزائر¹



المرحلة الأخيرة، الرسالتان: الثالثة عشر والرابعة عشر

الملحق رقم 08: منظر عام لميناء ومدينة الجزائر في العهد العثماني²

¹ نفسه، ص 257.

² فاتح بلعمري، الحياة الحضرية، ص 376.



الملحق رقم 09: الجامع الكبير بمدينة الجزائر¹



الملحق رقم 10: قصر عزيزة بمدينة الجزائر²

¹ نفسه، ص 379.

² فاتح بلعمري، المرجع السابق، ص 380.



الملحق رقم 11: حمام بوشلاغم يتواجد على بضعة أمتار من ضريح عبد الرحمان الثعالبي¹



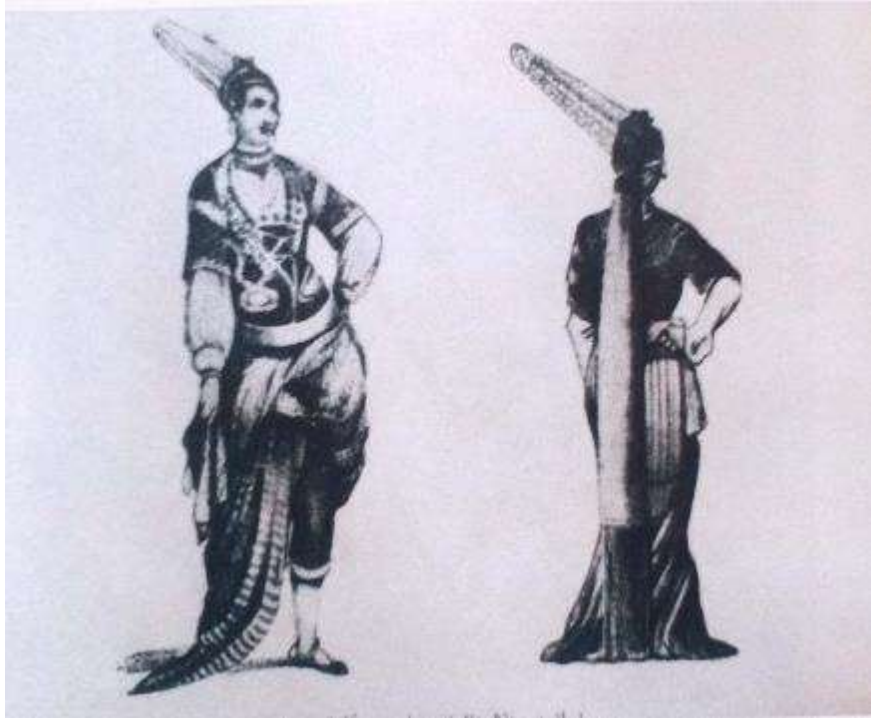
الملحق رقم 12: مدرسة في مدينة الجزائر في العهد العثماني²

¹ نفسه، ص 381.

² فاتح بلعمري، المرجع السابق، ص 385.



الملحق رقم 13: لباس المرأة الأندلسية بالمدن الحضرية في الإيالة الجزائرية¹



الملحق رقم 14: لباس المرأة العثمانية الحضرية²



¹ Rozet, op.cit., p 64.

² Ibid, p 65.



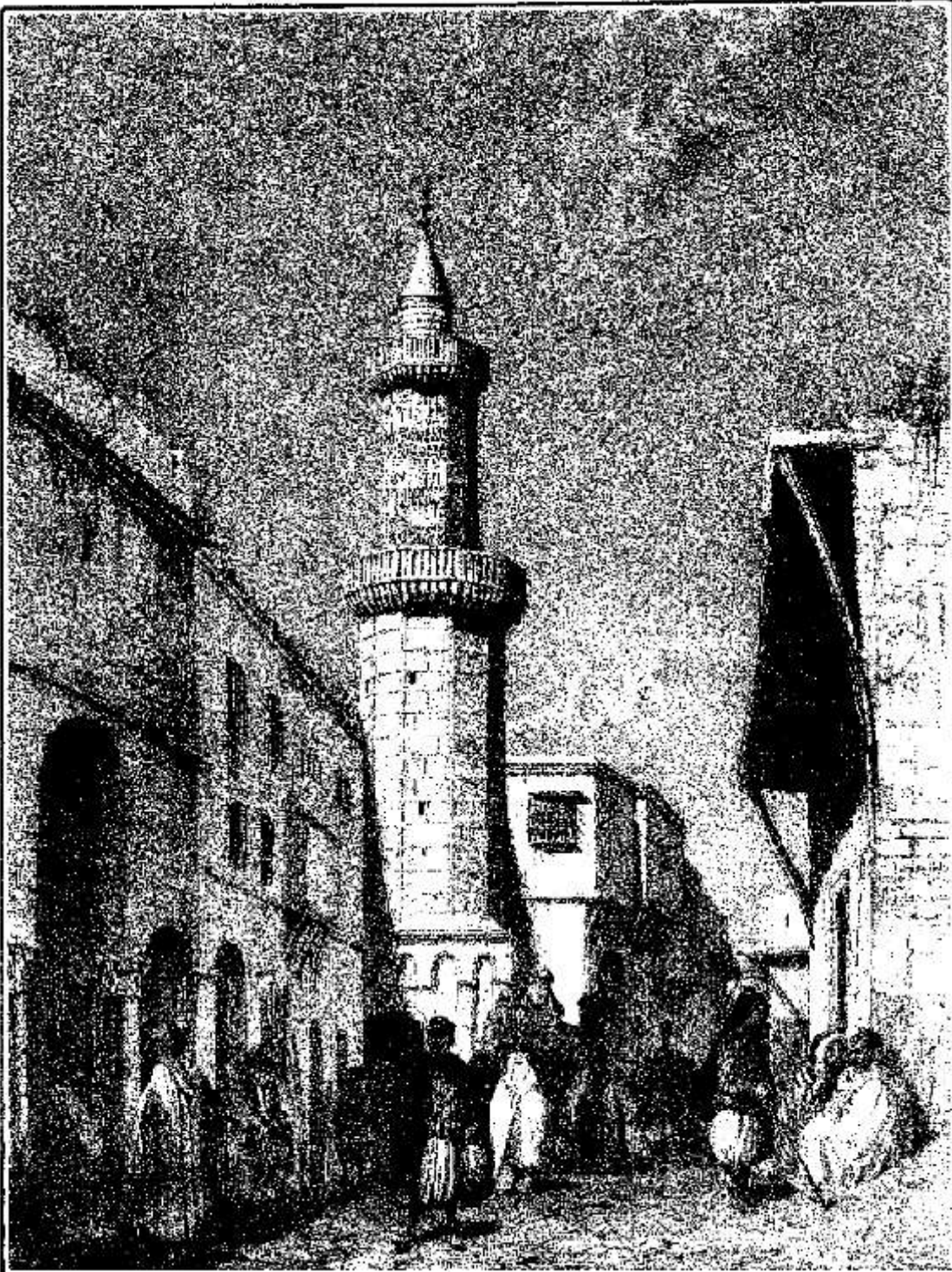
¹ Rozet, p 66.

الملحق رقم 16: لباس المرأة المحلية بالمدن الحضرية في الإيالة الجزائرية¹

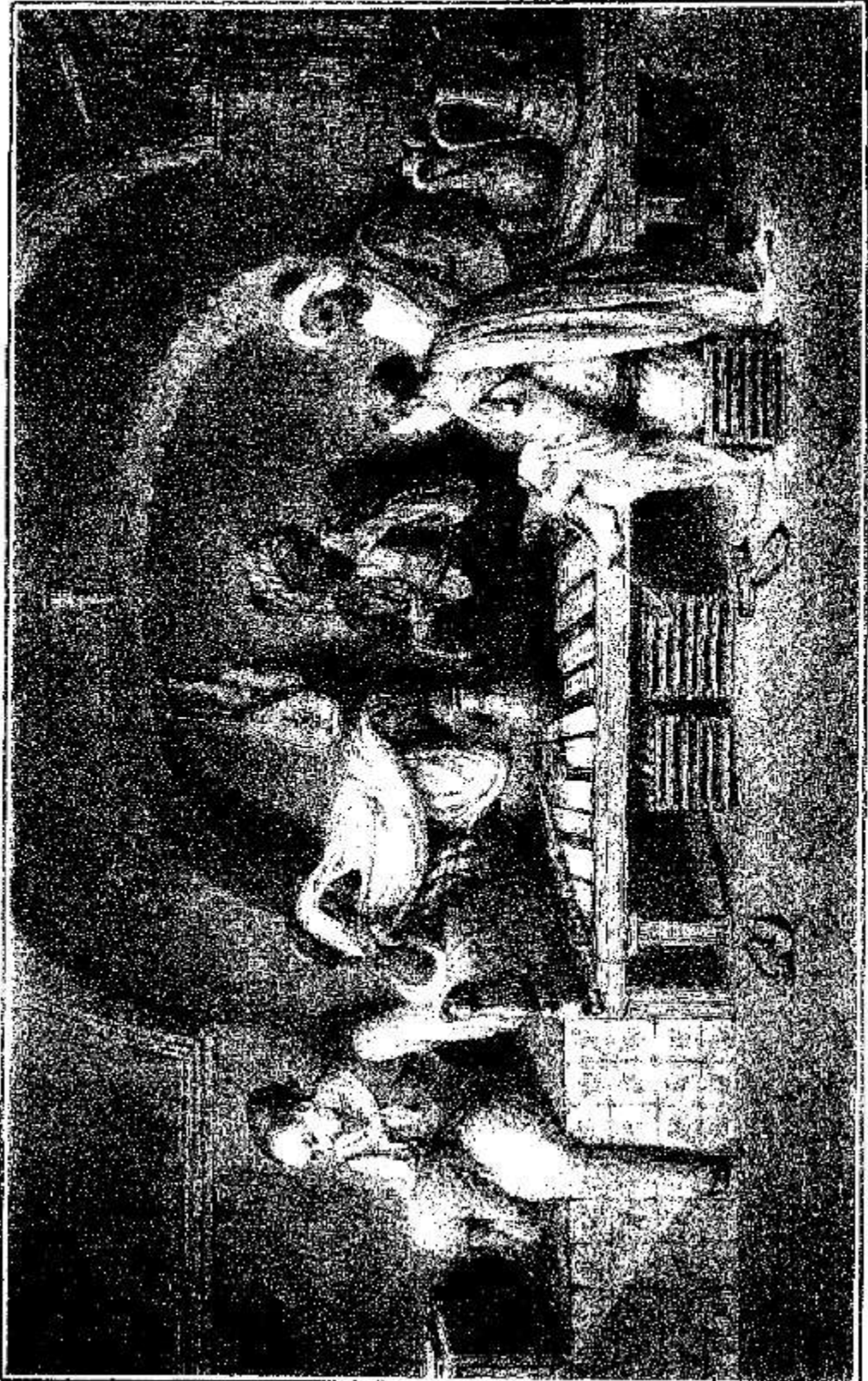


¹ شريفة طيان، المرجع السابق، ص 112.

الملحق رقم 17: صورة لأحد مداخل مدينة الجزائر باب عزون¹



¹ ليسور ووليد، المصدر السابق، ص 21.



الملحق رقم 19: صورة تاجر¹

¹ ليسور ووليد، المصدر السابق، ص 23.



¹ ليسور ووليد، المصدر السابق، ص 23.



قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

1- باللغة العربية:

1-1- الوثائق الأرشيفية:

1. دفتر صالح باي في 70 ورقة تضم 65 عقدا ما بين 1185-1204هـ، بأرشفيف قسنطينة.
2. سجلات الأحوال الشخصية بأرشفيف قسنطينة.
3. السجل رقم 03 العلبة 02 من 1211 إلى 1218.
4. السجل رقم 07 العلبة 05 من 1241 إلى 1248.
5. رسالة 50 محفوظ بالمكتبة الوطنية، الجزائر تحت رقم 1903، رقم الرسالة 1641.
6. Liste des Captifs Français dans le Royaume d'Alger le ois d'octobre 1750, Archive de Constantine 37778 AD.

1-2- المصادر:

1. ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013.
2. ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط2، تحقيق مُجّد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
3. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج7، تح، تع جعفر الناصري ومُجّد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت.
4. أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية (1709-1710)، ط1، تح عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2011.
5. أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج6، تح وإشراف مُجّد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية، 1981.

قائمة المصادر والمراجع

6. أبو القاسم الزياني، الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991.
7. أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث انفصل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 23.
8. أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية الحجية الصغرى، تح. عبد الله حمادي، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2013.
9. أبي الحسن التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، نقد وتع سليمان الصيد المحامي، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1988.
10. أحمد ابن عمار، نخلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى المصطفى الحبيب، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1902.
11. أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف مدينة الجزائر (1168-1754/1246-1830)، تح: أحمد توفيق المدني، ط1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974.
12. أحمد المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.
13. أحمد بن الهطال، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم النشر، الجزائر، 1988.
14. أحمد بن سحنون الراشدي، الشعر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، 1973.
15. أحمد بن مبارك العطار، تاريخ بلد قسنطينة تع وتح وتقد عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2016.
16. أحميدة عميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدينا أتمودجا)، دار الهدى، الجزائر، 2003.
17. ج.أو هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، ترجمة وتعليق نصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007.

18. جوزيف بيتس (الحاج يوسف)، رحلة جوزيف بيتس إلى مصر، مكة والمدينة المنورة.
19. جون وولف، الجزائر وأوروبا (1500-1830)، تر وتع أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
20. جيمس ليندر كاتكارت، مذكرات أسير الداوي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982.
21. جيمس ولسون ستيفنسون، الأسرى الأمريكيان في الجزائر، ترجمة علي تابلت منشورات تالة، الجزائر، 2007.
22. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
23. حسين الورثاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ وأخبار دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1974.
24. حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تعريب محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
25. رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر، مكة المكرمة والمدينة المنورة، تر عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، د.ت.
26. سبنسر برمنغهام، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة وتعليق عبد القادر الجراوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1997.
27. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
28. صالح العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مرا وتح يحيى بوعزيز، ط.خ، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.
29. عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار يعرب، دمشق، 2004.
30. عبد الرحمان ابن زيدان، إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج4، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008.

31. عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تق، تح وتغ أبو القاسم سعد الله، موفم الجزائر، 1983.
32. عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، نقد وتح وتعليق أبو القاسم سعد الله، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
33. عبد الله بن مُجَّد العياشي، الرحلة العياشية (1661-1663)، ج1، تحقيق سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار النشر السويدي، الإمارات العربية.
34. عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، د.م 1.
35. عبد الله كينون ومُجَّد تاريت، ثلاث رحلات مغربية ويليه مجموع رحلات جزائرية، تحقيق مصطفى حنيف ومحفوظ بوكراع، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
36. فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، تر وتقديم أبو العيد دودو، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.
37. مارمول كرنخال، إفريقيا، ج1، ترجمة مُجَّد حجي وآخرون، الجمعية الغربية للتأليف والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، 1984.
38. محمد إبن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981.
39. مُجَّد أبو راس، زهو الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق بن عمر حمدادو، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر.
40. مُجَّد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013.
41. مُجَّد عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تحقيق مُجَّد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، بيروت، 2003.
42. مُجَّد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مصطفى الحجازي، باب الفاء، فصل التاء والفاء، مطبعة حكومة كوبي، 1996.

43. مؤلف مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، تح مختار حساني، منشورات مطبعة دحلب، الجزائر، 1999.
44. مؤلف مجهول، غزوات خير الدين وعروج، نص تح نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934.
45. هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، تر أبو العيد دودو، ج1، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت.
46. وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبية للنشر، الجزائر، 2006.
47. وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تع وتق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

1-3- المراجع:

1. إبراهيم سعيود، دور بعض لدويلات الإيطالية في الصراع المتوسطي خلال الفترة الحديثة، الجزائر، وتوازنات القوى البحرية غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر ميلادي، دراسة تاريخية، تقديم علي العبيدي، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2017.
2. إبراهيم عرقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط2.
3. ابن حموش مصطفى، المدين والسلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دار البشائر للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 1991.
4. أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
5. أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مكتبة بيبير فونتانا، الجزائر، 1906.
6. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، دار الرائد، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.
7. أبو القاسم سعد الله، التجديد الإسلامي مُجدد بن العنابي المتوفى 1850م صاحب كتاب السعي الحمود في نظام الجنود، ط2، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1990.

8. أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش، حياته وآثاره، عالم المعرفة للنشر، الجزائر، 2015.
9. أبو القاسم سعد الله، الفكون داعية السلفية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
10. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 2009.
11. أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، دار المعرفة، الجزائر، 2011.
12. أبو القاسم سعد الله، حوارات، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
13. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار المعرفة، الجزائر، 2011.
14. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1988.
15. إحسان هندي، المثاقفة وحوار الثقافات، مؤسسة الصحافة والطباعة والنشر، دمشق، 2009.
16. أحمد الأزرق، الكتابات القرآنية ودورها في المحافظة على وحدة الأمة وأصالتها، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
17. أحمد السليماني، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، 1994.
18. أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي أخ محمد بن عبد الكريم، ط1، القاهرة، عالم الكتاب، 1969.
19. أحمد توفيق المدني، الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، ش و ن ت، ط2، الجزائر، 1976.
20. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة عام سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
21. أحمد توفيق المدني، مُجد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
22. إدغار موران، النهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي الثقافة والتراث، ط1، أبو ظبي، 2009.

23. أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري فعالياته خلال العهد العثماني (1519-1830)، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010.
24. أغناطيوس بوليا نوفتس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، تعريب صلاح الدين هاشم، لجنة الترجمة والنشر، القاهرة، 1963.
25. بدرالي بلقاضي، مصطفى بن حموش، تاريخ وعمران قصبه الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولوكس، موفم للنشر، الجزائر، 2007.
26. بشير رمضاني التليسي، الإتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن (10هـ - 16م)، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، د.ت.
27. بن الشيخ حكيم، مدينة الجزائر والأوضاع الاجتماعية والأنثروبولوجية، دار هومة، الجزائر، 2013.
28. جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم مُجد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2007.
29. جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.
30. الحاج أحمد بن مبارك العطار، تاريخ قسنطينة، تحقيق نورالدين عبد القادر، الجزائر، 1956.
31. حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة العربية العامة للنشر، ط1، مصر، 1991.
32. حفناوي، صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دروب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016.
33. حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي المورسكي، دار الهدى، الجزائر، 2018.
34. حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2007.
35. دائرة المعارف الإسلامية، ط1، بيروت، مج3.
36. دوبي كوتش، فهو الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002.

37. سي يوسف محمّد، نظام التعليم في بلاد زواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني، ج1، مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية، زغوان، تونس، 1990.
38. شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن القصصي-المقامة، دار المعارف، مصر، د.ت.
39. صالح نور، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873، أوجين فايسات، تقديم عبد الرحمان شيبان، دار قرطبة، الجزائر، 2013.
40. صلاح السردى، الثقافة وسؤال الهوية، مساهمة في نظريات الأدب المقارن، دار الكتب للنشر والتوزيع، 2013. <http://www.diwana.larab.com/spip-pit/article> . de 1955.
41. عادل زيادة، من فنون العمارة الإسلامية، حمامات السوق ودورها الحضاري، دراسة أثرية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2003.
42. عائشة شنوف، يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود، دار المعرفة، الجزائر، 2008.
43. عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830، مقارنة اجتماعية، اقتصادية، منشورات (ANEP)، الجزائر، 2007.
44. عبد الجليل التميمي، دراسة جديدة في التاريخ الموريسكي، ط1، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2000.
45. عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900)، تصدير أبو القاسم سعد الله، موفم للطباعة والنشر، الجزائر.
46. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
47. عبد الرحمان بدوي، الأدب الألماني في نصف قرن، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1994.
48. عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة، ط1، بيروت، 1997.
49. عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، ط2، بيروت، 1976.
50. عبد العزيز فيلاي، مدينة قسنطينة، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر.

51. عبد العزيز مُجَّد الأعرج، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1990.
52. عبد القادر دحدوح، المعالم الأثرية بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015.
53. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية في مختلف المظاهر الحضارية، ط2، منشورات جمعية المرخين، المغاربة، الرباط، 2006.
54. عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج3 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999.
55. عبد الله العروي، مفهوم التاريخ (الألفاظ والمذاهب)، الجزء الأول، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997.
56. العربي إيشبودان، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، منشورات دار القصة، الجزائر، 2008.
57. علي تابلت، العلاقات الجزائرية الأمريكية (1776-1830)، ج1، الجزائر، 2013.
58. علي خلاصي، قصبة الجزائر (القلعة، وقصر الداوي)، ج2، دار الحضارة، ط1، الجزائر، 2007.
59. علي خوجة، فحص مدينة الجزائر وجنانه، دراسة منشورة ضمن كتاب القصة الهندسة المعمارية وتعمير المدن، ديوان رياض الفتح، ط1، الجزائر، 1984.
60. عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
61. فاطمة الزهراء قشّي، قسنطينة أيام صالح باي باي البايات، منشورات ميديا بولس، قسنطينة، 2005.
62. فرانسوا دوس، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة مُجَّد الظاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.
63. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002.
64. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج1، مؤسسة موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

65. قرياش بلقاسم، قضية الأسرى الأوروبيين بالجزائر في الأدبيات الإنجليزية (1671-1830)، دار نور للنشر، الجزائر، 2018.
66. كريم بجيت، الرحلة وصورة الآخر قراءات في نصوص رحلة الأوروبيين حول المغرب، مطبعة الأمانة، الرباط، 2013.
67. كمال بن صحراوي، الحياة الريفية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الأيام، الأردن، 2019.
68. ليسات فلنزي، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ترجمة حمادي الساحلي، سبراس للنشر، تونس، 1994.
69. ليلي خيراني، المرأة في مجتمع الجزائر خلال العهد العثماني 1818-1830، دراسة أرشيفية، مؤسسة كوكب العلوم للنشر، الجزائر، 2017.
70. ماثيوكاري، مختصر تاريخ الجزائر، ترجمة على تابلت، ثالة، الجزائر، 2013.
71. مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة سيد الصاوي، عالم المعرفة، الكويت، يناير 1978.
72. مُجَّد الطمار، الروابط الثقافية، بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
73. مُجَّد الطيب عقاب، القصور بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، مدخل إلى العمارة الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2009.
74. مُجَّد الطيب عقاب، حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، صدر عن وزارة الثقافة، الطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
75. مُجَّد العربي السنوسي، مقدمة تحقيق كتاب بيسونال أندري، الرحلة إلى تونس (1724) تصدير خليفة شاطر، مركز النشر الجامعي، 2003.
76. مُجَّد العنتري، تاريخ قسنطينة، ط1، عالم المعرفة للنشر، الجزائر، 2009.
77. مُجَّد بلغيث، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، البصائر الجديدة، الجزائر، 2016.
78. مُجَّد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ح1، ط1، شرح وتعليق ممدوح، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، الجزائر، 1964.

79. مُجَّد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دمشق، 1969.
80. مُجَّد دراج، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة مُجَّد دراج، شركة الأصلة للنشر، الجزائر، 2010.
81. مُجَّد زكرياء عنابي، الموشحات الأندلسية، دار الثقافة، الفتوى والآداب، الكويت، 1998.
82. مُجَّد طمار، تلمسان عبر العصور ودورها في السياسي والحضاري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
83. مُجَّد فاروق النبهان، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، المغرب، 2012.
84. مُجَّد مفلح، أعلام منطقة غليزان، مطبعة دار هومة، ط1، الجزائر، 2006.
85. محمود بوعبيد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط القرن 9هـ-15م، ط2، دار شالة، الجزائر، 2011.
86. مراد وزناحي، مفهوم التاريخ عند سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
87. مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
88. مولود قاسم نايث بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبته العالمية قبل 1830، ج1.
89. ناصر الدين سعيدوني، أبو القاسم سعد الله، كلمة وفاء، البصائر الجديدة، الجزائر.
90. ناصر الدين سعيدوني، الشرق الجزائري، بايلك الشرق أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف، نقد وتر وتبع، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013.
91. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
92. ناصر الدين سعيدوني، من التراث الإسلامي والجغرافي للمغرب الإسلامي، تراجم المؤرخين ورخالة جغرافيين، بيروت، 1999.
93. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000.

94. نجيب أبو ملهم وموسى عبود، سرفانتيس أمير الأدب الإسباني، مطبعة المخزن، تيطوان، المغرب الأقصى، 1947.
95. نصر الدين سعيدوني، النظام المالي الجزائري أواخر العهد العثماني (1732-1830)، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2012.
96. نصر الدين سعيدوني، النظام المالي لإيالة الجزائر أواخر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.
97. نصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
98. نصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001.
99. نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.
100. هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2008.
101. يحيى بوعزيز، تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.

1-4- المقالات والدوريات والمجلات:

1. إبراهيم سعيد، جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقارنة تاريخية)، مجلة الحوار المتوسطي، ع 16/15، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، مارس 2017.
2. أبو العيد دودو، المؤرخون الألمان في الجزائر، مجلة الأصالة، المجلد 05، العدد 15/14، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 2012.
3. أبو القاسم سعد الله، أشعار ومقامات ابن حمادوش الجزائري، مجلة الثقافة، ع 49، 1979.

4. إسماعيل العربي، بجاية من خلال النصوص الغربية، مجلة الأصالة، العدد 13 (عدد خاص)، قسنطينة، 1972.
5. أشرف مجّد السيّد، المراكز الثقافية في دار السلطان أواخر العهد التركي، مجلة أمايا تاك، الصادرة عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، ج7، 2017.
6. أليسون، م مور، تاريخ النظرية التاريخية لتأريخ التاريخ الثقافي، مجلة الفلسفة والطبيعة، العدد 12، ج1، فيفري 2016.
7. بلقاسم عياشي، واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني من خلال كتابات الباحثين الجزائريين، مجلة حوليات، م4، ع7، 2011.
8. بلقاسم قرباش، الأسرى الأوروبيين، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 19، أبريل 2018.
9. بلقاسم قرباش، تاريخ الجزائر العثمانية في الكتابات الإنجليزية، مجلة عصور جديدة، ع 12/11، وهران، الجزائر، 2014/2013.
10. بن عتو بلبروات، نظرات استشرافية لعادات وتقاليد مجتمع الجزائر العثمانية -مدينة الجزائر نموذجاً-، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 02، سيدي بلعباس، 2010.
11. بونقاب مختار، انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري (1802-1816)، مجلة المواقف، مج 1، ع 3، جامعة معسكر، 2008.
12. جميلة معاشي، مخطوط عن صالح باي حاكم بايلك قسنطينة (1773-1792)، المجلة التاريخية المغاربية، عدد جويلية، 2010.
13. الجيلالي شقرون، العلاقات بين إيالة الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية خلال العهد العثماني (1776-1830)، مجلة جيل للعلوم الإنسانية، ع 04، وهران، الجزائر، 2018.
14. الحاج صادق، دور ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي بين الجزائر وبلاد المشرق خلال العهد العثماني، مجلة المفكر، الجزء الخامس، العدد الأول، الجزائر، 2021.
15. حنيفة هديلي، المورسكيون الأندلسيون في الجزائر خلال القرنين 16 و17م، منشورات مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014.

16. حنيفي هلايلي، الثورات الشعبية في الجزائر أواخر العهد العثماني كرد فعل على سياسة التهميش، مقال على الإنترنت، جامعة سيدي بلعباس.
17. حنيفي هلايلي، القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرامانات العثمانية (1492-1614) السجل العلمي لأعمال الملتقى الدولي الثاني حول العلاقات الجزائرية التركية، إشراف الدكتور ميسوم بلقاسم، قسم العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، 18-19 فيفري 2019.
18. دري فاطمة، العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي ورحلته القمرية، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 13-14، ديسمبر، 2016.
19. ذهبية بوشية، العلم والعلماء، في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، ع3، 4، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2011-2012.
20. رضوان ضاوي، الجزائر في الرؤى الألمانية، صحيفة الرأي اليوم، ديسمبر 2019، (تاريخ الاطلاع على المقال 2022/02/24 الساعة 13:06)
21. رقاد سعدية، المؤسسات العلمية ببايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1700-1830م)، مجلة عصور الجديدة، مج 8، ع 2، ديسمبر 2018.
22. سارة بوزرزور، الترجمة والمثاقفة، مجلة البدر، المجلد 09، العدد 07، منشورات جامعة بشار، الجزائر، 2007.
23. سلطاني أحمد، الحوانيت والمرافق العامة في مدينة الجزائر العثمانية، مجلة الحوار المتوسطي، ع 7، جامعة جيلالي اليابس، الجزائر.
24. سليم بابا عمر، مخطوط تاريخي لم ينشر، مجلة تاريخ وحضارة.
25. صادق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر ميلادي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد حمدة لخضر، الوادي، الجزائر، ع 10، جانفي 2017.
26. صالح فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، ع 71، الجزائر، ش.و.ن.ت، سبتمبر، أكتوبر، 1982.

27. صليحة بردي، الممارسات التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني، دراسة في الواقع والمعطيات، مجلة الذاكرة، عن مخبر التراث اللغوي والأدبي الشرقي، الجزائر، ع11، جوان 2018.
28. عائشة غطاس، الوافدون البرانية على مدينة الجزائر (1787-1830م) بين التهميش والإدماج، المجلة التاريخية الغربية للدراسات العثمانية، العدد 25، أوت 2002.
29. عبد الجليل التميمي، رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول سنة 1519م، المجلة التاريخية المغربية، العدد 06، تونس، جويلية 1476.
30. عبد الحميد زوزو، حمدان خوجة ومنهجه في كتابه التاريخ، مجلة الأصالة، ع 4، أكتوبر 1971.
31. عبد الرحمان الجيلالي، الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريًا وتاريخيًا، مجلة الأصالة، ع8، سنة 1972.
32. عبد الرزاق عبيد، الألفاظ التركية والفارسية الباقية في عامية الجزائر (مُجد بن أبي شنب (ترجمة)، مجلة اللغة والأدب، الجزء 12، العدد 01، جامعة الجزائر.
33. عبد القادر صحراوي، الورثاني في مقدمة عن رحلته وملاحظات عن فضل علم التاريخ والأخبار، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 9 و10، د.ت، سيدي بلعباس، الجزائر.
34. عبد الكريم المشرفي، نافذة على علماء معسكر، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد 02 و03، (2004-2005).
35. عبد الله حمادي، جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان المصادر، العدد 06، الجزائر، 2002.
36. عبد المجيد مزيان، المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار، مجلة الثقافة، العدد 02، الجزائر، 1986.
37. علي أحقو، شهرزاد شلبي، مؤسسة الخزينة في الجزائر أواخر العهد العثماني ودورها الاقتصادي والعسكري (1798-1830)، مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد 21، ديسمبر 2016.
38. فاتح رجب قداره، رؤية المؤرخ أبو القاسم سعد الله، للحقبة العثمانية في الجزائر (1516-1830)، مجلة الجامعة، ع 18، 2016.

39. فاطمة الزهراء قشي، دوائر المصاهرات في قسنطينة نهاية القرن 18، مجلة إنسانيات، في مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، ع 4، وهران، 1998.
40. فريدة شقرون، قراءات تقييمية لأثر الفن المعماري الأندلسي على الفن المعماري للمغرب الأوسط، مجلة الإمارات للبحوث الأندلسية، عدد 23، 2018.
41. فريدة شقرون، قراءة تقييمية للأثر الفن الأندلسي والمدحي على الفن المعماري للمغرب الأوسط، مجلة الإمارات للبحوث الأندلسية، عدد 23، الجزائر، 2018.
42. فوزي سعد الله، حمامات مدينة الجزائر الأندلسية والعثمانية، جريدة الوطن، عدد 2014.
43. قدّور بوجلال، الدور الثقافي والحضاري لمدرسة مازونة الفقهية خلال العهد العثماني، مقال صادر عن جامعة وهران، د.ت.
44. مُجّد الأرنأؤوط، دور الوقف في نشوء وتطور المدن خلال العصر العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 9-10، تونس، 1994.
45. مُجّد الأمين بلغيث، النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ مُجّد بن عمر العدواني، المجلة التاريخية المغربية، العهد الحديث والمعاصر، العدد 117، 2004.
46. مُجّد أمين القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع 21، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، سبتمبر 2000.
47. مراد لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1518-1830)، مجلة الرواق، ع 3، جوان 2016.
48. المزاري بديرة، حياة اللهو وخدمات الخمارات، المقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن 18، مجلة الحياة الاجتماعية في الولايات العثمانية أثناء العهد العثماني، منشورات رغوان فوكس، عدد 1221.
49. مصطفى العياشي، صورة مغربية للإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي، التمقروني نموذجاً، مجلة الاجتهاد، العدد 44، د.م، 1999.
50. منير الفندي، هابنسترايت وبعثة أمير سكسونيا العلمية بشمال إفريقيا (1732-1733)، المجلة التاريخية المغربية، العدد 35-36، تونس 1984.

51. المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء، في وهران والقبائل الكبرى، مجلة الأصالة، ع13، 1972، مطبعة الشعب، قسنطينة.
52. المهدي البوعبدلي، المراكز الثقافية، خزائن الكتب بالجزائر عبر العصور، مجلة الأصالة، العدد11، الجزائر، 1972.
53. مولاي بلحميسي، المؤرخون الفرنسيون في الجزائر في العهد العثماني، مجلة الأصالة، مج 05، ع 14-15-16، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011.
54. مولاي بلحميسي، قصة مزغران، مجلة الآمال، عدد 68، الجزائر، 1968.
55. مولاي بلحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين، مجلة الدراسات التاريخية، جوان 1988.
56. مولاي بلحميسي، ورقة من خلال النصوص الأجنبية، مجلة الأصالة، الجزائر، 1977.
57. مولاي بلحميسي، جانب من جوانب الصراع الجزائري الأوروبي - الجوسسة الغربية في الجزائر العثمانية، مجلة الباحث، العدد 03، الجزائر، نوفمبر 1985.
58. ميشال آبار، الجزائر في القرن السابع عشر لرحالة اسكتندي، ترجمة حنفي بن عيسى، مجلة الثقافة، ع 3، 1971.
59. ميشال مراد، الرفض العثماني الطويل لفن الطباعة، أسبابه ونتائجه، ثقافات، مقالة إلكترونية claudeabouchakra/16 نوفمبر 2017.
60. ميلود حجاج، محمد بن عثمان محور مدينة وهران، المتحف الوطني زبانة، ع3، وهران.
61. نصر الدين سعيدوني، الوقف ومكائنه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، العدد 89-90، الجزائر، 1981.
62. نصر الدين سعيدوني، صورة من الهجرة الأندلسية على الجزائر، المجلة العربية، العدد 27، المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سبتمبر 1994.
63. نصر الدين سعيدوني، ورقة ومنطقتها في العهد العثماني، مجلة الأصالة، ع 11، منشورات وزارة الشؤون الدينية، تلمسان، 2011.
64. الهادي الوسلاطي، المستشفى الترينيتاري الإسباني ووثيقة أرشيفية عن حملة عثمانية الجزائر سنة 1756 على تونس، المجلة التاريخية المغاربية، ع 22/21، تونس، 1981.

1. بكاري عبد القادر، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1515-1830)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، تاريخ الحديث، 2015-2016.
2. بليل رحمونة، القنصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من (1564-1830)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2010-2011.
3. بن عزوز نبيلة، أندلسيو الجزائر آثارهم وتاريخهم (حاضرة تلمسان أمودجا)، رسالة دكتوراه، قسم اللغة والأدب العربي والحضارة الإسلامية، جامعة تلمسان، 2017-2018.
4. بن معمر بوخضرة، الولي في المخيال الشعبي، الطريقة القادرية في الغرب الجزائري أمودجا، أطروحة دكتوراه في الأنثروبولوجية، جامعة تلمسان، 2011-2012.
5. الجعفري، أطلس العادات والتقاليد بمنطقة، أطروحة دكتوراه في التراث، جامعة تلمسان، 2017-2018.
6. جميلة معاشي، الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011.
7. حفيظة خشمون، مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية بمدينة الجزائر خلال الحقبة العثمانية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، 2006-2007.
8. خالد سراج، المقدس ودلالاته في المجتمع الجزائري، الضريح لمنطقة عين تيموشنت نموذجاً، ماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان.
9. خديجة حالة، الجاليات الأوروبية في الجزائر إبان العهد العثماني (1700-1830)، شهادة ماجستير في التاريخ الاجتماعي، والثقافي المغربي عبر العصور، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2012-2013.
10. خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 2006.
11. خليفة حماش، العلاقة بين إيالة الجزائر والباب العالي 1798-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة الإسكندرية، مصر.

12. دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015/2014.
13. درقاوي منصور، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (10-13هـ/16-19م) بين التأثير والتأثر رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد بن بلة، قسم التاريخ والآثار، 2015.
14. زكرياء العابد، الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوروبية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، 2007.
15. شريفة طيان، ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1991/1990.
16. عائشة حنفي، الحلي الجزائرية بمدينة الجزائر في العهد العثماني في القرنين 18-19م، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008-2009.
17. عائشة غطاس، الحرف والحرفيين بمدينة الجزائر (1700-1830)، دراسة اقتصادية واجتماعية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2000-2001.
18. عبد الحميد قدور، هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط مذكرة ماجستير تخصص التاريخ الإسلامي، معهد الحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1991.
19. عبوا إبراهيم، العلوم النقلية في الجزائر خلال العهد العثماني (10-13م/16-19م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2017/2018.
20. العياشي هواري، المسكن بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التراث، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة 2011.
21. فوزية لزغم، البيوت والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013/2014.

22. قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة مصطفى أسطمبولي، معسكر، 2015-2016.
23. مريم خالدي، أبو القاسم سعد الله حياته وأعماله (1930-2013)، رسالة دكتوراه في تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، إشراف إبراهيم لونيبي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجيلالي الياابس، 2017-2018.
24. نبيلة شلابي، الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني، دراسة مقارنة أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة باتنة، 2020/2021.
25. وداد بيلامي، النفوذ الاقتصادي والسياسي ليهود الجزائر (1516-1830)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تحت إشراف الدكتورة أمحمد عمراوي، قسنطينة، 2004.

1-6- الموسوعات والمعاجم:

1. أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر، 2000.
2. جان فرانسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2، 2011.
3. مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج4، ط2، دار الحكمة، الجزائر، 2007.

2- باللغة الأجنبية:

2-1- المصادر:

1. Anonyme, Description historique et géographique de la ville d'Alger et de ses environs, le normant fils, imprimerie du roi, Paris, 1830, p 08.
2. Dan, Les illustres captifs, histoire générale de la vie des fait et des aventures de pulques personnes notably prises par les infidèles musulmans présenté par de Grammont in RN° 27, 1887.
3. Diégo De Haydo, Rois d'Alger, Traduit par Henri Delmat de Grommant, 1880-1881, Ed Grand Alger, Alger, 2004.
4. F. Pananti, Relation d'un séjour à Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence, les rapports des états barbaresques avec les puissances chrétiens, trad de l'Anglais par Anonyme, imprimerie de la normant, Paris.
5. F. Pananti, Relation d'un séjour à Alger, Trad de l'Anglais par Anonyme, imprimerie de la normant, Paris.
6. Hanauteau et A. Toureaux, La Kabylie et les coutumes Kabyles, Hallamel (A), Paris, 1893.
7. J. Morgant, Histoire des états Barbaresques qui exercent la piraterie contenant l'origine des révolution et l'état présent des royaumes d'Alger de Tunis de tripoli et du Maroc, Traduit de l'Anglais, Tome 02, Paris, MDCCVII.
8. John Foss, A journal of the captivity and suffering of John Foss, New Bury port, 1798.
9. Joseph Morgan, A complot history of the piratical states of berbery, Algiers, Tunis Tripoli and Morocco cordon, R Griffiths, 1750.
10. Joseph Pitts, A faithfull account of the relegion and monners of the mohametons and a pile grimage, to Mecca and descreption of Medino, 1704.
11. L. Rinn, le Roy d'Alger sous le dernier Day, Ed typographie Adolph Jourdan, Paris, 1900.
12. Laugier de Tassy, Histoire de royaume d'Alger 1724, Edition Laysel, Paris, 1992.

13. Le sieur de Rocqueville, relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger, pré de Fatiha Loualich, Ed Bouchene, France, 2018.
14. Marcel Emerit, les aventure de thèdènât, année 1881.
15. Maria Martin, A History of the captivity and sufferings of Mrs. Maria Martin who was six years a slave in Algiers, Philadelphia Rackstraw, 1809.
16. Nicolas de Nicolay, Les quatres premiers Livre des navigation et pérégrination oriental, Lion, France, 1568.
17. P. Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaires des royaumes et des villes d'Alger, Tunis de sale et de Tripoli, 2 ed, Pierre Racolât, Paris, 1649.
18. Plantent E., Correspondance des Beys du Tunis et des consuls de France (1577-1830), Vol 03, Paris, 1893.
19. Rozet et Carette, Algérie états tripolitains, Ed Bouslama, Tunis, 1980.
20. Rozet et Corette, Algérie par M.M Capitaines du René Rozet et Corette, ed Bouslamie, Tunis.
21. Thomas Show, L'Algérie un siècle avant l'occupation Française, Trad par J. Mac Carthy, 2ed, imprimerie de Carthage, Paris.
22. Thomas Show, Voyage dans la régence d'Alger, traduit par J. Mac Carthy, Paris, 1830, traduits de l'Anglais, T1, a la Hate, 1743.
23. Updike Underhill, the Algerine Captive or life and Adventures of Doctor Updike, six years a prisoner among the Algerines, Hartford printed by peter B. Gleason, 1816.
24. Venture De Paradis (J.M), Alger au 18 ème siècle (1788-1790) mémoires, notes et observation d'un diplomate espion présenter par Abderrahmane Rebahi, G.A.L, Alger, 2006.
25. Venture De Paradis (J.M), Tunis et Alger au XIII siècle Mémoires, observation rassembles et présenter par Joseph Guaq, éditions sindibad, Paris, 1983.
26. Venture de Paradis, Grammaire et dictionnaire abrégé de la langue berbère, Revue par A Tombert, publié par la société de géographie, Paris, 1983.
27. Williem Lithgow, the total discourse of the rare adventures and painful peregrinations of long nineteen years travels from Scotland to the most kingdom in Europe, Asia and Africa, London, 1614.

قائمة المصادر والمراجع

1. A.P. De Condole, Notice sur la vie et les travaux de M. Desfontaines, bibliothèque universelle, Paris, 1834.
2. Abbe Poiret, Lettre de Barbarie (1785-1786), pref de Denise Brahimi, éd le Sycomore, Paris, 1980.
3. Abdelhadi Ben Manson, l'Heureux captif d'un protonaire apostolique Jean Batiste Gramay à Alger (1619), Bulletin de la science national des Antiquaines de France, 1997, Ed Boccard, Paris.
4. Abla Gheziel, Captifs et Captivité dans la régence d'Alger (XVII début XIX siècle), Cahier de la méditerranée, 87, 2013.
5. Adrien Berbrugger, Le pignon d'Alger ou les origines du Gouvernement Turk en Algérie collection regarde, 2012.
6. Ali Tablet, William Shaler the language of the barbers, January 2009.
7. Ali Tablit, The image of Algerian in British writings, Arab historical Ottoman studies, N° 28, October 2003, Tunis.
8. Arnaud (MA), Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohamed Bouras Ben Ahmed Ben Abdellah nasr, in RA N° 22, 1878.
9. Auguste Charbonneau, Inscription arabes de la province de Constantine, annuaire archéologique de Constantine, 1856-1857.
10. Berhier (A.A) et Desensserts, (N.L.M), nouvelle bibliothèque d'un homme de gout, T4, Paris, 1808.
11. Blake William, The history of slavery and the slave, trad ohio, Miller, 1890.
12. Bourge Goy et Martin Herve, Les écoles historique, euil, Paris, 1988.
13. Bourouba.R, Constantine, collection art et culture, Alger, 1978. Eugène Vaysset, Histoire de Constantine sous la domination Turque (517-1837), R.N.M.S.A, Constantine, 1867.
14. Braudel (Ferraud), La méditerranée et le monde méditerranéen à la régence de Philippe II, Paris, 1976.
15. Braudel Fernand, La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Arnand Coulin, Paris, 1949.

16. Broughton Elizabeth, Six years residence in Algiers, the monthly review, vol 2, 1839.
17. Busquet Raoul, Les origines du consulat de la nation française à Alger Marseille, 1927.
18. C. PH. Vallière, L'Algérie en 1781 mémoire d'un consul C.PH. Vallière, pré par Lucien Chaillon, imprimerie nouvelle, Toulon, 1974.
19. Cano d'Alonso, La régence d'Alger au 18-ème siècle nouvelle aspect topographique de la ville, manuscrit pré et trad de l'Espagnole par Ismet Terki Hassaine, Dar Al-Quds El Arabi, Algérie, 2010.
20. Ch. Vallière, L'Algérie en 1781, mémoire du consul CH. Vallière, pré par Lucien Chaillou, imprimerie nouvelle, Toulon, France, 1974.
21. Charle Feraud, Le Sahara de Constantine, Alger, 1884.
22. Charles André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe à 1830, 2 ème éd, Suède, 1978, Alger.
23. Chevalier Corine, Les trente premières années de l'état d'Alger (1510-1541), O.P.U, Alger, 1986.
24. Christine Esears, American slaves and African masters Algeria and the western Sahara (1776-1820), United States, palgrave Macmillan, 2012.
25. Claude Antoine Rozet.: (Numa Brroc, Dictionnaire des explorateurs Français du XIX siècle, Tome1, Afrique, CTHS, 1988.
26. Claude Rovelet, Roger Bostide, Dictionnaire biographique des protestants Français de 1787 a nos jour, Tome 1, Edition Max Chaleil, Paris, 2015.
27. Cliford Edmund Bosworth, An intrepid scot William Lithgow of Lamark travels in the Ottoman Lands, North Africa and central Europe 1609-1621, Aldershort, 2006.
28. Colin Heywood, English Merchant, and consul general in Algiers (1676-1712) Robert Colin, Arab historical Ottoman studies, N° 28, October 2003, Tunis.
29. Cornine Chevallier, Les trente premières années de l'état d'Alger 1510-1541, Office des publications universitaire, Alger, 2002.

30. David Brafman, Nicolas de Nicolay, ches worth edition, a bibliographical history VI Laiden, Brill, 2009.
31. David Thomas and Jhon Ches Worth and others, Christian muslim relations Bibliographical, history, Brill, Boston, 2017.
32. Davity (P), Description général de la l'Afrique, Paris, 1660.
33. Deneuveu, les Khouren ordre religieux chez les musulmans de l'Algérie, 3ème Edition, A Jourdan, Alger, 1913.
34. Denise Brahimi, Opinions et regards des européens sur le Maghreb aux XVII siècle, société nationale d'édition et de diffusion, Alger 1978.
35. Dermenghen E., Le culte des saints dans l'islam Maghrebin, Gallinard, 1954.
36. Devoulx (A), Reçue Africaine La marine de la régence d'Alger, Rais, Challamiae Aine édition, 1869.
37. Donté (E), Note sur l'Islam Maghrébine, Ed Ernest, Le roux, Paris .
38. Doumas et Fabes, la grande Kabylie, librairie à L'université royale et France, Alger, 1847.
39. Pyssonel et Desfontaines voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, T1, Librairie de gide, Paris, 1838.
40. E.L. Plaifai, Scarage of christiandom, anaales of British relations with Algiers, Smith eldes, 1840, London.
41. Ea. Duchesne, De la prostitution de la ville d'Alger depuis la conquête, librairie de l'académie, imprime de Médecine, Paris, 1853.
42. Edmond sergent, Le peuplement humain du sahara institut pasteur, Alger, T 31, 1953.
43. Erns peter Ruche, Les Allemands fascinés par l'Algérie de voyage de 18 ème siècle et 19 ème siècle, Majallat El Terikh, Algiers, N°27, 1987.
44. Eugene Vayssette, Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517-1837, Bouchene, Paris.
45. Fatima Zohra Chiali, Oran l'Espagnol a travers de Miguel cervantes, passerelle, Vol 8, N° 1, université Oran 02, 2019.
46. Fayçal Bensaadi, Cerventés captifs à Alger, Syneries, Algérie, N° 01, ed Gerflent, 2007.

47. Fernand Braudel, *La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philip II, les événements de politique et les hommes*, 3ème édition, Arnaud Colin, Paris, 1976.
48. Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II*, 2 vol, Translated sur from the French by Sion Rynolb, 2002.
49. Fisher, Sir Godfrey, *Légende Barbaresque, guerre, commerce et piraterie en Afrique du Nord de 1415-1830*, Traduit par Helbal Farido, O.P.U, Alger, 1991.
50. Foucqueron J., *Essai topographique et médicale sur la régence d'Alger*, Paris, 1833.
51. Genty De Bussy, *De l'établissement de Français dans l'Algérie et des moyens d'en assurer la propriété*, Vol 1, imprimerie du gouvernement d'Alger, 1833, Tableau N° 101.
52. Gerald Maclean, Nabil Matar, *Britain and the Islamic world 1558-1713*, Oxford university press New York.
53. Geraud Roumaré, *Naissance d'une institution royal des consuls de la notion française en le vant et la barbarie au XVI siècle Bulletin de la société d'histoire de France*.
54. Godfrey Ficher, *Légende Barbaresque*, Trad par Farida Hellal, O.P.U, Alger, 2002.
55. Guillame Calafot, *Les interprètes de la diplomatie au méditerranée, traiter a Alger (1670-1680)*, Albin Michel, Paris, 2013.
56. Guy Tubet Delof, *Bibliographie critique du Maghreb dans la littérature Française 1532-1715*, edition SNED, Alger, 1976.
57. H. Kleun, *Feuillets d'El Djazair*, L. Chaix, Alger, 1937.
58. H.D De Gammant, *Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830)*, E. Leroux, Paris, 1887.
59. Henri Klein, *Feuillet et djazair*, Tome 3, edition tell, Alger, 2003.
60. Isabel Grangond, *La ville imprenable, une histoire sociale de Constantine au 18 -ème siècle : ed média plus*, Constantine, 2004.
61. J. Boutin, *Reconnaissance des villes, forts et batterie d'Alger*, pub par G. Esquer, Paris, 1927.
62. J.A. Pysonnel et F. Desfontaines, *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger*, pré, tucette Valensi, éd la découverte, Paris, 1987.

- 63.J.A. Pysonnel, Voyage dans la régence de Tunis et d'Alger, pré par Lucette Valensi, éd la découverte, Paris, 1987.
- 64.J.L Guyon, Histoire chronologique des épidémies d'Afrique du Nord depuis les temps reculer jusqu'à nos jours imprimerie du gouvernements, Alger, 1855.
- 65.Jean Babelon, Cerventes notice sur sa vie et son œuvre maison charavay, Paris, 1947.
- 66.Joao Mascarenhas, Esclave à Alger récit de captivité de Joao Mascarenhas (1621-1626), trad et pré par Poule Teissier, éd Chandigné, Bijon, 1993.
- 67.Jonathan Barrabell, the pergrinations of lugless will deconstructing an early modern travel narrative, thesis presented to the university of Guelph Mester of arts in history antario, Canada, January 2016.
- 68.Joseph Dumant, Histoire de l'esclavage en Afrique pendans trente-quatre ans, rédigée sur ses propre declaration par JS Quensne, 2ed, Piletaine imprimerie librairie, Paris, 1819.
- 69.Kaddour M'HAMSADJI, EL Qaçba , zemân (la Casbah d'Alger, autrefois) Tome 1, office des publications universitaire, Alger 2007.
- 70.Kaddour M'Homsadji, « Sultan Dzair » suivi de chansons des jannissaires turcs d'Alger, fui 18-ème siècle par Jean Deny, office des publications universitaire, Alger, 2005.
- 71.Kamel Filali, Sainteté maraboutique et mysticisme, contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination Ottoman, insaniyat, N° 03, 1997.
- 72.L. Rinn, Marabouts et khouan, Alger, 1880.
- 73.L'Abbé De Marcy, Histoire moderne, Tome 06, nouvelle édition, la veuve des saintes librairies, Paris.
- 74.L'Abbé Edmond lambert, A travers l'Algérie, Histoire mœurs et légendes des arabes, éd René Haton, Paris, 1884.
- 75.L'Abbé Poiret, Lettre de Barbarie (1786-1786), Pref de de Denise Brahimi, Edition le Sycomore Pain, 1980.
- 76.Latifa Elhessar, Zechari, Les captifs d'Alger d'après les relations de Emmanuel d'Aranda, Jadis esclave à Alger 17 -ème siècle, Casbah éd, Alger, 2004.
- 77.Le Roy (M), Etat générale et particulier du royaume d'Alger, La haye, Randals, s.d.

78. Lemnouar Merouche, Recherche sur l'Algérie à l'époque Ottoman, Monnaies, prix, et revenus (1520-1830), EDIF, Alger, 2010.
79. Lucien Chaillon, L'Algérie 1781 mémoire de consule Ph Vallière, imprimerie nouvelle, Toulon, 1984.
80. M. Emier, La situation économique de la regence d'Alger, information historique, N° 02, 1952.
81. Mahfoud Kaddache, L'Algérie durant la période Ottoman, O.P.U, Alger, 1992.
82. Marcel Ernest, Description de l'Algérie en 1787, RHM, Tunis, 1975.
83. Marcel, Emeint, Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié de XIX siècle, Annale économique, 1966.
84. Masson P.H, Histoire des établissements et du commerce Français dans l'Afrique du Nord (1560-1793), Paris, 1903.
85. Meouak Mouhamed, Langue, société et histoire 'Alger au XVIII siècle d'après les données de venture de Paradis (1739-1799) au voyage collectif sous la direction de Joceline maison œuvre la rose, institut de la recherche sur le Maghreb contemporain.
86. Merccier, le hobous ou oukaf, Jordan, Alger, 1895.
87. Michaud, Biographie universelle ancienne et moderne, nouvelle éditions, Paris, 1854.
88. Moulay Bel Hamissi, Course et contre course en méditerranée, Cahier de la méditerranée, N° 65, 2002.
89. Moulay Belhamissi, Marine et marins d'Alger (1518-1830), face à l'Europe, vol 03, bibliothèque national, Alger, 1996.
90. Mouley Belhamissi, Alger, l'Europe et la guerre sucrète (1518-1830), pub dahleb, Alger, 1999.
91. Mounir Frendi, Trois voyageurs Allemands en Tunisie au XVIII siècle in R.H.M, N° 35-36, Tunis, 1984.
92. Naval, Document related to the United States was with the Barbary power (1785-1801), Vol United States government, printing office Washington, 1933.
93. Nour Eddine Melki, Marmoul Karvajal et ses sources arabe, 2ème colloque international, sur Ibn Khaldoun de 04 au 12 Juillet, 1986, CNEH, Alger.
94. Oury Goldman, De son pays au monde, expérience et échelles du voyage, le verger II, Paris, 1994.

95. Pasquali Egenéne, Evolution de la rue musulmane d'El-djezair, documents Algériens, série culturelle, N° 75, 1955.
96. R. Bourouiba, Apports de l'Algérie a l'architecture religieuse Arabo islamique, O.P.U, Alger, 1986.
97. R. Bourouiba, L'Art musulman en Algérie, SNED, Alger, 1972.
98. R. Dokali, Les mosquées de la période turque à Alger, SNED, 1974.
99. Renaud (P), Les anciennes impôts de l'Afrique du Nord, ed tablettes straphal, Paris, 1925.
100. Renaudot. M, Tableau du Royaume de la ville 'Alger et des environs, Paris, 1830.
101. Robert Davis, Christian slave Muslim master's white slavery in the Mediterranean, Palgrave Macmillan, 2002.
102. Roberto Narvaez, On the cryptography of James Leander Cathcart (1767-1843), published online, 03 December 2015.
103. Stephen D'Estry, Histoire d'Alger de son territoire et de ses habitants de ses pirateries de son commerce, et de ses guerres de ses mœurs et de ses usages depuis les temps reculé jusqu'à nos jours, 3 ème ed imprimerie librairie, 1846.
104. Thomas Hees, Journal d'un voyage à Alger (1675-1676), trad GH. Bonsquet et GW. Mirandole, in RA, Tome, CI, Alger, 1957.
105. Valetta Neopolitan Captive, Interesting narrative of captivity and suffering Miss Viletta Laranda, wreked near Man on the barbary coast, rescued from barbarian bondage by the commender of detached regiment of the Victorious French Army, Henderson, New York, p 1830.
106. Vanezia Parlera, Un Français parmi les arabes parcourt orientale et de découverte de l'entre chez le chevalier d'Arvieux, Ed V.G.A, 2015.
107. Victor Adville, Notice historique sur Nicolas de Nicolay, sn.sd, Paris, 1865.
108. W. Ester Hazy, Note historique sur le Maghzen d'Oran, Oran, 1849.
109. X. Marmies, Lettres sur l'Algérie, Arthus, éditeur, Paris.
110. Xavier Coppoleni et H. Dépot, Les confrérie religieuses musulmanes, Adolph Jordan, Alger, 1897, p 215.

111. Zakia Zehra, Alger vue par la fille d'un consul Anglais au début de 19ème siècle, « Elisabeth Broughton », Arab historical for Ottoman studies, N° 28, Octobre 2003, Tunis.

1. A.Berbrugger, Un cherif Kabil en 1804, in R.A, vol , Alger, 1858
2. Adrien Delpech, Un Diplôme, in R.A, N° 161, 1883.
3. Alexander Joli, Remarque sur la poésie moderne, chez les nomades Algériens, R.A, N° 348, Alger, 1904.
4. CH. Feraud, Les chérifs kabyles de 1804 et 1809, R.A N° 13, 1869.
5. CH. Feraud, Les cherifs Kabyles de 1804-1809, RA, N° 13, 1860.
6. Charle Fearud, Lettre arabe e l'époque de l'occupation Espagnole en Afrique (16-1574), in R.A, N° 20, 1873.
7. Devoulx (Albert), Recherche sur la coopération de la régence d'Alger, a la guerre d'indépendance, R.A, 1856-1857.
8. Devoulx Albert, La premier révolte des janissaires Alger, R.AF, N°15, 1871.
9. Diego Haedo de, Topographie et histoire générale d'Alger, Trad par Monnereau et A. Berbrugger, R.A, 1871.
- 10.Diego Haedo, de la Captivité à Alger, Traduit par Molimier Violle, in R.A, N° 39, 1895.
- 11.E. Mercier, Ethnographie de l'Afrique septentrionale notes sur l'origine du peuple Berbère in R.A, N°15, Alger, 1871.
- 12.Ernest Mercier, Constantine au XVI siecle, Elévation de la famille El Feggoun, R.A M.S.A, Arnolet, Constantine, 1879.
- 13.Feraud, «zebouchi et Osman bey », in R.A, Vol 16, Alger, 1862.
- 14.Fernand Braudel, Les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577, in R.A, N° 49, 1928.
- 15.Filali Kamel, Les voyageurs religieux dans le regard de Laugier De Tassy, en mission à Alger (1725), Revue Emigotiers et voyages, université mentouri Constantine VI, Avril 2005.
- 16.Haedo Frey Diego, de la captivité à Alger, R.A, N°39, 1895.
- 17.J. Despagnet, L'entrée des Français à Alger par le cheikh Abdelkader, R.A, 3ème et 4ème trimestre, 1930.
- 18.Lotfi ben Rejeb, The general belief of the world Barbary as genre and discourse in Mediterranean history, Review of history, revue européenne d'histoire, Vol 19, N°1, 2012.
- 19.Marcel Boudin, Notes et questions sur sidi Ahmed ben Youcef, R.AF, N°66, A) K Alger, 1925.

20. Maurice Fisenbeth, Les Juifs en Algérie, et n Tunisie à l'époque Ottomane (1516-1830), in R.A, N°96, Alger, 1952.
21. Nabil Matar, Joseph pitts slave in 17th century Algiers and Mecca, Journal of Islamic studies, do 10 june 2012.
22. P. Boyer, Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger, Revue de l'occident musulman et la méditerranée, N° spéciale, 1970.
23. Pierre Boyer, L'administration française et la réglementation du pèlerinage à la Mecque (1830-1894), Revue d'histoire Maghrébin, 1997.
24. Pierre Boyer, Le problem kouloughli dans la régence d'Alger in R.A, N° spéciale, 1970.
25. Vanezia Parlera, Image de soi et de l'autre en artiste a la croisée des regards dans les mémoires de Chevalier d'Arvieux, Article en ligne, Mars 2015.
26. Vaysettes, Histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadje Ahmed, in R.A, Vol 03, Alger, 1858.
27. Williem (A.H), Magazins in cyclopedique ou journal des sciences, des lettres et des arts, T1, imprimerie de delence, Paris, 1805.

2-4- الرسائل والأطروحات:

1. Amer Attia, Venture de Paradis orientaliste et voyageur (1739-1799) thèse de doctorat, faculté de lettre, université de Paris, 1957.
2. Filali Kamel, Sainteté maraboutique et mysticisme (16-17 siècle), Thèse de doctorat, université des Strasbourg (France), 1999.
3. Jone Londers, Katherine Crowford, White slaves in barbery, thesis submitted to the faculty of the graduate school of vander bilt, university for the degree of Master of Arts N.A shville Tennessee, May 2009.
4. N. Weissman, Les janissaires étude de l'organisation militaire des Ottomans, thèse pour le doctorat, présenté à la faculté de lettre, Paris, 1983.
5. Yacine Daddi Addam, L'Abolition de l'esclavage en Algerie 1816-1871, These de Doctorat, York université, Toronto, Canada, Avril 2010.

الفهارس



- الأب دان 53, 80, 163, 179, 183, 239, 246, 248, 276, 283, 294, 296, 386
- الإخوة بربوس ... 60, 89, 121, 130, 133, 138, 387
- التمقروتي 123, 124, 154, 193, 270, 272, 279, 348, 362, 387
- الحسن الوزان 55, 56, 57, 253, 264, 291, 314, 319, 323, 324, 349, 385
- الزياني .. 35, 126, 128, 129, 136, 152, 153, 174, 185, 187, 193, 209, 210, 220, 231, 234, 290, 315, 316, 348, 350, 355, 387
- الشيخ المانجلاني 204
- العنزي 143, 153, 225, 349, 356
- المكناسي 213, 320, 348, 350
- الورثاني...ي, 36, 41, 42, 44, 126, 192, 276, 305, 308, 311, 324, 349, 361
- الونشريسي 240, 347
- باستيد 22
- بايصونال 98, 99, 104, 299, 336, 386
- براوغتون 118, 167, 387
- بلقاسم قرياش... ط, 51, 76, 79, 101, 168, 179, 358, 359
- بناتي 78, 148, 274, 276, 386
- بيار جيرال 91
- توماس شو 49, 100, 101, 112, 181, 305, 386
- توماس هيز 53, 248
- تيدينا ج, ك, 76, 77, 78, 144, 149, 223, 241, 249, 257, 263, 278, 281, 286, 322, 323, 348, 386
- جاك لوغوف 16, 17, 33, 353
- جوزيف بيتس 74, 75, 258, 259, 349, 386
- جون باتيست غراماي 68, 385
- جون تبتون 82
- جون ستيفنسون 253
- جون فوس 72, 73, 233, 277, 385
- إبراهيم باشا 140
- إبراهيم خوجة 265, 314
- ابن الأحرش 153
- ابن الرقيق القيرواني 64
- ابن الشريف الدرقاوي 153
- ابن العنابي 31, 181
- ابن الهطال التلمساني 219
- ابن حمادوش .. 127, 185, 192, 203, 216, 254, 255, 305, 306, 308, 310, 358
- ابن حمدان خوجة 43
- ابن خلدون 19, 24, 36, 234, 349
- ابن زاكور 50, 126, 127, 184, 204, 209, 210, 292, 305, 307
- ابن سحنون الراشدي 219, 309, 323
- ابن عمار 37, 253, 304, 308, 348
- ابن مريم 37, 187
- أبو القاسم سعد الله... ج, د, م, 15, 18, 19, 20, 21, 25, 27, 31, 32, 34, 37, 39, 40, 44, 45, 63, 90, 91, 121, 122, 124, 127, 142, 177, 181, 182, 185, 188, 189, 193, 195, 197, 199, 200, 201, 202, 203, 204, 208, 214, 215, 217, 218, 220, 226, 228, 258, 268, 270, 272, 290, 291, 303, 304, 305, 306, 308, 309, 310, 312, 316, 322, 323, 328, 349, 350, 351, 352, 354, 357, 358, 361, 365, 384
- أبو راس الناصري . 40, 45, 174, 203, 209, 211, 216, 220, 222, 239, 348
- أبي حمو موسى الثاني 290
- إثيوبيا 64
- أحمد القلي 143
- أحمد المقرئ 45, 306, 307, 310
- أحمد بن إدريس البجائي 211
- أرشقون 57

- ,254 ,251 ,247 ,243 ,242 ,213 ,199
 ,351 ,318 ,300 ,297 ,282 ,277 ,268
 387
 شلوصر .. 33, 34, 113, 114, 170, 171, 172,
 180, 232, 233, 234, 237, 238, 243,
 246, 247, 252, 254, 255, 256, 260,
 263, 273, 280, 281, 302, 321, 350,
 387
 صالح ريس 139, 325
 عبد الجليل التميمي 43, 134, 138, 290, 292,
 354, 360
 عبد الرحمان الثعالبي 269, 270, 272, 338
 عبد الرحمان الفحيجي 210
 عبد الرحمان الوغليسي 211
 عبد الكريم الفكون 38, 39, 306, 308, 350
 عبيدي داي 49
 عروج 88, 133, 136, 138, 306, 351, 387
 علي شاش 140
 فاليار 91, 92, 93, 141, 162, 166, 178, 184,
 191, 196, 199, 200, 207, 217, 249,
 261, 266, 283, 295, 298, 386
 فردينالد الكاثوليكي 133
 فيليب الثاني 49, 51, 65, 68
 كاتكارت 52, 53, 107, 108, 179, 191, 196,
 197, 213, 245, 251, 267, 294, 295,
 296, 298, 349, 386
 كوكوفتشوف 48
 لوسيان شايو 91, 92
 لويس الخامس عشر 86, 93
 لويس السادس عشر 94, 104
 مارمول كرنخال 50, 63, 64, 350, 385
 ماريا مارتن 116, 117, 179, 238, 387
 ماسكارينهاس 265, 266
 محمد الشريف 149, 158, 164, 174
 محمد العربي الزبيري 35, 43, 137, 349
 محمد الكبير ..ز, ك, 76, 77, 105, 149, 176, 219,
 323, 309, 228, 225
 محمد بن أبي شنب 28, 41, 360
 جون وولف 62, 63, 101, 104, 110, 131, 155,
 158, 202, 218, 232, 269, 281, 349
 خير الدين 35, 57, 60, 89, 133, 134, 136,
 138, 155, 156, 269, 291, 351, 356,
 387
 دوبارادي ل, 93, 95, 96, 150, 159, 165, 169,
 173, 185, 186, 201, 236, 261, 276,
 284, 287, 296, 297, 299
 دوبور 143
 دوروكفيل 249, 250
 دوطاسي 85, 86, 87, 88, 103, 141, 156,
 165, 166, 169, 179, 181, 183, 196,
 199, 235, 237, 238, 240, 249, 259,
 261, 264, 265, 266, 271, 274, 281,
 286, 297, 299, 302, 386
 دولاكروا 218
 دومون 165
 دوهايديو. ل, 67, 68, 79, 136, 139, 140, 154,
 174, 190, 207, 232, 276, 293, 302,
 385
 ديفونتين 104, 105, 106, 228, 320, 386
 روزيت 120, 121, 169, 170, 184, 195, 196,
 197, 198, 199, 200, 207, 234, 244,
 247, 250, 256, 257, 261, 262, 263,
 273, 283, 285, 287, 294, 296
 ريهبايندر 97, 386
 زفيرة 88
 سينسر ... 32, 33, 35, 63, 79, 82, 136, 138,
 157, 164, 233, 237, 239, 240, 244,
 252, 255, 260, 266, 267, 279, 282,
 284, 315, 349, 351
 سليم الأول 134, 136, 138, 155, 360
 سليمان القانوني 30, 136
 سيدي عقبة 187
 شارل الخامس 61, 63
 شالر. ك, 32, 101, 110, 111, 152, 155, 156,
 157, 158, 160, 161, 162, 166, 167,
 169, 170, 172, 182, 184, 192, 198

فهرس الأعلام

<p>154, 235, 264 نيكولاس دي نيكولاي</p> <p>102, 103, 104, 251, 297, 348, ... هابنسترايت ... 362, 386</p> <p>159, 161, 171, 179, 186, هاينريش فون مالتسان 188, 194, 197, 198, 203, 236, 243, 244, 250, 262, 264, 267, 268, 283, 284, 290, 301, 303, 317, 318</p> <p>110 وليام جال</p>	<p>143 مُجد بن حسان</p> <p>322 مُجد بوشلاغم.</p> <p>309 مُجد ساسي البوني</p> <p>43, 86, 94, 95, 177, 352..... مُجد عثمان باشا</p> <p>112, 249 موريس فاغنر</p> <p>63 موريس كرنخال</p> <p>19, 25, 26, 27, 37, 55, 59, ناصر الدين سعيدوني, 60, 124, 126, 139, 140, 142, 147, 149, 152, 153, 159, 166, 174, 206, 289, 357</p>
--	---

فهرس الأماكن والبلدان:

149, 150, 151, 152, 153, 154, 155, 156, 157, 158, 159, 160, 161, 162, 163, 164, 165, 167, 168, 170, 171, 173, 174, 175, 176, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 184, 185, 186, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 195, 196, 197, 198, 199, 200, 201, 202, 203, 204, 205, 206, 207, 208, 209, 210, 212, 213, 214, 215, 216, 217, 218, 219, 220, 222, 223, 224, 225, 226, 227, 231, 232, 235, 236, 237, 239, 241, 242, 243, 244, 246, 247, 248, 249, 250, 251, 253, 254, 257, 258, 259, 264, 265, 266, 268, 269, 270, 271, 272, 273, 274, 275, 276, 277, 278, 279, 281, 283, 285, 286, 287, 288, 289, 290, 291, 292, 293, 294, 295, 296, 298, 299, 300, 301, 302, 304, 305, 306, 307, 308, 309, 310, 312, 313, 314, 315, 316, 317, 318, 319, 320, 321, 322, 323, 325, 326, 328, 329, 330, 336, 337, 338, 339, 343, 347, 348, 349, 350, 351, 352, 353, 354, 355, 356, 357, 358, 359, 360, 361, 362, 363, 364, 365, 384, 385, 386, 387, 388, 390, 391, 392	إزمير 114, 135, 136, 137 إسبانيا . 29, 49, 57, 65, 66, 69, 76, 78, 79, 93, 113, 131, 132, 133, 277 إسطنبول 27, 43, 123, 320 اسكتلندا 59 آسيا 135, 136 إشبيلية 26, 290, 314 الإسكندرية 74, 258, 269, 364 الأناضول 136, 155 الأندلس..... 24, 25, 26, 131, 133, 136, 147, 159, 162, 193, 195, 242, 290, 291, 309, 311, 315, 354 الأوراس 143, 145 البحر الأبيض المتوسط ... أ, هـ, 27, 28, 48, 51, 54, 60, 73, 81, 88, 89, 90, 106, 110, 114, 140, 167 البرازيل 113, 114 البلدية 24, 159, 289, 291, 362 البنديقية 92, 237, 281, 295 البوسنة 27 الجزائر. أ, ب, ج, د, هـ, و, ز, ح, ط, ي, ك, ل, م, 15, 19, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 57, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 99, 100, 101, 102, 103, 104, 105, 106, 107, 108, 109, 110, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 117, 118, 119, 120, 121, 122, 123, 124, 125, 126, 127, 128, 129, 130, 131, 132, 133, 134, 135, 136, 137, 138, 139, 140, 141, 142, 143, 144, 145, 146, 147, 148,
101, 115 الجزيرة العربية	
55, 62, 122, 195, 275, 360 الحجاز	
178, 205 الخنقة	
161, 209, 255, 325 السودان	
57 السويد	
28, 53, 55, 74, 219, 267, 319, 320, 349, 352, 354, 355 القاهرة	
57, 81, 93, 134, 232 القسطنطينية	

فهرس الأماكن والبلدان

<p>139, 288, 323, 326, 391بلاد الزاب</p> <p>83بلاد الشام</p> <p>192بلاد ميزاب</p> <p>325بني جلاب</p> <p>57, 106, 120بونة</p> <p>126تطوان</p> <p>, 128, 105, 59, 57, 55, 36, 26, 24, 129, 160, 159, 139, 136, 134, 133, 129, 231, 222, 195, 193, 189, 185, 178, 304, 293, 290, 271, 269, 253, 234, 356, 355, 323, 322, 318, 315, 310, 364, 363</p> <p>26, 116, 117, 211, 289.....تنس</p> <p>49, 54, 61, 63, 83, 87, 91, 94, 98, .. تونس</p> <p>99, 102, 103, 104, 105, 108, 123, 128, 133, 134, 154, 170, 172, 187, 198, 210, 225, 228, 290, 319, 336, 348, 353, 354, 355, 356, 360, 361, 362, 363</p> <p>26, 57, 68, 133, 153, 160جيجل</p> <p>70دانكارك</p> <p>26, 132, 136, 169, 289.....دلس</p> <p>, 352, 351, 349, 318, 36, 31, 22, ..دمشق</p> <p>356, 353</p> <p>162, 238, 302سبياو</p> <p>115شتوتغارت</p> <p>24, 159, 289, 290.....شرشال</p> <p>62شيكاجو</p> <p>60, 91, 103, 108طرابلس</p> <p>26, 48, 57, 99, 175, 228, 256.....عنابة</p> <p>55, 63, 132, 133, 289غرناطة</p> <p>55, 126, 128, 153, 213, 348فاس</p> <p>194, 204, 234فجيج</p> <p>, 80, 79, 78, 68, 58, 57, 48, 20, ..فرنسا</p> <p>, 100, 98, 93, 92, 91, 86, 85, 83, 81, 146, 143, 120, 115, 114, 111, 104, 207, 199, 195, 181, 168, 164, 154, 353, 278, 251, 227, 226</p>	<p>32, 54, 120, 144, 290, 293, 294, ... القصبية</p> <p>301, 351, 355</p> <p>68, 169, 170, 272, 279القل</p> <p>24, 120, 159, 289.....القليعة</p> <p>258القنادسة</p> <p>50, 120.....المدية</p> <p>57المسيلة</p> <p>, 48, 39, 34, 31, 27, 25, 24, ..و, و, ي, المغرب</p> <p>, 94, 93, 79, 74, 65, 57, 56, 55, 54, 52, 133, 131, 126, 125, 124, 123, 122, 210, 195, 193, 189, 185, 178, 174, 316, 310, 305, 300, 240, 218, 211, 354, 353, 349, 347, 325, 322, 320, 365, 359, 357, 356, 355</p> <p>31, 39, 55, 65, 94, 122, 123, ..المغرب الأقصى</p> <p>126, 174, 185, 189, 210, 211, 305, 310, 320, 322, 347, 354, 357</p> <p>98, 136.....الهند</p> <p>84, 86.....أمستردام</p> <p>57, 74, 78, 117إنجلترا</p> <p>, 51, 49, 48, 44, 37, 31, 29, 20, ..أ, ه, أوروبا</p> <p>, 70, 69, 68, 62, 60, 59, 57, 56, 54, 52, 107, 100, 97, 93, 92, 88, 78, 77, 72, 180, 160, 136, 115, 113, 112, 109, 296, 278, 228, 218, 217, 214, 182, 328, 318, 309, 301</p> <p>187أولاد جابر</p> <p>143أولاد زهور</p> <p>29, 55, 57, 65, 68, 78, 79, 267, 292, 298, ..إيطاليا</p> <p>63, 79, 80, 98, 104.....باريس</p> <p>34, 41, 42, 57, 59, 63, 68, 132, 133, 143, 187, 210, 290, 314, 318, 358</p> <p>69.....بروكسل</p> <p>48, 78, 100, 101بريطانيا</p> <p>24, 187, 275, 307, 323, 324, 359, ..بسكرة</p> <p>364</p> <p>22, 275, 303, 360.....بشار</p>
---	--

فهرس الأماكن والبلدان

<p>55مراكش</p> <p>76, 93, 102.....مرسيليا</p> <p>57, 136, 256, 323.....مستغانم</p> <p>28, 74, 94, 101, 115, 121, 195, 210, مصر</p> <p style="padding-left: 40px;">258, 269, 305, 349, 353, 364</p> <p>معسكر . ط, 32, 76, 77, 105, 144, 149, 153,</p> <p style="padding-left: 40px;">167, 211, 219, 220, 221, 223, 281,</p> <p style="padding-left: 40px;">288, 322, 323, 359, 361, 365, 391</p> <p>50, 153, 241, 243.....مليانة</p> <p>57ميلة</p> <p>65نانبولى</p> <p>57ندرومة</p> <p>57هنين</p> <p>84, 86, 114.....هولندا</p> <p>ورقلة .., 362, 326, 325, 324, 194, 139, 125,</p> <p style="padding-left: 40px;">363</p> <p>وهران .., 119, 107, 102, 82, 57, 51, 35, 34,</p> <p style="padding-left: 40px;">152, 151, 144, 134, 133, 129, 120,</p> <p style="padding-left: 40px;">219, 215, 211, 205, 187, 180, 153,</p> <p style="padding-left: 40px;">350, 323, 318, 309, 254, 221, 220,</p> <p style="padding-left: 40px;">365, 363, 362, 361, 359</p>	<p>101فلسطين</p> <p>27, 137.....قبرص</p> <p>226, 289, 353قرطبة</p> <p>قسنطينة...ح, 25, 33, 38, 50, 53, 57, 59, 63,</p> <p style="padding-left: 40px;">68, 88, 99, 106, 113, 114, 120, 126,</p> <p style="padding-left: 40px;">129, 137, 143, 145, 147, 149, 153,</p> <p style="padding-left: 40px;">158, 160, 166, 172, 175, 176, 178,</p> <p style="padding-left: 40px;">185, 187, 191, 200, 201, 205, 206,</p> <p style="padding-left: 40px;">209, 212, 224, 225, 226, 227, 228,</p> <p style="padding-left: 40px;">229, 234, 235, 239, 247, 254, 255,</p> <p style="padding-left: 40px;">258, 319, 318, 316, 290, 288, 274,</p> <p style="padding-left: 40px;">351, 350, 349, 348, 347, 325, 321,</p> <p style="padding-left: 40px;">361, 359, 358, 356, 355, 354, 353,</p> <p style="padding-left: 40px;">391, 364, 363, 362</p> <p>27كريت</p> <p>76, 87.....كورسيكا</p> <p>319ليبيا</p> <p>ليفورن 240, 164, 147,</p> <p>ليون 180, 57,</p> <p>مازونة... 361, 322, 215, 206, 205, 194, 189,</p> <p>مالطا 80, 61, 60,</p> <p>متيجة..... 302, 291, 241, 171, 120,</p>
--	--

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير

الإهداء

قائمة المختصرات

مقدمة:.....أ

16..... الفصل التمهيدي: نظرة عامة حول التاريخ الثقافي للجزائر العثمانية

17..... 1- أهمية التاريخ الثقافي على ضوء نظرية التاريخ الجديد:

أ- على ضوء نظرية التاريخ الجديد:..... 17

ب- التاريخ الثقافي عند أبو القاسم سعد الله:..... 19

2- مظاهر التفاعل الثقافي (المثاقفة) (Interculturalism) أو (Acculturation):

..... 23

أ- التفاعل الثقافي الأندلسي:..... 25

ب- التفاعل الثقافي العثماني:..... 28

ج- التفاعل الثقافي الأوروبي:..... 31

3- الذهنيات والحضور الديني في الجزائر العثمانية:..... 34

4- قراءة في بعض المصادر المحلية عن تاريخ الفترة العثمانية:..... 37

أ- من كتب التراجم:..... 40

ب- أدب الرحلة:..... 41

ج- التاريخ العام:..... 44

الفصل الأول: نماذج من الكتابات الأجنبية لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية (10هـ/16م) إلى (13هـ/19م) 48

1- دوافع الرحلات الأجنبية إلى الجزائر: 49

أ- دوافع سياسية: 49

ب- دوافع علمية: 50

ج- دوافع سياحية وثقافية: 51

د- الدوافع الإنسانية والدينية: 52

2- أنواع الكتابات الأجنبية: 54

1-2- الكتابات الغربية: 54

أ- نماذج من كتابات الرحلة الاستكشافية لإيالة الجزائر العثمانية القرن 16م: 54

- رحلة الحسن الوزان **Léon d'Afrique**: 57

- رحلة نيكولاس دو نيكولاي **Nicolas de Nicolay**: 59

- رحلة وليام ليثغو **William Lithgow**: 61

ب- كتابات الأسرى حول الجزائر العثمانية: 62

- مارمول كرنجال **Marmol Karvajal**: 65

- ميغال دي سيرفانتس سافيدرا (**Miguel de cervantes Saavedre**) 68

- دييغو دوهايديو **Diego de Haedo**: 70

- جون باتيست غراماي **Jean Batiste Gramay**: 71

- كتابات إيمانويل دارندا **Emmanuel D'Arande**: 72

- كتابات فرنسوا دو روكفيل **François de Rocquille**: 73

- كتابات جون فوس (**John Foss**): 75

- 77.....: **Joseph Pitts** - كتابات جوزيف بيتس
- 78.....: **(Joseph Dumant)** - جوزيف ديمون
- 80.....: **Thédine** - مذكرات تيدينا
- 81.....: **Filippo Pananti** - بنانتي
- 82.....: - كتابات بعض مفتدى الأسرى
- 83.....: **Père Dan** - الأب دان
- 84.....: - كتابات القناصل والديبلوماسيين
- 86.....: **Chevalier d'Arvieux** - شوفالييه درفيو
- 88.....: **Thomas Hees** - توماس هيبز
- 89.....: **Laugier De Tassy** - لوجي دوطاسي
- 92.....: **Joseph Morgan** - كتاب جوزيف مورغان
- 94.....: **Césaire Philippe Valliere** - سيزار فيليب فاليار
- 97.....: **Venture de Paradis** - فونتور دو بارادي
- 100.....: **J. Rehbinder** - ريهبايندر
- 101.....: **(Les Naturaliste)** - كتابات البعثات العلمية (مدرسة علماء الطبيعة)
- 102.....: **John André Pysonnel** - جون أندري بابصونال
- 104.....: **Thomas Show** - توماس شو
- 106.....: **(J.A. Hebenstreit)** - رحلة الألماني هابنسترايت
- 108.....: **Desfontaines** - ديفونتتين
- 110.....: - كتابات المدرسة الأمريكية حول الجزائر
- 112.....: **James Leandr Cathcart** - جيمس ليندر كاتكارت

- 114..... : **Updike Underhill** - كتابات آبدايك اندرهيل
- 115..... : **William Schaller** - وليام شالر
- 117..... : - المدرسة الألمانية:
- 118..... : **Wendelin Schlosseret** - فندلين شلوسر
- 119..... : **Simon Pfeiffer** - سيمون بفايفر
- 120..... : **Wilhelm Schimper** - فيلهلم شيمبر
- 121..... : - نماذج من كتابات بعض الأسيرات الأوروبيات:
- 121..... : **Maria Martin** - ماريا مارتن
- 123..... : **Broughton** - السيدة براوغتون
- 124..... : **L'Aranda Valetta (1830-1829)** - لارندا فليتا
- 125..... : - كتابات فرنسية مبكرة لأحد ضباط الحملة الفرنسية على الجزائر 1830:
- 126..... : 2-2- المصادر المغربية حول الجزائر:
- 128..... : أ- رحلة أبو الحسن التمقروتي:
- 129..... : ب- رحلة العياشي:
- 131..... : ج- رحلة أحمد بن زاكور الفاسي:
- 134..... : د- رحلة أبو القاسم الزياني:

136..... : الفصل الثاني: لمحة عن الأوضاع العامة في الجزائر خلال الفترة العثمانية.

- 137..... : 1- الأوضاع السياسية الفكرية للجزائر مطلع القرن السادس عشر ميلادي
- 139..... : أ- ظهور الإخوة بربروس (عروج وخير الدين) على مسرح الأحداث:
- 140..... : ب- تجنيد الإنكشارية في الجزائر خلال القرن 16م:

144	2- إعلان الجزائر إيالة عثمانية:
148	أ- طبيعة الحكم السياسي العثماني:
158	ب- رد فعل الجزائريين (حركة التمرد والثورة):
161	3- الأوضاع الاجتماعية:
162	أ- تركيبة المجتمع الجزائري:
181	ب- نظرة حول الوضع الديمغرافي والصحي في الإيالة:
<hr/>	
184	الفصل الثالث: حالة التعليم في الجزائر العثمانية.
<hr/>	
185	1- واقعه:
190	2- المؤسسات التعليمية:
190	أ- المساجد:
194	ب- الزوايا:
198	ج- المدارس:
201	د- المكتبات:
203	3- طرقه ومناهجه:
204	أ- مرحلة التعليم الابتدائي:
209	ب- التعليم الثانوي والعالي:
213	4- دور مؤسسة الأوقاف في تمويل التعليم:
216	5- نماذج من كبار المدرسين (المعلمين):
221	6- أشهر العلوم المدرسة:
227	7- نماذج من جهود العثمانيين في الحركة التعليمية (جهود رسمية):

- 227 أ- جهود الباى محمد الكبير ببائلك الغرب:
- 229 1- الاهتمام بالعلماء:
- 230 2- بناء المدرسة المحمديّة (1160هـ / 1747م):
- 231 ب- جهود صالح باى فى دفع الحركة التعليميّة:
- 234 1- تشييد المدرسة الكتانية:
-
- 238 الفصل الرابع: عادات وتقاليذ المجتمع الجزائري
-
- 239 1- اللباس:
- 241 أ- لباس الرجل:
- 243 ب- لباس المرأة:
- 247 ج- لباس اليهود:
- 249 2- الأكل:
- 249 أ- أنماط غذاء المجتمع الجزائري:
- 250 ب- أنواع المأكولات وطرق إعدادها:
- 254 ج- عادة شرب القهوة:
- 256 3- الطقوس والاحتفالات:
- 256 أ- الاحتفالات الدينية:
- 261 ب- الاحتفالات الشعبية:
- 270 4- ممارسات يومية:
- 270 أ- أداء الصلاة:
- 272 ب- ارتياد الحمامات:

276	ج- زيارة الأضرحة والاعتقاد في الأولياء:
282	5- من عادات الجزائريين:
282	أ- الكرم وحسن الضيافة:
284	ب- التسامح الديني وآداب المعاملة:
287	ج- عادات أخرى:
290	6- ممارسة بعض الطقوس الدخيلة على الإسلام:
290	أ- ممارسة طقوس السحر والشعوذة:
293	ب- ظاهرة البغاء عند المرأة:
<hr/>	
297	الفصل الخامس: بعض المظاهر الثقافية في الجزائر العثمانية (العمران والفنون)
<hr/>	
298	I- العمران:
298	1- التأثير العمراني الأندلسي:
301	2- التأثير العمراني العثماني:
302	3- جانب من المظاهر العمرانية:
302	أ- المدينة (مدينة الجزائر أنموذجا):
310	ب- الجانب العمراني في الريف:
315	II- الفنون:
315	1- الموروث الأدبي:
316	أ- النثر الأدبي:
318	ب- الشعر:
325	2- الموسيقى:

329	3- نماذج من الحواضر الثقافية في الجزائر العثمانية:
330	أ- مدينة قسنطينة:
334	ب- مدينة معسكر:
335	ج- بلاد الزاب:
340	الخاتمة:
343	الملاحق
358	قائمة المصادر والمراجع
392	الفهارس

الملخص:

تعالج هذه الدراسة موضوع الحياة الثقافية في الجزائر من خلال الكتابات الأجنبية "الفترة العثمانية" (القرنين 10-13هـ/16م-19م)

يكتسي الموضوع بهذا الطرح أهمية كبيرة لأن دراسة عينات من المصادر الأجنبية، يمكننا من بناء تصور هام وعميق عن أحداث وتفاصيل عرفتها إيالة الجزائر خلال الفترة العثمانية، حيث ساهم توافد عدد كبير من الأجانب إلى مدينة الجزائر في إنتاج كم هائل من الكتابات التاريخية لا سيما حول الحياة الثقافية الخاصة بهذا المجتمع طرق وأساليب وأنماط معيشته وحياته اليومية بصورة عامة، وقد تنوعت تصورات هؤلاء الكتاب للمجتمع الجزائري بتنوع توجهاتهم وميولهم فنجد من بنوها كتب لرحالة، أسرى، تقارير القناصل كتابات رجال الدين والذين قدموا مادة تاريخية غزيرة ومتنوعة تحمل تفاصيل دقيقة عن الإيالة عامة.

وعلى ضوء كل ذلك تطرقنا في هذا الموضوع إلى بعض المظاهر الثقافية التي ورد الحديث عنها في هذه المصادر، حيث تناولنا نبذة تاريخية عن الدخول العثماني للجزائر وأهم مكونات وفئات المجتمع الجزائري وطبيعة السياسة التي طبقها العثمانيون في الجزائر وفق ما وصفه الأجانب الذين استقروا بها، أما بالنسبة لأبرز المظاهر الثقافية فقد تطرقنا إلى التعليم كأساس لثقافة المجتمع عادات وتقاليد المجتمع الجزائري في الحواضر (المدن) والأرياف، وبعض المظاهر الفنية والعمرانية، التي وردت بالوصف في هذه الكتابات، ودور بعض الحواضر الثقافية التي برز دورها خلال هذه الفترة.

وخلصنا في النهاية إلى مجموعة من النتائج أهمها أن هذه المصادر تعتبر قيمة مضافة لتاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة العثمانية، إلا أن ما قدمته يجب أن يعامل بكثير من الحذر والتدقيق التاريخي لأنها في النهاية تبقى وجهة نظر أجنبية خضعت دون شك إلى أهواء وميولات أصحابها، لذلك يبقى البحث والتقصي والتحليل والمقارنة حول هذا الموضوع مفتوحا لأعمال أكاديمية أخرى.

الكلمات المفتاحية: الحياة الثقافية، الكتابات الأجنبية، السلطة العثمانية، العادات والتقاليد،

الجزائري.

المجتمع

Abstract

Abstract :

This study addresses the topic of cultural life in Algeria through foreign writings of the “Ottoman period” (10-13 AH/16-19 AD centuries).

The topic with this presentation is of great importance because studying samples of foreign sources enables us to build an important and profound perception of the events and details that Ayala knew in Algeria during the Ottoman period, as the influx of many foreigners to the city of Algiers contributed to the production of a huge number of historical writings, especially about life. The cultural ways, methods, and patterns of its living and daily life in general are specific to this society. These writers’ perceptions of Algerian society varied according to the diversity of their orientations and inclinations. Among them we find books by travelers, prisoners, consuls’ reports, and the writings of clerics, who provided abundant and diverse historical material that contains precise details about the country in general.

Considering all of this, we discussed in this topic some of the cultural aspects that were mentioned in these sources, where we dealt with a historical overview of the Ottoman entry into Algeria, the most important components and groups of Algerian society, and the nature of the policy that the Ottomans implemented in Algeria according to what was described by the foreigners who settled there. As for the most prominent cultural manifestations, we touched on education as a basis for societal culture, the customs, and traditions of Algerian society in the metropolises (cities) and the countryside, some of the artistic and urban manifestations, which were described in these writings, and the role of some cultural metropolises whose role emerged during this period.

In the end, we concluded with a set of results, the most important of which is that these sources are considered an added value to the cultural history of Algeria during the Ottoman period. However, what they presented must be treated with great caution and historical scrutiny because in the end they remain a foreign point of view that was undoubtedly subject to the whims and inclinations of their owners, so it remains Research, investigation, analysis, and comparison on this topic is open to other academic works.

Keywords: cultural life, foreign writings, Ottoman authority, customs and traditions, Algerian society.

Résumé

Résumé :

Cette étude aborde le thème de la vie culturelle en Algérie à travers les écrits étrangers de la « période ottomane » (10-13 AH/16-19 siècles après JC).

Le sujet de cette présentation est d'une grande importance car l'étude d'échantillons de sources étrangères nous permet de construire une perception importante et profonde des événements et des détails qu'Ayala a connus en Algérie pendant la période ottomane, comme l'afflux d'un grand nombre d'étrangers vers le pays. La ville d'Alger a contribué à la production d'une énorme quantité d'écrits historiques, notamment sur la vie. Les modes de vie, les méthodes et les modèles culturels de sa vie et de la vie quotidienne en général sont spécifiques à cette société. Les perceptions de ces écrivains sur la société algérienne variaient selon à la diversité de leurs orientations et de leurs inclinations, parmi lesquels on trouve des livres de voyageurs, des prisonniers, des rapports de consuls et des écrits de clercs, qui ont fourni un matériel historique abondant et diversifié contenant des détails précis sur le pays en général.

À la lumière de tout cela, nous avons abordé dans ce thème certains des aspects culturels mentionnés dans ces sources, où nous avons traité d'un aperçu historique de l'entrée ottomane en Algérie, des composantes et des groupes les plus importants de la société algérienne et de la nature de la politique que les Ottomans ont mise en œuvre en Algérie selon ce qui a été décrit par les étrangers qui s'y sont installés. Quant aux manifestations culturelles les plus marquantes, nous avons abordé l'éducation comme base de la culture sociétale, les coutumes et traditions de la société algérienne en les métropoles (villes) et les campagnes, certaines des manifestations artistiques et urbaines décrites dans ces écrits et le rôle de certaines métropoles culturelles dont le rôle a émergé au cours de cette période.

Pour finir, nous avons conclu par un ensemble de résultats dont le plus important est que ces sources sont considérées comme une valeur ajoutée à l'histoire culturelle de l'Algérie à l'époque ottomane, mais ce qu'elles présentent doit être traité avec une grande prudence et une grande prudence historique. Examen minutieux car en fin de compte, ils restent un point de vue étranger qui était sans aucun doute soumis aux caprices et aux inclinations de leurs propriétaires, il reste donc que la recherche, l'investigation, l'analyse et la comparaison sur ce sujet sont ouvertes à d'autres travaux académiques.

Mots-clés : vie culturelle, écrits étrangers, autorité ottomane, coutumes et traditions, société algérienne.